

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - أبريل ١٩٦٩

المجلد الثاني



مطبعة دار الكتب
١٩٧١

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - أبريل ١٩٦٩

الجزء الثاني



مطبعة دار الكتب
١٩٧١

أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي

د. سعد ماهر

أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي

د. سعد ماهر

قام الفن التشكيلي في العصر الإسلامي على أسس من فنون البلاد التي خضعت للدولة الإسلامية المترامية الأطراف التي امتدت من المحيط الهندي شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا . فقد جمع الفن الإسلامي عناصره من تلك الفنون جميعها واستبعد منها ما ينهى عنه الدين أو ما لا يوافق مزاجه العربي ، ثم مزج الباقي في بوتقة وأخرج منها فنا متجانسا متسقا . وقد استغرقت هذه العملية من جمع واستبعاد ومزج ثلاثة قرون تقريبا أصبح للفن الإسلامي بعدها مميزاته الخاصة التي لا تخطئها العين :

وهكذا نستطيع القول إن الفن الإسلامي أخذ قوامه الروحي من شبه الجزيرة العربية أما قوامه المادي فقد تم صوغه في أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة .

هذا هو شأن الفن الإسلامي في إجماله ، أما عن تفصيله فما لاشك فيه أنه كان لكل من أقاليم الدولة الإسلامية مميزات محلية خاصة ، وإن لم تختلف في الجوهر والإطار العام . أما عن جوهر الفنون الإسلامية فهو الخط العربي الذي انفرد الفن الإسلامي دون غيره من فنون العالم القديم والحديث باستعماله بل هو أهم عناصره ، إذ كانت الدولة تحم وجوده على بعض المواد

كالطراز على اعتبار أنه شارة من شارات الخلافة. أما الإطار العام فهو حصر الزخارف التي اقتصرت على العناصر النباتية والهندسية تقريبا في أشرطة عرضية حتى توأم الأشرطة الكتابية التي يستحيل وضعها في شريط رأسي .

وإذا أردنا أن نتحرى الدقة فيجب أن نضيف أن الفن الإسلامي كان عليه مسحة بزنطية واضحة عندما كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية أما في العصر العباسي فقد تأثر بالفن الساساني عندما انتقل مركز الخلافة إلى العراق موطن الفرس القدماء ٥

ولما كانت مصر ولاية إسلامية تتبع دمشق في العصر الأموي وتخضع للخليفة في بغداد في العصر العباسي فقد كان من الطبيعي أن تسير فنونها في فلك فنون عاصمة الخلافة وتنهج نهجها ، واستمرت الحال على ذلك حتى منتصف القرن الرابع الهجري عندما استطاعت الدولة الفاطمية أن تقضي على نفوذ الدولة العباسية في مصر وتؤسس دولة مستقلة : وهكذا دخلت مصر مرحلة جديدة من مراحل حياتها في العصر الإسلامي ، فقد كان تكوين خلافة منافسة للخلافة العباسية في بغداد نقطة تحول في تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وكان لكل عامل من هذه العوامل الثلاثة أثره المباشر أو غير المباشر على فنون مصر عامة والتشكيلية بصفة خاصة .

والعامل السياسي من غير شك أكثرها تأثيرا في حياة الشعوب وتاريخ الدول ، إلا أن تأثير السياسة وفعاليتها لا تأخذ شكلا ظاهرا أو مباشرا في التأثير على الفنون ، بل تنعكس عليها بطريق غير مباشر عن طريق القوانين والأحكام التي تصدرها الدولة أو نظم الحكم ومذهبها الديني الذي تدين به . فالدولة الفاطمية مثلا كانت تدين بالمذهب الشيعي ، بينما خلفاء الدولة العباسية سنيو المذهب ، ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد كانت مصر ،

بطبيعة الحال ، فى عهد العباسيين تدين بالمذهب السنى : ومن غير المعقول أن يسمح الخليفة الفاطمى لشعبه أن يدين بمذهب آخر غير مذهبه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كيف يطمئن إلى شعب سبق أن أعطى عهدا وذمة إلى خليفة يدين هذا الشعب بمذهبه : لذلك رأى خلفاء الدولة الفاطمية بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أنه ليس من الحكمة أوسداد الرأى الاعتماد على مسلمى مصر ، بل الأسلم هو التعاون مع أهل الذمة من المصريين وخاصة الأقباط ، ومن ثم فقد اتخذوا منهم الوزراء وكبار رجال الدولة ، كما أسندوا إليهم شؤون البلاد الإدارية والمالية . فقد أسند المعز لدين الله الفاطمى إلى يعقوب بن كاس ، اليهودى الأصل ، بعض دواوين دولته ، فتحيز إلى طائفته الدينية ، وأخذ يعقوب يرتقى فى مناصب الدولة حتى أصبح وزيرا للعزیز بن المعز : كذلك اتسم عهد العزيز بالله بالتسامح مع الأقباط خاصة بعد أن تزوج من مسيحية كان لها أكبر الأثر فى انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين وإعادة بناء بعض الكنائس . ورغبة فى تقوية الروابط الروحية والمشاركة الوجدانية بين خلفاء الفاطميين وبين الأقباط جعل الاحتفال بأعياد المسيحيين ومواسمهم الدينية احتفالات رسمية . ولم يقتصر الأمر على مصر فحسب بل شمل كذلك باقى أجزاء الدولة الفاطمية فقد عين العزيز بالله منشأ بن إبراهيم الفرار اليهودى واليا على بلاد الشام . أما مصر فقد تولى شؤون الدواوين والكتابة فيها عيسى بن نسطورس القبطى . كان فى اتباع هذه السياسة حيال أقباط مصر إيذانا ، بطريق غير مباشر ، باحياء عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم :

ولو أضفنا إلى هذا أن الفن القبطى لم يكن قد اختفى أو قضى عليه بدخول العرب مصر بل ظل هو الأساس الذى قام عليه الفن الإسلامى فى مصر ، وذلك جريا على السياسة الحميدة التى اتخذها العرب لإزاء البلاد التى فتحوها ،

فقد تركوا لأهلها حرية ممارسة فنونهم وصناعاتهم وإدارة أعمالهم وزراعتهم على أن يكون للفتح العربي مجرد الإشراف وإدارة شئون الدولة العليا وقبادة الحيوش .

ومن الأحداث السياسية التي كان لها شأن يذكر في تاريخ الفن القبطي بطريق غير مباشر ، اشتراك عرب مصر في النزاع الذي قام به الأميين والمساؤون في العصر العباسي ، فقد تحزبوا للأميين ضد المساؤون ، فلما انتصر المساؤون ، وتولى الخلافة حضر بنفسه إلى مصر وقضى على الثائرين عليه ، وتأديباً لغيرهم قطع عنهم الأرزاق من ديوان العطاء فأصبحوا بدون عائل أو مورد رزق ، فاضطروا إلى النزول إلى ميدان الأعمال من زراعة وفلاحة وصناعة ، ومن هنا اندمج العرب بأهل مصر وتصاهروا معهم وتكاملوا بتقاليدهم وعاداتهم وفنونهم بطبيعة الحال .

ويعتبر النسيج في مصر من أحسن الأمثلة التي تثبت إحياء الفن القبطي ، سواء أكان ذلك من حيث الأسلوب الصناعي أو الأنوال التي تصنع عابوا ، أو من حيث المواد الخام ، وهي الكتان غالباً في شمال الدلتا وبزخرفه الحرير أو الكتان الملون ، والصوف في صعيد مصر . بل هناك ما هو أكثر من ذلك ، فقد ظل العرب حتى القرن الخامس والسادس الهجري يطلقون على نسيج مصر اسم « القباطي » فقد جاء في المقرئى وأبي المحاسن ، « أن الخليفة الحاكم بأمر الله كسى الكعبة في السنة العاشرة من حكمه بالقباطي » أما من حيث الزخرفة فقد وجد في مصر أسلوبان من الزخارف ، أحدهما يعتبر استثماراً للزخارف القبطية وذلك في منتجات المناطق المنعزلة في الصحارى والصعيد وكماها من الصوف تقريباً . أما الأسلوب الثاني فيشبه أسلوب الخلافة الحاكمة ، أي الأسلوب الأموي في عصر الدولة الأموية ، والعباسي في عهد الخلافة

العباسية ، وهو عبارة عن زخارف نباتية وهندسية قريبة من الطبيعة بغض
الشيء في العصر الأموي ومحورة ورمزية في العباسي . وكان يلزم الأساوين
شريط من الكتابة العربية وهو الطراز ، على اعتبار أنه شارة من شارات
الخلافة .

أما في العصر الفاطمي فكان هناك أسلوب زخرفي واحد ، وإن اختلف
أسلوب الأداء . فإنتاج مصانع الطراز التي تشرف عليها الدولة كان أساويها
الزخرفي بطبيعة الحال أكثر دقة وإتقانا ، كما كانت المواد الخام ممتازة ، مما
أدى بدوره إلى إنتاج زخارف منسقة ومنظمة (شكل ١ ، ٢ ، ٣) وأسلوبها
الزخرفي قبلي .

أما إنتاج المصانع الأهلية في الصعيد فلم يتغير بطبيعة الحال ، إذ إنه
استمرار للأسلوب الزخرفي القبلي ، وكانت أهم مراكز إنتاجه الفيوم
والبهنسا وقيس وأخميم وأسيوط . وقد اشتهر نوع منها « أطباق عايبه علماء
الآثار طراز الفيوم » وذلك لوجود شريط من الكتابة على قطعة مماثلة جاء فيه
« مما صنع في طراز مطهور كورة الفيوم » شكل (٤ ، ٥) .

وقد ظل إنتاج الطراز في مصر حتى نهاية العصر الفاطمي يتبع الأساوب
القبلي من حيث الزخرفة والأداء وإن اختلفت المواد الخام ، فقد بدأ استعمال
الحرير على نطاق واسع حتى أصبح النسيج الخشن وسداته من الحرير الخالص
المتعدد الألوان . أما العناصر الزخرفية التي استعملت في نسيج العصر الفاطمي
فكان معظمها رسوم حيوانية و آدمية و نباتية وكلها محورة ورمزية ، متبعة
في ذلك الأسلوب القبلي ومحصورة دائما في جامات ومعينات أو أى شكل
هندسي آخر . وكما استعمل الفنان القبلي الألوان الكثيرة البراقة ليعطي ردىء
رسموه كذلك استعمل الفنان الفاطمي نفس تلك الألوان لا ليعطي ردىء

الزخرفة ولكن ليظهر براعته الفائقة في قدرته على استعمال هذا الحشد المتضارب من الألوان في انسجام واتساق تام لا تملئه النفس بل وتعشقه العين .

وبرغم أن مصر قد عرفت صناعة الخزيف منذ أقدم العصور إلا أن هذه الصناعة لم تصل من التقدم الفني ما وصلت إليه بلاد ما بين النهرين ، ولذلك فقد ظلت صناعة الخزف صناعة شعبية لم يقبل عابها عليه القوم ، واستمرت صناعة الخزيف في مصر حتى أوائل العصر الإسلامي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي صناعة ثانوية حتى اكتشف خزافو الدولة العباسية نوعا جديدا من الطلاء عرف باسم البريق المعدني الذي أقبل على اقتنائه المسلمون واستعاضوا به عن معدني الذهب والفضة اللذين حث فقهاء الشريعة الإسلامية على عدم استعمالهما لما فيهما من مظاهر الترف الذي ينهى عنه الدين الإسلامي الحنيف . وقد انتشر الخزف ذو البريق المعدني في جميع ولايات الدولة الإسلامية ، وتشابهت زخارفه ، حتى أصبح من العسير ، في كثير من الأحيان ، تمييز مكان إنتاجه وذلك في القرن الثالث ، وأوائل الرابع الهجري فلما استقلت مصر وقامت بها الخلافة الفاطمية ، ولم تعد تستمد سلطتها المادية ولا الروحية من الخلافة العباسية في بغداد ، حدثت تغييرات جوهرية في نظم حكمها وشؤونها الإدارية والمالية ، مما كان له تأثير مباشر وفعال على حياتها الاجتماعية وفنونها الزخرفية .

فقد بدأ يظهر على الخزف ذي البريق المعدني في مصر الرسوم الآدمية ذات المسحة المسيحية التي تمتاز بالعيون اللوزية المتسعة والأنف العريض ، شكل (٦ ، ٧ ، ٨) . بل لقد عثرنا على قطع زخرفية عليها رسوم القسيسين والربان و بأيديهم المباخر وحول رؤوسهم هالة التقديس وإحدى أيديهم تشير إلى علامة التثليث ، شكل (٩) . وكذلك وجدت على بعض الأواني الخزفية

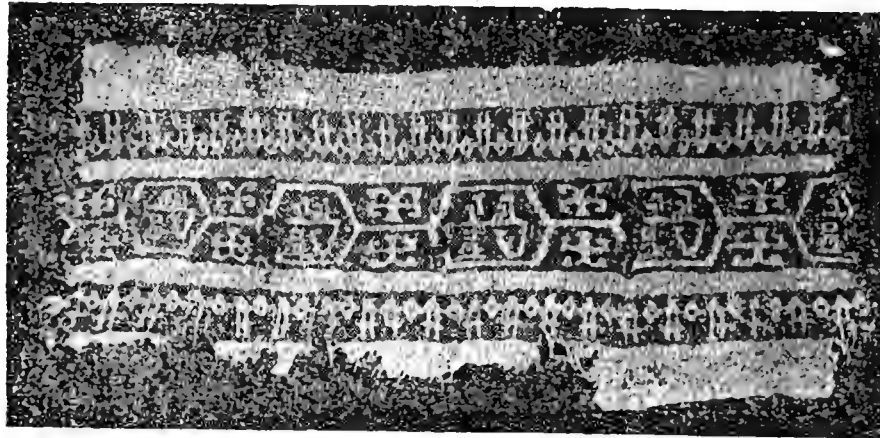
شارات مسيحية مثلثة الصليب والأستماك والحمام التي تمثل مقادس من اسم المسيح باللغة القبطية. وقد أدى ظهور مثل هذه الرسوم وتلك الشارات المسيحية على البريق المعدني المصري إلى اعتقاد بعض علماء الآثار مثل BUTLER أن الحرف ذا البريق المعدني من اختراع أقباط مصر، وقد فاته أن هذه القطع الخزفية من صناعة العصر الفاطمي ، وليست من صناعة العهد القبطي .

ومن الصناعات التي برع فيها الأقباط الحفر على الخشب ، فهناك مجموعة من الأفاريز الخشبية التي ترجع إلى القرن الرابع والخامس الميلادي عليها زخارف بارزة تمثل القصص المسيحية مرسوم بأسلوب قريب من الطبيعة إلى حد كبير شكل (١٠) . ومجموعة أخرى ترجع إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، تكاد تقتصر زخارفها على رسوم هندسية بحتة ، ولما دخل العرب مصر أقبلوا على استخدام الزخارف الهندسية والنباتية دون غيرها من العناصر الأخرى في الحفر على الخشب ، أي بنفس الأسلوب الذي كان سائدا في العصر القبطي مع إضافة شريط من الكتابة العربية يكاد يكون دائما آيات قرآنية مثل آية الكرسي أو سورة التوحيد . شكل (١١) . وفي القرن الثالث الهجري ، أي العصر العباسي ، حدث انقلاب في تاريخ الزخارف الإسلامية إذ اقتضت الزخرفة على كافة المواد وخاصة الجص والخشب على الزخارف النباتية المحورة والمحصورة في الأشكال الهندسية وهي التي أطلق عليها الأوروبيون كلمة (أرابيسك) شكل (١٢) ، وقد ظل أسلوب الزخارف النباتية المحورة مستعملا في الحفر على الخشب في مصر في القرن الثالث والرابع الهجري . أما في العصر الفاطمي فقد بدأت الرسوم الآدمية والحيوانية تظهر في الحفر على الخشب ، بل ولقد وجدت أفاريز خشبية يبلغ طولها مئات الأمتار كانت تزين الحوائط الداخلية للقصور الفاطمية ، تحتوي على مناظر تصويرية تمثل الحياة الاجتماعية

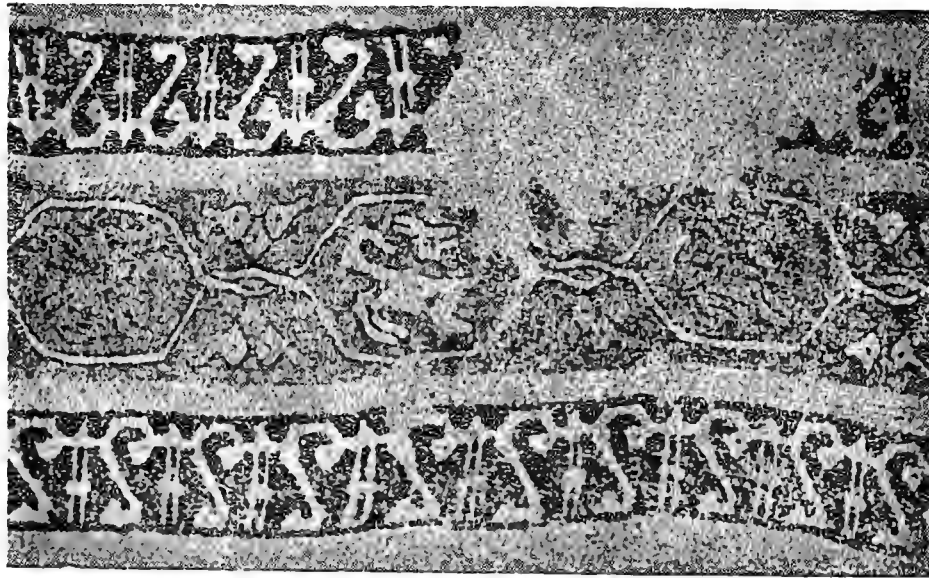
في ذلك العهد أصدق تمثيل شكل (١٣، ١٤، ١٥) : وتشبه هذه الأفاريز إلى حد كبير الأفاريز الخشبية التي ترجع إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين كما تشبه كذلك الحفر على الحجر في العصر القبطي ، سواء من حيث الأسلوب الزخرفي ، أو من حيث حصر الموضوعات الزخرفية في جامات نجمية ، أو في وحدات مستطيلة أو أشكال هندسية أخرى . شكل (١٦) .

على أن هذه الرسوم الآدمية التي ظهرت طفرة واحدة في أخشاب العصر الفاطمي اختفت تماما في نهاية العصر الفاطمي وحلت محلها الزخارف الهندسية مرة ثانية حتى أصبحت هي الطابع المميز للزخارف الخشبية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي. والعثماني الذي عرف باسم الحشوات المجمعة على شكل الطباق النجمي .

١. ولم يقتصر هذا الأسلوب الزخرفي المكون من العناصر الآدمية والحيوانية والمتأثرة إلى حد كبير بالأسلوب القبطي من حيث العناصر والموضوعات الزخرفية ، أو من حيث الأسلوب التطبيقي - على الخشب فحسب ، بل وجد كذلك على العاج والحجر والرخام والرسوم الحائطية المائية (الفرسكو) . وهكذا نرى أن العصر الفاطمي كان عصر أحياء للفن القبطي ، أي الفن الوطني الذي ظهر أثره واضحا على معظم المنتجات الفنية تقريبا .



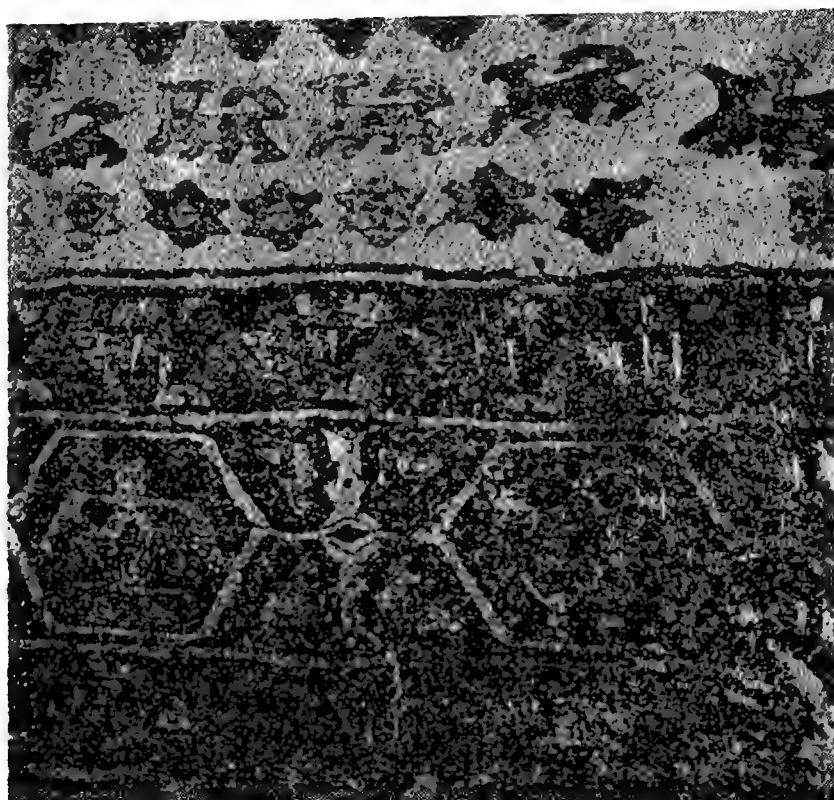
شكل (١) قطعة من نسيج القباطى (Tapestry) من صناعة مصر فى العصر الفاطمى عليها
زخارف حيوانية محورة بالاسلوب القبطى محصورة داخل أشكال هندسية ، كما تحتوى
على أشرطة كتابية عبارة كلمة « الله » مكررة



شكل (٢) قطعة من نسيج المصر الفاطمى عليها زخارف حيوانية محصورة فى جامات متأثرة فى ذلك
بالاسلوب القبطى . كما يحيط بالشرائط الزخرفى شريطان من الكتابة «أى الطراز » وترجع
القطعة إلى القرن (١٠ ، ١١)



شكل (٣) قطعة نسيج فاطمي متعددة الاشرطة الزخرفية وبداخل الاشرطة عناصر حيوانية مرسومة بالاسلوب القبطي . والزخارف متعددة الالوان وترجع القطعة إلى القرن ١٠ هـ ١١ هـ .



شكل (٤) قطعة من طراز الفيوم التي تعتبر استمرارا للطراز القبطي وترجع إلى أوئل العصر الفاطمي .



شكل (٥) قطعة من طراز الفيوم جمعت بين الزخارف النباتية المحورة باساوب « ميمارا » الثالث على
الحص وتبين الاساوب القبطى بعناصره الحيوانية الرمزية. وهى ترجع إلى أوائل العصر الفاطمى .



شكل (٦) قطعة من النسيج القبطى من القرن « ٤ » الميلادى تبين الوجه القبطى ذا العيون اللوزية الواسعة



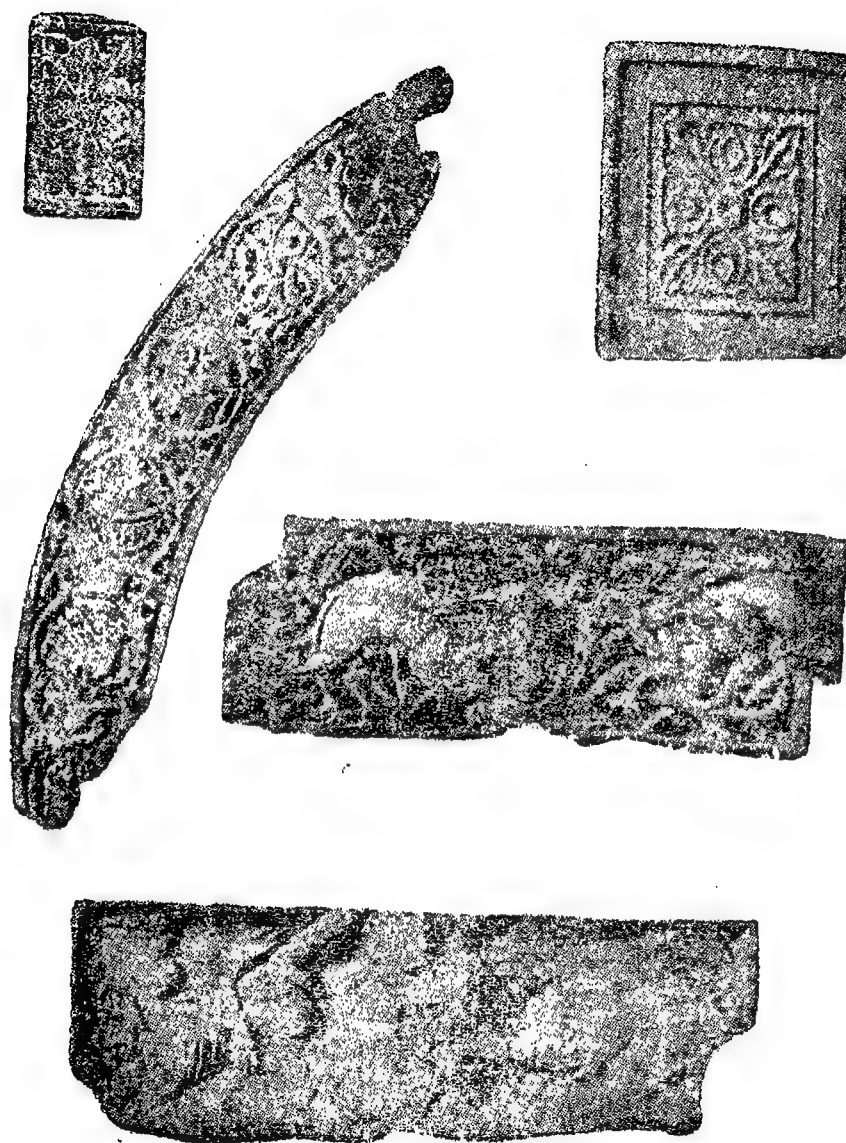
شكل (٧ و ٨) طبقان من الخزف ذو
البريق المعدنى عليهما رسوم آدمية قبطية الملامح
والملابس من انتاج العصر الفاطمى فى القرن
(٥) . ٨



شكل (٨)



شكل (٩) قطعة من الخزف ذي البريق المعدني عليها رسم قسيس وحول رأسه هالة التقديس بداخلها شكل الصليب ، كما يشير القسيس بيده إلى علامة التثليث . والقطعة من العصر الفاطمي في القرن (٥) هـ .



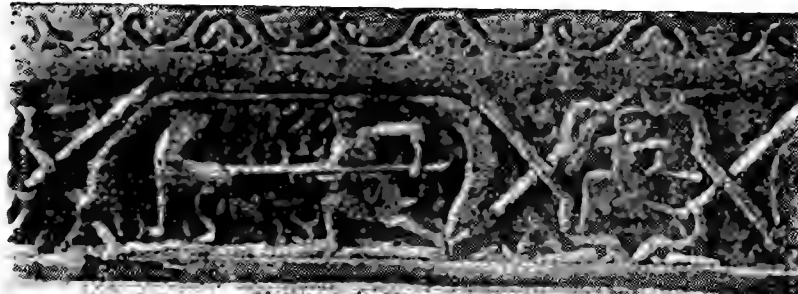
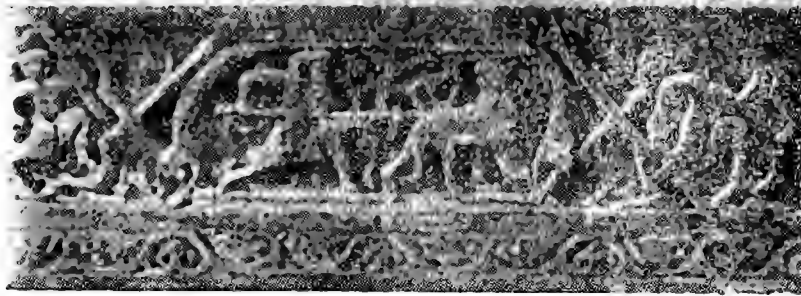
شكل (١٠) خشوات خشبية محفور عليها زخارف متعددة آدمية وحيوانية ونباتية قريبة من الطبيعة إلى حد كبير . والحفر غائر ومجسم وترجع الخشوات جميعها إلى العصر القبطي في القرن (٤ ، ٥) الميلادي .



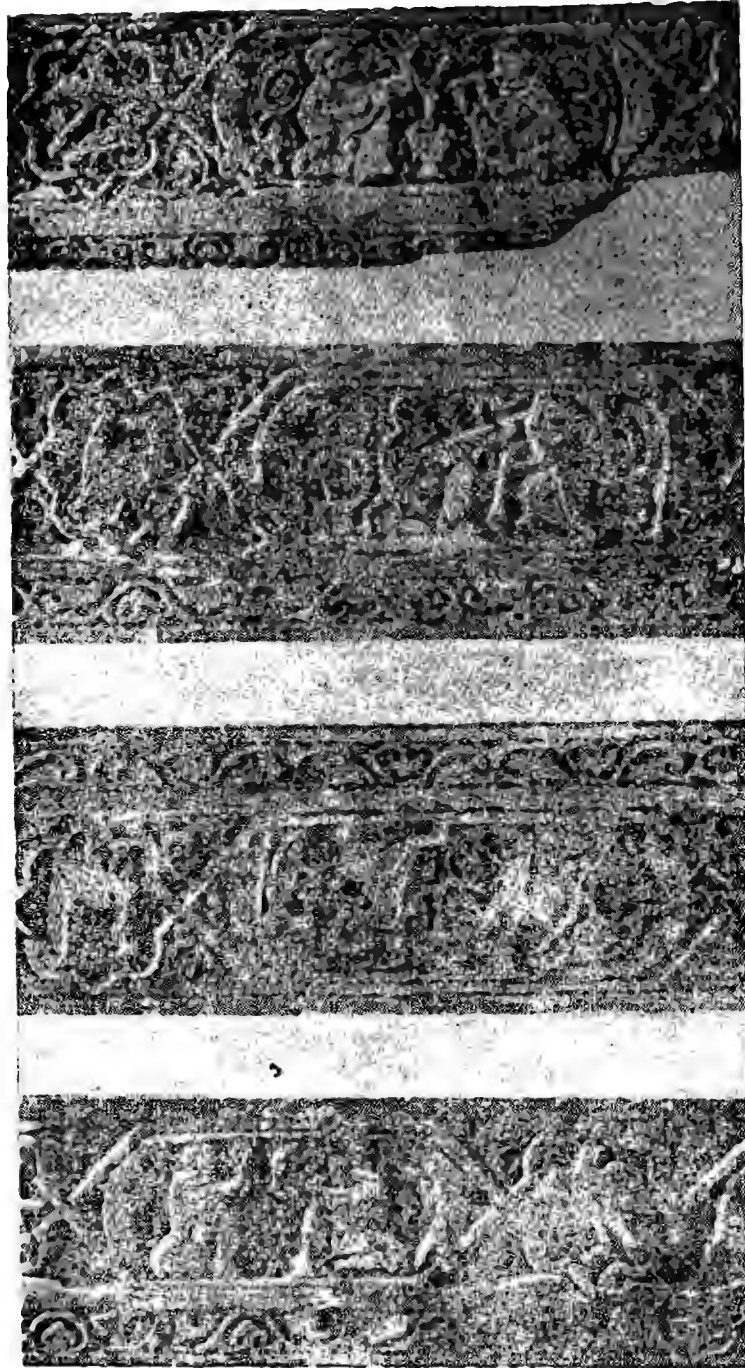
شكل (١١) حشوة خشبية محفور عليها زخارف هندسية بحتة من صناعة مصر في القرن الثاني الهجرى . ويعلو الحشوة كتابة عربية « الله » .



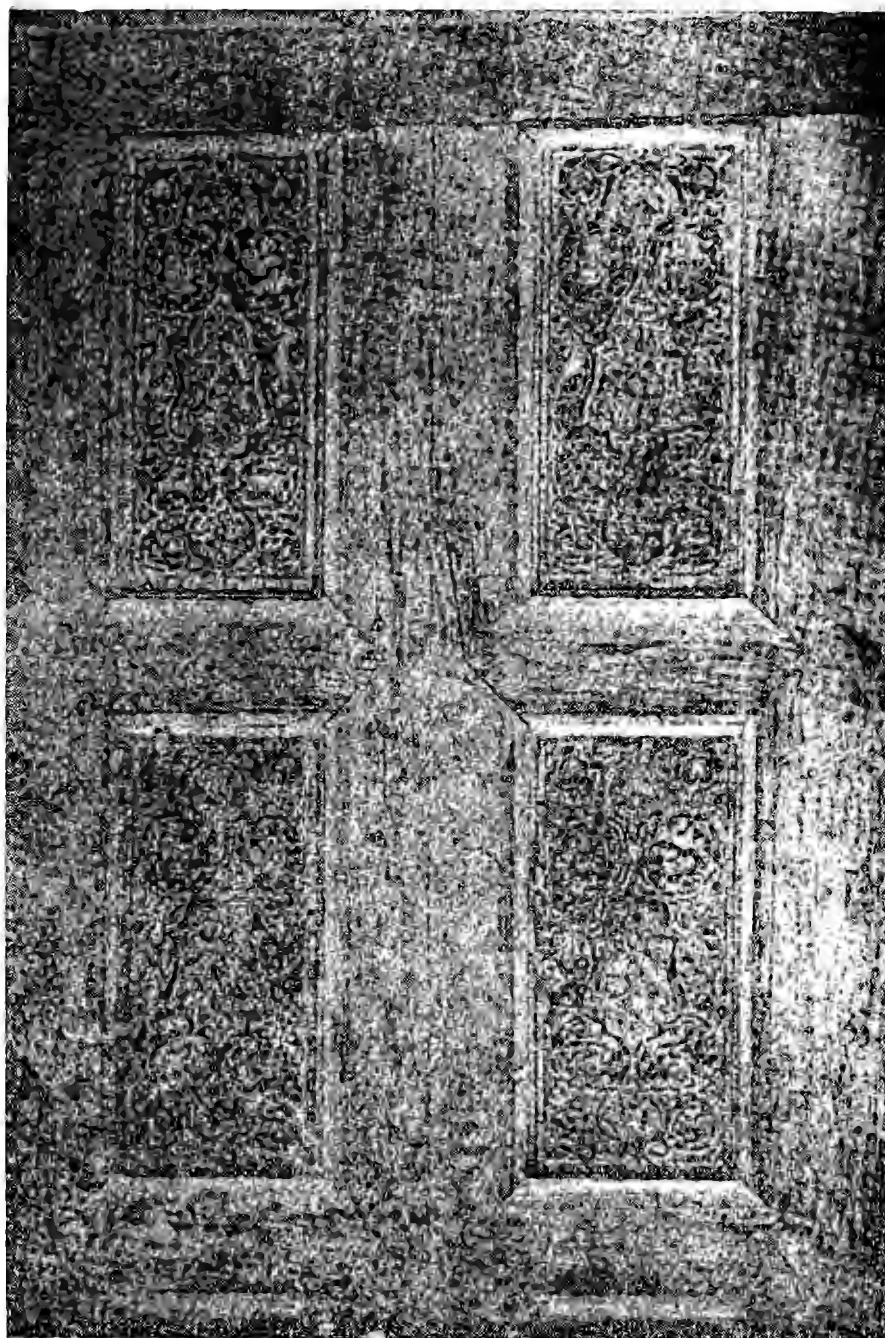
شكل (١٢) حشوات خشبية محفورة عليها زخارف نباتية محورة تشبه أسلوب ميمارا
على الجص من صناعة مصر في القرن « ٨٣ » .



شكل (١٣) حشوات خشبية من العصر الفاطمي (القرن ٩ - ١٠) عليها زخارف آدمية وحيوانية متأثرة بالاسلوب القبطي إلى حد كبير .



شكل (١٤) حشوات خشبية من العصر الفاطمي (القرن ١٠) عليها
زخارف آدمية وحيوانية متأثرة بالأسلوب القبطي إلى حد كبير .



شكل (١٥) باب من قصور الفاطميين يحمل نقوشات بها زخارف محفورة مكونة من مناطق
تصويرية بها رسوم آدمية وحيوانية .



شكل (١٦) قطع حجرية محفور عليها رسوم آدمية وحيوانية وهى ترجع إلى العصر القبطى
وفى اعتقادى أنها الأصل الذى نهج على منواله الحفر على الخشب والحجر فى العصر الفاطمى .

بعض إيصالات من التجار وأرباب الحرف
في القرنين السابع عشر والثامن عشر

سعد الخادم

ملخص

بعض إيصالات من التجار وأرباب الحرف في القرنين السابع عشر والثامن عشر

سعد الخادم

ملخص

أقدم اليوم في هذا البحث المقتضب خمسة مخطوطات في هيئة صحائف من الورق منفصلة ، مستخرجة من مجموعة المرحوم الدكتور « بوى هوير » الذى عاش في الإسكندرية أكثر من نصف قرن ، وكان يمتلك مجموعة كبيرة من الآثار ، وعددا كبيرا من المخطوطات عثر عليها في مواقع تاريخية مختلفة منها مخطوطات وجدت بموقع القسطنطينية وتختلف في القدم ، ويرجع أقدمها إلى القرن العاشر وما قبله .

وقد اخترت من ضمن ١٠,٠٠٠ ورقة - عبارة عن أجزاء من خطابات خاصة وتعاويذ سحرية ، وعقود بيع بين تجار ، وأحكام قضائية ، وغيرها. خمسة مخطوطات اعتبرها مستندات يجدر تقديمها للقراء .

الورقة الأولى بحجم ١٠ سم × ٧,٥ سم هي إيصال صادر من تاجر أفشة يدعى الخواجا شمس الدين الفارسكور ، دون فيه :
« لدي وصل من الخواجا شمس الدين الفارسكور :

- ٥٥٦ -

« يوم الخميس ثامن عشرين شهر ربيع الآخر ثوب بعلبكى عاتبي ،
وسوسى خمسين ، ضهر محرر نصف ، ومنديل شغل القاعة ، ومنديان كتابي
وبجنتى مرمر وشعر برسم شلابين ، عشر أدرع برسم جاريه جلده » .
والخطوط الثانى يحتوى على أبيات من الشعر أو الأغاني الشعبية ، الأسطر
الأولى ناقصة والورقة ممزقة فى بعض أجزاءها ، وبعض عباراتها لا تقرأ ،
ونص الأسطر الأولى كالآتى :

« إن كنت بتحبى تشتري لى بدله » .

المقطع الثانى بجرى هكذا :

« سنى عالمه ، قولى على مطلوبك وان كان (هنا نص ممزق) ، وأن
يكون ديباج والاتولى والاخفيف ، أو تطلي مقطع يكون دابولى والاخرب
أو تطلي أطلس يكون أفرنجى ، اطلبى منى وقولى لى اقطع لى بدله .
والمقطع الثالث نصه كالآتى :

« انكنت يابعدى كلامك صحيح ، جبلى ديباج ، وقفطان أطلس ،
واطلب كان جوزين أساور ذهب وجوز خلخال .

ويقول المقطع الرابع :

« ساهل قوى يا حب مجايب المطلوب ، بكرا أجيب كل ما تعوزى ،
وانزل إلى خان الخليل بدرى أعرف خواجه كنت باخذ عنده (نص ممزق)
اقطع لك بدله طرية ، واحط طيب ومسك ، واجيب لكى الهيف كان ياستى
مهما طلبتبه لاجيبه :

ان حجم هذا المخطوط ٩٠ × ١٥ سم ، والكتابة فيه غير منتظمة ، ولكنها
منسقة ومرتبطة أكثر من كتابة الإيصال الأول ، كما أنها تبدو أقدم منه من واقع
الخط ونوع الورق :

والمخطوط الثالث عبارة عن حكم صادر من محكمة الصالحين بمجم ٢٨ × ١٦ سم والأجزاء المطموسة أو الناقصة لا تسمح لنا بتتبع النص بسهولة ، ولكننا نستطيع مع ذلك فهم مضمونه وهو مذيّل بمصاحلة بين تجار أقشة بخان الخليلي و اتفاق بين دائنين ومدين لتسلم محل كائن بسوق النابلس بخان الخليلي وهو ممزق في بعض أجزائه والتاريخ غير موجود .

وهذه القطع الثلاث التي ترجع إلى عهود مختلفة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بما حوته من مصطلحات لتعيين الأقشة التي كانت تنسج في ذلك الوقت - مثل البجنق المرمر ، ورسومات جارية جليلة ، والدبياج ، والدابولي والأطلس ، والنابلسي - تساعد على تحديد الزمن الذي حررت فيه .

وتحوى هذه المخطوطات أيضا التسميات التي كانت تطلق على تجار- الأقشة والجوخ ، أو أعضاء نقاباتهم وهي « خواجه كى » و « خواجهالار » و « خواجه » :

وكتب « أميشي » Amici في مؤلفه عن مصر القديمة والحديثة الصادر عام ١٨٨٤ أن خان الخليلي كان في ذلك الوقت مركزا لتجارة الأقشة والسجاد الشرقى ، وتكلم اللورد كرومر في تقريره عن مصر عام ١٩٠٤ عن تدهور أسواق القاهرة ، واستبدال منتجات أجنبية ببعض المنتجات المحلية ويبدو مما تقدم أن المخطوطات الثلاثة ترجع إلى ما قبل عام ١٨٨٤ .

وذكر المقريزي في القرن الخامس عشر أسماء الأسواق التي كانت موجودة في القاهرة ، وكان احتكار أصناف مختلفة من الأقشة سائدا في أسواق كثيرة في ذلك العهد ، وعليه فإن تاريخ المخطوطات يبدو لاحقا لعهد المقريزي ، أى ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر في الغالب ، حيث تقلصت أسواق الأقشة في القاهرة تدريجيا حتى انحصرت في خان الخليلي .

وفي القرن الثالث عشر صنف « الأسعد بن مماتي » في كتابه : « قوانين الدواوين » مختلف الموظفين في منشآت النسيج ، وقد أشار على بهجت إلى مؤلف مماتي في دراسته المنشورة عام ١٩٠٤ عن صناعة الأقمشة في مصر ، في القرون الوسطى - فقال : « إن للمنشأة ناظرا » و « متوليا » و « مشارفا » و « شاهدا » عدد ٢ كما أشار أيضا إلى كتاب رحلة ناصر خسرو إلى مصر ، ما بين عامي ١٠٣٥ ، ١٠٤٢ ، فذكر بعض أسماء الأقمشة مثل القصب وبقع الليمون وغيرهما ، مما اختص به مصنع الأقمشة في مصر ، ثم قال : « ينسج في تنيس أقمشة قصب ملونة (من الكتان البالغ النعومة) ، ويستعمل هذا القماش في صنع العباءات والطواق والملابس النسائية ، ولا يصنع في أي مكان آخر مثل هذا القصب المسلون ، والقصب الأبيض يصنع في دمياط ، والقصب الذي ينسج في مصانع السلطان الخليفة لا يباع ولا يوهب ، وقد روى أن سلطان « فرس » أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس لشراء بدله كاملة من القماش المخصص للسلطان ، وقد أقام وكلاؤه بضع سنوات بالمدينة دون أن يتمكنوا من عقد الصفقة ، والصناع الذين يعملون للأمير على درجة عالية من المهارة ، وقيل لي إن أحدهم نسج قطعة قماش معدة لعامة السلطان ، وأعطى له عن هذا العمل خمسمائة دينار ، وقد رأيت العامة ، وكانوا يقدرونها بأربعة آلاف دينار ، ويصنع في تنيس أيضا - وليس في أي مكان آخر - القماش المسمى « بقع الليمون » الذي يتغير لونه مع ساعات النهار ، وهو يصدر إلى بلاد الغرب والشرق » .

ولم تذكر في زمن ابن مماتي والمقريزي عبارات « خواكي » أو « خواجالار » أو « خواجما » في سياق الكلام عن الموظفين المسئولين عن مصانع النسيج ، أو تجار الأقمشة ، ويبدو أن هذه العبارات لاجئة للعهد التركي ، ابتداء من عام ١٥١٧ مما يعطينا فترة ثلاثة قرون لتحديد عهد هذه المخطوطات ، ومنى

وصلنا إلى القرن التاسع عشر نجد أن الرابطات الحرفية والنقابات العمالية كانت قائمة حتى سنة ١٨٨٢ ، وكان يطلق على عميد التجار لقب « شيندر » .

ويشير كتابان فرنسيان - أحدهما صدر عام ١٩١١ للمؤلف «أرمينجان» Arminjan ، والآخر صدر عام ١٩١٢ للمؤلف « مونني » Maunier إلى حل هذه الرابطات الحرفية : والكتاب الأول عنوانه : « الحالة الاقتصادية والمالية في مصر » (باريس - ببتون ، ١٩١١) ، وعنوان الكتاب الثاني « التدريب على الصناعات الصغيرة في مصر » (مجلة مصر المعاصرة - عدد ١١ - ١٩١٢) .

ولا نرى في الكتاب الذي أصدره كلوت بك في باريس عام ١٨٤٠ بعنوان « لمحة عامة عن مصر » ، أى ذكر لعبارات « خواجاكى » أو « خواجالار » ، لاسيما في المقالات التى نشرها الصحفي عبد الله النديم ما بين عامي ١٨٩٢ ، ١٨٩٤ ، ويرثى المؤلف لغزو الأقمشة الأجنبية للأسواق المحلية ، وقد ذكر في أغنية المخطوط الثانى الأطلس الأفرنجى والديباى والدابولى ، ويبدو لنا أن هذا كان فى وقت كانت المنتجات المحلية ما زالت تضارب فيه السلع الأجنبية فى أسواقنا ، لا سيما أن العاشق يقترح فى نشيده أن يشتري لمحبوته أثمن منتجات خان الخليلي ، مما يرجع بنا فى الغالب إلى ما قبل سنة ١٨٨٢ ، بزم طويل ، ومن جهة أخرى فإن أسماء الديباى والدابولى ترددت بكثرة فى المؤلفات العربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واستعمال العبارات التركية مثل « خواجاكى » و « خواجالار » كان شائعا لدرجة أنه كان يدخل فى أصغر الوصفات الشعبية وفى المعاملات بين التجار والصناع ، وكان كل من الرابطات العمالية أو الصناعية أو التجارية فى مصر ، لا تكتفى بمنح كل حرفي فيها لقبا مناسبا لعمله ، بل كانت تستعمل أيضا لغة خاصة بها ، وعبارات فنية سرية لا يفهمها إلا أعضاؤها .

ونشر المؤلف « بوريان » Bourriant في ١٨٩٣ في مقالة عنوانها « أغان شعبية عربية في القاهرة » المصطلحات الفنية التي يستعملها بحارة النيل ، ونشر مؤلف آخر يدعى س : غندور في عام ١٩٢٢ بعض العبارات التي يستعملها الغجر في مصر ، وكانوا يحترفون السمكرة وصناعة الأقفال : ويؤخذ مما تقدم أن تسمية المهنة في رابطات الصناعات أو التجار ، كما ذكر ابن ممان وغيره من الكتاب ، كانت وثيقة الارتباط بمصطلحات فنية يحرص على سريتها أعضاء كل رابطة ، وعلى أية حال فما أثبتته غندور وبوريان في مؤلفيهما كان شائعا في بلاد كثيرة من العالم العربي مثل سوريا والعراق والجزائر وتونس والمغرب :

وقد نشر A.joly دراسات عن هذا الموضوع في ١٩٠٦ في دار المحفوظات المغربية ، فقد استمرت الرابطات الحرفية في بلاد أفريقيا الشمالية مدة طويلة بعد زوالها من مصر ، ويشهد بذلك المقالات التي نشرت المجلات المغربية والجزائرية ما بين عامي ١٩١٢ ، ١٩٤٠ للكتاب L . Brunot, B.S. golin, Golin, A.joly, P.ricard, A.M.jouin, Loichit, David Brunot, L,paye, Le Tourneau كما أن بعضا من المصطلحات الفنية التي ظهرت في مقالات هؤلاء الكتاب ، كانت متداولة في مصر في القرنين الأخيرين ، فنجد أن نفس أسماء الأقمشة الواردة في المخطوطات الثلاثة التي استعرضناها آنفا كانت تستعمل في أفريقيا الشمالية حتى أوائل القرن العشرين ، ولكنها مع الأسف في طريق الزوال :

وإنني أنهي هذا البحث بتعليق على مخطوطين آخرين الأول عبارة عن مذكرة كتبها في الغالب صانع كان يحفر على أواني المطبخ أسماء أصحابها ويدون عليها أحيانا بعض العلامات الشخصية ، وأهمية هذا المخطوط هي في ذكر أسماء آنية المطبخ والسفرة من جففات وأطباق وصوان وأباريق ،

- ٥٦١ -

وأطباق للحساء ، وأصحن ذات أغطية وقدور ... الخ ، كل ذلك في هيئة قائمة جرد قد تكون ذات فائدة في الأبحاث عن النحاس العربي . ويذكر هذا المخطوط أسماء تركية أيضا ، مصحوبة بعبارات عربية مما يحدد تاريخا يقع غالبا ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر :

والمخطوط الأخير الذى نقدمه هو حكم طلاق أصدرته إحدى محاكم القاهرة فى سنة ١١٢٨ هجرية ، وهو خاص بطلاق بنت نحات للحجر ، ويذكر الحرفة التى يزاولها والد الطليقة ، وهى حرفة تختلف على ما يظهر عن حرفة قطاع الحجر أو الحجار ، لا بد أن النحات على الحجر كان يتسبب فى ذلك العهد إلى فئة راقية من الصناع فى شغل الحجارة ، وربما متخصصة فى الأعمال الزخرفية بالنقش البارز على الحجر ، وهذا التخصص الذى يبدو لنا أساسيا بين رابطات الحجارين ، نشاهده أيضا بين رابطات النساجين التى نكلمنا عنها آنفا .

وظلت هذه الرابطات الحرفية قائمة منذ القرون الوسطى حتى ١٨٨٢ فى مصر ، وحتى ١٩٣٠ فى المغرب والجزائر :

نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

نساء القاهرة في عصر المماليك

د. سعيد عبد الفلاح عاشور

جرى العرف على قياس رقى أى مجتمع من المجتمعات ، بمدى تقدير ذلك المجتمع للمرأة ، واستجابته لمنحها حقوقها كاملة ، بوصفها الشريكة الأولى للرجل فى تحمل أعباء الحياة ، والزوجة التى تدبر شئون الخلية الأولى للمجتمع وهى الأسرة ، والأم المسؤولة قبل غيرها عن تنشئة المواطن الصالح ؛ ومع أن الشريعة الإسلامية فرقت بين الرجل والمرأة فى بعض الحقوق — مثل حق الإرث — إلا أنها أعطت المرأة حقها كاملا فى المجتمع الإسلامى ، وحققت لها العدالة فى المعاملة . هذا إلى أن مركز المرأة من الناحية القانونية فى التاريخ الإسلامى كان شينا ، ومركزها العملى فى الحياة كان شينا آخر ، فأسهمت المرأة بدور بارز فى مختلف نواحى النشاط فى الدولة الإسلامية ، وظهر هذا الدور أوضح ما يكون فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك بالذات ، أى فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ؛

ذلك أن المرأة تمتعت فى ذلك العصر بقسط وافر من الاحترام ، سواء كان ذلك داخل طبقة المماليك الحاكمة ، أو عند سائر طبقات الشعب ، فالمماليك نظروا إلى نساءهم نظرة تفيض بالإجلال والتقدير ، وخصصوا لهم

ألقاب التشريف مثل خوند وخاتون ، كما أضيفوا عليهن في مكاتباتهم عبارات الإحترام والتبجيل ، مثلما يبدو بوضوح في مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم^(١) : ولم يضمن سلاطين الممالك على نساءهم بالمسال والمتاع حتى أن أحد المعاصرين يقول إن وصف ملابس ومتاع كل واحدة منهن ، يحتاج إلى عدة مجلدات^(٢) . وحسبنا أن إحدى زوجات السلاطين ، لماحصرت ثروتها بلغت أكثر من ستمائة ألف دينار ، أما ابنة السلطان الناصر محمد ابن قلاوون فقد خلفت ثروة طائلة تحدثت عنها المراجع ، من جملتها قبقاب^(٣) مرصع قيمته أربعون ألف درهم ، أى ألفا دينار مصرية :

وقد اعتاد بعض سلاطين الممالك أن يستصحبوا معهم حريمهم في نزاهاتهم الخلوية ، وعندئذ يخرج حريم السلطان على الخيول في محفات مغطاة بالحرير يحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدام^(٤) ، فإذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحج فإنه يجهزها جهازا عظيما ، فتخرج في برج كبير ، وعلى محفتها العصائب السلطانية ، وتضرب الطبول والكوسات حولها ، ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصناف الكماليات ، في حين يأمر السلطان عددا كبيرا من الأمراء بمصاحبتهما في الطريق^(٥) : وعند عودتها إلى مصر - بعد قضاء شعائر الحج - يخرج السلطان لاستقبالها ، ويحتفل بقدمها احتفالا عظيما ، ويسرع الأمراء بتقديم الهدايا الثمينة إليها . وإذا شمع السلطان بمرض إحدى زوجاته فإنه يعودها مرارا أما إذا وجد حالتها تستدعى « تغيير الجو » فإنه يسمح لها بالنزول إلى بولاق

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٧ ص ١٦٦ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٨٨٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، ج ٩ ص ٧٤ - ٧٥ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢١ .

حتى تتمتع بروية النيل ، وتسترد حالتها الطبيعية^(١) . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالا عظيما ، فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة ، ويجتمع عند بابها أرباب الزمر والطبول والملاهي ، وتعمل في النيل مراى النفط والصواريخ ، ثم تعود خوند إلى بيتها بالقلعة في موكب رائع ، وحوطها المشاعل والشموع والفوانيس ، وخلفها عدد لا يحصى من زوجات الأمراء^(٢) .

ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة في عصر الماليك على نساء السلاطين وأمرائهم ، فهناك من الشواهد ما يثبت احترام عامة الشعب المصرى في ذلك العصر لنسائهم . وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العديدة التي أطلقها الناس على نسائهم وبناتهم ، مثل ست الخلق وست الحكام وست الناس وست القضاة وست الكل :: وذلك من باب « الفخر والتزكية والثناء والتعظيم »^(٣) ، وإذا خرجت إحدى النساء إلى الطريق ، وكان زوجها مقتدرا فإنه يحضر لها حمرا يقوده مكارى ، ويتبعها خادم^(٤) : ورغم قلة الإشارات إلى النساء وندرتها في المراجع المعاصرة ، فإننا نجد كثيرا منها يعبر عن الثناء والتقدير ، فالسحاوى يصف إحدى النساء المعاصرات بأنها « ذات رياسة وقناعة وإتقان »^(٥) والشعراني - وهو من رجال الدين المحافظين - لا يمالك شعوره نحو زوجته ، فيكتب عنها ويثني عليها ثناء فياضا^(٦) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٢٩ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٧ ص ٢٦ .

(٥) السحاوى : الضوء الالاع ، ج ١٢ ص ٤ .

(٦) زكى مبارك : التصوف ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

حقيقة أننا نرى أحيانا في كتب عصر المماليك إشارات إلى تعرض المرأة بين حين وآخر للامتهان وسوء المعاملة ، ولكن هذه الإشارات قليلة ، وهي لا تعبر بأى حال عن الوضع الغالب للمرأة ، فضلا عن ضرورة ملاحظة روح العصر ومستواه الفكرى والحضارى ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثيرون عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصور السابقة بعقلية — ومستويات العصر الذى يعيشون هم فيه. ويكنى عصر سلاطين المماليك فخرا أن بعض القضاة فى القاهرة كان إذا احتكم إليه رجل وامرأته ، فإنه كان لا يجنب عن مناصرة المرأة ما دامت صاحبة حق ، وذلك رغم ما تعرض له ذلك القاضى من أذى على أيدي بعض العامة الذين أدى ضيق أفقهم إلى الرغبة فى عدم إعطاء المرأة حقها المشروع فى الحياة^(١) :

وهكذا نهضت المرأة بنصيب كبير فى الحياة العامة بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك : ورغم القيود الاجتماعية ، التى فرضتها التقاليد على المرأة فى ذلك العصر ، فإن نشاطها ظهر بوضوح ، وفى القاهرة على وجه الخصوص : وحسبنا أن السخاوى فى كتابه «الضوء اللامع» أفرد جزءا كاملا ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة لنساء توفين فى القرن التاسع الهجرى ، ولعظمن نصيب كبير فى الحياة العامة بالقاهرة فى ذلك القرن :

من ذلك ما نسمعه عن بعض السلاطين والأمراء فى عصر المماليك — كالسلطان إينال — أنهم استسلموا لزوجاتهم ، حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير « من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة فى الدولة وطوعية

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٤٢ .

السلطان لأوامرها^(١) : وفي هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير « لا إختيار له معها^(٢) » : وقد قال المؤرخ أبو المحاسن عن خوند زيباب - زوجة السلطان إينال - أنها « صار لها نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة^(٣) » . كذلك وصفها المؤرخ ابن إياس بأنها « صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل^(٤) » : ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء المماليك ، مثل أم السلطان شعبان ، وزوجة السلطان برسباي وغيرهن^(٥) :

وهناك أدلة واقعية كثيرة تشير إلى تدخل نساء سلاطين المماليك وأمرائهم في شئون الحكم ، ومشاركتهم في توجيه سياسة الدولة : وأول هذه الأمثلة شجرة الدر التي استطاعت أن تنقل البلاد وتدير شئونها في فترة عصيبة من أخرج فترات التاريخ المصري ، عندما تعرضت البلاد لحملة لويس التاسع ملك فرنسا ، فضلا عن أنها تولت منصب السلطنة وقضت فيه ثمانين يوما ، برهنت فيها على كياسة عظيمة وذكاء وافر : كذلك حدث سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) عندما نشب خلاف بين الملك السعيد وأمرائه ، أن بعث الملك السعيد أمه لمفاوضة الأمراء في الصلح ، فأظهروا لها كل احترام ، واشترطوا عليها شروطا كثيرة التزمت لهم بها^(٦) : وشهدت القاهرة هذه القصة تتكرر أكثر من مرة في عصر سلاطين المماليك ، عندما تدخلت نساء السلاطين للإصلاح بينهم وبين أمرائهم : ويروى المقرئزي كيف تطرف الولاة سنة ٧٣٧ هـ

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ١٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٩٥ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٥) ابن قاضي شعبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٤ ص ٢١٤ ، المقرئزي :

السلوك ج ٤ ص ٤٧٩ .

(٦) أبو المحاسن النجوم ، ج ٧ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(١٣٣٦ م) فى مصادرة التجار وإنزال المظالم بهم ، فقام كثير من الأمراء ليشفعوا للتجار ، ولكن السلطان لم يسمع لأحدهم قولاً ، حتى إذا تدخلت ست حدق زوج السلطان الناصر محمد فى رفع الظلم عن التجار ، فعندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فوراً^(١) . وكثيراً ما نقرأ فى كتب عصر المماليك أن زوجة أحد السلاطين أو جاريته كانت السبب فى إلغاء مكس أو ضريبة . ومن ذلك ما يرويه ابن حجر من أن طغاي زوج السلطان الناصر محمد كانت السبب فى إلغاء المكس المفروض على القمح^(٢) : وعندما أدرك أهل القاهرة سلطة النساء فى قضاء حوائج الناس ، صاروا يوسطوهن فى هذا الشأن ، فإذا تعذر على فرد قضاء حوائجه عند أهل الدولة ، بحث عن الطريق الذى يوصل شكواه إلى حريم السلطان ، وعندئذ تقضى حاجته فوراً^(٣) . وقد حكى السخاوى عن أحد كبار المعاصرين من رجال العلم والدين أنه توصل إلى منصبه عن طريق زوجته نظراً لصلتها القوية بزوجة السلطان^(٤) .

ولم يقتصر نشاط المرأة فى القاهرة خلال عصر سلاطين المماليك على التدخل فى بعض شئون الدولة ، وإنما شاركت أيضاً مشاركة فعالة فى الحياتين العلمية والدينية . ويسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن فى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك بالنحو كما نظمنا الشعر^(٥) . أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى : ولم يأنف كثير من كبار فقهاء القاهرة فى عصر المماليك من الاعتراف بأنهم سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللاتى أجزن لهم^(٦) .

(١) المقرئى : السلوك ، ٢ ص ٤١٢ .

(٢) ابن حجر : انباء الفرج ١ ص ١٠١ ، الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١٦ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٢٥ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٩٥ .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١١٩ .

ويذكر السخاوى كيف تراحم طلبة العلم في عصره على إحدى المحدثات ، كما يذكر أسماء كثيرات ممن تعلم على أيديهن مثل آمنة ابنة الشمس ، المتوفاة سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٣ م) وأمة الخالق ابنة الزين عبد اللطيف ، المتوفاة سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م) وأم هاني ابنة التقي ، المتوفاة سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م)^(١) . وفي عصر سلاطين المماليك ظهر إقبال عامة النساء بالقاهرة على مجالس العلم والدين ، فحرصت كثيرات منهن على الذهاب إلى المجالس حيث يجلسن في مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية . وقد خص بعض الفقهاء والوعاظ في ذلك العصر النساء دون الرجال بعلمهم بدعوى أن النساء في حاجة إلى عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين ، وما عليهن من واجبات تجاه الزوج والأبناء والحيوان^(٢) .

كذلك سلكت بعض نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك طريق التصوف ، وشاركن مشاركة فعالة في حركة التصوف التي اشتد ساعدها في ذلك العصر بالذات . وبعض النساء لبسن خرقه التصوف كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن اسم الشيوخات . ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التي خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن : ووصف المقرئى هذه الزوايا الخاصة بالنساء بشدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات ، والحرص على مبادئ الأخلاق « حتى أن خادمة الفقيرات كانت لا تتمكن أحدا من استعمال إبريق بربوز ، وتؤدب من خرج على الطريق بما تراه »^(٣) .

(١) المصدر السابق ج ١٢ ، ص ٤ ، ٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) طبقات الشمراني ج ٢ ص ١١١ .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ ص ٨٤١ .

(٥) المقرئى المواظب والاعتبار ، ج ٢ ص ٢٩٤ .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة في عصر المماليك - مثل سانوتو Sanuto والحسن بن الوزان Leo Africanus لاحظوا أن المرأة تتمتع بحرية كبيرة في شوارع القاهرة وأسواقها ومتنزهاتها ، حتى أن بعضهن يتغيبن عن منازلهن في أوقات كثيرة من النهار ، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن^(١) : وقد ذكر الجوبري أن مجالس الخلاء بالقاهرة اكتظت بالنساء إلى جانب الرجال^(٢) : أما ابن الحاج فقال إن نساء القاهرة في عصره كن يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق ، بل الغالب أن المرأة تشتري لزوجها ما يحتاج إليه في لباسه لنفسه^(٣) ، فإذا لم يكن لهن حاجة من السوق فلأنهن يذهبن إلى الحمامات العامة حيث يأمنن ببعض ، أو يذهبن إلى الأعراس التي لا انضباط فيها على القوانين الشرعية^(٤) . وكثيرا ما خرجت نساء القاهرة في ذلك العصر إلى القرافات والبرك وشاطئ النيل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة حيث ينكشف ستر الحياء ، ويختلط النساء بالرجال ، الأمر الذي أثار الفقهاء ورجال الدين ، فنادوا بمنع خروج النساء على ذلك الوجه السافر^(٥) : وجدير بالذكر أن المرأة القاهرية في عصر سلاطين المماليك تفننت في مختلف الوسائل التي تظهر بها جمالها وفتنتها ، فحرصت على العناية بنفسها وجسمها ، فأبت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف ، وشعر حواجبها بالمساواة والزينة : وقد استرعى نظر تافور بالقاهرة ذلك العدد الكبير

(١) Schefer : Le Voyage d'Outremer; P. 33 .

(٢) الجوبري : المختار في كشف الاسرار ، ص ٣٥ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) زكي مبارك : التصوف ، ج ١ ص ٣٤٢ .

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٧ - ٢٣ ،

من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ، ويسبرون في الشوارع صائحين : فلما استفسر عن حقيقة أمرهم قيل له إنهم يقومون بتحفيف النساء اللاتي لا يرغبن في إتمام هذه العملية في الحمامات العامة ^(١) .

أما عن الملابس التي اعتادت المرأة أن ترتديها في شوارع القاهرة فكانت عبارة عن قميص واسع طويل تصل أطرافه إلى الأرض ، له أكمام كبار واسعة ، وفوق ذلك القميص سبله أو إزار يغطي جميع بدنها ويعاو كل ملابسها ^(٢) ، وحرصت النساء عند خروجهن إلى الطريق على إخفاء وجوههن بحجاب أو برقع أسود اللون ، تضعه المرأة بطريقة لا تمكن أحدا من رؤية وجهها ، في حين تمكنها من رؤية كل ما يحيط بها ^(٣) . كذلك حرصت النساء على غطاء الرأس ، واستعملن لذلك الغرض الشاش ، وهي عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها عند ظهرها ، مع زخرفتها بالذهب واللؤلؤ .

ووصف الرحالة الأجانب ملابس النساء في القاهرة على عصر السلاطين المماليك بأنها من الأقمشة الرقيقة الفاخرة ^(٤) . والواقع أن نساء القاهرة في ذلك العصر كثيرا ما بالغن في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الأمر بهن أحيانا أن تفصل الواحدة منهن قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة قميص

(١) Tafur : Travels; P. 101.

(٢) المعنى : عقد الجمان - حوادث سنة ٧٩٣ هـ ، تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٣ هـ .

(٣) Belon : Les Observations de Plusieurs Singularitez et Choses Memorables ... P. 106

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٥) Dopp: Le Caire Vu par les Vayogeurs Occidentaux du Moyen Age, P. 134,

(١) المرأة أكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعاً مربعاً ، تتجاوز قيمتها الألف درهم :
 أما ثمن الخلف الذى كانت ترتديه المرأة القاهرية فى قدميها فكان يتراوح بين
 مائة وخمسين درهماً :^(٢) ويبدو أن هذا الإسراف من جانب النساء دفع أهل
 الدولة إلى التدخل لتحديد ملابسهن ، كما حدث سنة ٧٥١ وسنة ٧٩٣ ،
 وسنة ٨٥٠ وسنة ٨٧٦ هـ (١٣٥٠ ، ١٣٩١ ، ١٤٤٦ ، ١٤٧١ م) : وفى تلك
 الحالات كان المنادون يطوفون بشوارع القاهرة محللين النساء من لبس
 القميص الذى يزيد طوله عن اثني عشر ذراعاً ، وأن لا تكون الأكمام مفرطة
 فى الاتساع :^(٣) وكان رسل المحتسب تطوف بشوارع القاهرة ، فإذا وجدوا
 امرأة خالفت التعليمات السابقة تعرضت للعقوبة الشديدة :^(٤) كذلك نصبت
 أشخاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلق عليها تماثيل على صورة نساء ،
 وعليهن القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن :^(٥)

على أنه يلاحظ أن ملابس نساء القاهرة فى عصر المماليك لم تظل على
 حال واحد من الطول والقصر ، أو الاتساع والضيق ، وإنما تعرضت للتغيير
 والتبديل تبعاً لاختلاف المواضات بين وقت وآخر : فابن الحاج فى القرن
 الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) أخذ على نساء القاهرة « تلك البدعة
 التى أحدثتها فى ثيابهن من جعلها ضيقة وقصيرة » وطالب ابن الحاج معاصريه
 بمنع النساء من تلك الأكمام القصيرة التى أحدثتها^(٦) . ولكن المقرئى فى القرن

(١) العيى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٧٩٣ هـ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) تاريخ ابن الفرات حوادث سنة ٨٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٤٠ .

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عاب على نساء عصره فى القاهرة
إفراطهن فى طول الثياب واتساعها ، والمبالغة فى اتساع الأكمام وطولها ،
حتى أن الواحدة إذا أرخت كمها فإنه يغطى رجلها^(١) :

هذا كله فضلا عما اعتادت نساء القاهرة التزين به من الحلى والجواهر
مثل الخلائيل الذهب والأطواق المرصعة :: حتى القباقيب كانت تصنع من
الذهب وترصع بالجواهر^(٢) :

واهل هذا كله مما دفع أحد علماء القرن العاشر الهجرى (السادس عشر
للميلاد) إلى أن يصف نساء القاهرة بأنهن أرق نساء الدنيا طبعاً ، وأحلاهن
صورة^(٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٨٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حوادث سنة ٧١٠ هـ .

(٣) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٨٠ ب .

المامة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين

سليمان مصطفى زبيس

المامة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقتها مع الخارج في عهد الفاطميين

سليمان مصطفى بيس

ما من شك أن مصر كانت بلادا غزيرة الثروة ، فلعبت بموجب ذلك أدوارا جليلة في السياسة والحضارة ، وأن الآثار الفرعونية الفخمة الموجودة في ربوعها هي دليل ساطع على عظمة المظاهر التي بلغها فيها المجهود البشرى للنهوض بالقيم الإنسانية المبدعة الخلاقة ٥

وقد عاشت مصر في كنف هذا الماضي المجيد عيشة الرغد والسعة إلى أن أسدل الإسلام عليها رايته ، فكانت جوهرة ناصعة في عقد الخلافة ، وغرة باسقة في جبينها ، فكانت قاعدة الفتوح الإسلامية ومنطلق الدين الحنيف ولغة الضاد في انتشارهما نحو المغرب قبل أن تتولى القيروان النهوض بالمشعل والوصول به إلى مدينة بواتيسى الفرنسية عبر الأندلس وجبال البيرني ٥

وبقيت مصر في انتشارها عهدا بعد عهد ، من فسطاط عمرو بن العاص إلى عسكر بنى العباس وإلى قطائع ابن طولون والأخشيد ، المعقل الرئيسى ، والدعامة الممتازة في جهاز الامبراطورية الإسلامية ، السياسى والحربى ، والاقتصادى والثقافى ، إلى أن خرج بها الفاطميون من هذه التبعية الذهبية ، فجعلوا منها مركزا لخلافة فاقت في الأبهة والعظمة والحضارة جميع الخلافات السابقة. وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة وإنما أنشأوا عاصمة لتبعث من

أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الإسلام قوته السائرة إلى الوهن بعد فتور بغداد، وتلاشى نفوذها وضعفها وعجزها عن قود الأمة الإسلامية في سبيل التقدم المطرد الذي عرفته في عصورها الزاهرة ، والذي أوشك تياره على الانقطاع : وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أرادوا بذلك تهيئة مركز وسط بين المغرب والمشرق ، وبين الجنوب والشمال ، وإقامة شرفة على البحر ترصد منها مختلف التيارات السائرة على اليم : فالمظنون أن غايتهم التي ناقوا إليها من احتلال بغداد يوما من الأيام ، وزحزحة الخلافة العباسية من الميدان ، فالمظنون أن الغاية من ذلك لم تكن تفيد القطع بأنهم عكسوا العزم على أن يتخذوها عاصمة ثالثة للخلافة الفاطمية ، فلعلهم كانوا يرمون فقط إلى الاستيلاء على مدينة السلام وما والاها ، ثم العودة إلى الوكر الذي لم يرضوا عنه بديلا ، وهو القاهرة بجوار النيل المنعش ، وحقوله الطيبة الكريمة ، ومنزهاته الفاتنة :

وعلى كل فإن الواقع الذي حدث أن الخلفاء الفاطميين لم يغادروا القاهرة طوال مدة دولتهم ، بالرغم من أنهم امتلكوا جانبا من الأقطار الشرقية ليس بالهين : وهذا ما جعل من القاهرة مركزا سياسيا راسخا القدم ، طويلا النفس في اتجاهاته ، ومعقلا عتيذا لقوة جبارة في عالم ذلك الوقت ، بل فلقد أرسى الفاطميون لهذه المدينة قواعد البقاء والازدهار ، وضمّنوا لها الاستمرار والدوام ، محاطة بالهيبة وحسن الاعتبار . فمنها قام صلاح الدين الأيوبي لحملاته الموفقة على الحركة الاستعمارية الصليبية ، وعن طريقها توزعت خيرات المشرق وذخائره نحو أوروبا والمغرب ، خصوصا في أيام المماليك ، وعن طريقها استمر توزيع هذه النفائس بعدهم ، وذلك قبل فتح ترعة السويس وبعدها : فلا غرابة أن كان لذلك فضل عظيم في ازدهار اقتصادها ازدهارا

خازقا متواصلا ، وإن كانت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعها ، وخصوصا التجارية منها والبحرية كجنوة والبندقية ، ثم هولاندا وإنجلترا وفرنسا ، فكانت محل الاعتبار من طرف هذه الدول ، وكذلك مجلبة للأطماع وهدفا للحملات الاستعمارية المناوئة :

وفى هذه الكلمة المختصرة على أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقاتها الخارجية سوف لا نتعدى الفترة الفاطمية ، لأنها فترة الإنشاء والانبعاث ، وكذلك لاتساع الموضوع وتشعب أبوابه ، ووفرة مادته لو حاولنا تجاوز الفترة المذكورة :

وقد تصفحنا فى المدة الأخيرة كتاب الذخائر والتحف للقاضى الرشيد ابن الزبير فرأينا أن نستهل هذه الكلمة ببعض من الفصول التى أوردتها المؤلف عن تحف وذكائر القاهرة فى عصر الفاطميين: وهى ذخائر تصور لنا مكاسب ملوكها وكبرائها الواسعة وثرواتهم الطائلة ، وروائع كنوزهم ، ونفيس أعلاقهم فى صورة مذهشة :

جاء فى كتاب ابن الزبير أن القائد جوهر « أهدى إلى المعز لدين الله بعدما ملك مصر فى سنة ٣٥٩ هـ ، هدية فيها ٩٩ نجية وإحدى وعشرون قبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ومناطق من الذهب مكللة بالجواهر و ١٢٠ ناقة بالديباج :. والأعنة المحلاة بالفضة و ٥٠٠ حمل عراب ، و ٤٨ دابة ، ٤٧ فرسا عليها أجلة الديباج المنقوش والسروج على جميعها أصناف الحلية من الذهب : ومنها ماهو بالفضة مموه بالذهب ولحمها منها ماهو بالذهب ، ومنها ماهو بالفضة » :

«ولمسا سار العزيز بالله إلى بلبيس متوجها للغزو سنة ٣٨٥ هـ . كان فى جملة ما خرج معه من المسال خمسة آلاف حمل ، على كل حمل صندوقان كبيران

— ٥٨٢ —

مملوءان مالا . وألف وثمانمائة بخنية وبخنى على كل واحد صندوقان ، فى كل صندوق منهما مثل ما فى الصناديق المحمولة على الجبال » •

« وأهدت السيدة الشريفة ست الملوكة أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها فى سنة ٣٨٧ هدايا من حملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهباً ، منها مركب واحد مرصع من حجر البلور ، وعشرون بغلة بسرورها ولحمها ، وخمسون خادما ومائة تحت من أنواع الثياب وفاخرها ، وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه ، وبستان من الفضة ، مزروع من أنواع الشجر » :

« وقد وجد للأستاذ أبى الفتوح برجوان العزيزى حين قتله الحاكم فى سنة ٣٩٠ :

— مائة منديل شروب ملونة مصممة كلها على مائة شاشية :

— آنية الذهب والفضة مالا بحصى كثيرة :

— الخيل الجياد ١٥٠ فرسا :

— البغال المثقلة ٣٠٠ بغل .

— السروج الثقيلة الحللى ١٥٠ سرجا •

— الكتب المصورة وكتب الأغاني الشىء الكثير • •

« ووجد لقائد القواد الحسين بن جوهر حين قتله الحاكم سنة ٣٩٩ ، فى جملة ما وجد :

— ٧٠٠٠ مبطنة حرير :

— ٩ مئارد صينى أسود فنصورى مملوءة حب كافور فنصورى (من

فنصورة وهى بلدة فى جنوب جزيرة جاوة) وزن كل حبة ثلاثة مثاقيل • •

وقد أهدى المعز بن باديس صاحب القيروان هدايا إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في سنة ٤٢٠ ، فأنفذ إليه الظاهر — على حد قول القاضي الرشيد — هدية جليلة المقدار ، فيها من غرائب طرف بلاد الهند والصين وبلاد خراسان من سائر أنواع الطيب والجوهر وغير ذلك ما لا يحصى ، ومن دق تنيس ودمياط وتونة وأعمالها من الملابس والفرش والتعاليق والأعلام والبنود والألوية على القصب الفضة المجراة بالذهب من سائر الصور كل بديعة وغريبة قدرها وتمنع وجود مثلها . ونخل إليه ... القباب والمحامل المعمولة من العاج والأبنوس والصندل المضيب بالذهب والفضة التي عليها أهلة الذهب المجللة بفاخر الأجلة ، ومن الخسرواني الأحمر المذهب والمخمل بالذهب والديبقي المذهب :: ومن الخيل العرب ذوات الأثمان الغالية ، والصفات البديعة شيء كثير على أكثرها سروج الذهب والفضة ، والجوهر والعنبر والكافور :: ومن الدروع والخود والجواشن المذهبة ، والسيوف المجوهرة :: » ،

« وقد وجد للسيدة راشدة بنت المعز لدين الله حين ماتت سنة ٤٤٢ ، ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، وكان في جملة ما وجد في خزائن كسوتها ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع واثنان عشر ألفا من الثياب المصممة ألوانا ومائة قطرميز مملوءة كافورا فنصوريا » :

« وماتت أختها عبدة بنت المعز في هذه السنة (٤٤٢) بعد ثلاثة أيام ، فكان مما وجب أن يختم عليه في خزائنها ومقاصيرها وصناديقها مما حوته من موجودها ذهبا أربعون رطلا من الشمع ، وأن بطائق المتاع الموجود المسجل لها بلغ ٣٠ رزمة من الورق ، ووجد لها :

— ٤٨٤ —

— أربعائة سيف محلى بالذهب :

— ٣٠,٠٠٠ شقة صقلية •

— أما الجواهر فما لا يحصى كثرة :

— والزمرد كيلة إردب واحد •

« ووجد لها طست وإبريق من البللور ، فلما رآهما سيد الوزراء اليازورى فلفرط استحسانه لهما وعظيم قدرهما عنده سأل السلطان فيهما فوهبهما له (واستأثر اليازورى) بمدھن ياقوت أحمر وزنه ٢٧ مثقالا ، أخذه سرا من السلطان » •

« وخلفت السيدة ست مصر بنت الحاكم بأمر الله حين ماتت فى مستهل جمادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ مالا يحصى كثرة : وكان إقطاعها فى كل سنة ينال ٥٠,٠٠٠ دينار ، ووجد لها ٨٠,٠٠٠ جارية ، ونيف وثلاثون زيرا صينيا مملوءة جميعا مسكا مسحوقا ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت قىها ١٠ مثاقيل » •

وأما ما جاء فى أخبار المخرج من خزائن قصر المستنصر بالله فى سنتى ٤٦٠ و ٤٦١ حين تغلب الأتراك على دولته ، واستباحوا ما وجد فى بيت ماله ، واقتسم مقدموهم دور المكس والجبايات ، فحصل لهم من ذلك مال لم يعرف مثله فيما تقدم من الدول منذ ظهر الإسلام إلى وقتنا هذا — عهد القاضى الرشيد بن الزير^(١) — نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسنا وملاحة ، وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن : على أن الذى أخرج يسير من كثير ، وقليل من جليل : « ولقد قيل إنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الأمصار ، وجميع

(١) مات فى النصف الثانى من القرن الخامس ٥٠٥ / الحادى عشر م .

الأقطار ... سوى ما أخذته النار وغرق في البحار ، وامتألت قياسير مصر وأسواقها من الأمتعة المخرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس بما يعجز الواصف عن وصفه . « وقد عدد شيئا منها صاحب كتاب الذخائر والتحف بما يقف الإنسان إزاءها حائرا في أمره ، أ يطلق العنان للإعجاب بهذا الكشف الذي تضمن هذا العدد العديد من أنفس النفائس ، أم يطلقه لمثل هذا القاموس الفني الطريف الغزير الألفاظ ، الوافر المسادة ، كأنه ألف خصيصا لهذه الطرف النادرة الثمينة :

بعد هذه الطرائف حول مكاسب بعض أمراء الدولة الفاطمية ، وكبار رجالاتها يتضح بجلاء أن مثل هذه الثروات ما كان يتيسر جمعها إلا إذا كان اقتصاد البلاد اقتصادا مزدهرا ازدهارا خارقا . نعم إننا لا ننسى أن القائد جوهر ثم الخليفة المعز قد نقل جميع ما أمكن نقله من الذخائر والنفائس والأموال مع صناعاتها التي انكبت الدولة على جمعها في بلاد المغرب طيلة ما يقرب من السبعين سنة ، ولكن البلاد المصرية كانت بها ذخائر الإخشيد وممتلكاته ، وممتلكات أهل بيته وممتلكات رجال دولته وحاشيته . وكل ذلك صار في قبضة الفاطميين ، فدعموا به ثروتهم الطائلة : زد على ذلك ذخائر صقلية ، وقد بقيت هذه الجزيرة تابعة للقاهرة بعد خروج الفاطميين إلى مصر ، وانقطعت عن القيروان فسيقت خيراتها ، منذ حل القائد جوهر بأرض مصر ، مباشرة إلى القاهرة ، بعد أن كانت السفن تسير بها إلى مرسى سوسة ومرسى المهدية منذ عشرات وعشرات من السنين :

ولا ننسى في النهاية أن الوزير يعقوب بن كاس وعساو ج بن الحسين قد وضعوا منذ سنة ٣٦٣ - أي بعد عام من حلول الدولة الفاطمية بالقاهرة - وضعوا نظاما جبائيا مبتكرا ، وفرا به خراج مصر بصورة عظيمة ، وبالجملة فإن النظام الفاطمي قد كان نظاما مركزيا على جبابة ماحة بالغة المصايفية ،

فكانت هناك ضرائب مفروضة على التجارة والصناعة فى مختلف أطوار تنقل البضاعة ، عند دخولها إلى الحدود ، وفى تجوالها داخل البلاد من مكان ورودها إلى غيره من الأماكن ، كل ذلك مع استلزام البقاع المخصصة للبيع والمساخ والمذابح ، وهناك ضرائب على مصانع السفن : يضاف إلى ذلك احتكار بعض المواد للدولة كالشرب ودار الضرب ودار الطراز ودار العيار ودار الأحباس :

فلا غرو والحالة هذه أن تكون مداخل الدولة الفاطمية مداخل عظيمة تفوق بلا شك موارد الدول العربية السابقة فى مصر: إلا أن الفاطميين لم يكونوا من الملوك الذين يقترون فى ميدان الإنفاق ، بل إنهم جعلوا من الرياء والتظاهر وحب البهرج قاعدة من قواعد سوس الدولة ، وكان الخليفة الأمر يطرح الدنانير على الناس من الشباك ، وكان الخلفاء جميعا يكثر من البذل والأعطيات للجواري والمغنين والشعراء ، ولكن بيت المال كان محل نزيف رهيب من جراء الرواتب المالية المبذولة للجيش العرمرم من الموظفين لهم ولأبنائهم ولأزواجهم ولإخوانهم ولأصهارهم ، وذلك بالإضافة إلى الأعطيات القارة والهدايا من أطعمة وألبسة وغير ذلك مما جاء مفصلا فى كتابى صبح الأعشى وخطط المقرئى .

على أن ذلك يشكل معيارا دقيقا لثروة مصر العامة وسعتها ، ومراة للازدهار الاقتصادى الحارق الذى غمر القاهرة منذ تأسيسها :

وإن ازدهار الزراعة بمصر قد ازداد أشواطا على ما كان عليه من قبل مد دخلها الخليفة المعز لدين الله إذ حرص على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت جدياء ، بشبكة ضخمة من الخللجان والأبحر والترع والجسور وتعددت فى أيامه مقاييس النيل لرقابة سيله واتخاذ الاحتياطات المحكمة لتفادى المكروه وانتقائه إزاء النقص المجحف ، أو الارتفاع المخيف ورتبت

الأراضي حسب نوعها لتزرع بمختلف البقول والغلل الصالحة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل متوزعة على كامل العام الشتوية منها والصيفية ، وقد عنى الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرم وتين وتفاح وتوت ولوز وخوخ ومشمش ونخل وموز ، وبالرياحين من ورد ونرجس وياممين وفل وقرنفل ، كل ذلك على نسق ما كانوا يتعاطونه في البلاد التونسية في برج عريف وهبيون بضاحية المهدية ، وبمختلف العينات التي كانت بضواحي القيروان مثل جلولا وسردانيا . والمعروف أن من هذه الأخيرة قد شد منها المعز لدين الله الرجال إلى القاهرة ، ومن جملة أنواع الليمون التي أوجدت في مصر - على حد قول المقرئزي - يسمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلته حموضته ولذته طعمه ، وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوى والليمون السائل .

وكان أحسن التفاح بمصر التفاح المسمى بالشامى ، وكان مضرب المثل في الحسن كما قال السيوطى في « حسن المحاضرة » ، وأما قصب السكر فليس هناك من الإخباريين من ذكره بالنسبة إلى عصر الفاطميين في عهدهم الأول إلا أن الكميات الهائلة من أوراق البردى التي كانت رائجة بمصر قبل ظهور الكاغذ دليل قاطع على وفرة قصب السكر بمصر قبل الفاطميين وبعدهم على أن هذا القصب قد زاد وفرة ورواجا في أيامهم بصورة محسوسة ، حتى قال المؤرخ ناصر خسرو (حوالى عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) في ذلك مايلي : « وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا » :

ومن فلاحه مصر الكيمياوية للتلوين النيلة والقرمس والزعفران ، وهى فلاحه رقيقة تستدعى الخبرة والصبر : هذا ومن المعلوم أن فلاحه مصر قوامها ماء النيل ، فكان توزيعه توزيعا معقدا متشعبا ، ولكنه مبنى على قاعدة واحدة

لا تقبل النزاع ، وهى أن الماء لا يجوز بيعه أو شراؤه ، فلم يكن جائزا للأفراد أو للدولة أن يجعلوا من الماء بضاعة للكسب أو للإتجار ، وقد وفر الفاطميون الانتفاع بماء النيل بربط سدين ، وذلك منذ صدر دولتهم بالقاهرة وهما سدا عين شمس بالحلفاء والتراب ، وكان يقام قبل زيادة النيل ، فاذا أقبل السيل رده السد وعلا الماء فسقى ما وراء السد من ضياع ، وقد عرف هذا السد أيضا بخليج أمير المؤمنين :

وللمرميزة فى تربية الدواجن ، وخصوصا فى تربية الدجاج بالترقيـد الصناعى على النحو المتعارف اليوم ، والذى يسرته وسائل التكنكة العصرية المتقدمة ، والظاهر أنها طريقة لم يستعملها غير المصريين فى ذلك العهد : وقد فاقت الصناعات المصرية جميع الصناعات المعروفة فى الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلبت إليها من مختلف العواصم التى كانت تابعة لها أمهر الصناع ، فتدعم بذلك ساعد طوائف الصناعات المصرية الأصلية ، فمن المعروف مثلا أن القائد جوهر عندما خرج من القيروان لبناء القاهرة لم يكن مصحوبا فقط بالجنود والعناد الحربى ، بل كان معه النخبة من أهل الصنائع وأنفس النفيس من التحف المصنوعة فى صبرة المنصورية عاصمة الفاطميين الثانية بإزاء القيروان ، ولنتصور براعة هؤلاء الصناع التونسيين وحذقهم المفرط ، فاننظر إلى تلك الربة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة فى المتحف الأثرى بمدريد ، وهى تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت فى مدينة صبرة المنصورية وأنها صنعت برسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مع تاريخ لها صريح سابق لنقاة الخلافة من القيروان إلى القاهرة . ويفيدنا وجود هذه التحفة الفريدة اليوم فى بامـها أن مثلها قد كان يصنع فى القيروان بالعشرات ، وأن البعض منه قد نقل إلى المشرق فى حقائب جوهر وحقائب المعز ، وعليه فلنبحث الباحثين

على التروى عندما ينتعون فريقا من هذه التحف بأنه فاطمى ، وأن يتساءلوا هل هو فاطمى من الطور القيروانى أو فاطمى من الطور المشرقى أو القاهرى كما يتعين على الباحثين إمعان النظر فى نوعية الزخارف ، لأن الطورين يمتازان كل على حدة بميزاتة الفنية . فالفن التونسى على جودته وأصالته فى الرقة ، لا شك أنه تطور فى بيئته الجديدة مصر ، وتكيف هنالك فخرج بذلك نوعا ما عن أشكاله ومظاهره الأصلية ، فلا شك أن إعادة النظر فى التحف الفاطمية المتوزعة فى متاحف الدنيا سوف تفيدنا الإفادات الجملة للفرقة بين فصيلةين من الإنتاج الفنى الرائع بدل فصيلة واحدة :

وعلى كل فإننا لا نتردد لحظة عن إعادة ما سبق بيانه، وهو أن الإنتاج الفنى المصرى فى عهد الفاطميين قد كان أبداع وأروع لإنتاج عصرهم ، وقد تناول مختلف الفنون ومختلف المواد :

فقد ازدهر النسيج على اختلاف أنواعه من نسيج الكتان الرفيع الذى كان يصنع بالفيوم وتنيس ودمياط وشطا ، ومن المنسوجات الحريرية النفيسة المصنوعة بدبيق ، وقد اشتهرت هذه المدينة بالثياب الدبيقية ، ومنها العمامة الدبيقية المذهبة ، ومنها أيضا كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة ، وقد أقام المعز لدين الله دار الكسوة ، ومنها كان يلبس الأمراء وكبار القوم من البلاط الخلافى ، وكانت الأقمشة الرائجة فى ذلك العصر محلاة ومطرزة بالذهب والفضة ، مع مختلف أنواع الزخارف والكتابات الجميلة الرائعة ، الحاملة لمعلومات تاريخية على غاية من النفاسة :

وقد كان الخشب قليلا فى مصر ، فكانت السلط الفاطمية تحتكر جميع الأنحشاب الواردة عليها من أى بلد. وكان شغل الدولة الشاغل هو بناء السفن وتدعيم الأسطول التجارى والحربى بالإكثار المطرد من عدد قطعها ، وقد بنى

المعز لدين الله دار صناعة بالمقس صنع فيها ٦٠٠ سفينة على وتيرة واحدة ، وكان الخشب يرد من صقلية ومن أوربا عن طريق سفن الهندية ، بالرغم من تحريج ذلك عليها من طرف امبراطور الروم الذى كان لا يرتاح باله لنمو أسطول مصر بهذه السرعة ، وفى غير الأسطول كان الخشب يستعمل فى شتى المآرب ، ولكنه كان مادة سهلة الاستعمال قد يسرت أنواعاً من الصناعات الفنية كالحفر والنقش والترصيع والتطعيم ، وفى متحف القاهرة للفنون الإسلامية نماذج رائعة لهذه الفنون ، وخصوصاً المحراب الفاطمى المجلوب من الجامع الأزهر ، ومحراباً مثله مجلوب من مسجد الست رقية :

ولقد عنى صناع القاهرة بصناعة الجلد التى حذقوها ، وأخذوا شيئاً عظيماً من فنون دبغها وتثبيتها عن الأقوام الصحراوية التى استوطنت مصر ، ولنلاحظ من بين منتجات الجلد التى يتجلى فيها منتهى الإبداع صناعة الكتب من أوراق الرق الملونة أو الناصعة البياض ، ومن دفات مجلدة للكتب تحمل أنواع الزخارف . وقد ضاعت معظم مجموعات التجاليد الفاطمية المشرقية وبقيت المجموعات الفاطمية التونسية على حالها الأول وعددها بضع عشرات محفوظة فى متحف باردو بتونس ، ومتحف المنستير ، ومتحف القيروان :

وتتمثل البقايا من المصنوعات الزجاجية الفاطمية فى مجموعات من القناديل والمشكاوات وفصوص الزجاج والشمسيات والقوارير ، ومختلف الأواني ، ولكن هناك مجموعة من البللور الصخرى تمتاز عن الكل بالصفاء والرقّة . والمعروف أن هذا البللور الصخرى قد كان يجاب من بلاد المغرب كما أن صبرة المنصورية قد كانت مركزاً ممتازاً لصناعة الزجاج الفاطمى ، فقد أوجد الفاطميون فى الشرق مراكز جديدة لهذه الصناعة وذلك فى القسطنطينية والأشمونين ، وقد برع صناع القسطنطينية فى زخرفة البللور بالمينا والذهب وأنواع الدهن ، كما حذقوا نقشه ونحته وجرده وترصيعه :

- ٥٩١ -

أما الخزف فلم يفت أهل مصر نوع من أنواع فنونه ، فنه المطلق طلاء بالذهب له بريق المعدن ، ومنه الأواني الشفافة ، ومنه الأقداح والأزيار المنقوشة ، وعلب البخور والعطور والأزياء المحلاة بمختلف الزخارف . فلنذكر منها بالخصوص تلك الأجرار الصغيرة التي جمعت لكل منها في حلقتها مصفاة مثقوبة بطرز فنية مختلفة :

ولصناع مصر براعة في فنون الترسيع والفسفسياء ، وصناعة الذهب والفضة ، وتحلية الأقمشة والسروج والسيوف والمصاحف ، وتكفيت أواني النحاس والبرنز . وبالجملة فقد كانت القاهرة تجمع جمهرة من الصناعات الرقيقة التي كان لانتاجها رواج عظيم . بالخصوص في الخارج : فكان ذلك مادة ثراء خارق للبلاد ، ومادة مبادلة كانت تنجى بدلها البضاعات المحتاج إليها من الأقاليم الأخرى أي البضاعة المختلفة التي تحتاج إليها مصر : وكانت التجارة المصرية تجارة نشيطة ، سواء أكانت في القطاع الداخلي أم القطاع الخارجي .

أما التجارة في الداخل فقد كان قوامها حجم البضاعة الضخم التي كانت تتجول كمادة خام ، وكمنتوج مصنوع من مركز صناعي إلى مركز تجاري ، وإن أحسن طرق هذا التجوال وأرخصها هو النيل ، وفي ذلك تأثير طيب في تخفيض أثمان البضاعة وتيسير اقتنائها ، وتنشيط صناعتها وترويجها ، فلا شك أن كانت أسواق المدن المصرية وأسواق القاهرة بالخصوص أسواقا ضاقت بالكافين ، واكتظت بالزبائن بصورة جعلت رقعتها تمتد شيئا فشيئا إلى أن اتخذت مساحات ضخمة ، وكانت القيسريات فيها والخانات والمستودعات تزدد يوما بعد يوم لإيواء التجار القادمين من الخارج ، ولخزن بضاعتهم وبيعها بالجملة لتتوزع على صغار التجار :

وأما التجار الأوروبيون من أهل بزة وأمالني والبندقية وجنوة فكانوا
يحلون في فنادق لهم على نسق القيسريات ، فيها كنيساتهم ومصرفهم ومدريستهم
وحرسهم ومحكماتهم وغير ذلك مما كان يجعل هذه الفنادق شبه القلاع تعيش
فيها الجاليات الأجنبية عيشة الانفراد عن سكان المصر متى أراد أهلها الانفراد.
هذا ولما كانت التجارة والصناعة في داخل البلاد مرتبطة الارتباط
إلكلي بما يرد إليها من بضاعة خارجية ، وما يصدر منها إلى الخارج من بضاعة
داخلية بقي لنا أن نستعرض قليلا دواليب العلاقات بين القاهرة الفاطمية والعالم
الخارجي .

العلاقات الاقتصادية

بين القاهرة والأمم الخارجية

لقد لاحظنا أن موقع القاهرة في مفترق الطرق بين الشمال والجنوب وبين الغرب والشرق قد جعلها في المحور الرئيسى الذى كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية ، فكانت القاهرة نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها ، ومركزا لصنعها . وكانت أيضا المنطلق لترويجها وتوزيعها في البلدان الراغبة في اقتنائها وذلك إما غربا وإما شمالا ، فهناك غربا سلسلة من الموانئ تشمل على الإسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهدية ، وكانت هذه الأخيرة أعظم الموانئ المذكورة جميعا قبل تأسيس القاهرة مذ كانت المهديّة عاصمة الفاطميين البحرية ؛ وكانت السلسلة تمتد إلى الأندلس عبر المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مؤلفة في ذات الوقت طريقا بحرية للحج ؛ وكان الحج إلى بيت الله الحرام هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادى والمحرك لتجوال السفن بين مختلف السواحل المغربية ، والضامن لدوامه واستمراره ، وإلا فإن المنافسة الشديدة التى كانت بين الفاطميين والأمويين وأخلافهم بالأندلس سريعا ما كانت تقوم عرقلة في سبيل التبادل التجارى بين القاهرة وقرطبة ، ثم بين القاهرة وبعض عواصم ملوك الطوائف كبلنسية وغرناطة وإشبيلية التى كانت توزع هى بدورها البضاعة الواردة إليها من المشرق إلى مختلف العواصم الأوروبية ، وكانت تشتمل هذه البضاعة على العطور والأبراز والتوابل

والقمارى وخشب الساج والجوهر والياقوت والماس والعقيق وأنواع البخور وكانت السفن تعود من الأندلس إلى القاهرة وقد تزودت بالخشب الطرطوشى والفضة والزئبق : وعند مرورها بالموانىء المغربية كانت تزود بالقمح والشعير والتمور والصوف والعسل وزيت الزيتون ، وخصوصا زيت مدينة صفاقس التونسية ، ومن الموانىء التى على السواحل الجزائرية التونسية كان تصدير المرجان الرفيع والأسفنج والحرير والخفاف وأنواع من الفواكه وخصوصا تفاح جربة وقابس ، ومنها كان أيضا تصدير البضاعة الواردة إليها من الصحراء وبلاد السودان كالعاج والتبر ، وكذلك الرقيق الأسود الذى كان منه الكشمير فى قصور الخلفاء وفى الجيش :

وكانت الطريق المتجهة من القاهرة غربا تنعرج أحيانا شمالا ، وتتصل مباشرة بصقلية ، أو تنعكس نحوها بعد أن تصل إلى المهدية ، وذلك طالما كانت صقلية مملكة تابعة للفاطمين . فلما امتلكها ملوك النرمان فى الربع الأخير من القرن الخامس هـ ، الحادى عشر م ، انقطعت الصلة مدة بهذه الجزيرة ، حتى ربط ملوكها علائق تجارية منتظمة بالقاهرة . فكانت هذه الأخيرة تستورد الخشب الصقلى النفيس لصنع السفن مع شىء من قمح الجزيرة وفاكهتها ومعادنها ، يضاف إلى ذلك أنواع الأقمشة الحريرية التى كانت محل اعتبار عظيم فى مصر :

وشمالا كانت للقاهرة علاقات تجارية نشيطة جدا مع مختلف الجمهوريات الإيطالية ، وبالخصوص مع جمهورية أمالفي وبيزا وجنوة والبندقية ، فكان لتجار هذه الدويلات فنادق كثيرة فى الإسكندرية وفى الموانىء الشامية التابعة للإمبراطورية الفاطمية ، وخصوصا فى أنطاكية ، وكان حرص التجار الأوروبيين عظيما على أن تتواصل العلاقات الطيبة مع مصر لا من أجل

الحفاظ على الخيرات المغدقة عليهم فقط ، ولكن أيضا للتمتع بإمكانية الزيارة لبيت المقدس بدون حرج ، وكانت السفن الإيطالية تحمل - على السواء - إلى المشرق البضاعة والحجيج النصارى ، أما البضاعة المصدرة على متن هذه السفن فكانت تشتمل على أنواع من المصنوعات اليدوية من نسيج وأوان ، وبالخصوص الخشب :

وكانت بيزنطة توصى وتلح على جمهورية البندقية أن لا تستعمل سفنها لحمل الخشب إلى مصر ، وذلك خوفا من أن يتدعم بذلك الأسطول الفاطمى ، ولكن البندقية لم تدعن إلى ذلك : قصارى ما فى الأمر أنها قصرت فى طول هذا الخشب حتى لا يصلح لتعمير السفن الكبيرة : وكانت هذه الجمهوريات حريصة على تقديم شواهد الود لأصحاب القاهرة ، كما كانت شديدة التنافس بعضها مع بعض ، وذلك لما كانت تجنيه كل منها من أرباح خارقة من وراء ترويج بضاعة المشرق فى البلاد الأوروبية :

ولم يكن نشاط سفن مرسيليا وسكان بروفنسا بجنوب فرنسا دون نشاط الجمهوريات الإيطالية : وقد بهر البلاد الأوروبية مدى الخيرات التى تزخر بها الموانئ الإسلامية ، فأدى بها الجشع والطمع فى الاستحواذ عليها ، والاستئثار بها إلى القيام بالحملات الصليبية المعروفة ، فكان ظاهرها إفساح المجال فى وجه الحجيج النصارى إلى بيت المقدس ، وكانت فى الباطن عمليات استعمارية ترمى إلى احتكار البضاعة التى كانوا يقتنونها عن طريق موزعيها المسلمين ، والحلول محلهم لتوزيعها بعد أن يضعوا أيديهم على بعض البلاد الإسلامية كى تمكنهم من بلوغ نقاط وصول البضاعة الشرقية كأيلة وجدة فى البحر الأحمر وعدن على أبواب المحيط الهندى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى الفوز بالوصول إلى أبرز سوق تجارية تربط عن طريق البر أفريقيا

بآسيا وبأوروبا وهى بغداد عقدة المسالك من الهند ومصر والشام إلى دول
البلقان وروسيا ، وإلى بخارى وسمرقند والصين : وقد كانت محاولات
النصارى أيام عنفوان الدولة الفاطمية محاولات لم تكن تفوت السعى لنيل
امتياز والظفر باذن التجول والبقاء فى منطقة من ترابها حتى بدت عليها
علام الضعف ، فتجراً الجانب النصرانى عليها ، وأقبل على عمليات الفتح
الترابى للسيطرة على هذا التراب بحد السيف ، وقد نجحت الخطة الحربية
الصليبية نوعاً ما ، فاحتل الصليبيون سواحل الشام مدة من الزمن ، ولكنهم
لم يظفروا بما كانوا عولوا على اجتنائه من الناحية الاقتصادية ، إذ بقيت
القاهرة بعد زوال الفاطميين ، طوال أيام الأيوبيين والمماليك مسيطرة على
احتكار الحسيرات الواردة من المشرق ، تاركة توزيعها نحو البلاد الأوربية
- على نحو ما كان العمل به من ذى قبل - إلى سفن الجمهوريات الطليانية :

ومن الدول العظمى المجاورة لمصر ، والى كانت لها علاقات متواصلة
مع هذه نذكر (بيزنطة) ، وكانت هذه العلاقات تمر بين الفينة والأخرى
بأطوار حسنة للغاية ، تعقبها أطوار تصادم ونزاع ، وفى الحمة فإن الروم
البيزنطيين كانوا شديدي الرغبة فى المصنوعات المهرية الرقيقة من نسيج ومجوهرات ،
كما كانت مصر تحتاج إلى الفسراء المجاوب من البلاد الروسية ، وإلى خلال
هضبة الأناضول :

ولم تفت الدولة الفاطمية فى السعى للوصول إلى بغداد لا لزعزعة الخلافة
العباسية عنها فقط ، بل وبصورة أكد لوضع يدها على سوق تجارية عالمية من أبرز
الأسواق وأغناها .

ولنلق الآن نظرة إلى الأهم الواقعة فى جنوب مصر ، فهذه بلاد النوبة كان
ملوكها يكونون المودة الخالصة للقاهرة ، سالكين معها سلوكاً مرضياً ، ينفق
ومبادئ حسن الحوار اتفاقاً كلياً ، يشتركون منها الأفضة وأدوات الزينة ،

وكانت السفن القادمة من الحبشة وزنجبار تحمل إلى مصر أنواع الخشب النفيس والعاج والتبر والماس وذلك بدل المصنوعات اليدوية المصرية : وهذا وإن معظم أصناف الرقيق التي كانت تدخل القاهرة إنما كانت من بلاد النوبة وبلاد الأحباش :

وأما الضفة الشرقية من البحر الأحمر فكان عليها ، بشواطئ الجزيرة العربية ، مرسى جدة وهو محط الحجيج المسلمين القادمين عن طريق أيلة والقلازم وعيذاب ، وبلى مرسى جدة في الجنوب مرسى عدن الذي كان بمثابة باب مفتوح بين البحر الأحمر والمحيط الهندي ، ومنه كانت تمر السفن والقوافل المحملة بالتوابل المجلوبة من سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وجزر الملايو ، وبالعطور والند والمسك والكافور والعنبر الخام زيادة على أنواع البخور النادرة التي تمتاز بإنتاجها جزيرة جاوة ، مع العود الصيني ، وكافور زنجبار ، والقمارى المجلوب من سيلان والهند الصينية :

من هذه الحوصلة عن علائق القاهرة بالعالم الخارجى يتضح جليا أن هذه العاصمة الفاطمية قد كانت محورا رئيسيا للتجارة العالمية ، ووسطا للدائرة تلتقى فيه وتشتع منه جميع تيارات النشاط الاقتصادى فى عصر من عصورها الزاهرة ، وتوالت عليها القرون ، ودالت الدول ، وتغيرت الأوضاع ولكن القاهرة دأبت إلى اليوم تمثل ذلك المحور وذلك الوسط للدائرة ، فكان ذلك معدن سعادتها الدائم ، وكذلك السبب الحامل على مشاكستها وإزعاجها بين الفينة والأخرى ، صانها الله وأدام عزتها ومناعتها :

القاهرة مركز الحركة الإسلامية

صهيد سيتين

ملخص

القاهرة مركز للحركة الإسماعيلية

صموئيل ستيرن*

ملخص

اتخذ النشاط التبشيري للطائفة الإسماعيلية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة شكلين : أولهما الاعتراف للفاطميين بحق الولاية على مصر ، وهو نفس ما حدث في ملطان بالسند ، وثانيهما تكوين مجموعات صغيرة من الدعاة ينبتون في مختلف الأقطار الخارجة عن نطاق سلطان الفاطميين ، ويؤمنون بحتمية غلبة الدعوة الفاطمية في نهاية الأمر .

وقد استمد المركز الممتاز الذي كان يشغله المذهب الإسماعيلي في الأراضى الخاضعة لسلطان الفاطميين ، استمد أهميته من حيث إنه كان يطبق بوصفه قانونا تفرضه السلطة القضائية ، برغم أنه لم يكن أبدا دين الأغلبية : وكان يتزعم هذا المذهب قاضى قضاة ، يعاونه في بعض الأحيان زعيم للدعاة ، وكان هذا المذهب يدرس عادة بواسطة محاضرات عامة ذات صفة رسمية

(*) خسر عالم الدراسات الإسلامية كثيرا بوفاة صموئيل م . ستيرن بغاة في التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٩ . وسوف يكون من العسير حقا تعويض هذه الخسارة . وقد امتدت سمعة اطلاعه وحسن بيانه ورجاحة أحكامه حتى شملت الكثير من الموضوعات ، غير أنه بفضل التركيز على دراسة الفاطميين وعالمهم . وأنه لفخر لنا وبهجة أن يختص مصر الفاطمية بإحدى دراساته الأعمىرة .

ويطلق عليها (مجالس الحكمة) ، وكان مضمون مايداع في الناس يختلف بطبيعة الأمر باختلاف جمهور المستمعين ، إذ كانت مبادئ التعليم الأولية تتألف في الأساس من أحكام الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن يدرس إلا للمتبحرين : وكانت هذه المحاضرات تلقى على أسماع المؤمنين أيام الخميس أو الجمعة من كل أسبوع ، وصارت أيام عهد الحاكم تقليدا ثانيا ، رغم أن أول مجموعة باقية من هذه المحاضرات لا ترجع في تاريخها إلا إلى منتصف القرن الخامس الهجري : وكانت هذه المجالس تخصص بشكل مستقل لكل من المتضلعين في العلم ، وأعضاء البلاط ، وعامة الشعب والغرباء ، وكان النساء يستمعن إليها في الجامع الأزهر : وبعد أن كان كبير الدعاة يعد نص المحاضرة ، أو كان هذا النص يعد له ، كان الخليفة يتلقى صورة منه ، فيمهرها بتوقيعه ، بل ويتولى إلقاء المحاضرة بنفسه في بعض الأحيان :

وهناك معلومات شبة عن هذه الإجراءات تتضمنها رسالة من جنسية القاهرة ، محفوظة حاليا في مكتبة جامعة كيمبرج ، وهي رسالة تهئة لقاضي القضاة الذي رُبما كان هو نفسه قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان المعين سنة ٤١٨ هجرية :

وكان لعواصم الأقاليم ، بل ولمختلف أرجاء البلاد دعائها المحليون الذين كانوا يعملون تحت إشراف قاضي القضاة في القاهرة : وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر العصر الفاطمي في القرن السادس للهجرة ، حين بدأ هؤلاء الدعاة يعتبرون أنفسهم خاضعين لسلطان كبير الدعاة :

وكان النشاط التبشيري لطائفة الإسماعيلية خارج حدود الامبراطورية الفاطمية يعتبر في جوهره امتدادا للحركة الفاطمية التي نشأت في القرن الثالث للهجرة ، والتي أدت إلى قيام الأسرة الفاطمية الحاكمة . وقد انقسمت

- ٦٠٣ -

الدعوة من الناحية النظرية إلى مناطق (جزائر) يبلغ عددها اثنتى عشرة منطقة ولكن التفاصيل التى تتوفر لنا عن هذه المناطق تعتبر - فيما يحتمل - محض خيال ، وما زلنا حتى الوقت الحاضر لا نعرف إلا القليل عن التنظيم الفعلى لهذه البعثات الفاطمية التبشيرية : ومع ذلك فقد حفظ لنا التاريخ قدرا كافيا من الرسائل التى كتبها الدعاة ، الأمر الذى يمكننا من الحكم على أن العلاقات بين الأقاليم والعاصمة كانت دائما وثيقة إلى حد ما ، وأن الدعاة المحليين كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال فى مباشرة الشئون الحارية ، رغم أنهم كانوا يعينون من قبل الخليفة بوصفه إماما : وينطبق هذا القول على وجه الخصوص على الحكام الصليحيين فى اليمن ، رغم أن هؤلاء قد يمثلون حالة خاصة ، من حيث إنهم كانوا حكاما محليين ودعاة فى الوقت ذاته : وبحوث الانشقاق التزارى فقد الفاطميون كثيرا من مقومات الدعوة فى الخارج : وبهذا انقضى طموحهم فى أن يصبحوا أكثر من مجرد حكام للمناطق التى تألفت منها امبراطوريتهم :

القاهرة في الأدب الشعبي

د. عبد الحميد بونس

القاهرة في الأدب الشعبي

د. عبد الحميد بنيس

إن الباحث في الأدب الشعبي العربي ليس في حاجة إلى أن يؤكد حقيقة بارزة لها تأثيرها في التصور الشعبي لمدينة القاهرة : وهذه الحقيقة هي أن الطبقات الشعبية ، وغبر الشعبية ، لا تميز القاهرة بهذا الاسم الذي غالب عليها منذ أنشئت على يد الفاطميين ، وإنما تتصورها عاصمة الديار المصرية ، ولقد ازداد هذا التصور تأثيرا بزوال الحواجز بين المدن والأحياء التي أريد لها أن تكون مقر الحاكم بصرف النظر عن المرحلة التاريخية أو الدولة الحاكمة ، وبذلك استوعبت القاهرة في التصور الشعبي الفسطاط وأم دنين ومصر والقطائع والعسكر والقلعة والحلمية والمنيرة ، وما أضيف إلى هذا كله من أحياء : ولم تعد أسوار القاهرة ، ولا أبوابها ، حدودا يقف عندها التصور الشعبي لهذه المدينة العريقة النامية :

ولم يستشعر أبناء القاهرة بصفة خاصة ، وأبناء مصر بصفة عامة الحاجة إلى التثبيث بهذه الصيغة « مصر القاهرة » التي ترددت في كتب التاريخ ، وتقويم البلدان والرحالة وغيرهم ، واكتفوا بأن يعرفوها باسم « مصر » . والمواطن المصري عندما يتجه إلى عاصمة بلاده يذكر أنه إنما يقصد مصر ،

ولا يدور بخلدّه — ولا أقول إنه من النادر — أن يذكر « القاهرة » ، وهكذا نرى أن الأدب الشعبي العربي بصفة عامة قلما يذكر المدينة العربية باسم القاهرة ، وإنما يعرفها باسم « مصر » ، وكثيرا ما يلتقى الجزء بالكل في الخيال الشعبي ، حتى أن الباحث لا يجد في معظم الأحيان قرينة تؤثر المدينة بالحديث أو الوصف أو تركز الانتباه على الديار المصرية كلها ، وهذا مألوف في التعبير الشعبي الذي يختار النموذج والمثال ، ولا يجد فارقا بين الواحد المتعين وبين العام الذي يجسمه النموذج أو المثال : بيد أننا نلاحظ أن السير الشعبية كانت تطابق بين مصر وبين القاهرة في أكثر الأحوال : ومن ثم كان من الضروري أن يتسابع الباحث شخصية ابن البسلد وأخلاقياته في تلك السير ، مع الاعتراف بأن هذا النمط الإنساني قد ظهر في الحياة قبل أن ينشئ المعز لدين الله الفاطمي القاهرة بحدودها الخاصة . : كان ابن البلد مسائرا لما عرفه العصر الحديث من « ابن عرب » ، فكما كنا إلى وقت قريب نجد العقلية الشعبية تفرق بين الفرنج وأولاد العرب ، كذلك برز ابن البلد ، أى المواطن إلى جانب الدخلاء والأجانب على اختلاف منابتهم وأصولهم :

ونرى لزما علينا أن نوضح أن هذا البحث إنما يستهدف محاولة الكشف عن مكانة القاهرة في الأدب الشعبي ، وهذا مخالف لما يلابس هذا الموضوع من إبراز عناصر الأدب الشعبي التي ظهرت ونمت في مدينة القاهرة ، ولقد حرص الباحثون على أن يميزوا الآثار الأدبية الشعبية التي نشأت أو تكاملت في مدينة القاهرة : ولم يعد هناك — بعد الدراسات المستفيضة في هذا الموضوع — شك حول أثر القاهرة الواضح والبارز في تكامل الحلقات القصصية الشهيرة مثل « ألف ليلة وليلة » و « السيرة الهلالية » و « سيرة الظاهر بيبرس » و « سيرة عنتر بن شداد » و « سيرة سيف بن ذي يزن » وغيرها وغيرها : يضاف إليها مواويل قصصية تلففت في القاهرة أحداثها أو بدورها ثم عملت على صياغتها

وصقلها وترديدها حتى تجاوزت حدودها بل حدود الديار المصرية مع ما اشتهر عن أهل القاهرة من الملح والنوادر والمطارحات والأمثال .. هذه الموضوعات إنما تدخل في باب « الأدب الشعبي في القاهرة » أما « القاهرة في الأدب الشعبي » فتتطلب أن يفتش الباحث عن الأحداث والشخوص التي لها علاقة بمدينة القاهرة بصفة خاصة في الآثار الأدبية الشعبية على كثرتها وتنوعها :

وعلى الرغم من هذا التحفظ الذى له أهميته فإن الباحث في مكان القاهرة من الأدب الشعبي لا يستطيع أن يغفل الإنسان القاهري الذى يعد بحق المضمون الإنسانى لتصور شخصية هذه المدينة في نظر أبنائها وفي نظر العالم العربى بأسره ومن اليسير أن نميز هذه الشخصية القاهرية من الموازنة بينها وبين النماذج البشرية الأخرى في الخيال الشعبي القاهري نفسه. و « ابن البلد » هو التشخيص الواضح للمواطن القاهري ، وهو في الوقت نفسه يشخص السمات القومية والمحلية أروع تشخيص بما اختص به نفسه من أخلاقيات وصفات تميزه من غيره ممن يحيطون به . وهذا المحور الإنسانى وهو « ابن البلد » القاهري كما صورته مرآة الأدب الشعبي أجدر بالدراسة من تتبع البيئة المادية بأحيائها وخطوطها وحدودها وأسوارها ؛ ولقد وردت أوصاف تقترب إلى حد كبير من المصورات المجملية لمدينة القاهرة في القصص الشعبي ، ولم تكن هذه البيئة المكانية إلا المسرح الذى تظهر فيه الشخوص والأحداث والعلاقات الإنسانية وإن تميز « ابن البلد » القاهري من النماذج البشرية الأخرى هو الذى يساعدنا على الكشف عن الملامح الإنسانية لتلك المدينة العريقة في الأدب الشعبي :

وقبل أن نعرض لشخصية « ابن البلد » وأخلاقياته في الحكايات الشعبية نرى لزما علينا أن نسجل تصوره لنفسه من خلال النوادر التي تؤلف جانبا هاما من تراثه الأدبي الخاص ، والواقع أن هناك خريطة جغرافية - إذا صح

هذا التعبير - تبين الأنماط الإنسانية التي عاشت في القاهرة وحولها - إن ابن البلد يبدو في النوادر شخصية متميزة عن أبناء الريف وعن الأعراب الضاربين في الصحراء ، وعن الروم وعن اليهود وعن غيرهم في مربع تحدده الجهات الأصلية الأربع التي تحيط بابن البلد المستقر في مدينة القاهرة. وتبدو أخلاقياته في هذه النوادر بارزة بما تضيفه النادرة من المفارقة أو التنافس بين شخصيتين إحداهما هي ابن البلد ، والثانية شخصية تناظره ولا بد من أن يتغلب عليها بالدكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر ، كما أحب أن يحكم على نفسه : وهو مقبل على الحياة يؤثر المنادمة ويعتصم بالمرح ويتشبث بالتفاؤل ولا يحرص على اكتناز المال لأنه « ينفق ما في الحيب ليأتيه ما في الغيب » ، يضاف إلى هذا كله أنه وسم جذاب تحبه النساء ، بل تتحجب إليه لجماله وظرفة وخفة روحه وكرمه .

ويستطيع الباحث أن يتبين بشيء من الجهد بعض الملامح الإنسانية لابن البلد القاهري من الأمثال الشعبية المرددة على ألسنة أبناء هذه المدينة العريقة : ولقد حاول بعض الباحثين أن يجمعوا طائفة من الأمثال الشعبية القاهرية ، وعلى الرغم من ذبوع هذه الأمثال في بينات أخرى غير القاهرة فإن القاهرة تأثيرها الذي لا شك فيه على تلك الأمثال : ولكننا يجب أن نفرق بين تصور ابن البلد لنفسه في الأدب الشعبي وهو تصور فيه نزوع إلى المثالية ، وبين محاولته تبرير الكثير من المواقف التي يتعرض لها بواسطة الأمثال الشعبية وهـ تنزع إلى الواقعية ولكنها واقعية موقف لا واقعية شخصية : وأكثر من ذلك فإن الأمثال الشعبية تبين وجهة نظر قد يكون فيها تبرير لفشل أو خطأ ، أو انحراف : وعلى الباحث أن يضيف شواهد قليلة من الأمثال الشعبية تؤكد أو تطابق تصور ابن البلد لنفسه وتصور الآخرين له في وقت واحد والأمثال التي تبرر مواقف متناقضة ، وصفات أخلاقية متقابلة لا يمكن أن تعد دقائق

نفسية بالمعنى الصحيح: وإذا كان ابن البلد كما ينبغي أن يكون في نظر نفسه - كريما إلى حد التبذير فإن الأمثال الشعبية فيها ما يبرر الحرص وفيها ما يبرر السرف وفيها ما يدفع إلى الإقدام وفيها ما يدفع إلى الجبن أو النفاق الاجتماعي ومع ذلك فبين هذه الأمثال ما يعد العظة المستخلصة من بعض الحكايات والنوادر وإن كان قليلا ٥

ولا بد من التمييز بين نمطين من أبناء البلد ، كما تنعكس صورهما على العقلية الشعبية : الأول ويعد امتدادا للظرفاء الذين عرفتهم العواصم العربية قبل القاهرة ، وعرفتهم الديار المصرية أيضا قبل الفاطميين وهؤلاء الظرفاء يبالغون في سمتهم وهندامهم ، ويصدرون عن قواعد صارمة في السلوك ، أو بعبارة أخرى يصدرون عن « اتيكيت » لا يخرجون عليه بحال من الأحوال لأنهم معروفون بالرقّة ودماثة الأخلاق ، ولهم إجاباتهم وتعليقاتهم على مختلف المواقف وهي أقرب إلى الصيغ المحفوظة منها إلى أى شىء آخر ، على الرغم من كثرة المواقف وتعقدها ، وهم ، إلى هذا كله ، من الندماء الذين يجيدون أدب الحديث ، ويحفظون في الوقت نفسه الكثير من الأسفار والنوادر وجوامع الكلم ، ومنهم من عرف بالقدرّة على النظم أو الصياغة البليغة . وتلتقى هذه الشخصية بالصورة التي رسمها ابن البلد لنفسه في النوادر وهي صورة تجعله قادرا على المناظرة ورد القافية والتورية والرمز :

أما النمط الثانى فهو الشخصية المجسمة للوجدان الوطنى أو القومى ، فى مقابل الحاكم الدخيل ، أو هو الصورة المجسمة للشعب فى نظر نفسه أمام الدخلاء الذين زاحموه فى الرزق ، وضيقوا الخناق عاياه فى مسالك الحياة ، ولقد بدأت هذه الصورة مع العياق والشطار والزعر ، وهم أصل « الفتوة » الذى ظل مرتبطا بأحياء القاهرة إلى هذا القرن الذى نعيش فيه ، ومهما يكن

من أمر المتابعة التاريخية للشطارة والعيقة وما إليهما فإن المنخصص في الحكايات الشعبية يتوقف عند ثلاثة شواهد أساسية وهي كتاب ألف ليلة وليلة والظاهر ببيرس وعلى الزريق المصرى .

ابن البلد في الليالى

إن الحيط الأول الذى يمسك به المتتبع لحياة ابن البلد هو كتاب ألف ليلة وليلة . ولقد انتهى الباحثون إلى تقسيم الليالى أربع طبقات تتميز كل واحدة منها عن الأخرى بخصائص ومقومات : ورأوا أن الطبقتين الأخيرتين قاهريتان ، ومع ذلك فنحن نضرب صفحا عن الطبقة التى شغلت بالطلاسم والأرصاء والأماكن المسحورة وما لانيها مما صورته الخيال الشعبى من آثار المصريين القدماء ، ونتوقف لحظة عند الطبقة التى سجلت ملاعب الشطار وجماعاتهم : وهى إن جعلت هذه الطائفة من أبناء البلد تحترف الشطارة والعيقة فانها إنما كانت تعبر عن موقف الشعب المصرى من التجار والحكام :

وأبناء البلد هؤلاء يمتازون بفضائل لا بد أن تجتمع فيهم ، فهم أولا وقبل كل شيء يؤلفون طوائف لكل منها وجدانه الخاص بها ويصدرون فى علاقات بعضهم ببعض عن حب وإيثار ، وبذلك يختلفون كل الاختلاف عن العصبية التى كانت المحور الذى يصوغ علاقات الوحدات الاجتماعية . كانوا أشبه بأصحاب مهنة معينة أو تجارة خاصة :: كانوا أقرب إلى جماعات الفرسان فى المراحل المتأخرة من تاريخ الديار المصرية :: كانوا يواجهون وينظرون أولئك الفرسان من الممالك والأتراك :: الواحد منهم ابن البلد فى مقابل « الجندى » كما اصطلاح الأدب الشعبى :: إنهم وحدة متحاببة تعد نفسها فئة واحدة :: ومهما تنافسوا فيما بينهم فإن الحب هو الذى يظلهم جميعا :

— ٩١٤ —

ونمة فضيلة أخرى امتاز بها أبناء البلد من الشطار وهى الخلق والبراعة وخفة الحركة ، والقدرة على التغلب على الغرماء والمناظرين بالحيلة البارعة ، وقد يحتاجون إلى الجسارة أو الإقدام وهم فى « الملاعب » التى يقومون بها لا يستهدفون شرا بفرد أو جماعة .. إنهم يأخذون ولكنهم يردون ما أخذوا وحسب الهيئة الاجتماعية أن تقر لهم بالخلق ، وأن تبوئهم المكانة التى أهلته لهم لها براعتهم . ولقد عنى القاص فى كتاب الليالى بفضيلة الفضائل عند أبناء البلد وهى الشهامة التى تمثل أهم القواعد السلوكية عندهم ، فهم يراعون الجار ويعينون الضعيف ويدافعون عن الحمى ويفيئون الملهوف ، ويصدرون فيما بينهم عن تكافل اجتماعى أصيل فى رعايتهم لمن يموت منهم وتعهدهم المستمر لأولادهم .

ابن البلد فى الظاهر بيبرس

وتختلف سيرة الظاهر بيبرس عن الليالى من بعض الوجوه فيما يتصل بموضوع ابن البلد ، ذلك لأن الليالى أبرزت طائفة الشطار على أنهم يحترفون الشطارة فحسب ، أما السيرة الظاهرية فقد صورتهم من أبناء المهن ، أو من أبناء مهن بعينها ، وإذا كانت سيرة بيبرس تتألف هى الأخرى من طبقات يختلف بعضها عن بعض فإن « ديوان الأسطى عثمان » يشمل الطبقة المصرية الخالصة فى تلك السيرة :

وأول شىء يلاحظه الباحث هو أن الأسطى عثمان من سواس الخيل وأنه من أبناء البلد الأصليين وهو يتصف بجمال الصورة وبحسن الهندام وبالشجاعة إلى جانب الحلية مع سائر الفضائل التى لا بد من أن يتحلى بها الشطار والعياق والزعر — كما كانوا يسمون — وهو إلى ذلك كله من كشف عنهم الحجاب

حتى أنه عرف الظاهر بيبرس وأكد أنه المنتظر لخلاص الإسلام من ألباغين عليه ، وكان كلما قابله قال له : « اظهر يا ظاهر » وكأنما أراد القصاص أن يفسر لقب الظاهر تفسيراً فنياً لا يخرج عن مزاج الشخصية.

ومما يدل على الطابع شبه الفروسي في أخلاقيات ابن البلد ذلك الحسر الذي أقامه القصاص لكي يوفق بين الظاهر بيبرس من ناحية وبين الأسطى عثمان من ناحية أخرى . : لقد اعترض كل منهما الآخر حتى إذا دل اختيار القوة على وجوب اللقاء والتعاون بينهما تصافيا وتآخيا على طريقة الفرسان في ذلك العصر :

وكان الأسطى عثمان زعيم طائفة الشطار والعياق لتبحره في الشطارة والعيافة وقوة شخصيته إلى جانب تجسيمه لأخلاقياته ابن البلد في خفة الروح والاتجاه إلى المرح ، وتحويل المواقف العسيرة من الناحية النفسية إلى وسائل للفكاهة ، وإنبساط النفس وتأكيد التفاؤل ، والأسطى عثمان بهذه المثابة يجمع فضائل ابن البلد ويتسم بمزيتين أخريين : الأولى أنه من أبطال التحرير ولم يستخدم شطارته لمجرد إظهار الحذق والبراعة ، والثانية أنه من أصحاب المهن في الأصل إذ كانت مهنته ترتبط بالفروسية ارتباطاً وثيقاً وهي سياسة الخيل .

على الزيتيق المصرى

ويظهر ابن البلد امتداداً لمهنة الشطارة كما صورتها الليالي في سيرة على الزيتيق المصرى ، والواقع أن هذه السيرة تعد — امتداداً وتفصيلاً — حلقة من حلقات ألف ليلة وليلة : كما يوجد هناك بعض التشابه بين الأسطى عثمان من ناحية وبين على الزيتيق من ناحية أخرى ، ولكن الأول عرف بالولاية إلى جانب الشطارة ، أما الثانى فقد كان علماً على الشطارة وحدها :

وعلى الزبيق عرف بالقوة مذ كان صبيًا ، واتسم بالدكاء والحيلة طوال حياته ، وتفوق على الشطار من أقرانه ونظرائه ، ولم يكن يسكت على الضيم الذى يقع عليه أو على واحد من شيعته وأنصاره ، بوأته الشطارة بأخلاقياتها الخاصة مكانة مرموقة من الهيئة الاجتماعية ومن الحكام.. ومن عزيز مصر ومن هارون الرشيد :

واقترنت الشطارة فى أخلاقيات ابن البلد بالاتجاه إلى المشاركة فى الحكم وكان للشطارة درجات يرقى بعضها على بعض . ويقوم التفوق على الصراع وهو صراع يرتكز على التفوق فى الملاعب ، ولذلك عرف الشطار المتفوقون بلقب « المقدمين » وهو لقب يطلق على رجال الأمن فى الهيئة الاجتماعية ، ومهما كانت حلقات السيرة تستهدف التسلية والترفيه فإنها كانت تؤكد أخلاقيات ابن البلد وفضائله ومواقفه من التجار وبعض الحكام المتسلطين ، ومن الدخلاء :

ولقد أسبغ القصاص الصورة نفسها على الشطار الآخرين ، حتى الذين لم يكونوا من أنصار على الزبيق. ويعود السبب فى ذلك إلى أن الحكاية الشعبية تؤثر النمط على رسم الشخصية بما ينبغى لها من خصوصية ، وعلى الرغم من أن على الزبيق أكد الشطارة والعيافة فأنة جسم اتجاه الشعب إلى تأكيد فضائله وأخلاقياته ، كما أنه أكد الإحساس القوى بالمواطنة وعبر عن كراهة الضيم والمبادرة إلى رد الظلم مع النزعة القوية إلى التفوق :

الشطارة والعيافة والفتوة

ولا يريد الباحث أن يدخل فى دراسة تفصيلية لتطور هذه المصطلحات الثلاثة وهى الشطارة والعيافة والفتوة . وإذا كانت بعض الكامات قد دلت فى مرحلة من المراحل على معنى غير مقبول ، فإن التعديل فى النظر إلى الجماعات

- ٤١٦ -

يستتبعه بالضرورة تعديلا في الأسماء أو الألقاب التي كانت تطاق على تلك الجماعات ، ومن هنا أصبحت الشطارة في الاستعمال الشعبي تدل على البراعة ولا تبدل على الانحراف عن الحادة أو الخروج على القانون أو التعرض للغير وكذلك العياقة فقد كانت في المصطلح الشعبي تدل على عائق الطريق أكثر مما تدل على خبرة مخصصة ، ثم أصبحت تدل على المبالغة في حسن الهندام ، وجاء هذا التعديل من اقتران العياقة بالعناية بالزى أو المظهر : أما الفتوة فقد دلت منذ البداية على أخلاقيات فرسان ومجاهدين ، ثم أصبحت تدل عند الشعب على أولئك الذين يتفوقون في القوة ، ويفرضون سيطرتهم على هذا الحى ، أو ذلك من أحياء المدينة . واختلفت دلالة الاصطلاح من الناحية النفسية باختلاف النظر إلى طائفة الفتوات وهم الذين جمعوا أخلاقيات الشطار والعياق كما عرفها الشعب ، وكما صورها خياله في قصصه وحكاياته ونوادره ، ومن ثم لحصت طائفة الفتوات — إلى عهد قريب — أخلاقيات ابن البلد : إذا ضربنا صفحا عن نظرة القانون الوضعي إليهم : كان الفتوة مقادما جسورا شهما كريما ، خفيف الظل بارعا في الحيلة ، قادرا على المناظرة في الحديث قدرته على التفوق في المصارعة والمصاولة .. وكان إلى هذا كله أنيقا ظريفا مصقولا لماحا ، متوددا في حالات صفوه ، محبوبا من الجنس الآخر ، قادرا على الغزل ، بارعا في المنادمة .

وهذه الصورة هي بعينها التي نجد خطوطها البارزة في نظرة ابن البلد لنفسه ، كما نجدها في أوصاف الرحالة عنه ، وفي تصوير بعض المؤرخين ، الذين عنوا بتفصيل الحياة الاجتماعية وهي صورة تتجاوز الشكل إلى الأخلاق وتحدد بصفة عامة فلسفة الحياة كما طمح إليها ابن البلد الحضري وهي الفلسفة التي تنكبت عن التشاوم وأقيمت على الحياة واعتصمت بالتفاؤل ، ووجدت متنفسا في الفكاهة والمرح ، والتندر على كل شيء ، والاستعلاء على المواقف العصية بالمضحكات الساخرة .

إمتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك

(٩٦٩ - ١٥١٧ م)

للككتور عبد الرحمن زكى

إمتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك (٩٦٩ - ١٥١٧ م)

للككتور عبد الرحمن زكى

أسس القائد جوهر القاهرة حصنا ومسكنا للفاطميين في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليو ٩٦٩ م) ، فكانت شبيهة بضاحية مائكية أو امتداد للعواصم الإسلامية الثلاث التي سبقتها منذ الفتح العربى ، وهى : الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع :

ظلت القاهرة منذ أسست ، وفى أثناء حكم الفاطميين معقلا فاطميا ، بدأت مساحتها قرابة ٤٠٠ فدان ، وكان لا يسمح للأهالى بالدخول إلى هذا المعقل إلا بإذن خاص . وقد ساعدت المعالم الطبيعية التى أحاطت بالضاحية الفاطمية على الحفاظ عليها : تلال المقطم شرقا ، والخليج الكبير والبل غربا ، وفضاء رملى فسيح فى الشمال ، وآخر مثله يفصل بين السور الجنوبي والقطائع . وكانت للأسوار التى أسرع القائد جوهر فى تشييدها حول القاهرة ، أهمية فى الدفاع عن البلاد ضد أى اعتداء يدبر عليها من الخارج أو مؤامرة من الداخل . وكان هذا التهديد قائما ، إذ كان القرامطة يغيرون وينهبون ، ويخربون السهول ويهددون الفسطاط ، ولذلك أمر جوهر بحفر خندق كبير

عمقه واتساعه عشرة أذرع كان يتجه غربا من المقطم إلى منية الأصبح^(١) ، وقد بدئ فيه في شعبان ٣٦٠ هـ (يونيو ٩٧١ م) وتم حفره سريعا . ويذكر لنا التاريخ خبر غارتين للقراطة بعد ذلك ، إحداهما في ربيع الأول ٣٦١ هـ (ديسمبر ٩٧١ م) ، والثانية في ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وقد تمكن القراطة من عبور الخندق في الغارة الثانية ، لكنهم لم يستولوا على القاهرة .

ومع أن الغرض الأساسي من بناء القاهرة أن تكون معقلا حصينا للفواطم فقد عمر خلفاء هذه الأسرة الأوائل كثيرا من المساجد والمناظر والمباني العامة خارج أسوار المدينة . فالخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله الذي حكم البلاد فيما بين عامي ٩٧٥ و ٩٩٦ م شيد دارصناعة لصناعة السفن بالمقس^(٢) ، وكانت المقس في أيام الفواطم ميناء القاهرة ، وتقع على شاطئ النيل القديم في المكان الذي يمر فيه شارع عماد الدين عند مسجد أولاد عنان . وكانت المقس في أيام الدولة الفاطمية مقصورة على قرية المقس ، وفيها شيد الحاكم بأمر الله مسجدا والمعروف أنه في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ ، ١٠٢٠) توسعت القاهرة من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففي الشمال خارج باب الفتوح ذكر المقرئ^(٣) أن الطائفة الحسينية ، وهي إحدى الطوائف الفاطمية ، سكنت حارة (خطة) الحسينية ، وكانت تتألف من عدة حارات ، ويتوسطها اليوم من الجنوب إلى الشمال شارع الحسينية ، وشارع البيومي من باب الفتوح إلى ميدان الجيش .

(١) منية الأصبح هي الخندق ونسبت إلى الأصبح بن عبد العزيز بن مروان .

(٢) المقس هي أم دفين حينما فتح العرب مصر ، وكانت تقع على الشاطئ الشرقي للنيل بالقرب من ميدان رمسيس اليوم .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : ج ٤ ص ٤٥ .

يقول المقرئ في الخطط عن الحسينية : اعلم أن الحسينية شقتان :
إحدهما ما خرج من باب الفتوح ، طولها من خارج باب الفتوح إلى قرية
الحنديق^(١) ، وهذه الشقة هي التي كانت مساكن للجند في أيام الخلفاء الفاطميين
والشقة الأخرى ما خرج من باب النصر ، وامتد في الطول إلى الريدانية
« العباسية » . وهذه الشقة لم يكن بها في أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى
العبد تجاه باب النصر ، وما بين المصلى إلى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت
القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك ، ثم صارت هذه المنطقة مقابر ،
أنشئت حول قبر بدر الجمالي الذي أقامه خارج باب النصر ، واستمر ذلك
إلى ما بعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفي زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالي ، جنوب السور الجنوبي ،
يعمرون ويبنّون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة من قبل غير
عامرة بالمباني حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرّان ما نهضت « ضاحية »
امتدت تدريجاً حتى كثرت مساكنها في زمن المجاعة العظمى في أيام المستنصر
لدين الله (١٠٣٥ - ١٠٩٤) ، حيناً بدأ نجم الفسطاط في الأفول .

حارة اليانسية :

تنسب هذه الحارة إلى أبي الفتح يانوس مملوك الخليفة الفاطمي الحافظ
لدين الله (١١٣٠ - ١١٤٩) ووزيره ، ولقب بأمير الجيوش أيضا ، وهو
صاحب الحارة اليانسية التي كانت واقعة خارج باب زويلة ، وحرفها الناس
إلى حارة لأنسية ، ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الأحمر تجاه
جامع قجماس الأسحق (أبو حريية) ، وثانيهما بشارع المغربلبن .

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٢ .

وفي خطط ابن طولون في الجنوب (حول المسجد الكبير)، أمر الحاكم بأمر الله ببناء ثلاثة مساجد معلقة، منها مشهد محمد الأصغر، ومنها المسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولوني، لأن العامة تزعم أن به قبر الشيخ عبد الرحمن الطولوني، وأما المسجد الثالث فلم يعثر على آثاره : ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها^(١).

فوق جبل المقطم :

وفي أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الحيوثى فوق المقطم، ويرجع هذا المسجد إلى عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)، وهناك عدة مشاهد وقباب شيدت أيضا خارج القاهرة الفواطم في القرن الثانى عشر، كمشهدى كلم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب. وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المباني الفاطمية التى شيدت خارج باب زويلة في عام ١١٦٠ م، ولتحقق لئرجع إلى ما ذكره المقرئزى في خططه عندما أشار إلى ما بناه الفاطميون في ظاهر القاهرة : « توسع الناس في العمارة بظاهر القاهرة، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العائر إلى مدينة الفسطاط، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العائر إلى الريدانية « العباسية اليوم »، وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطئ النيل... وبنوا خارج البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور، فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين، أحدهما يقال له القاهرة، وآخر يقال له مصر » :

ومن سوء الحظ أن المقرئزى لم يذكر بالدقة تاريخ هذا التوسع العمرانى ومتى حدث :. ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمى

(١) علي مبارك : الخطط التوفيقية، ج ٢ ص ٤٢ .

التالى ، فيذكر لنا أنه فى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائنى بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة ، فنودى لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بأن « من كان له دار فى الخراب أو مكان فليعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه » . فلما نادى الوزير المأمون عمر الناس بما كان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة : ولم يبق من العسكر ما هو عامر سوى جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون^(١) . ولكن فى أيام صلاح الدين الأيوبي ، حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) ، أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين ، وأخذت تشغل المساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت نهاية تلك البساتين الخضراء : جزيرة الروضة :

وهناك فى أقصى الجنوب ، وأمام مدينة القسطنطينية حيث يجرى النيل ، تقابلنا جزيرة الروضة التى تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها . وفى أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ - ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصونها (٨٧٦ م) ، وجعلها مقرا لخزائن أمواله ، وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة للسفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهاد . وفى أيام محمد بن طنجج الأخشيد أنشأ بستانا ودارا سماها المختار ، وفى أعقاب ذلك أخذ الأهالى فى تشييد محلات لهم :

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ،

(١) المقرئى : خطط ، ج ١ ص ٣٠٥ .

وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التي أصبحت متزها ملكيا ومسكنا للأهالى .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

وفى أيام الولاة العرب ، طرأ على ساحل النيل الشرقى فى المسافة الممتدة من الفسطاط إلى روض الفرج ثمانية تغيرات على الأقل ، وذلك فيما بين عام ٦٨٨ م ، أى فى زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ فى أثناء حكم محمد على . ويهمنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة فى العصر الفاطمى أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذى ظهر حول سنة ١١٢٦ م فى أيام الدولة الفاطمية إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزادت فى عمرائها ، وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب فى المسافة التى كانت بين جامع الطيبي^(١) وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشارع رمسيس ، وقد نتج عن هذا الطرح المنطقة التى يقع فيها اليوم : كلية تجارة عين شمس ، ومبنى وزارة التكوين « القديمة » ووزارة البحث العلمى والرى والصحة ، ومجلس الأمة والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكلية اللسيه ووزارة الأوقاف والبذك الأهلى ، ويمر فيها شارع شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ، وفى أيامها أخذت المدينة الفاطمية تنازل عن مكانتها الارستقراطية التى تمتعت بها خلال قرنين :

امتداد القاهرة فى أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية فى أخريات القرن الثانى عشر ، ومستهل الثالث عشر تتميز عن ذلك الحصن الملكى الفاطمى ، وأضحت تشغل مساحة

(١) تخرج غربا تاركا أرضا إلى شرقية .

(٢) يقع بشارع الديورة بقسم السيدة زينب .

قدرها عشرة أمثال ما كانت عليه، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات الطابع الهندسى المستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم وكان الفضل فى هذه الانجازات لصالح الدين الأيوبي ، غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبنائه وأحفاده ، وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا العاهل ، فقد شاهد فى الشام أن لكل مدينة قلعة حصينة تحميها ، فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ؟ كما لها سورها وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن .

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جنود كثير يحميها . وإنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاطئ . وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة فى عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشى بهاء الدين قره قوش الأسدى أحد أمرائه المخلصين ، ولم ينقضى على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة النص التذكارى لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣ م) قبل أن ينتهى بناء جميع أسوار القلعة وأبراجها ، فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم البناء .

سور حول القاهرة والقواعد الإسلامية السابقة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) والقلعة سورا واحدا يحيط المدينة الكبرى بأسرها ، فبدأ عمارة هذا

السور الأيوبي « ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين » عام ١١٧١ ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله . وفى عام ١١٧٤ انتدب بهساء الدين قره قوش الأسدى لعمل هذا السور، فبناه بالحجارة ، وزاد فى سور القاهرة الغربى الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومنه إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس فى نهاية السور الشمالى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك^(١) ، ثم زاد فى سور القاهرة الشمالى الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر فى أقصى الشمال الشرقى للقاهرة . ومن هذا البرج الذى ما زال باقيا فى مكانه إلى باب البرقية فى السور الشرقى ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع لفواة صلاح الدين :

كان لبناء القلعة والسور حول المدينة أثر كبير فى امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش ، فى القلعة نقل مركز نقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية ، حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية ، بالقرب من ضريح الإمام الشافعى ، وجامع عمرو بن العاص ، وفى القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسهل توسع القاهرة فى ذلك الاتجاه الجديد :

حى بركة الفيل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمالى شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى ،

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت يجرى المياه ،

٤٣٧ -

وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية ، وقد تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) في العصر الأيوبي ، ولم يبق من أرض البركة بغير بناء إلى عام ١٨٠٠ إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول وإلى مصر ، وهي المعروفة بسرأي الحلمية وحديقتهما ، وفي عام ١٨٩٤ قسمت أراضي الحديقة ، وفي عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيه وبيعت ، وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة :

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التي تحد اليوم شمالا بسكة الحبانة ، ومن الغرب بشوارع درب الحمامز ، واللبودية ، والخليج المصري ، ومن الجنوب شارع الشيخ عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحسد إلى الشمال الشرقي حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير قبلي إلى أول شارع الألفي ، ومن الشرق تكملة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم ، فسكة عبد الرحمن بك وما في امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحسد البحري (محمد رمزي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦ - ٣٦٧) :

وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة نهضت في القاهرة على أيام الأيوبيين ، ثم نراها قد ازدهرت كحي ارستقراطي في أيام لمالك ، فشيدت حولها كثير من القصور والدور :

جبل يشكر ومناظر الكباش :

يطلق اسم الكباش على الجزء الشمالي الغربي من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربي جامع ابن طولون ، ولا تزال هذه المنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكباش وهي تعطل على شارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا سابقا). وفي أثناء سلطنة الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على هذا الجبل ، عرفت بإسم المناظر ، وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل ،

وعلى البساتين التي في بر الخليج الغربي من المقس إلى فم الخليج ، والتي في بره الشرق من باب زويلة إلى الصليبة ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت متنزها جميلا يقصده الناس . وقد تأق الملك الصالح في بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين في عام ٨٦٨ هـ (١٣٦٦ م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن ، وأقبل الناس على التعمير .

جزيرة الروضة :

وفي أقصى الجنوب ، وفي مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩ م) قلعة الروضة أو القلعة الصالحية ، وقد شرع في حفر أساس القلعة في يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ ، وفي عاشر ذى القعدة وقّع الهدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة ، وتحول الناس من مساكنهم التي كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب مقياس النيل ، وأدخلها في القلعة ، وأنفق في عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً ، وأقام بها جامعا ، وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد خشية محاصرة الفرنج ، فإنهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر عن طريق نغسر دمياط .

وذكر المقرئ أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية . وموجز القول أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا في جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد انتقاله من قلعة الجبل .

- ٩٢٩ -

واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك ، فأمر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المعزية التي كانت برحبة الحنة بمدينة مصر ، واقتدى به ذوو الحاه فأخذوا كثيرا من سقوفها ونوافلها وغيرها ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جلييلة ، ومع ذلك فلم يطل هذا التخريب والإهمال . فقد أعاد إليها الظاهر بيبرس بهجتها وشأنها لما تولى شؤون البلاد .

امتداد القاهرة في العصر المملوكي

شمالى القاهرة - الحسينية :

يصف المقرئى تطور العمران وازدياده في الحسينية على أيام المماليك البحرية بقوله : « ولم تعمر هذه الشقة (الحسينية) إلا في الدولة التركية المملوكية ، ولا سيما لما تغلب التتار على ممالك الشرق والعراق ، وجفـل الناس إلى مصر فنزلوا بهذه الشقة والشقة الأخرى ، وعمروا بها المساكن ، ونزل بها أيضا أمراء الدولة فصارت عمائر مصر والقاهرة . واتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية إلى الخندق مناخات الجمال واسطبلات الخيل ، ومن ورائها الأسواق والمساكن العظيمة في الكثرة ، وصار أهلها يوصفون بالحسن ، خصوصا لما قدمت « الأويراتية » Ujur وهى جماعة من المغول خالفت غازان ملك المغول في إيران ولجأت إلى مصر في عصر السلطان زين الدين كتبغا (٧٩٥ هـ) فأنعم على رئيسهم وأمرأهم وأنزلهم بالحسينية . الخ ولكن لما ولى الحكم السلطان لاجين قبض على رئيس تلك الفرقة ، وفرق أفرادها بعد أن سجن زعماءها .

وفي أيام المماليك الشراكسة ، ولا سيما في عصر السلطان قايتباى (١٤٦٧ - ١٤٩٦) الذى عشق التعمير والبناء ، يقابلنا أحد أمرائه وهو - يشبك بن مهدي مشيد القبة المعروفة في العباسية باسم « القبة الفداوية » وذلك

— ٦٤٠ —

في مكان قبور أمر بإزالتها عام ١٤٧٩ ، وغرس مكانها البساتين الغناء ، كما حفر بئرا للمياه ، وأقام عدة أسواق ، كما أنشأ مناظر للتنزه ، وشق ترعة كبيرة يجرى فيها الماء إلى المزارع حتى صارت هذه المنطقة من أجمل المتنزهات ، والمعروف أنه بعد وفاة الأمير يشبك أكمل السلطان قايتباي هذه المنشآت :

في أوائل حكم المماليك البحرية وقرابة عام ١٢٥٢ م طرح النيل أرضا جديدة اتصلت بالطرح الثالث الذي حدث في أيام الأيوبيين في المسافة الواقعة بين النقطة التي يتقابل فيها شارع النباتات بجاردن سیتی ، بشارع إبراهيم باشا نجيب بقصر الدوبارة (أمام السفارة البريطانية) وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع مريت باشا بشارع رمسيس :

وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الرابعة إلى الغرب في المسافة المذكورة . وقد نتج عن هذا التحول أن كسبت القاهرة المنطقة التي فيها اليوم شارع الأنتكخانة المصرية (محمود بسيوني الآن) وشوارع شامبليون ومعروف^(١) والنمر :

وفي حوالى عام ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) أى في أثناء سلطنة الملك الظاهر بيبرس طرح النيل أرضا جديدة اتصلت بالطرح الأربعة السابقة في المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى بشارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التي يتلاقى فيها شارع مريت بشارع رمسيس ، وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الخامسة إلى الغرب في المسافة المذكورة ، ويقع

(١) محمد رمزي : الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة - شاطئ النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليهما من التحولات من الفتح العربى لمصر إلى اليوم . مجلة المعلوم مجلد ٤ ، عام ١٩٤٢ ، ص ٤٩٧ - ٥٢٣ .

الآن في أرض الطرح الخامس مستشفى الإرسالية الإنجيلية الأمريكية وشارع السكر والليمون بمصر القديمة وعيون مجرى الماء وفم الخليج ومستشفى الانكلستوما ومعهد الأبحاث ومعهد ومستشفى الكاب وكلية طب ومستشفى قصر العيني ، وشارع الولادة وقصر وزارة الخارجية ومبنى جامعة الدول العربية وفندق هيلتون ودار الآثار المصرية ومقر الاتحاد الاشتراكي العربي .

طرح النيل السادس وظهور بولاق :

وفي سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ظهر طرح آخر وزادت مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل في المرات السابقة ، فقد ظهرت الأرض التي يقوم عليها الآن قسم بولاق وجزء من قسم الأزبكية ، والأرض الواقعة بين السكة الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج ، كما طمث أيضا أرض السيالة التي كانت تفصل بين أراضي منية السرج والشرابية وميدان رمسيس من جهة وبين جزيرة الفيل التي بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى ^(١) ، واتصلت أراضي هذا الطرح السادس بما سبقه من الطرح التي انتهت عند شارع رمسيس في المسافة الواقعة بين مديرية مصلحة المجارى وبين ميدان رمسيس ، وبذلك أصبح النيل يجرى تحت مديرية مصلحة المجارى من الجهة الغربية ، ثم يسير تحت شارع ساحل الغلال ببولاق فشارع ماسيرو فشارع سوق العصر ، وبعده يسير النيل في طريقه إلى الشمال مارا غربى جامع الشيخ محمد الأخرس ، ثم يسير مخترقا أرض عنابر السكك الحديدية القديمة ببولاق ، إلى أن يصل إلى جامع الشيخ فرج من الجهة الغربية ، وهناك يتصل هذا الطرح بأرض جزيرة الفيل ، وبظهور هذا الطرح اتصلت أراضي هذه الجزيرة من جهتها الشرقية بأراضي منية السرج والشرابية وميدان باب الحديد ، ومن جهتها القبليّة بأرض بولاق .

(١) سنتكلم عن مصير جزيرة الفيل فيما بعد .

أرض جديدة تكسبها القاهرة :

وفي عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) ظهر الطرح السابع للنيل في المسافة الواقعة بين الطرف الجنوبي لورث صب القوالب التابعة لدار الآثار المصرية وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران في شمال عنابر السكك الحديدية ، وبذلك تحول النيل إلى جهة الغرب للمرة السابعة ، واتخذ سيره بشارع ماسيرو ، ثم يسير إلى الشمال بشارع المطبعة الأهلية ، فبشارع أبو الفرج إلى أن يتقابل بشارع جزيرة بدران .. وفي هذا الطرح يقع الآن جامع سنان باشا ، ومركز بوليس قسم بولاق وعنابر السكك الحديدية القديمة .

بولاق وشبرا :

يحدثنا المؤرخ ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ضمن حوادث عام ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) عن سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر قائلا :
« وفي هذه السنة (أعني سنة ثمانين وستائة) تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل تجاه قرية بولاق واللوق ، وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قاعة المقس « ثغر القاهرة » وساحل باب البحر والرملة ، وبين جزيرة الفيل وهو المسار تحت منية السرج ، وانسد هذا البحر ونشف بالكلية واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشى ، ولم يعهد فيما تقدم ، وحصل لأهل القاهرة مشقة من نقل المساء الحلو لبعدها البحر (النيل) ، فأراد السلطان حفره فنهوه عن ذلك ، وقالوا له : هذا ينشف إلى الأبد ، فتأسف السلطان وغيره على ذلك .. فسبحان القادر على كل شيء » .

ربما تكون عبارة ابن تغرى بردى ليست دقيقة في التعبير ، لأنها تصور أن بولاق كانت موجودة قبل ظهور هذه الجزيرة ، في حين أنها أنشئت في عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) على جزء من هذه الجزيرة بعد ظهورها في عام

٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ، ويستفاد مما ذكره ابن تغرى بردى والمقرئى عنده^(١)
الكلام على اللوق وبولاق وقنطرة باب البحر ، وعلى جزيرة الفيل « شبرا »
أن شاطئ النيل الشرقى القديم تجاه القاهرة كان سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ،
بعد أن يمر فى مجراه الحالى من مصر القديمة إلى قصر النيل ينعطف قليلا إلى
الشرق ، ويمتد فى شارع رمسيس من بدايته عند مبنى مديرية المجارى ، ثم يسير
فيه إلى ميدان رمسيس فحطة كوبرى الليمون ، ثم يمر شرق مخازن محطة
مصر وينعطف شمالا فيسير فى شارع مهمشة .

وعند عزبة الخفايسة يميل إلى الشمال الغربى ماراً تحت منية السيرج ، ثم
يسير شمالا إلى الغرب حتى يتصل بمجرى الحالى عند فم ترعة الإسماعيلية ،
وفى سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) انحسر النيل عن جانب المقس عند ميدان رمسيس
وظهر فى مجرى النيل بجوار الشاطئ القديم جزر من الرمال ، وصارت أرض
هذه الجزر تتسع وتنضم إلى بعضها حتى أصبحت جزيرة واحدة كبيرة ،
اتصلت من بحريها بجزيرة الفيل ، ومن قبليها بأرض اللوق ، ثم طرح عليها
البحر فربت وارتفعت أرضها عن منسوب ماء النيل بسبب ما كان
يتركه عليها من الطمي سنويا ، وأصبحت أرضها صالحة للزراعة والسكنى ،
وفى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) سمح الملك الناصر محمد بن قلاوون بالعمارة والبناء
فى تلك الأراضى ، فتسابق الأمراء والحند والكتاب والتجار والعامّة فى البناء
وبنوا على النيل الدور والقصور والبساتين ، وتكون من مجموع ذلك بلدة
جديدة هى بولاق ، إذ أن فقد أضيفت بولاق إلى بر القاهرة فى عام ١٣١٣ م
وكانت الأرض التى بين بولاق المملوكية وبين شارع ٢٦ يوليو اليوم «

(١) الجزء السابع ص ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١٠ .

(٢) الخطة المقرئية : ج ٢ ، ص ١١٧ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٨٥ .

كلها أرضا زراعية وبساتين ، ولم تحدث فيها المباني إلا في أيام الخديو اسماعيل ومنذ ذلك الحين أخذت بولاق تتسع في العمارة حتى اتصلت بمبانيها بمدينة القاهرة ، وأصبحت بولاق قسما إداريا من أقسام القاهرة .

أما جزيرة الفيل التي أصبحت فيما بعد الجزء الجنوبي من حي شبرا ، فقد ذكر المقرئ في خطته أن هذه الجزيرة كانت واقعة في وسط النيل تجاه ناحية منية السرج خارج باب البحر من القاهرة ، وكان موضعها غامرا بالماء في أيام الفواطم . وفي أواخر تلك الدولة انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك في مكانه ، فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجهات ، ثم علا أراضيها الطمي وما برحت تتسع مساحة أراضيها حتى تم تكوينها حول عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، أي في أوائل حكم الأيوبيين ، فزرعت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف ، وفي عام ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) طرح البحر بجوارها ، فاتصلت أراضيها بأرض ناحية منية السرج ، وبالمقس حيث ميدان رمسيس اليوم ، ثم أخذ آل قلاون وأمراؤهم والأعيان ببناء القصور والدور ، حتى صارت حيا كبيرا ، هو الذي نعرفه اليوم باسم شبرا أحد أقسام مدينة القاهرة . وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التي يتوسطها اليوم شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ويحدها النيل من الغرب حيث جسر طراد النيل القديم .

القرافة الشرقية :

ولا يمكن إغفال هذه المنطقة الصحراوية الكبرى التي ضمت إلى أراضي القاهرة على أيام المماليك الجراكسة منذ أيام مؤسسها السلطان الظاهر برقوق وابنه فرج ، فقد شيد السلاطين والأمراء في شرق القاهرة مجموعة فخمة من المساجد والأضرحة والقباب والخانقات ، وهي اليوم تؤلف في مجموعها خير العماير في قاهرة الجراكسة .

العمران في جزر النيل

جزيرة الروضة :

لما تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ م) عنى بعمارة قلعة الروضة بعد خرابها ، وأمر أحد أمرائه بإعادتها إلى ما كانت عليه في أيام الصالح نجم الدين الأيوبي . فأصاح بعض ما تهدم فيها ، ووزع أبراجها على الأمراء ، ومنح برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الأتقي ، وفرق بقية الأبراج على كثيرين من الأمراء المقربين ، ولذلك عرفت أسرة المماليك البحرية بالمماليك البرجية . وأمر بأن لا يغادروها ، ومن هنا اجتذبت الروضة إليها نفرا من الأهالي والباعة وأخذوا يسكنونها .. بيد أن قلاوون بعدما تولى السلطنة وعزم على بناء البيمارستان والقبة والمدرسة في النحاسين ، نقل من قلعة الروضة جميع ما احتاج إليه من العمود والرخام . وكذلك فعل ابنه الناصر محمد حينما شيد مسجده ودار العدل بالقلعة .

جزيرة الزمالك :

وفي أيام المماليك البحرية انحسر الماء عن جزيرة النيل الوسطى وهى جزيرة أروى ، وقد ذكرها المقرئى (ج ٢ ص ١٨٦) بأنها تقع في وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الخيزة . وكان انحسار الماء عن الجزيرة حوالى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠-١٣٠١ م) ، فشىد الناس فيها الدور والأسواق والجوامع والطواحين ، وغرسوا فيها البساتين ، وحفروا فيها الآبار ، وصارت من متنزهات القاهرة ، يحف بها الماء من جميع جهاتها . وجزيرة الزمالك التى تعرف بالجزيرة فقط من أحسن المواقع للسكنى والتنزه في القاهرة ، وبها نوادى الرياضة والمستشفيات والفنادق ودور السفارات .

يتبين لنا مما سبق كيف اتسعت القاهرة من أيام الفاطميين في عام ٩٦٠ إلى انتهاء أيام دولة المماليك (١٥١٧ م) . ويمكن القول بأنها حافظت على اتساعها وامتدادها على أيام العثمانيين باستثناء زيادة صغيرة كسببتها المدينة^(١) بجوار بولاق حول عام ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) نتيجة للطرح السابع وفي تلك الأرض أنشأ على باك الكبير عمارة كبيرة على ساحل النيل (في ذلك الوقت) حيث يمر بشارع المطبعة الأميرية وذلك بسبب ما كان يلقي من الأتربة وبقايا العمارات بجوار الساحل القديم ، فطمى النيل عليها ، وبذلك تكونت الأراضي التي قامت عليها فيما بعد دار المطبعة الأميرية والورش الأميرية ، ومصاحبة الوابورات (الترسانة) في أيام محمد علي .

وأختتم هذا الموضوع ذاكرًا أنى مدين جدا إلى جميع الذين سبقتوني من طبوغرافى القاهرة ومؤرخيها وعلماء آثارها في هذا السبيل ، منهم على وجه الخصوص بالقلقشندى ، والمقرزى ، وعلى مبارك ، والجبرقى ومحمد رزى ، ومحمود أحمد ، ومن استفادوا بما كتبه هؤلاء الأعلام خلال الأعوام السبعين الأخيرة ، من أمثال السادة : رافيس ، وكازانوف ، وسالمون ، وكريسيويل وثبيت ومارسل كليرجيه .

فلولا بحوث هؤلاء العلماء جميعا ، لما ساهمت بهذا الموضوع من أجل العيد الألفى للقاهرة .. أم الدنيا .

(١) الجبرقى : ج ١ ص ٣٨٠ . أنظر أيضا الملحقين في خاتمة البحث .

الملحق الأول

شاطئ النيل الشرقى الأصيل القديم تجاه مدينة «مصر والقاهرة» وقت الفتح العربى
 كان نهر النيل بعد مروره بناحية أثر النبي جنوبى « مصر القديمة » يسير
 شمالا بجوار شارع أثر النبي (أزيل جزء كبير منه عند مدخل شارع كورنيش
 النيل) إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدافع ، فيسير النيل بجوار
 هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مارجرجس ، فيسير محاذيا له من الجهة
 الغربية ماراً بحصن بابليون وشارع مارجرجس وجامع عمرو ، ثم يسير محاذيا
 لشارع سيدى حسن لأنور إلى نهايته ، ثم يسير النهر شمالا إلى النقطة التى
 يتقابل فيها شارع السد البرانى بسكة المدبح ، ثم يسير بعد ذلك متجها فى طريقه
 إلى الشمال ، فيمر فى حارة المغربى بمجنية قاميش بشارع بنى الأزرق بمجنية
 لاط ، فشارع جنان الزهرى ، فشارع مصطفى كامل بعابدين (سابقا الشيخ
 عبد الله) فشارع البلاقسة ، فعاد الدين إلى نهايته البحرية (شارع محمد فريد)
 ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشرق ويسير بجوار شارع رمسيس حتى يصل إلى
 ميدان رمسيس (محطة مصر) ، ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقى ويمر
 بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهة البحرية الغربية ، ثم يسير فى شارع
 غمرة قليلا ، ثم يسير إلى الشمال محاذيا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهة
 الشرقية ، ثم يتجه إلى شارع مهمشة غربا حتى يصل إلى منية السرج وهناك
 يسير غربها ثم يسير شمالا بدوران خفيف إلى الغرب حتى يتقابل مع مجراه
 الحالى عند الترعة الإسماعيلية « جنوب شبرا الخيمة » (محمد رمزى)

الملحق الثاني

طرح نهر النيل فيما بين مصر القديمة وبولاق منذ عام ٦٨٨ م وعام ٨٣٠

الطرح الأول: (٦٩ هـ - ٦٨٨ م) زمن حكم الدولة الأموية، وولاية عبد العزيز بن مروان، طرح النهر أرضا اتصفت بالشاطئ القديم فيما بين ساحل أثر النبي وبين المنطقة التي يتلاقى فيها شارع السد البراني بقسم السيدة زينب، ونتج عن هذا الطرح الأول ظهور الأرض التي تقوم عليها الآن مصر القديمة.

الطرح الثاني: (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) في أيام الدولة الفاطمية طرح النهر أرضا في المسافة الواقعة بين جامع الطيب بشارع الديورة وبين المنطقة التي يتلاقى فيها شارع التحرير بشارع عماد الدين (محمد فريد)، نتج عن هذا الطرح، المنطقة التي تقوم فيها اليوم مباني وزارات: الداخلية والعدل القديمة والمالية (الخزنة اليوم) ورئاسة مجلس الوزراء القديمة والحزبية (وزارة الإنتاج الحربى فيما بعد بجوار ضريح سعد، والمعارف (التربية والتعليم) ودار العلوم والمعهد العالى الفرنسى للآثار الشرقية وشوارع: نوبار ومنصور وحوان والمنيرة.

الطرح الثالث: (ح ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م) في أيام الدولة الفاطمية طرح النيل أرضا اتصلت بالطرحين الأول والثاني في المسافة الواقعة بين جامع الطيب وبين المنطقة التي يتلاقى فيها شارع توفيق بشارع رمسيس، ونتج عن هذا الطرح المنطقة التي تقوم فيها اليوم كلية التجارة (جامعة عين شمس) ووزارات التجارة والشؤون الاجتماعية والصحة ومجلس الأمة والجامعة الأمريكية، والليسيه ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى، ويمر فيها شارعاً شريف وأبى السباع

الطرح الرابع: (ح ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م) في أوائل حكم دولة المماليك البحرية طرح النيل أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث (جاردن سیتی)،

٤٤١ -

ولتج عنه المنطقة التي يمر فيها شارع الأنتكخانة المصرية وشوارع : شامبليون
ومعروف والنمر :

الطرح الخامس : (ح ٦٧٠ هـ - ١٢٧١ م) في أيام المماليك البحرية ،
طرح النيل أرضا اتصلت بالطرح الأربعة السابقة ، ونتج عنه المنطقة التي تقوم
فيها مستشفى الإرسالية الإنجيلية الأمريكية وشوارع السكر والليجون بمصر
القديمة وسواقى قناطر المياه وفم الخليج ومستشفى الانكاستوما ومعهد الأبحاث
ومستشفى الكلب وكلية الطب ومستشفى قصر العيني وشارع الوالدة ، ووزارة
الخارجية ودار جامعة الدول العربية والمحف المصري .

الطرح السادس : (٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م) في أيام المماليك البحرية زادت
هذه المرة مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل ، ظهرت فيها الأرض
التي يمتد فيها قسم بولاق وجزء من قسم الأربكية والأرض الواقعة بين السكة
الحديدية الموصلة إلى الوجه القبلي وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج
وظهرت أيضا أرض السيالة التي فصلت بين أراضي منية السبرج والشرابية ،
وميدان رمسيس من جهة ، وبين جزيرة الفيل التي بها الآن قسما روض الفرج
وشبرا من جهة أخرى ، ويظهر هذا الطرح الذي اتصل بمساقه من الطرح
التي انتهت عند شارع رمسيس في المسافة الواقعة منه بين مقر مصالحة المجارى
وبين ميدان رمسيس ، اتصلت أراضي جزيرة الفيل من جهتها الشرقية بأراضي
منية السبرج والشرابية وميدان باب الحديد ، ومن جهتها بأرض بولاق ،
واتسعت أراضيها من الجهة الغربية ، وفي هذا الطرح الذي ينتهي محده الشرق
بشارع رمسيس تقع مدينة بولاق وقسم بولاق .

الطرح السابع : (٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م) في أيام المماليك الجراكسة حدث فيما بين شارع ثكنات قصر النيل (همت شمال دار الاتحاد الاشتراكي العربي) وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران في شمال ورش (عنابر) السكة الحديدية ، ولذلك تحول النيل إلى جهة الغرب للمرة السابعة ، ويقع في هذا الطرح جامع سنان باشا ببولاق ومركز شرطة قسم بولاق وعنابر السكة الحديدية .

الطرح الثامن : (حول ١٨٣٠) ، ويعتبر آخر طرح النيل حدث غربى شارعى أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل من الجهة الغربية ، يشمل المنطقة التي تحد اليوم شمالاً بقم التربة الإسماعيلية ، ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ، ومن الجنوب بمصلحة وابورات الركائب الملكية سابقا ، ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل .

الشاطئ الغربى للنيل تجاه القاهرة^(١)

حدث تحولان في هذا الشاطئ : الأول عام ١٨٦٣ بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب إلى الشرق نتيجة عمل هندسى ، والثانى (١٩٠٣ - ١٩٠٥) بسبب طرح البحر :

ففي سنة ١٨٦٣ بدأ ديوان الهندسة بإجراء عملية التحويل بإقامة جسر على النيل بين مدينتى الجيزة وامبابه ، وفي سنة ١٨٦٥ تمت هذه العملية وأخذ النيل يسير في مجراه تحت شارعى الجيزة وشارع البحر الأعمى بدلا من شرق الدقى .

(١) كان شاطئ النيل الغربى تجاه القاهرة حوالى عام ١٨٠٠ واقعا تحت الأمكنة الآتية : بعد أن يمر النيل تحت سكن مدينة الجيزة يسير مائلا إلى الغرب قليلا ، فيمر شرق مبنى كلية الزراعة ثم يسير تحت أرض حدائق الحيوان ثم يمر شرق مبنى كلية الهندسة إلى أن يصل إلى شارع الدقى فيسير بحازها له من الجهة الشرقية ثم يسير شرق مبنى وزارة الزراعة فالمتحف الزراعى فعزبة الخوتية ، ثم يسير مائلا إلى الشرق حتى يتلاقى بمجره الحالى جنوبى سكن مدينة امبابه ، ولا تزال آثار جسر النيل الغربى القديم هذا باقية إلى اليوم بين الدقى وامبابه ، وكان مينا على خريطة القاهرة لغاية سنة ١٩٣٠

- ٤٤٣ -

وكانت نتيجة إقامة هذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية منه ،
التي كانت بين قرية الدقى وبين الشارين المذكورين سابقا ، ثم قامت شركة
فرنسية بردم القسم الجنوبي من تلك المنطقة بمعاونة رجال العونة في المسافة
الواقعة بين مدينة الجيزة وشارع ثروت ، أما القسم الشمالى من تلك المنطقة
أى فى المسافة الواقعة بين شارع ثروت وامبابه ، فقد طمت أرضها بتحويل
مياه الفيضان عليها بطريقة هندسية ، وبذلك أصبحت المنطقة أرضا زراعية ،
تتوسطها قرية العجوزة التي تحولت فى الأعوام الأخيرة إلى منطقة سكنية
ممتازة .

أما تحويل مجرى النيل الثانى ، فإنه بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب
إلى الشرق بالعمل الهندسى السابق ذكره ، فقد تحولت قوة تيار ماء النيل
إلى الشاطئ الشرقى ، وبسبب هذا التحول ضعفت قوة التيار تحت الشاطئ
الغربى الجديد ، فطرح البحر أرضا جديدة فى عام ١٨٧٠ تحت الشاطئ
المذكور هى عبارة عن الساحل الواقع الآن بين شارع الجيزة وشارع النيل
(فاروق الأول سابقا) على النيل فى المسافة الواقعة بين كوبرى الجيزة
(عباس سابقا) وبين كوبرى فم البحر الأعشى (كوبرى الأنجليز سابقا) ،
ومن عام ١٨٧٠ إلى اليوم احتفظ شاطئ النيل الشرقى والغربى تجاه القاهرة ،
بحالتهما الحاضرة . (محمد رمزى) .

دراسة في الزجاج المصري

عبدالرؤوف على يوسف

دراسة في الزجاج المصري

عبد الرؤوف على يوسف

يضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحفتين متشابهتين من الزجاج، عبارة عن دورقين صغيرين بدهما كثرى الشكل ، ولكل منهما فوهة بيضاوية الشكل ، ينتهى طرفها بجزء صغير مسحوب يكون المصب، ويقابله مقبض يتألف من شريط زجاجى ينشئ من أعلاه ، ليكون نتوءا يرتكز عليه أبهام اليد عند الاستعمال .

ويحمل الدورق الأول رقم سجل ١٣١٠٤ ، وقد اقتناه المتحف عن طريق الشراء من التاجر موديس نجان بالقاهرة سنة ١٩٣٥ (شكل ١) .

أما الدورق الثانى فقد ضم لمجموعات المتحف عن طريق الإهداء سنة ١٩٥٠ ، وسجل برقم ١٦٣٧٣١ (شكل ٢) .

وقد ذكر بسجل المتحف أن الدورق الأول يحمل نصا بالخط الكوفى يقرأ « عمل أحمد بن هنيدا » ، أما الدورق الثانى فقد اقتصر على ذكر أنه مزين بكتابة كوفية : ولم ينشر أى من هذين الدورقين من قبل .

ويمتاز الدورق الأول بأنه أكثر جمالا وتناسبا من الدورق الثانى ، فنجد له رقبة لطيفة رشيقة ، ومقبضا رقيقا يزيدان من جماله ، أما الدورق الثانى فارقبته قصيرة ، تعطى للبدن شكلا مخروطيا ، ومقبضه أكثر سمكا ، ويمتاز هذا الدورق الأخير بعروة للتعليق فى أعلى البدن. ويحمل كل من الدورقين سطرين من الكتابة الكوفية البارزة :

ومن دراستنا لهاتين التختين أمكننا أن نتيين فيهما مثلين جديدين من مجموعة متشابهة من الدوارق عددها أربعة ، وكلها ذات بدن كثرى ومنفوخة فى القالب — هذه المجموعة التى قام بنشرها الأستاذ رايس D. S. Rice فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن سنة ١٩٥٨ م (ص ٨ - ١٦) .
"Journal of the Royal Asiatic Society"

وقد نشر الأستاذ رايس فى بحثه هذا دورقا فى متحف الفن بمدينة توليدو بولاية أوهايو الأمريكية ، وذكر أنه مطابق فى كتاباته وزخارفه لدورق آخر كان محفوظا فى مجموعة أسرة « ١ : نشرشل » بلندن (A. Churchill)

وقرر الأستاذ رايس أن هذين الدورقين لابد وأن يكونا قد نفخا فى قالب واحد ، وكذلك ذكر أن الدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك مطابق لدورق رابع محفوظ فى مجموعة السيد « أرنست كوفلر » (Ernst Kofler) بمدينة لوسيرن بسويسرا ، وأنهما نفخا فى قالب مشابه آخر أقل حجما من القالب السابق .

وقد قرأ الأستاذ رايس السطر الأول من الكتابة « مما عمل للأمير ييغدا [د] » ، كما قرأ السطر الثانى « عمل طيب (طلب) بن أحمد بن مسى » :

أما عن السطر الأول فلا خلاف على الكلمتين « مما عمل » نجدهما واضحتين على تحفى متحف الفن الإسلامى ، يليهما كلمة « الأمير » نجدها مقسومة نصفين ، يفصل بينهما الخط البارز الفاصل بين نصفى القالب على أحد الدورقين ، بينما نجدها كاملة على الدورق الآخر رقم سجل ١٣١٠٤ ، وتتكون الكلمة الأخيرة من أربعة حروف يمكن قراءتها « بيعة » ، والـ كان المتبع وما نتوقه دائماً بعد عبارة « مما عمل للأمير » أن نجد اسمه ، فإن هذه الكلمة الأخيرة تصبح اسماً واضحاً إذا أضفنا إلى أولها حرف « راء » ، فتصير « ربعة » (أشكال رقم ١ ، ٢ ، ٣) ، ولعل حرف الراء هذا قد سقط سهواً من قام بحفر القالب ، وربما يكون الصانع قد تعمد عدم تكراره بعد حرف الراء الأخيرة فى كلمة « الأمير » ، ونقرأ الحرف الأخير من هذه الكلمة الرباعية حرف « هاء » منتهية ، بدلا من قراءتها حرف دال ، « د » ، كما فعل الأستاذ رايس فجعلها « ببغدا » وأفترض وجود حرف « د » ثانية بعد حرف الألف ، وأن هذه الدال الأخيرة ربما تكون قد فقدت بين نصفى القالب ، ولذا رجح قراءة هذه الكلمة « ببغداد » : ويبدو أن الأستاذ رايس قد اعتمد على الدورق الذى كان فى حوزة « أ . تشرشل » بلندن ، والذى اشتراه بعد ذلك السيد ارنست كوفلر بلوسيرن وضمه إلى زميله المشابه فى مجموعته ، وقد تفضل السيد كوفلر بتزويدى بصور تفصيلية ، وصورة لقالب جصى للنص ، وتبينت وجود خط رئيسى بارز ، بعد هذه الكلمة الرباعية فى السطر الأول ، ولعل هذا الخط هو الذى دفع الأستاذ رايس إلى وضع حرف « ألف » بعد الدال الأولى :

ولكن هذا الخط الرأسي أو ما يشبه حرف الألف لانهجده في باقى الدواقر من هذه المجموعة^(١) ، ولعله وضع هنا لملأ الفراغ ، وذلك لقلة عدد كلمات النص العلوى عن النص السفلى :

وهنا يبرز السؤال من يكون الأمير ربعة هذا ؟ وبمقارنة أسلوب الكتابة وأشكال الحروف على هذه الدواقر بمثلتها على العملات وصنح السكة الزجاجية من العصر الطولونى نجد على بعض هذا النوع الأخير عبارة « مسا أمر الأمير أحمد بن طولون » وعلى بعضها الآخر اسمه فقط مسبقا بلفظ الأمير بعبارة « الأمير أحمد » وعلى صنجة أخرى نجد اسم ابنه « الأمير خمارويه »^(٢) ، فإذا تأملنا أشكال الحروف على مجموعة دواقرنا هذه نجدها مطابقة لأسلوب الخط وأشكال الحروف من هذا العصر أيضا :

ولذا نعتقد أن هذه المجموعة من دواقر الشراب تحمل اسم أحد أمراء الدولة الطولونية فى مصر هو الأمير ربعة بن أحمد بن طولون الذى كان يحيا حياة الترف والتنعيم حتى كانت ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه ، ومقتله سنة ٨٩٦ م :

أما السطر الثانى على دورق متحف الفن الإسلامى السابق الذكر فىمكن قراءته « عمل نصير بن أحمد بن هيثم (٩) » (شكل ٣) ، ولعل الأحرف التى تنتهى بها الكلمة الأخيرة تحتاج لبعض التحقيق ، أما باقى العبارة فتبدو واضحة ، وهى تدل على اسم الزجاج ، أو صانع القالب :

(١) زودنى كل من الأستاذ الدكتور إرنست جروبه والأستاذ مارلين جنكينز مشكورين بمجموعة من الصور التفصيلية للدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان ، رقم سجل (X. 121. 191) .

(٢) من أمثلة هذه الصنجات الصنجان برقى سجل ١٨٥٣٥ ، ١٨٥٤٧ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، الأولى باسم أحمد بن طولون وعلى الثانية عبارة « الأمير خمارويه » .

ولقد قرأ الأستاذ رايس الاسم الأول « طيب أو طلب » ، بالرغم من أنه لاحظ وجود حرف شبيه بحرف اللام قبل هذه الكلمة على الدورق الأول بمجموعة أرنست كوفلر :

ويضم متحف الفن الإسلامى بعض قطع من الزجاج عليها اسم صانعها « عباس بن نصير »^(١) يرجح أنها من العصر الفاطمى ، وهنا يمكن أن نتساءل عن صلة قرابة بين هذا الزجاج وصانع هذه الدوارق الجميلة « نصير بن أحمد ابن هيثم » .

كذلك يضم متحف الفن الإسلامى كسرتين أخرتين من الزجاج (رقم سجل ١٤٨٤١ ، ١٩٧٣٧) ، وقطعة ثالثة فى إحدى المجموعات الخاصة بالقاهرة (شكل ٥) عليها كتابة بارزة مختومة نصها « عمل بمصر »^(٢) بنفس أسلوب الخط والكتابة على مجموعة الدوارق هذه ، فضلا عن تشابه نوع الزجاج ، مما يؤيد نسبة هذه المجموعة إلى مصر وليس إلى الشام أو العراق ، كما كانت تنسب حتى الآن^(٣) :

(١) لام : الزجاج فى المصور الوسطى ص ١١٧ لوحة رقم ٥ ، زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٣ . ويضم متحف الفن الإسلامى ثلاث قطع عليها اسم هذا الصانع أرقام سجلها ٨١٦٧ ، ٢ ، ١٢٦٣٨ ، ١٥٥٧٩ .

(٢) كذلك تحمل بعض صنج السكة الزجاجية منذ فجر الإسلام اسم « مصر » بخط كوفى بسيط ككان لصناعتها . انظر عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية على السكة الإسلامية لوحة ٨ شكل ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٣٥٣ : المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية فى فاس ، القاهرة : ١٩٦١ م .

(٣) م . م . ، فيمانند : المرجع السابق ص ٢٣١ .

ويعرض متحف الفن الإسلامى هذين الدورقين فى الخزانة رقم (١) بقاعته الزجاج رقم (٢١) :

ويضم متحف الفن الإسلامى قطعة أخرى من الزجاج ذى البريق المعدنى ، فريدة فى بابها (رقم سجل ١٢٧٣٩-٦) ^(١) تعتبر أقدم قطعة مؤرخة وهى تمثل قاع إناء صغير ، مزخرف بأسلوب البريق المعدنى (قطر ٥,٥ سم - ارتفاع ١,٧ سم) تزينها هيئة وريدة حولها نص دائرى من الكتابة الكوفية بحروف بسيطة قرأته « مما عمل فى طراز القبيلة بمصر سنة ١٦٣ » (شكل ٤) ، ونلاحظ أن أرقام هذا التاريخ الهجرى مكتوبة بالأرقام القبطية ، ويقابل هذا التاريخ سنة ٧٧٩ م. ويحيط بالنص بقية زخارف نباتية باللونين الأصفر والبنفسجى الداكن ، وقد ساعد على تحقيق التاريخ خاصة الرجوع إلى وثائق البردى العربية بدار الكتب ، والى نشرها أستاذنا أدولف جروهمان ^(٢) ، ونلاحظ أنه قد استمر كتابة التواريخ الهجرية بالحروف القبطية فى بعض الوثائق فى مصر حتى العصر الفاطمى ^(٣) :

ويقع هذا التاريخ الذى تسجله هذه الوثيقة الزجاجية (سنة ١٦٣ هـ) ، فى عهد والى مصر يحيى بن داود بن ممدود الحرشى ، وكنيته أبو صالح ^(٤) ، وقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة العباسى المهدي فى الفترة من ذى الحجة سنة ١٦٢ هـ إلى ١٠ المحرم سنة ١٦٤ هـ :

(١) نشرت هذه التحفة لأول مرة فى مقالنا عن « الزجاج » ضمن موضوعات الاهرام الخاصة عن القاهرة - صحيفة الاهرام عدد ٢٣ يناير ١٩٦٩ م.

(٢) أوراق البردى المصرية ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، رقم ١٩٦ لوحة ٢٠ سطر ١١ ، ج ٤ وثيقة ٢٢٦ لوحة ٣ سطر (٥) ، لتحقيق رقم (ستين) ، وانظر كذلك عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية والرموز القبطية (المرجع السابق) لسوحة رقم (٩) نقلا عن : (A. Mallon : Grammaire Copte, 1926.)

(٣) جروهمان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ليصال مؤرخ (٥٠٤ هـ)

(٤) ذكر زامبور فى « معجم الاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » ج ١ ص ٣٩

فاش (٥) أن اسم هذا الوالى يحتفل أن يكون يحيى بن سبيد « كما ذكر الطبرى ج ٣ ص ٩٣ .

ويذكر المقرئى (الخطط ج ١ ص ٣٠٧) عن هذا الوالى أنه كان من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأكثرهم عقوبة ، فنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الخوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وقال من ضاع له شئ فعلى أداؤه ، فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها ، فكانت الحال على هذا مدة ولايته :

وترجع أهمية هذه القطعة ليس فقط إلى تاريخها المبكر ، ولكن لذكر مكان الصناعة أيضا في النص « في طراز الفيلة بمصر » ولعل أرجح التفسيرات لهذه العبارة هو « مصنع الفيلة » بالفسطاط ، ولما كان النص غير منقوط فيمكن قراءة الكلمة على عدة وجوه: منها « الفيلة » أو « الفيلة » جمع فيل : وتحدثنا المراجع عن « دار الفيل » التي كانت من أهم دور الفسطاط وكذلك نعرف « جامع الفيلة » الذى بناه الأفضل بن بدر الجمالى فيما بعد سنة ٤٧٨ هـ بسطح الجرف المطل على بركة الحبش ، وسمى بذلك لوجود تسع قباب فوقه ، فى جانبه القبلى كانت تبدو بشكل الفيلة لمن يرى المسجد من بعيد ، ذكر هذا المقرئى فى حديثه عن الجوامع ^(٢) ، ثم نجده يشير إليه بعبارة أخرى فى الحديث عن إنشاء المرصد (الرصد) فيقول « ... : فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير :::: » :

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ . كانت هذه الدار لأبى عثمان مولى الأمير مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى . ، البلاد المندسة ص ١٥٢ ، ١٥٣ أنها كانت على بركة قارون واشتراها كافور الاخشيدى من حبس بنى مسكين (جنان بنى مسكين) ، وموقعها على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى البغالة بالسيدة زينب . كما ذكر أيضا أن هذه الدار هى غير « دار الفيلة » التى أنشأها خمارويسة على حافة بركة الفيل حيث شارع نور السلام الآن .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ .

فلعل لفظ « الفيلة » هذا كان يطلق على المكان أيضا في هذا الموضوع (منطقة الحرف) وليس فقط تشبيها للقباب على جامع الأفضل بشكل « الفيلة » ولعل لفظة « الفيلة » اختصار أو تحريف لاسم بلدة « فيلس » القديمة بمصر الوسطى التي جاء ذكرها في وصف رحلة العائلة المقدسة ببعض الأماكن بصعيد مصر : يقول المقرئى « :::: ثم أنهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا بقرية تسمى « فيلس » مدة أيام ، ثم مضوا إلى مدينة تسمى « قس وقام » ، وهى التى يقال لها اليوم « القوصية » (خطط ج ١ ص ٢٣١) ، كذلك جاء فى (القاموس الجغرافى) ذكر « كفر الفيلة » كأحد كفور « البربا الكبرى » بالأشمونين .^(١) كذلك ذكرت مدينة « فيلوتريس » وهى من المدن المندسة إلى أنشئت بالفيوم فى عهد البطالسة^(٢) ، وإن كان هذا الافتراض الأخير يستتبع أن تعنى كلمة « مصر » التى تلى كلمة « الفيلة » مصر كلها وليست مدينة الفسطاط ، والمعروف أن منطقة الأشمونين هذه كانت ذات شهرة قديمة أيضا فى صناعة الزجاج قبل الإسلام :

ومن القراءات ذات المعنى لهذه الكلمة أيضا « القبلة » وتذكر فى المراجع التاريخية لتدل على الكعبة الشريفة أو الاتجاه إليها (الاتجاه الجنوبي الشرقى) جاء فى ذكر مدائن أرض مصر بالخطط « ومن كور القبلة كرى الحجاز وهى كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكوره أيلة وحيرها ومدين والعونيد والخوراء وحيرها ثم كورة بدا وشغب »^(٣)

(١) محمد رمزي : القاموس الجغرافى . البلاد الحالية ج ٣ ص ١٨٤ سنة ١٩٦٠ . وينطق لفظ (الفيله) بفتحين على الفاء والياء ، وتتبع هذه البلدة حاليا مركزاى قرقاص بمديرية المنيا .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٤ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٧٣ .

كما تستعمل كلمة «القبلة» أيضا بمعنى محراب الجامع ولكننا نستبعد وجود مصنع للزجاج كان يحمل هذا الاسم «طراز القبلة» وينسب إلى قبلة الصلاة: وارجح التفسيرات هو أن نعتبر كلمة القبلة علما على أسم المصنع أو المدينة كما ألفنا غالبا أن نجد تفسيراً لنوع مصانع النسيج بعبارات نصها «مما عمل في طراز الخاصة ، أو العامة بمدينة : : : كذا» :

وتبقى الإشارة إلى أهمية هذه القطعة الزجاجية بمتحف الفن الاسلامى فى اثبات استخدام أسلوب البريق المعدنى المتعدد الالوان على الزجاج فى هذا الوقت المبكر من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ويرجح هذا الدليل كفة مصر فى السؤال الذى كان يتردد منذ مدة طويلة عن أصل أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدنى على الزجاج والخزف ، هل موطن هذا الاسلوب مصر أو العراق أو ايران ؟ ؟

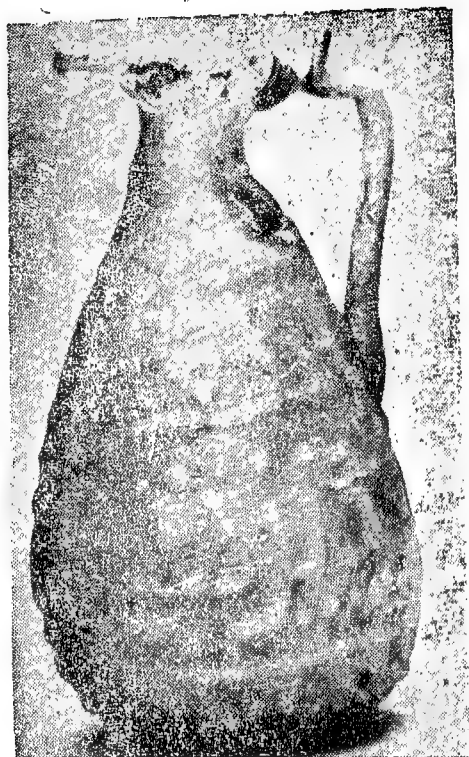
وبناء على هذا الدليل نستطيع أن ننسب إلى مصر تحفا جميلة من الزجاج ذى البريق المعدنى عثر عليها بالفسطاط آخرها الكأس الزجاجية الجميلة ذات البريق المعدنى التى عثرت عليها بعثة مركز البحوث الأمريكى بالقاهرة فى حفائرها بمنطقة الفسطاط عام ١٩٦٥م والتى تحمل أسم الأمير عبد الصمد بن على وإلى مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ - ٧٧٣ م) والتى تخلو من ذكر مكان الصناعة^(١).

(١) جورج اسكانلون : مجلة الآثار «Archaeology» ج ٢١ ص ١٩٥ وشكل ملون مقابل ، يونية سنة ١٩٦٨م. الكأس محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة برقم سجل ٢٣٢٨٠.



شكل رقم (١)

دورق رقم سجل ١٣١٠٤ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

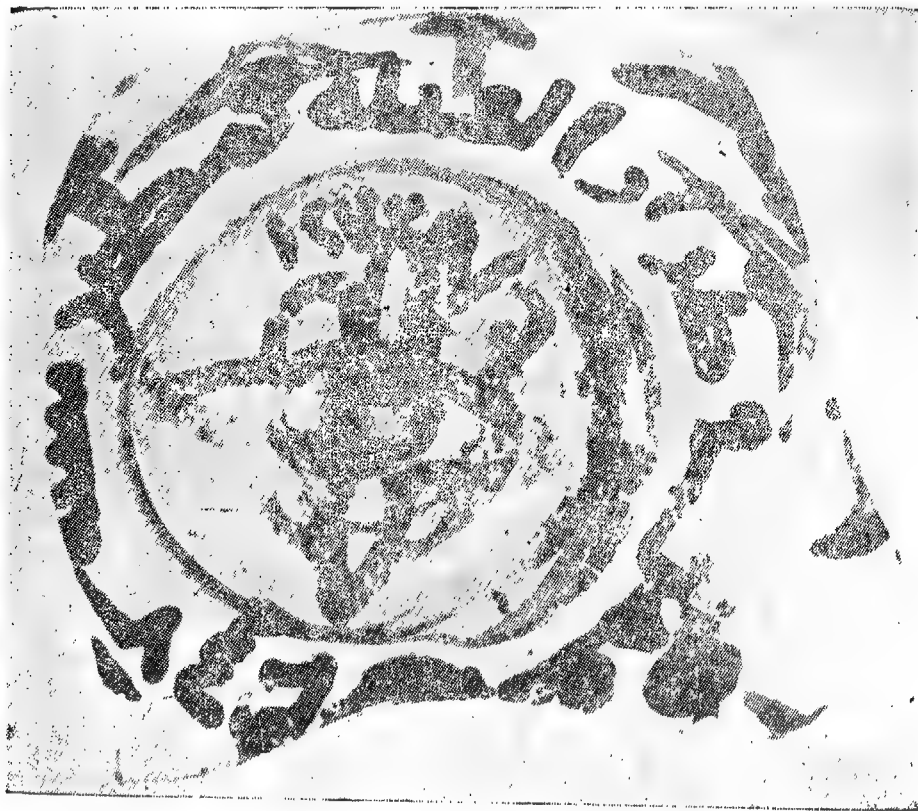


شكل رقم (٢)
دورق رقم سجل ١٦٣٧٣، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة

مما عمل في طراز الفيل مما عمل في طراز الفيل

شكل رقم (٣)

نص الكتابة على دورق منحف الفن الإسلامي بالقاهرة



شكل رقم (٤)

قاع إناء زجاج مزخرف بالبريق المعدني عليه عبارة نصها « مما عمل في طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ »
وأرقام التاريخ الهجري مكتوبة بأرقام قبطية

٦٦١

(٤٣)



شكل رقم (٥)

جزء من جدار اثناء زجاج عليه بالبارز عبارة « عمل بمصر »
في مجموعة الدكتور هنري أمين عوض بالقاهرة

دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني

للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي

الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي بحث ثان نقاش في الندوة عنوانه « دور الأزهر
في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر » وينشر مستقلاً في مطبوعات الألفية •

دور الأزهري في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني

للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي

قضى الغزو العثماني لمصر سنة ١٥١٧ على دولة المماليك الشراكسة ،
ففقدت البلاد استقلالها ، وانفصمت عرى الوجود التي كانت قائمة بين
مصر وبين بلاد الشام ، وسقطت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة
بولائه نحو الدولة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة ،
ونخست مصر زعامة العالم الإسلامي ، وهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة
إلى ولاية عثمانية .

انطوى الحكم العثماني لمصر على عيوب كثيرة لا مراء فيها ، ولكنه لم
يخل تماما من المزايا ، واستطاع الشعب المصري أن يفيد من بعض تلك العيوب
ومن هذه المزايا ، فاحتفظ وهو تحت الحكم العثماني بصيغته العربية ،
واستمسك بمقوماته الأساسية : اللغة ، الدين ، الثقافة ، التقاليد ، العادات . وكانت
هذه المقومات من أهم العوامل في المحافظة على الطابع العربي لمصر .

خصائص الحكم العثماني لمصر

لم يحاول العثمانيون عثمة الشعب المصري ، أى صبغه بالصبغة العثمانية ، ولم يحاولوا ربطه بالحضارة العثمانية ، واكتفوا بالوشيجة الدينية الإسلامية . وكان للجيش في الدولة العثمانية وظيفتان : الحرب ، والاشتراك في الحكم ، وقد طبق العثمانيون هذا المبدأ بشقيه في مصر ، فتقلد العسكريون المناصب القيادية في شتى أجهزة الحكومة ، عدا المناصب القضائية .

١ - استعلاء وعزلة

عاش العثمانيون في مصر طبقة حاكمة ، منعزلة عن الشعب المصري ، طابعها الصلف والصرامة والاستعلاء : وتمثل هذا الطابع في أساليب الحياة الذي التزموه في هذه البلاد ، وفي طريقة استيطانهم مصر ، فهم لم يختلطوا بالمصريين ، ولم يصهروا إليهم ، بل تفوقوا اجتماعيا وجنسيا ، وأطلقوا على المصريين شتى الأسماء والنعوت ، مثل « الفلاحين » و « أولاد العرب » و « العرب » ولم يحدث امتزاج أو انصهار بين العثمانيين وبين المصريين ، وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربية في موجات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برسالة الإسلام والعروبة ، فقد أقرب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثاني ، ومطلع القرن الثالث للهجرة ، واختلطوا بالمصريين ، وتزوجوا بالمصريات ، وانسابت الدماء العربية في دماء سكان مصر ، وهي الظاهرة التي تسمى « التعريب الجنسي » ، وهكذا انحسرت ألسنتهم في لغة واحدة ، واتحدت أرحامهم وأصلاهم ، واتحدت عاداتهم وتقاليدهم ، وتمت عملية الانصهار

بين العرب والمصريين على مدى أجيال متعاقبة . ومن المعروف أن عمليات الانصهار والامتزاج والتفاعل والدوبان هي التي تبقى وهي التي تصنع التاريخ . وقد استطاع العرب تحويل مصر إلى بلاد عربية إسلامية . وكان شأن مصر في هذا التحول شأن العراق والشام وشمال أفريقيا وغيرها^(١) .

ب - حكم غير مباشر

وإلى جانب الاستعلاء الذي كان سمة بارزة في خلق العثمانيين ، كانت هناك عوامل أخرى ساعدت على انعزال العثمانيين عن الشعب المصري . كان من بينها طبيعة الحكم العثماني نفسه ، فقد كان حكماً غير مباشر ، بمعنى أن العثمانيين في حكمهم لمصر لم يتصلوا بالشعب المصري اتصالاً مباشراً . كان الملزم في الريف هو أداة الاتصال بين الحكومة وبين الفلاحين العاملين بدائرة

(١) كانت السياسة العليا للدولة الإسلامية في خلال القرنين الأول والثاني للهجرة تقضي بأن تكون القوات المسلحة مقصورة على العنصر العربي . ففرضت على أفراد هذه القوات أن يعيشوا في عزلة اجتماعية عن أهالي البلاد ، وأقامت لهم الدولة مدناً عربية أو معسكرات ، وحرمت عليهم ممارسة النشاط الاقتصادي ، وعينت لهم أرزاقاً وأعطيت لإعانة أسرهم والإنفاق عليها . وعلى الرغم من هذه القيود فقد حدث في هذا الدور المبكر طلائع التزاوج بين المهاجرين العرب وبين السكان عن طريق السبايا أو الزواج بالكتائب ونظام تعدد الزوجات ونظام التسرى . وقد أمعن الرجال العرب في صدر الإسلام في استخدام هذه الرخص استكثاراً لعددتهم . وقد بدأت الدولة تحيد بالتدريج عن تلك السياسة العليا في العصر العباسي الأول لعدة اعتبارات ، كان من بينها : زيادة الأعباء على بيت المال واعتماد الخلفاء العباسيين على العنصر الفارسي ثم العنصر التركي ، حتى إذا تولى الخلافة المعتصم العباسي أسقط العرب من الديوان وقطع ممتلكاتهم ، وانساح العرب في البلاد ومارسوا نشاطاً اقتصادياً متعدد الأنواع .

الترامه^(١) ، وكان شيخ الطائفة في المدينة بمثابة ضابط الاتصال بين السلطات الحكومية وبين أفراد الطائفة^(٢) ، وبمضى الزمن ازداد نظام الالتزام رسوخا في بنيان المجتمع في مصر ، فكان الملتزمون طرائق قديما : فيهم علماء الأزهر وكبار التجار وشيوخ العرب وأعضاء البيوت المملوكية وفيهم النساء أيضا. كما كثر عدد الطوائف كثرة مذهلة ، فشملت جميع أصحاب المهن والحرف

(١) من الدراسات الرصينة والحديثة التي ظهرت عن نظام الالتزام في مصر إبان الحكم العثماني البحث الذي تقدم به ستانفورد شو Stanford J. Shaw الأستاذ المساعد في التاريخ العثماني بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذي عقد في إبريل سنة ١٩٦٥ بجامعة لندن وكان عنوان البحث Landholding and Land - tax Revenues in Ottoman Egypt. وقد جمعت الأبحاث التي نوقشت في هذا المؤتمر في مجلد تولى الإشراف على إخراجه الأستاذ هولت P.M. Holt أستاذ تاريخ العالم العربي الحديث بجامعة لندن. وكان عنوان المجلد : Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic edited by P.M. Holt. London. 1968. وقد ظهر البحث المشار إليه في ص ص ٩١ - ١٠٣ .

(٢) يطلق الأستاذ برنارد لويس على هذه الطوائف اسم نقابات الحرف craft guilds ببناء يطلق عليها دكتور محمد فهمي طيبة : الطوائف ، ويسميا دكتور الجرتل النقابات انظر :

Bernard Lewis ; The Islamic Guilds.

وهو بحث منشور في مجلة .

Economic History Review. London, vol. VIII, 1937, pp. 20-37.

دكتور محمد فهمي طيبة : تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة . القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ص ٢٩ - ٣١

دكتور علي الجرتل : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر . من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ص ٢٢ - ٢٤ . وانظر أيضا .

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد العثماني ١٥١٧-١٧٩٨ ص ص ٢٧٢ - ٢٧٣ وهو دراسة مركزة ورصينة ظهرت في مجلد بعنوان « المحمل في التاريخ المصري » ص ص ٢٣١ - ٢٨٤ وشارك في وضعه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ١٩٤٢ وهذا المجلد يناول تاريخ مصر وحضارتها من أقدم العصور حتى المعاهدة المصرية الإنجليزية ١٩٣٦ واتفاقية ميونخ الخاصة بإلغاء الامتيازات الأجنبية .

البسيطة، بل والوضيعة كذلك. وارتاحت السلطات العثمانية لهذه النظم، لأنها كانت تحمل عنها عبء تحصيل الضرائب من الممولين، وتوفر عليها مشقة الاتصال بالجهابذة. ونجم عن هذه النظم أن السلطات العثمانية لم تكن تتصل بأحد من المصريين إلا عن طريق شيخ طائفته، وهى لا تعرف الفرد إلا مندرجا فى طائفة، وفى الوقت نفسه كان الفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه الاقتصادى إلا إذا كان منتما إلى طائفة يخضع لنظمها وتقاليدها وزعامتها ويحتفى بها^(١)، ومن ناحية أخرى كان التصوف قد ازداد انتشاراً فى مصر بصورة ساحقة بين المصريين إبان الحكم العثمانى، ومضى أرباب الطرق الصوفية يزاوون نشاطهم الدينى، ويمارسون سلطانهم على الأتباع والمريدين ومن إليهم، ويوقعون على المذنبين منهم شتى العقوبات، دون تدخل من السلطات العثمانية^(٢). فكان المصرى يعيش ويموت دون أن تضطره ظروف حياته إلى الاتصال بالحكام العثمانيين أو مواجهته: وكان الفلاح فى الريف يعرف الملتزم أكثر مما يعرف الكاشف^(٣)، والصانع فى المدينة يتصل بشيخ طائفته، يلتمس منه الحماية

(١) الدكتور محمد بدیع شریف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم: دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الاقتباس مأخوذ من الدراسة التى وضعها الدكتور عزت، ص ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) دكتور توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى. القاهرة، لم تذكر سنة الطبع. الناشر مكتبة الآداب بالجاميز، ص ص ١٠٨ - ١٤٠، ٢٠٠ - ٢٢٨.

(٣) الكاشف مصطلح تاريخى معناه حاكم وحدة إقليمية تسمى كاشفية، وجمعها كاشفيات. والكاشفية تقل فى المساحة والأهمية عن الصنجدية التى يحكمها صنجد، وقد ينب الكاشف عن الصنجد فى حكم الصنجدية إذا أثر الأخير البقاء فى القاهرة مدة طويلة. وقد حدد قانوناه اختصاصات الكاشف. وأجاز له فرض ضريبة تسمى «مال الكشوفية» على القرى لسد نفقات الإدارة المحلية لمرتب الكاشف ومرتبات العسكر المحليين وترميم الجسور وتزويد الجبه خانة-مستودع الذخيرة الحربية- بالبارود. ومن أهم الكاشفيات فى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر: دمنهور والمنصورة ومنوف والجيزة والفيوم والهنسا والأشمونين ومنفلوط وطما وفريشوط والاقصر.

أو العون أو التوجيه الفنى ، والمجاور لا يعرف إلا شيوخ الأزهر الذين يقرأ عليهم، يذودون عنه ذبادا إذا ألم به حيف، والأعراب والبدو يدينون بالولاء لزعماء عشائريهم . وهكذا كان المجتمع المصرى نتيجة الحكم العثمانى غير المباشر يسوده نوع من التكتل فى طوائف وهيئات لها كيانات وتقاليدها واحترامها. وليس معنى هذا التكتل الطائفى أن المجتمع المصرى إبان الحكم العثمانى كان مجتمعاً منحللاً ، بل إن انتماء الجماهير فى الريف والحضر إلى مثل هذه الطوائف والهيئات قد جعل من كل طائفة وحدة تربط أفرادها صلات اجتماعية وثيقة ، ويسودهم التضامن فى السراء والضراء ، ويمارسون قدراً من الحرية فى حياتهم ولونا من ألوان الحكم الذاتى فى نطاق مهنتهم أو حرفتهم . كما كان يربط بين الطوائف جميعاً شعور من الأخوة والمحبة فى عصر اتسمت الحياة العامة فيه بالهدوء والبساطة والزهد. كما ألفت بين الطوائف السياسة التعسفية التى كانت السلطات الحاكمة تلجأ إليها فى هذا العصر من فرض ضرائب جزافية وقروض إجبارية ومصادرات وما إلى ذلك من أنواع المظالم.

ج — قلة التدخل الحكومى

وهناك خصيصة أخرى من خصائص الحكم العثمانى ساعدت على دعم هذه الأوضاع ، وأدت إلى انعزال العثمانيين عن الشعب المصرى ، كان نشاط الحكومة محدوداً جداً مارسه فى نطاق ضيق لم يتجاوز بضعة قطاعات معدودة مثل القضاء ، وجمع الضرائب ، والمحافظة على الأمن ، وتطهير الترع ، والإشراف على إعداد وتنظيم وحراسة قافلة الحج المصرى، وما تتطلبه من إعداد الكسوة الشريفة ، وإرسال الصرة، وهى الأموال السائلة والعينية، المرصودة على الحرمين الشريفين ، وأشراف الحجاز ، وفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتعيين أمير الحج وسردار الحج ، والقوة العسكرية المرافقة

- ٦٧٣ -

للقافلة ، ولم يمتد نشاط الحكومة إلى قطاع التعليم أو الصحة أو المواصلات ، أو غير ذلك من مرافق الخدمات التي تنهض بها غالبية الدول الحديثة في الوقت الحاضر ، وتوضح هذا الحقيقة من دراسة أوجه الإنفاق الحكومي في مصر ، إبان الحكم العثماني . وإذا كان للنشاط الحكومي الضيق عيوبه التي لاشك فيها

(١) كانت وجوه الإنفاق الرئيسية هي الجزية السنوية وتسمى الخزنة ، ومعناتات الآستانة وتسمى الإرسالية ، واعتمادات الحجاز وتسمى الصرة ، ونفقات جيش الاحتلال العثماني الذي كان يطلق عليه الحامية ، ثم مرتبات الباشا ، والدهن دار ، والروزنجي ، والبيكات المماليك أمراء طبخانة ، والكشاف ، والأفندية وهم الجهاز الكتابي في الدواوين .

كما كانت ترصد اعتمادات مالية تذكر منها على سبيل المثال : شراء قتل فخارية ليشرب منها أعضاء ديوان الباشا في أثناء انعقاد الجلسات ، وشراء القفاطين التي يقدمها الباشا لكبار الموظفين عند صدور فرمانات سلطانية أو ديوانية بتعيينهم في مناصبهم أو بإسناد مهام كبرى إليهم كقيادة فرق عسكرية تشترك في حروب السلطان . ويطلق المؤرخون على القفاطين وهو مصطلح تاريخي اسما حديثا هو أرودية الشرف robes d'honneur وكانت من ثلاث درجات . كما كانت تدرج اعتمادات مالية لنقل ماء الشرب إلى السويس والعناية بالآبار في منطقة الطور ، وصيانة السواقي بمصر القديمة ، ومرتبات لشيوخ مقياس الروضة ونظار المحطات الصحراوية المتناثرة في شبه جزيرة سيناء حتى العريش لاستبدال الخيول بغيرها كي يستخدمها الموظفون المنوط بهم نقل البريد الحكومي بين القاهرة والآستانة .

انظر المذكرة الضافية التي وضعها إستيف Estève عن مالية الحكومة المصرية في العهد العثماني بعنوان :

Mémoire sur les finances de l'Egypte, depuis sa conquête par le sultan Selym 1er, jusqu'à celle du général en chef Bonaparte, par M. le Comte Estève.

قد نشرت هذه المذكرة في الجزء الثاني عشر ص ٤١ - ٢٤٨ من موسوعة

Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée française. Seconde édition , celle de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829.

والمجموعة التي في متناول الباحثين في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة هي الطبعة الشامية التي أشرنا إليها هنا ، وهي تتكون من ٢٦ جزءا ، وقد استقيننا من هذه الطبعة المساعدة العلمية في بحث بعض النقاط التي تتضمنها هذه الدراسة . ولذلك فإن الإحالة في هوامش الصفحات التالية من هذا البحث تشير إلى الطبعة الثانية .

حتى وصفه بعض الباحثين بأنه كان سطحيا متحرجا عن أن يتغلغل في حياة الناس^(١)، ولكن كان له مزاياه أيضا، ومن بينها أنه أتاح للمصريين قسطا كبيرا من الحرية، والقدرة على التحرك وتكييف أوضاعهم الاجتماعية والثقافية بل والاقتصادية طبقا لما ألفوه من تقاليد وعادات، وباعد بينهم وبين الخضوع للموثرات العثمانية على اختلاف صورها وأشكالها، فاستمر المصريون يحيون الحياة التي ألفوها قبل دخول العثمانيين مصر، ومضوا يستخدمون اللغة العربية في أحاديثهم ومجمعاتهم وفي ثقافتهم، مما حفظ لمصر وجهها العربي، وحال دون طمسها بصبغة عثمانية. وقنعت الدولة من مصر بالجزية السنوية تحمل إليها برا، وبمعتادات الآستانة تنقل إليها بحرا كل عام^(٢)، وبالأموال والغلال

= وانظر أيضا دراسة حديثة ظهرت عن التنظيم المالي والإداري لمصر إبان الحكم العثماني بعنوان :

Stanford J. Shaw ; The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. Princeton University Press, Princeton. N.J. 1962, pp. 184 - 282.

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : المقدمة التي وضعها لكتاب « حوادث دمشق اليومية »

١١٥٤-١١٧٥ هـ (١٧٤١ - ١٧٦٢ م) ألفه الشيخ أحمد البديري الحلاق ونقحه الشيخ محمد سعيد القاسمي وحققه ونشره الدكتور عزت. من مطبوعات الجمعية المصرية لدراسات التاريخ، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٧ من المقدمة.

(٢) معتادات الآستانة مصطلح تاريخي معناه الهدايا التي كان يتعين على الحكومة المصرية إرسالها كل عام إلى السلطان وزوجاته وبعض أفراد أسرته ورجال الباب العالي. وتتضمن كيات وفيرة من الأرز والسكر والبقول وماء الورد والشربات والمطور والمصافير والتوابل والأقمشة الحريرية الهندية والأقمشة الصوفية والجبسوخ. وكانت الحكومة المصرية تحصل على هذه الأصناف سواء من الأسواق المحلية أو الخارجية أو من ملتزم منطلق دمياط أو من أمين بحرك البهار. وكانت معتادات الآستانة تتضمن أيضا الخيل والبغال والبارود للجيش العثماني، وخيوط القنب والأسلوك والشناير الحديدية للأسطول، والقصدير لتنظيف الأواني في مطابخ القصور السلطانية. انظر :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols. Tome troisième. Le Caire, 1933. Première Partie, l'Egypte Ottomane de la conquête par Selim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). par Etienne Combe, pp. 73 - 74.

٤٧٥ -

ترسل إلى الحجاز ، وقنعت أيضا بأن يذكر اسم السلطان على منابر المساجد ،
مقرونا بالدعاء له ، وبالعملة تضرب باسمه ، وبالباشا العثماني نائبا للسلطان
في مصر ، وبجيش الاحتلال يربط في قلعة الجبل وبعض المواقع الأخرى ، إلى
غير ذلك من مظاهر السيادة ، ويلاحظ أن السياسة العليا للدولة العثمانية كانت
تجنب قدر الإمكان إحداث تغييرات جذرية في حياة سكان الأقاليم المفتوحة ،
فكانت السلطات العثمانية تبقى على الأنظمة التي تجدها ، والتي ألفها هؤلاء
السكان ما لم تكن هذه الأنظمة تتعارض مع السيادة العثمانية ، فكان العثمانيون
في هذه الحالة يدخلون تعديلات تتمشى أو تخدم أو تساند « الوجود العثماني » :
وسنرى أن الأزهر قد استفاد من هذه السياسة العليا التي انتهجتها الدولة
العثمانية ، فلم يتدخل العثمانيون في شئونه :

و - اهتمام بالجانب الديني

والدولة العثمانية - فوق ذلك كله - دولة تيوقراطية un état théocratique
أى دينية^(١) . وكان للهيئة الإسلامية في الآستانة مركز مرموق ووضع معترف
به . وكان يطلق على رئيسها المفتي أو مفتي استانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك
اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات الدينية والقضائية كلها تخضع لنفوذه :
وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطته ، وكانوا يعملون على استغلالها ،
كلما حاربهم أمر ، أو أقدموا على مشروع خطير . ومما يذكر في هذا الصدد
أن السلطان سليم الأول استصدر من مفتي استانبول فتوى تجيز له محاربة
المماليك ، على الرغم من أنهم مسلمون وسنيون كالعثمانيين سواء بسواء ،
ولكنه استند إلى أن المماليك أيدوا الشيعة في أثناء الحرب التي اندلعت بين

(١) من محصائص الدولة العثمانية أنها كانت دولة عسكرية ، وإقطاعية من نوع خاص ،
وطبقية ، و تيوقراطية . وقد تعرضنا بالشرح لهذه الخصائص في كتابنا : أوربا في مطلع العصور
الحديثة . الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، دار المعارف ، ص ٥٢٨ - ٥٤٣ .

السلطان سليم الأول وبين الشاه اسماعيل الصفوى : وكانت الأحكام فى الدولة تستند إلى الشريعة الإسلامية ، تمشياً مع روح العصر الذى كان يضع الدين فوق كل اعتبار آخر : وكانت الدولة تعمل من ناحيتها على تغذية العاطفة الدينية الإسلامية المشتعلة فى نفوس العثمانيين ، رغبة فى الإفادة منها فى دفع حركات التوسع العسكرى العثمانى فى أوروبا بوجه خاص ، وأملاً فى القيام بالدور الذى قام به العرب فى صدر الإسلام : وكان الاتجاه الدينى ملحوظاً فى سياسة الدولة العثمانية . كان المفتى يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز رئيس الوزراء^(١) والوزراء^(٢) . وكانت المساجد العظيمة والعديدة التى أنشأها السلاطين فى الآستانة وأدرنة وغيرهما صدى لاهتمام السلاطين بمسيرة الشعور الدينى المتأجج فى نفوس الشعب ، ورغبتهم فى اكتساب قلوب الرعية عن طريق الدين . وكان يلحق بالمسجد الكبير الفخيم منشآت خيرية من مطاعم مجانية وتكايا وأسبلة ومدارس ومكتبات ، حتى كان المسجد بملحقاته بمثابة وحدة مجمعة دينية خيرية : وكان من مظاهر الاتجاه الدينى فى سياسة الدولة تشجيع التصوف بين العثمانيين ، حتى قيل فى هذا الصدد إن حياة الجاهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال

(١) كان رئيس الوزراء أو الوزير الأول فى الدولة العثمانية يطلق عليه « أولو وزير » ولما تولى السلطان سليمان المشرع عرش الدولة (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أطلق عليه لقب «الصدر الأعظم» .

(٢) حين يذهب المفتى للمثول بين يدى السلطان يخف هذا لاستقباله متقدماً مسج خطوات بينما لم يكن يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح للمفتى بتقريب كنف السلطان ، بينما كان لايسمح لكبير الوزراء إلا بلم ذيل ثوبه . انظر :

محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب . ١٩٥٧ ، صص ١٢٤ - ١٢٥ (لم يذكر اسم المدينة أو الدولة التى طبع فيها الكتاب ، والرأى الغالب أنه طبع فى بيروت شأن كل كتب هذا المؤلف) .

الدولة ، وظهر أيضا نظام الفتوة ينضوى تحت لوائه شبان غير متزوجين ، عرفوا باسم « جماعات الإخوان » . وكان السلاطين في مجموعهم يقربون إليهم علماء الدين والأتقياء : وكان العالم المتخصص في الشريعة الإسلامية وأصول الدين يظفر بتقدير عميق من الحكام والمحكومين على السواء : وانعكس هذا الطابع الديني للدولة العثمانية على سياستها في مصر ، فقد اهتمت اهتماما بالغا بالمحافظة على التقاليد الإسلامية وإقامة الاحتفالات في المناسبات الدينية ، واهتمت بالمساجد ، وكان الأزهر في مقدمتها . وسرى في موطن قادم من هذه الدراسة مظاهر الاحترام العميق الذي أبداه العثمانيون للأزهر وعلمائه : واهتمت الدولة أيضا بإعداد الكسوة الشريفة التي ترسل إلى الحجاز ، وإرسال « الصرة » وهي الأموال السائلة المرصودة على الحرمين الشريفين وأشرف الحجاز ^(١) . وكان جزء من هذه الأموال - كما ذكرنا من قبل - مخصصاً لفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وإرسال الغلال من السويس أو القصير إلى جدة أو ينبع ، وكذلك تعيين أمير الحج وسردار الحج والقوة العسكرية المرافقة . والجبرتي المؤرخ - كأحد كبار رجال الفكر الإسلامي - يستهويه الطابع الديني البارز في سياسة الدولة العثمانية ، فيتكلم بإعجاب وفي عبارات مسجعة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن الحممدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم الممالك والحاوكة ^(٢) » .

(١) كان يطلق على مخصصات أشرف الحجاز المصطلح التاريخي « تعيينات الأشرف »

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة

بولاق ، ١٢٩٧ هـ أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

في ظل هذه الدولة العثمانية ذات الطابع الديني الإسلامي البارز في سياستها، وفي ظل نظم الحكم التي التزم بها العثمانيون في حكم مصر، مضى الأزهر يؤدي رسالته باللغة العربية في الحقلين الديني والتعليمي، استمراراً للحياة الدينية العلمية الحصبة التي عرفت بها من قبل. وقد بلغ أثره في الحياة المصرية من القوة والعمق والذوبان ما جعله يحافظ على الطابع العربي لمصر طوال الحكم العثماني، وهي فترة امتدت قرابة ثلاثة قرون حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وجدت الأزهر بموج بتيارات تعدت جذرائه إلى الحياة العامة في مصر كلها؛ ووجدت الحملة أن الأزهر معقل رئيسي للمقاومة استطاع أن يقود ثورة رائدة في وجه أول غزو أوروبي عسكري لإقليم عربي في التاريخ الحديث.

وقد أسهمت عدة عوامل في نجاح الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني، كان من بينها:

أولاً: عدم تدخل العثمانيين في شئون الأزهر:

فرضت الدولة العثمانية اللغة التركية لغة رسمية في دواوين الحكومة في مصر: وكانت هذه الدواوين قليلة العدد إلى حد بعيد^(١) والتزمت الدولة بفلسفتها في الحكم والتي كانت تتلخص — كما ذكرنا — في أن يكون التدخل الحكومي في حياة الجماهير ضيقاً محصوراً في نطاق محدود لا يتجاوز بضعة قطاعات. وتمشيا مع هذه السياسة لم يتدخل العثمانيون في شئون الأزهر ولم يجعلوا من التركية لغة الدراسة في الأزهر، ولم يفرضوا عليه الدراسات التركية سواء الدراسات اللغوية أو الأدبية من نحو وصرف وبلاغة وفقه اللغة التركية والأدب التركي وتاريخه. ولم يفرضوا عليه أيضاً دراسة الحضارة

(١) كان أهم هذه الدواوين: ديوان الباشا، والديوان الدفترى، وديوان الروزنامة

التركية والفكر التركي. ومهما قيل إنه لم يكن للأتراك العثمانيين رصيد حضارى متفوق يلقنونه للعرب ، فإنهم كانوا يحكم الاحتلال أصحاب القدرة على تريك الدراسات الأزهرية : ولكنهم التزموا بتقاليدهم فى حكم البلاد المفتوحة ، فلم يزجوا بأنفسهم فى شئون الأزهر : وقد التزموا بهذه السياسة التزاما دقيقا : وتعددت مظاهر هذه السياسة : كما سنرى فى موطن قادم فى هذه الدراسة . وتمشياً مع فلسفة الحكم العثمانى لم تقم السلطات العثمانية بإنشاء معاهد أو مدارس لتعليم اللغة التركية ونشرها . ولم تكن قد عرفت بعد وسائل الإعلام الحديثة كالصحافة والإذاعة والتلفزيون وغيرها ، وعلى ذلك ظلت اللغة التركية بعيدة عن أسماع الجماهير : وكانت وسيلة الإعلام الرسمية على الصعيد الجماهيرى تتمثل فى قراءة القزمانات السلطانية والديوانية فى الجامع الأزهر بعد ترجمتها إلى اللغة العربية من التركية^(١) ، كما كانت تتلى هذه القزمانات فى خان الخليلى كوسيلة إعلامية للتجار ومن إليهم : ولم يحاول المصريون من ناحيتهم تعلم اللغة التركية سواء بدافع ذاتى أو جرياً وراء مغنم يظفرون بها .

ظاهرة صحية :

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتي ذكرها نابليون الأول فى مذكراته التى أملاها وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand ، قوله إنه لما جاء إلى مصر قائدا عاما للحملة الفرنسية ، وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية وأنهم يجهلون لها ، وأن هذه اللغة

(1) Stanford J. Shaw ; Ottoman Egypt in the Eighteenth Century The Nizâmname - i Misir of Cezzar Ahmed Pasha. Edited and translated from the Original Turkish by Stanford J. Shaw. Harvard, 1962. Distributed for the Center for Middle Eastern Studies of Harvard University. Harvard Middle Eastern Monographs, VII, p. 38.

(١)
كانت غربية عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غربية عليهم سواء بسواء. ومن المعروف أن بوناپرت جاء إلى مصر بعد مضي ٢٨٢ سنة على دخول السلطان سليم الأول مصر في يناير ١٥١٧ ، ومعنى هذا أن اللغة التركية لم تنتشر بين الشعب المصري بعد انقضاء ما يقرب من ثلاثة قرون على الحكم العثماني. وهي ظاهرة صحية تدل على أصالة الطابع العربي لمصر : وقد عانى الشعب المصري إرهابات عديدة ، وتراءى للبعض أنه استكان للطغيان ، ولكنه صمد له وقاوم ألوان الظلم مقاومة سابية حينا ، وبالثورة الهادئة حينا آخر ، وبالثورة الصاخبة حينا ثالثا. وكان الأزهر هو مصدر حركات مقاومة الظلم بغذيتها ويتصدرها ، كما كان الأزهر معقل اللغة العربية ، درأ عنها اللغة التركية واستطاع أن يردها عن التسلل إلى المجتمع المصري :

ثانيا : الاستقلال المالي للأزهر

كان الاستقلال المالي للأزهر في مقدمة العوامل التي أسهمت في نجاح الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر: فقد كان الأزهر يتمتع باستقلال مالي عن الحكومة بفضل حصيلة الأوقاف التي حبسها عليه الخيرون من أهل البلد ، ليؤدى رسالته الإسلامية العربية نشرًا وتعليما . وكانت هذه الأوقاف تدر الخير على علمائه وطلابه ، وجعلتهم في غناء عن عون مالي تقدمه لهم الحكومة ، ويعتمدون عليه في معيشتهم ، ويقرر جومار Jomard أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون التي صاحبها بوناپرت في حملته على مصر ، وأحد أعضاء مجمع مصر العلمي L'Institut d'Egypte أنه كانت للأزهر موارد

(1) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798 - 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui - même à Sainte - Hélène et publiés par Général Bertrand. Paris. 1847, 2 vols. t. II. p. 151.

مالية ضخمة ، وأن شطرا كبيرا منها ينفق على التعليم الجامعي الذي يمارس في رحاب الجامع وعلى تمويل المكتبة به :^(١)

وفي ظل هذا الاستقلال المالي عاش الأزهر بعيدا عن الخضوع لنفوذ العثمانيين ، فلم يعرف عنه طوال الحكم العثماني أنه واكب الحكام العثمانيين في انتاجاتهم أو في نزعاتهم ، بل عاش علماء الأزهر وطلابه معززين مكرمين ، بمنأى عن الخضوع للبasha العثماني ، أو العسكريين العثمانيين ومن لا يهيم من أدوات الحكم العثماني ، وكان لمشايخ الأزهر الجرأة عند اشتداد الخطوب بالشعب ، في أن ينذروا الحكام ويتهددونهم بتأليب الشعب عليهم إذا بدا من الحكام إهمال لنصحهم ، أو رفضوا الاستجابة لوساطتهم : واستطاع علماء الأزهر في حالات عديدة إسداء هذه المعونة للشعب الذي التف حولهم يلجأ إليهم ، ويرجو منهم التوسط لدى الحكام لرفع المظالم عنه : وقد ترتب على هذا الوضع المالي المستقل للأزهر أن مارس علماؤه حرية مطلقة في اختيار الدراسات والبحوث ، والموضوعات التي تلقى على الطلاب في الحلق الدراسية وفي انتقاء الكتب التي يقرأها الأساتذة على طلابهم ، دون أن يخضعوا أنفسهم أو طلابهم أوجامعتهم العتيدة لرقابة الحكومة أو توجيهها أو إشرافها . وأهم من ذلك كله :

(١) انظر بحثه الذي نشر بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire, accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignements (sic), sur sa distribution, ses monumens (sic), sa population, son commerce et son industrie.

في موسوعة :

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVIII, deuxième partie, pp. 113-538.

ظلت الدراسات والمراجع والكتب كلها باللغة العربية استمراراً وتدعياً للمركز الانفرادى الذى كانت تشغله لغة القرآن فى الحياة العلمية فى الأزهر قبل دخول العثمانيين مصر : فضت العربية دون سواها لغة الدراسة فى هذه الجامعة . ونجم عن هذه الحرية التى تمتع بها الأزهر أن كانت اللغة التركية بعيدة عن الأزهر وعن حياته العلمية : فكانت الحصرية بأوسع معانيها هى الطابع الذى ميز الأزهر لإبان الحكم العثمانى ، مما أضفى عليه شخصية عربية أصيلة ومستقلة ، لها كيانها واحترامها وهبتها فى نفوس الحكام والمحكومين على السواء :

كانت تدرس فى الأزهر لإبان الحكم العثمانى علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة العربية وآدابها ، وما يتصل بها من بلاغة ونحو وصرف ، ثم علم الفلك وكان يسمى علم الهيئة ، إلى جانب علوم أخرى كانت تدرس فى نطاق ضيق وهى الطبيعة والأحياء ، وكان يطلق عليها علم المواليذ ، والرياضيات من حساب وهندسة وجبر^(١) :

وعلى هذا النحو ظل الأزهر طوال الحكم العثمانى يؤدى رسالته باللغة العربية التى ظلت لغة الثقافة ولغة الجماهير معا ، وظل طابع مصر هو الطابع العربى الأصيل :

(١) انظر ترجمة الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى شيخ الجامع الأزهر ١١٨٢ - ١١٩٠ هـ = ١٧٦٧ - ١٧٧٦ م فى الجبرق ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٧ ويذكره هذا المؤرخ بين وفيات سنة ١١٩٢ هـ

وتوجد مخطوطة محفوظة تحت رقم ٢٣٢ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى فى مدينة سوهاج تحت اسم الطائف النورية فى المنح الدمنهورية لشهاب الدين الشيخ أحمد الدمنهورى .

وهذه المخطوطة عبارة عن سجل لإجازات الشيخ الدمنهورى والعلوم التى تلقاها عن شيوخه والمؤلفات التى وضعها . وتقع هذه المخطوطة فى ١٠٢ صفحة من القطع المتوسط .

وانظر أيضا سند الشيخ الدمنهورى فى : الأزهر تاريخه وتطوره . صادر عن وزارة الأوقاف وشئون الأزهر . القاهرة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م . مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ الدكتور محمد الهبى ص ٤

ثالثا : المركز الانفرادى للأزهر

ولم يكن في مصر إبان الحكم العثماني معاهد تنافس الأزهر في نشر الثقافة الدينية العلمية الإسلامية العليا أو تدانية سواء في شهرته التي طبقت أرجاء العالم الإسلامي أو في رسوخ قدمه في مجالات الدراسات الإسلامية العليا ، لأن المدارس والمعاهد التي كانت قائمة مزدهرة في القاهرة على عهد الأيوبيين والمماليك قد أصابها الاضطراب وتلاشت مواردها وفقدت ما كانت تظفر به من رعاية السلاطين ، وغدت هذه المدارس والمعاهد آثارا دراسة ^(١) وفي العصر العثماني كان عدد المدارس ذات المستوى الرفيع يقرب من العشرين مدرسة موزعة على سائر مدن مصر في الوجهين البحري والقبلي : وكانت هذه المدارس تقوم في رحاب المساجد الكبرى أو تلحق بها ، ويطلق البعض عليها ^(٢) College mosques أى كليات قائمة في المساجد : وكانت الدراسة تسير فيها على نمط الدراسة في الأزهر وإن كانت أدنى في مستواها العلمي من مستوى الدراسة في الأزهر . وقد أسس الأثرياء هذه المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف زلنى إلى الله . وكان يجلس للتدريس فيها شيوخ ممن درسوا في الأزهر ثم عادوا إلى بلادهم يشتغلون بالتدريس في هذه المدارس على مقربة من ذويهم

(١) عل مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ - ١٨٨٩) ، ٢٠ جزءا ج ١ ، ص ٨٧ - ٨٨
(٢) انظر البحث الذي تقدم به المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديثة في أبريل ١٩٦٥ والذي سبقت الإشارة إليه في هامش رقم ١ ص ٦٨٠ في هذه الدراسة ، وكان عنوان البحث

Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-century Egypt.

وقد نشر هذا البحث في السنة التالية لوفاة هذا العالم المحقق الجليل الذي جاز إلى ربه في أول نوفمبر ١٩٦٧ ، وقد ظهر المجلد الذي ضم أبحاث المؤتمر في سنة ١٩٦٨ .
انظر البحث في ص ١١٧ - ١٣٢

ويباشرون مصالحهم العائلية : وكان من أشهر هذه المدارس وأوفرها نشاطاً تلك التي قامت في طنطا ودسوق والإسكندرية ودمياط ورشيد والمنصورة والمحلة الكبرى، وكان من أبرز مدارس الوجه القبلي مدارس قوص وقنا وطهطا : وكان الطلاب النابهون في تلك المدارس يلتحقون بالأزهر :

أما في القرى فكانت الكتاتيب تعد فتيها إما لدخول الأزهر ، وإما الثقافة بسيطة قوامها حفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم مع قدر يسير من الحساب والإملاء . وكان يقوم على شأن الكتاتيب « فقهاء » أنفقوا بالأزهر شطراً من حياتهم أو تلقوا العلم في إحدى المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى على يد متخرج في الأزهر : فكان التعليم في مصر مستمداً من الأزهر^(١) : وكانت المدارس والكتاتيب بمثابة أفرع صغيرة من الدوحة الكبرى يستظل طلاب العلم بظلها الظليل : وهكذا عاش الأزهر طوال العصر العثماني الموطن المبروز للثقافة العليا في مصر بل كان بمثابة الجامعة الأم في العاصمة^(٢) :

وقد نجم عن هذا المركز الانفرادي الممتاز الذي كان للأزهر إبان الحكم العثماني في مجالات الثقافة الدينية العلمية الإسلامية أن أصبحت له القيادة العلمية والفكرية في مصر وفي سائر أنحاء العالم العربي والإسلامي ، وكان علماء الأزهر هم العلماء المبرزين في علوم اللغة العربية وآدابها ، وفي العلوم الدينية :

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي . القاهرة ،

١٩٣٨ ، ص ٤ - ١٨ ، ٥٥٥ - ٥٥٧ .

(2) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivis du récit des événements (sic) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali. Paris. 1830-1836. 10 vols., t.II, p. 234,

رابعاً : التحام الأزهر بالجمهير

ومما ساعد الأزهر على الحفاظ على الطابع العربى لمصر أن الالتحام كان قائماً أشد ما يكون إبان الحكم العثمانى بين الأزهر وبين جماهير الشعب المصرى : كانت عواطف جميع المصريين فى ذلك العصر مشدودة إلى الأزهر باعتباره المركز المرموق للإشعاع الفكرى فى مصر شخصوا إليه بأبصارهم وبعثوا إليه بأبنائهم لينالوا فى رحابه حظاً موفوراً من الثقافة الدينية العلمية الإسلامية كانت تضفى عليهم فى المجتمع مركزاً مرموقاً ومهابة ووجاهة. وبذلك أتيح للأزهر مناخ صحى لأداء رسالته دون أن يلقى منافسة مشروعة أو غير مشروعة من مؤسسات تعليمية تعاقب لإنشاؤها فى مصر منذ العشرينات من القرن التاسع عشر بعد أن أسس محمد على « الدولة الحديثة »، وأدخل هو وخلفاؤه الأساليب الغربية فى الحياة المصرية أو ما يسمى Westernization وأنشأوا عدداً وافراً من المدارس العليا لتلقين الشبيبة المصرية العلوم الحديثة أو العلوم النفعية كما يسميها البعض. فأنشئت مدارس الطب البشرى والهندسة والزراعة والطب البيطرى والصيدلة والألسن والكيمياء والمحاسبة والمعادن وما إليها^(١) فضلاً عن المدارس العسكرية ، وكانت الحكومة المصرية تنترع الطلبة قسراً

(١) انظر عرضاً إضافياً لهذه المدارس وملايسات إنشائها وبرامج الدراسة فيها وهيئات التدريس بها فى مؤلفات الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم التعليمية :

تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ - ٩٢ ، ١٣٧ - ١٤٠ ، ١٥٥ - ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩٢ - ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٤١ ، ٢٥١ - ٢٤١ .

تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ - ١٨٨٢ . القاهرة ١٩٤٥ .

الجزء الأول : عصر عباس الأول وسعيد ١٨٤٨ - ١٨٦٣

ص ٤٨ - ١٢٣ ، ١٩١ - ٢٤٢ .

الجزء الثانى : عصر اسماعيل والسنوات المتصلة به من حكم توفيق ١٨٦٣ - ١٨٨٢

ص ١٦٧ - ٢٢٥ ، ٣٩٧ - ٦٨٧ ، ٨٢١ - ٨٧٥ .

أول الأمر من عائلاتهم ، وتبعث بهم إلى مدارسها حيث تقوم على تربيتهم وتعليمهم وتقدم لهم بالهجان المأكل والملبس وتؤويهم في مدارسها ليلا ونهارا وتعطيهم « مصروفهم » في أول كل شهر ، بل تقوم بختان من لم يختن منهم^(١) . وبمضى الزمن انتشر الوعي التعليمي وأخذت العائلات المصرية تبعث بأبنائها إلى المعاهد الحديثة استجلابا للمستقبل الزاهر والرزق الرغيد والمركز الاجتماعي المرموق وفرص إيفادهم في بعثات علمية إلى أوروبا وغير ذلك من امتيازات كانت أو كادت تكون مقصورة على خريجي المدارس الحديثة : ومن ثم توزعت عواطف المصريين بين الأزهر وبين هذه المدارس : ولم يكن لهذا التوزع في عواطف المصريين وجود أو مقتضى لبان الحكم العثماني ، لأن الأزهر كان القبة العلمية الرئيسية الوحيدة . ولذلك كان التعاطف والتقدير في أسمى درجاتهما يربطان الأزهر بالمصريين على بكرة أبيهم : ولعل هذا المركز الانفرادي الممتاز للأزهر هو منشأ العبارة التي ترددت على الألسنة قائلة إن للمسلمين قبلتين : قبلة دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، وقبلة عامية هي الأزهر الشريف في القاهرة .

(١) كان من أسباب إغراض العائلات عن إرسال أبنائها إلى المدارس الحديثة أن فكرة التعليم في هذه المدارس اختلطت في أذهان المصريين بالجنديّة ، لأنهم كانوا يرون رجال الحكومة يجمعون الأولاد كما يجمعون الشبان سواء بسواء ، ويذهبون بهم إلى حيث لا يعودون إلا بعد وقت طويل ، وحين تشاء الحكومة . وكانوا يرون أن هذه المدارس يقوم فيها نظام عسكري صارم ، بحيث كانت في أول أمرها أقرب إلى الثكنات العسكرية منها إلى المؤسسات التعليمية . فالمدارس يحرسها الجنود يجمعون دخول أحد إليها ، وكان التلاميذ يخضعون للنظام العسكري : ينامون من النوم على صوت الطبل أو البوق (البروجي) يدوي في أنحاء المدرسة ، وكذلك الشأن في ذهابهم إلى أماكن الدرس أو حجرات الطعام ، يسرون في نظام عسكري ، ويؤدون التحية العسكرية للمدرسين ، ولطفيه ذوي الرتب العسكرية ، وكان الأخيرون يشتركون في « ضبط التلاميذ وربطهم » ، وكان منهم الباشجاويش ، والجاويش ، والأونباشي .

انظر : دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التلاميذ في عصر محمد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥٧ - ٤٦٠ .

والأزهر — وهذا شأنه دائما — لم يكن يوصد أبوابه في وجوه أبناء الشعب الراغبين في الالتحاق به ، فضلا عن أبناء شعوب الأمة الإسلامية ، ولم يؤثر الأزهر فريقا على فريق بسبب الفروق الاجتماعية أو الاقتصادية ، فلم يعرف الأزهر في تاريخه الحافل نظام الطبقة بين طلبته، كما أنه لم يمارس نظام التفرقة العنصرية . كانت الديمقراطية بأوسع معانيها هي التي اتسم بها الأزهر في قبول الدارسين به . وترتبت على هذه الديمقراطية نتيجة هامة هي أن علماء الأزهر وطلابه لم يكونوا يشكلون طبقة منعزلة عن الشعب ، يحتكرون لأنفسهم العلم ، أو يأنفون من الاختلاط بالشعب . وكانوا في هذا السلوك الاجتماعي على عكس العثمانيين والمماليك الذين كانوا يتعالون على الشعب : وكان في استطاعة رجل الشارع أن يقابل أكبر عالم في الأزهر ، وتم المقابلة في سهولة وبساطة لاتقف في سبيلها عقبات شكلية أو رسمية. وكان علماء الأزهر يجلسون إلى إخوانهم المصريين في المساجد بالقاهرة، وطنطا، ودسوق، والإسكندرية وغيرها، يفقهونهم في أمور دينهم ودنياهم، ويبسطون لهم ما قد يشكل عليهم فهمه من دقائق المعاملات المدنية، وهكذا لم تنقطع الأسباب بين الجماهير وبين الثقافة العربية يمثلها رجال الأزهر :

خامسا : قيام الزعامة الشعبية في علماء الأزهر

كان علماء الأزهر — أو الغالبية العظمى منهم بتعبير أكثر دقة — قد ضربوا المثل الأعلى في الورع والتقوى والزهد والبر والإيثار والتواضع والترفع عن الصغائر ، كما عكفوا على الاشتغال بأمور الدين والتعمق في الدراسات العربية الإسلامية والنزوم في حياتهم بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، وأسلوباً ومنهجاً، فاجتمع فيهم الدين والعلم والخلق، وظفروا بمحبة وتقدير الشعب وتبوأوا مكاناً علياً في المجتمع المصري :

ولئن كان المجتمع المصري قد انضم بالطابع الديني في العهود السابقة على الحكم العثماني ، فقد غدا هذا الطابع الديني أكثر وضوحاً وبروزاً أيام العثمانيين . وكانت الحضارة في مصر على عهدهم حضارة دينية . كان الشعب المصري لا يعرف علوماً أسس من علوم الدين ، ولا يرى ثقافة أخرى بالدراسة من الثقافة الدينية ، ولا رجالاً أجدر بقيادته في حياته الدينية والدنيوية من علماء الدين : وكان تشيع المجتمع المصري بهذه الآراء من الأسباب التي أعانت على انعقاد الزعامة الشعبية لعلماء الأزهر .

ومن العوامل الهامة التي أدت إلى قيام الزعامة الشعبية فيهم أن العثمانيين والمماليك كانوا يجهاون اللغة العربية إلا من ندر بينهم ^(١) . فكان الحاكمون والمحكومون يشكلون مجموعتين بشريتين مختلفتين من الناحية الإثنوجرافية ومن الناحية اللغوية : وقد نجم عن هذه الازدواجية في المجتمع القائم في مصر وقتذاك أن وجدت فجوة بين هاتين المجموعتين ، وكان علماء الأزهر بمثابة الجسر الذي يصل بينهما .

"The 'Ulamā' in Egypt held a special position by virtue of the Mamluk system of rule, and by virtue of the fact that rulers and ruled formed different ethnic and linguistic units. There was a gap between the groups, and the 'Ulamā' supplied the bridge that filled that gap."^(٢)

(١) الجبرتي ج ٤ ، ص ٤٩ ، وكان يتكلم عن دور علماء الأزهر في مفاوضات الصلح بين محمد علي وبين الأمراء المماليك المتصمين في الوجه القبلي في أثناء الحملة البريطانية بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser على مصر سنة ١٨٠٧ ، وقد اصطحب علماء الأزهر في رحلتهم إلى الصعيد للتفاوض مع الأمراء المماليك بمصر المترجمين ، لينقلوا أقوالهم من التركية إلى العربية .

(٢) انظر البحث الذي تقدمت به الدكتورة عفاف لطفى السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذي عقد في لندن في أبريل ١٩٦٥ وكان موضوع بحثها :

The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the early nineteenth century.

« دور العلماء في مصر في مطلع القرن التاسع عشر » . والنص المذكور في الملقن مأخوذ من الجزء الذي جاء في بحثها خاصاً بمصر في العصر العثماني المملوكي ، وقد نشر بحثها في مجلد أبحاث المؤتمر . انظر :

Holt P. M. ; Political etc, ouvr. cit., pp. 264-280.

وكانت نظم الحكم التي أشرنا إليها في مستهل هذه الدراسة سبباً آخر في قيام الزعامة الشعبية في علماء الأزهر، لأن تلك النظم كانت تحول دون الاتصال المباشر بين الشعب وحكامه : ولم يجد المصريون ملجأً يفرعون إليه في أثناء المحن التي كانت تنزل بهم من يمين ويسار سوى علماء الأزهر ينشدون وساطتهم لدى السلطات الحاكمة لرفع المظالم عنهم أو الحد منها. واستطاع المشايخ في حالات عديدة إسداء هذه المعونة إلى جموع الشعب . ومما هو جدير بالذكر أنه كانت توجد في مصر في العصر العثماني ثلاث قوى شعبية لها أثرها وخطرها ونفوذها الروحي أو المادي : علماء الأزهر ، ومشايخ الطرق الصوفية ، وشيوخ طوائف الحرف . وكانت القوة الثالثة وثيقة الصلة بالقوتين الأوليين : وكان شيوخ طوائف الحرف يتخذون من الجامع الأزهر ومن المساجد الكبرى في القاهرة مكاناً مختاراً يباشرون فيه اختصاصاتهم في أوقات محددة. وكان لهم دور هام في توجيه الحشود الشعبية النائرة نحو علماء الأزهر ينشدون منهم التدخل لدى الحكام :

وجاءت تقاليد الدولة العثمانية فساعدت على تأكيد زعامة علماء الأزهر ه فن خصائص هذه الدولة — كما ذكرنا — أنها كانت دولة دينية : وحرصت السلطات الحاكمة في مصر على الاحتفاظ بمظاهر التمسك بالدين : وفي مقدمة هذه المظاهر لإضفاء الاحترام والتبجيل على رجال الدين وهم علماء الأزهر ه وكان من دلائل هذا الاحترام قبول وساطتهم وشفاعتهم^(١) : وفي ظل هذه التقاليد ازدادت مكانة علماء الأزهر هموا ، واستطاعوا التدخل لدى الحكام دفاعاً عن مصالح الشعب : يذكر الجبرتي أن وفدًا من العلماء على رأسه الشيخ

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١) ،

القاهرة : ١٩٥٨ ، ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، ص ص ١١٢٧ - ١١٢٩ .

عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر (١٧٢٥ - ١٧٥٧) صعد إلى القلعة وقابل أحمد باشا كور^(١) الوالى العثمانى. وكان مما قاله الشيخ الشبراوى للباشا « نحن المتصدرون لخدمتهم (أى المصريين) وقضاء حوائجهم عند أبواب الدولة والحكام » :

وكان الأمراء المماليك يخشون جانب العلماء على الرغم من جبروت المماليك وعتوهم ، لأنه كان لعلماء الأزهر فى ذلك العصر من الشجاعة الأدبية والحرارة فى الحق والعزوف عن تلقى الحكام أو مواكبتهم ما جعلهم يتهددون البكوات المماليك بتأليب « الرعية » عليهم إذا لم يستجيبوا لوساطتهم وقد بلغ من اعتدادهم بأنفسهم أن الشيخ سليمان مصطفى المنصورى المتوفى سنة ١١٦٩هـ ، ١٧٥٦م - ويصفه الجبرقى بأنه « أحد الصدور المشار إليهم » - تحدى السلطان وأعلن رسمياً فى مواجهة قاضى القضاة العثمانى أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان لأنه مخالف لأحكام الشريعة « ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك »^(٣) : ولما قدمت الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزايرى إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك خشى ابراهيم بك كبير الأمراء أن يقوم المصريون بثورة عارمة ضد المماليك منهزين هذه الفرصة : ومن أجل القضاء على هذا الخطر المحتمل طافت ابراهيم بك على علماء الأزهر فى دورهم مستعطفاً . يقول الجبرقى « وركب ابراهيم بك فى ذلك اليوم (الأحد ٣ شوال ١٢٠٠ ، ٣٠ يوليو ١٧٨٦) وذهب إلى الشيخ البكرى (نقيب الأشراف) وعيد عليه ، ثم إلى الشيخ العروسى (شيخ الجامع الأزهر) ، والشيخ الدردير (أحد كبار العلماء وشيخ رواق الصعايدة) ، وصار يحكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم

(١) سبب تسميته كور أنه كان فى عينه حول ، فعرف باسم كور وزير .

(٢) الجبرقى ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١٤٨ .

على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جدا ، وخصوصا لما أشيع أمر الفرمانات التي أرسلها الباشا للمشايخ وتسامع بها الناس^(١) : ويقرر أحد الأساتذة الفرنسيين أنه كان هناك ما يبرر المخاوف التي انتابت ابراهيم بك من قيام « الرعية » بثورة^(٢) ولكن يهمننا في هذه الدراسة أن نقرر أن تصرفات الأمير ابراهيم بك على هذا النحو كانت تعتبر اعترافا منه بالزعامة الشعبية التي انعقدت لعلماء الأزهر ، وأنه لم يجد في هذا الوقت العصيب أحدا يلوذ به سوى رجال الأزهر. ولما شرع حسن باشا الجزائر في بيع نساء المماليك وأولادهم الذين ظلموا في القاهرة وعرضهم في السوق ، وقف في وجهه الشيخ محمد السادات وأغلظ له في القول . وكان مما قاله لهذا القائد «هل أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلت السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرم ؟ » فرد عليه الجزائر باشا قائلا « هؤلاء أرقاء لبنيتم المسال » فأجابه الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . وكان الأمير الكبير ابراهيم بك قد أودع عند الشيخ السادات وديعة ، وعلم حسن باشا الجزائر بأمرها فأرسل مندوبا ليتسلمها وامتنع الشيخ السادات قائلا إن صاحبها لم يمت ولن أسلمها ما دام صاحبها على قيد الحياة :

(١) الجبرتي . ج ٢ ص ١١١

(2) André Raymond; Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle. p. 115.

Communication faite au congrès sur l'histoire de l'Egypte Moderne qui s'est tenu à Londres en avril 1965.

Voir :

Holt P. M. Political etc., ouvr. cit., pp. 104-116.

فاشتمد سخط الجزايرلى باشا عليه وأراد أن يبطش به « فحماه الله ببركة الانتصار للحق . وكان (الباشا) يقول لم أر فى جميع الممالك التى وبلحتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى » .

وتعددت مظاهر الالتحام بين الأزهر وبين الشعب : ويعطينا الجبرقى صوراً وضيئة نابضة بالحياة عن مجتمع علماء الأزهر فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وكيف نظر الشعب إلى علماء الأزهر على أنهم الملاذ الذى يفزع إليه إذا ضاقت به السبل ، أو جاوز الحكام الظالمون المدى . فكان المصريون لا يتجهون إلا للأزهر ، ولا يلتمسون تدخل أحد سوى علماء الأزهر ، ومن مآذن الأزهر كان أهل القاهرة الثائرون يدقون الطبول ، وتعلو أصواتهم هاتفة بسقوط الظلم ، وداعية التجار إلى غلق حوانيتهم ، وفى الأزهر كانت تعطل الدراسة مشاركة من العلماء والطلاب للجاهير فى مشاعرهم ، ومن الأزهر كانت تخرج المواكب الجاهيرية الصاخبة يتقدمها شيخ الجامع الأزهر وعلماء الأزهر راكبين بغالا ، والمجاورون رجالا ، إلى الحاكم الظلم يطلبون منه رفع المظالم عن الشعب : وعلى هذا النحو خرج الأزهر عن (١) الجبرقى ، ج ٤ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص فى سياق ترجمة الشيخ محمد السادات فى وفيات سنة ١٢٢٨ هـ .

(٢) من بين هذه الصور نذكر على سبيل المثال :

حادثا وقع بين على بك الكبير وبين الشيخ على بن أحمد بن مكرم الله الصميدى العدوى المالكى والمتوفى سنة ١١٨٩ هـ ، ج ١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

وحادثا وقع بين حسين بك شغت وبين الشيخ أحمد بن محمد بن أبى حامد الدردير للعدوى المالكى والمتوفى سنة ١٢٠١ هـ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

وحادثا آخر وقع للشيخ الدردير فى أثناء الاحتفال بمولد السيد البدوى فى طنطا . ج ٢ ، ص ١٠٤ والمظاهرة الصاخبة التى قام بها أهل الحسينية احتجاجاً على إهانة أحمد سالم الجزار شيخ الطريقة البيومية فى شهر المحرم ١٢٠٥ (سبتمبر - أكتوبر ١٧٩٠) ج ٢ ، ص ١٨٩ .

وانظر أيضاً عرضاً تاريخياً وتحليلياً للثورة الشعبية التى تزعمها فى سنة ١٧٩٥ الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ضد إبراهيم بك ومراد بك ، فى مؤلفنا : عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، ص ٢٨ - ٣٢ .

النطاق الأكاديمي المغلق وشارك في الحياة المصرية العامة مشاركة إيجابية فعالة: وإذا كان العثمانيون والمماليك قد توفرت لهم أسباب القوة العسكرية وتجمعت في أيديهم أعنة الحكم، فإن علماء الأزهر كانوا يمثلون الزعامة الشعبية، وكانت زعامة نظيفة حانية عطوفة على الشعب فاستراح لها، وتفيأ في ظلها الأمن والزاد الروحي والإرشاد والتوجيه الديني يتلقاه باللغة العربية ٥

سادسا : الأزهر ودعم الترابط العربي بين مصر وشقيقاتها

وقام الأزهر بدور بارز في تعميق الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني حين أسهم في دعم الترابط العربي بين مصر وبين شقيقاتها البلاد العربية في المشرق والمغرب : كانت الحرية المطلقة التي تمتع بها الأزهر في تقرير الدراسات التي تلقى على طلابه ، وعدم خضوعه لأي توجيه حكومي، عاملين هامين جعلاه منه مركزا عربيا قياديا للفكر الإسلامي تهوى إليه أفئدة كبار العلماء وطلاب العلم من كافة أنحاء العالم العربي والإسلامي ، فوفدوا عليه ، ووجدوا في رحابه الأمن والملاذ والرعاية والزاد الروحي والتراث الفكري . وكان العلماء الوافدون يتصدرون بعضا من حلق العلم في أهباء الأزهر، بينما يتصدر العلماء المصريون البعض الآخر من الحلقات الدراسية : ويلقى هؤلاء وأولئك دروسهم في موضوعات شتى تتصل بالثقافة العربية الدينية والأدبية والعلمية . وكانت هذه الحلق دراسات جامعية : وهكذا كانت تجتمع في رحاب الأزهر أروع مظاهر الوحدة الثقافية بين شعوب الأمة العربية ، ممثلة في الصفوة الممتازة من رجال الفكر الإسلامي ، ويجعلون من الأزهر مركزا رئيسيا للإشعاع الفكري :

ويضيق المقام في هذا البحث عن ذكر جميع أعلام العلماء الذين وفدوا على الأزهر إبان الحكم العثماني أساتذة زائرين أو مقيمين متفرخين، وحسبنا

أن نشير إشارة سريعة إلى ثلاثة من هؤلاء الأعلام ، وأولهم المقرئ - أحد كبار علماء المغرب - واسمه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرئ ، نسبة إلى مقره وهي بلدة من أعمال قسطنطينة Constantine وهي الموطن الأول لأسرته : وكان من مواليد مدينة تلمسان ، وجاء إلى مصر سنة ١٦١٨ (١٠٢٧ هـ) ، وامتدت إقامته فيها زهاء خمسة عشر عاما ، حتى وافاه الأجل في يناير ١٦٣٢ (جمادى الآخرة ١٠٤١)^(١) . لازم التدريس في الأزهر : وكانت حلقه الدراسية تزدهم بالعلماء والطلاب ، وألقى معظم دروسه في الحديث : وكان يعكف في رواق المغاربة على الكتابة والتأليف ، وكان هذا الرواق ولا يزال يضم مكتبة حافلة بالكتب القيمة بلغ عددها ثمانية آلاف مجلد ، من بينها عدد من نفائس المخطوطات أضاف عليها المقرئ حواشي وتعليقات كثيرة ، وشروحا ضافية : وقد قامت هيئة اليونسكو في سنة ١٩٦٣ بتصوير بعض المخطوطات من مكتبة رواق المغاربة : وقد استطاع المقرئ في أثناء إقامته في مصر واشتغاله بالتدريس في الأزهر أن يثرى المكتبة التاريخية العربية بسفريه الخالدين « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » و« أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » : أما الكتاب الأول فهو أقرب إلى الموسوعة منه إلى الكتاب سواء من ناحية حجمه أو من ناحية مادته العلمية ، فهو يضم أربعة مجلدات ضخمة تناول فيها تاريخ وجغرافية بلاد الأندلس ، وهو أقيم المصادر العربية عن تاريخ الأندلس والأدب الأندلسي : أما الكتاب الثاني فهو سفر ضخم

(١) تخللت إقامته في مصر زيارات سريعة إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج خمس مرات ، وجاور بمكة في أثناء الحج وفقاً لتقاليد العصر ، وألقى بها كثيرا من دروسه . وفي المدينة ألقى الحديث . وزار بيت المقدس وألقى بعض الدروس في المسجد الأقصى . وذهب إلى دمشق وألقى دروسا في الحديث في الجامع الأموي أسابيع معدودة . وعاد إلى القاهرة ليستقر فيها أستاذا محاضرا في الأزهر حتى لحق بالرفيق الأعلى .

(٢) صورت هيئة اليونسكو بعض المخطوطات أيضا من مكتبي رواق الأتراك ورواق الشوام.

أفردته لترجمة الفقيه الأكبر عياض السبتي ، وأورد فيه بعض الوثائق المتعلقة يسقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المنتصرين : وإلى جانب هذين السفرين الخالدين وضع المقرئ عدة كتب أخرى ألف معظمها في القاهرة ، وهذه الكتب عبارة عن رسائل دينية وأدبية^(١) :

وقدم مصر في أواخر سنة ١٦٩٣ (جمادى الأولى ١١٠٥) عبد الغنى النابلسي : وتصفه بعض المصادر المعاصرة بأنه كان شيخا للإسلام في الديار الشامية^(٢) ، واسمه عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسي الدمشقي الحنفى القادري النقشبندى . وقد زار الجامع الأزهر في اليوم السادس من يناير ١٦٩٤ (التاسع من جمادى الأولى ١١٠٥) ، وكانت له انطباعات عن هذه الزيارة ، وأحاسيس افتعلت في نفسه عن هذه الجامعة العتيقة ، وقد سجلها قلمه في كتاب له مخطوط ، اسمه «الحقيقة والمجاز» ، في رحلة بلاد الشام ، ومصر ، والحجاز» .

(١) من هذه الكتب والرسائل :

«إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة»

«فتح المتعال في مدح الفعال المستشرقة بخير الأنام»

«حسن الثناء في العفو عن جنى»

«قطف المهتصر في أخبار المختصر»

«عرف النشوق في أخبار دمشق»

«روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس»

«الدر الثمين في أسماء الهادى الأمين»

أنظر : محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . القاهرة ١٩٤٧ . دار المعارف ،

الطبعة الأولى . ص ص ٢٤٥ - ٢٥٧ .

(٢) محمد خليل المرادى : سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر . القاهرة ١٣٠١ هـ

(١٨٨٣م) أربعة أجزاء ، ج ٣ ، ص ص ٣٠ - ٣٧ .

وهذا المخطوط محفوظ في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٢٤٨١ تاريخ - المكتبة التيمورية .

ومما هو جدير بالذكر أن زيارته للأزهر تمت في اليوم السادس والعشرين بعد المائة من رحلته التي زار فيها مصر والحجاز: وجاء في يومياته عن هذه الزيارة : « ... ثم ذهبنا فدخلنا إلى الجامع الأزهر المعمور بالعلماء والصالحين وقراءة القرآن ودروس العلم ليلاً ونهاراً، ثم اجتمعنا بالعلماء المدرسين هناك ، وحضرنا عندهم في دروسهم ، وحصلت لنا البركة بمجالستهم ، وطلبوا منا أن نعمل لهم درساً في الجامع الأزهر عاماً في الحديث أو في شرح العقائد للسيد التفتازاني ، وأقدمت علينا الطلبة والأفاضل بذلك ، فاعتذرنا لهم بأننا مسافرون إلى بلاد الحجاز ومشغولون بزيارة الصالحين والتبرك بمقاماتهم ، ولا فراغ لنا إلى المطالعة وحبس النفس في تقرير العلوم الظاهرة ، لأننا رأينا أن ذلك ينقص علينا ما نحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ، ويكدر علينا صفاء الروح لتلقى المواجهات العرفانية ، فقمنا وخرجنا من الجامع وقد انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون منا الدعاء مع زيادة الاعتقاد ، فأخذتنا هيئة ذلك الحال ، فصرنا نبكي وهم يبكون ، وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع : وصادفنا عند الباب مجيء صديقنا الشيخ أحمد المرحوم لإقراء الدرس على عادته ، وكان هو الذي أشار علينا سابقاً لما أردنا الذهاب إلى الجامع الأزهر ، وقال لنا إن الطلبة والمجاورين هناك يطلبون منكم لإقراء الدرس ، وأنتم لا تحملون تثقلهم لغلبة الشدة والجفا ، فاعتذرنا إليهم ، فأخبرناه أننا اعتذرنا إليهم ، وخرجنا ثم سرنا إلى خان الحمزاوى : »^(١)

وتتمثل الشخصية الثالثة في أحد كبار العلماء العرب ، وهو محمد ابن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي الحنفي :

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

وقد على الأزهر سنة ١٧٥٤ (١١٦٧ هـ) : كان متبحراً في فقه اللغة العربية وآدابها وفي الحديث ، ارتحل مراراً في طلب العلم والحج ، وفي إحدى زياراته لمكة المكرمة في أحد مواسم الحج اتصل بالسيد عبد الرحمن العيدروسي وقرأ عليه بعض مؤلفاته وأجازه ، ثم زين له زيارة مصر: ويقول الزبيدي في هذا الصدد عن العيدروسي : « وهو الذي شوقني إلى دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها وما فيها من المشاهد الكرام ، فاشتاق نفسي لرويتها » : ودخل الأزهر وحضر دروس أشياخ الوقت ، وتلقى عنهم وأجازوه ، وشهدوا بعلمه وفضله ، وانقلب أستاذا يلقي دروسه في جامع شيخون بالصليبية ، وفي مسجد الحنفي ، وفي بيوت الأمراء والأعيان ، ووضع خلال إقامته بالقاهرة شرحه الشهير للقاموس وسماه « تاج العروس من شرح جواهر القاموس » ، واستغرق منه هذا العمل العلمي الحليل سنوات طوالاً : ولما فرغ منه أقام مأدبة حافلة دعا إليها كبار علماء الأزهر وشرح لهم منهاجه في تأليف الكتاب ، فأعجبوا به وتباروا في مدح الزبيدي وتقريظ كتابه نثراً وشعراً . ونذكر من بين الشخصيات الأزهرية التي كتبت تقارير على النسخة الخطية من الكتاب : المشايخ على الصبيدي ، وأحمد الدردير ، ومحمد الأمير ، وأحمد البيلي ، وعطية الأجهوري ، وأبي الأنوار السادات ، ومحمد المكي ، وبعدها آخر من أشياخ الوقت ذكر الجبرتي أسماءهم : وشرح الزبيدي أيضاً بعض أجزاء من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، وألف كتباً ورسائل في علم

(١) وضع الجبرتي ترجمة ضافية لأستاذه الزبيدي في كتابه عجائب الآثار (ج ٢ ، ص ١٩٦-٢١٠) . وما يذكر أنه لما شيد محمد بك أبو الذهب جامعته بالقرب من الجامع الأزهر وألحق به مكتبة زودها بمجموعات من الكتب والمخطوطات ، قال له بعض خاصته إنه إذا استطاع أن يقتني النسخة الخطية من شرح القاموس ويضمها إلى مكتبة الجامع ، امتازت بهذا الكنز العلمي عن سائر مكتبات مصر ، فاشترىها أبو الذهب بمبلغ مائة ألف درهم فضة .

الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث : وأصاب شهرة عريضة في أنحاء العالم العربي ، وكاتبه حكام الحجاز واليمن والشام والبصرة وبغداد والشام ، والسودان وفزان والجزائر وبلاد المغرب ، واعتقد فيه أهل المغرب اعتقاداً زائداً . وكان إذا مر أحدهم بمصر في طريقه إلى الحجاز ، ولم يزر الشيخ مرتضى أو لم يصله بشيء اعتبر حجه ليس كاملاً ، وظل مقيماً في القاهرة علماً من أعلام اللغة العربية حتى توفي في أبريل ١٧٩١ (شعبان ١٢٠٥)^(١) :

(١) يذكر محمد المحيى في كتابه عدداً من علماء العالم الإسلامى وقدوا على الأزهر إبان الحكم العثمانى ، منهم :

(أ) الشيخ عيسى بن محمد المغربى « إمام الحرمين وعالم المشرقين والمغربين » المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) .

(ب) الشيخ فضل الله بن محب الله الدمشقى المتوفى سنة ١٠٨٢ (١٦٧١ م) .

(ج) الشيخ أبو المعالى حسن بن على مفتى مكة المتوفى سنة ١١٧٦ (١٧٦٢ م) .

(د) الشيخ محمد بن محمد البايدى المغربى المتوفى سنة ١١٧٦ (١٧٦٢ م) .

انظر :

محمد المحيى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر .

ج ٣ ص ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، ٢٧٧ - ٢٧٨ .

ج ٤ ص ص ٣٠١ - ٣٠٥ .

والجبرى ج ٢ ص ص ٢٠٨ - ٢١٤ .

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن عالماً مغربياً يسمى « أبو عبد الله محمد بن سوده المرى الفاريسى » وفد على مصر سنة ١١٨٢ هـ (٦٨ - ١٧٦٩) وعقدت له برواق المغاربة بالجامع الأزهر حلقة دراسية حفلت بالعلماء والطلاب ، وكان يلقى دروسه في الفقه المالكي ، وكانت له مؤلفات عديدة . انظر محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠

وهناك كتاب مخطوط للشيخ عبد الله الشبراوى مودع في مكتبة رفاعة الطهطاوى في مدينة سوهاج تحت رقم ١٠١ أدب واسمه « نزهة الأبصار في رايق الأشعار » فرغ مؤلفه من وضعه في شهر شعبان ١١٧٠ هـ (٢١ أبريل - ١٩ مايو ١٧٥٧) وقد حوى تأريخاً لبعض الأحداث ، كما سجل المؤلف الرحلات العلمية لبعض العلماء الذين زاروا مصر في عهده . وهذا المخطوط يقع في ٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط .

وكما اجتذب الأزهر كبار العلماء من أنحاء العالم الإسلامى استقطب أيضا طلاب العلم وفدوا إليه من كل فج عميق ، فكان الأزهر الأب العطوف ، يقدم العلم لبني العروبة والإسلام ، لا يعرف تمييزا عنصريا أو طبقيا بين طلابه ، فضم عديد الأروقة حسب المذاهب الأربعة ، ووفق البلاد التى ينتمى إليها الطلاب المصريون ، ووفق الأقاليم التى جاء منها الطلاب الوافدون : فكان من بين الأروقة المصرية : رواق الصعايدة ورواق الشراقة ، ثم كان من بين النوع الأخير : رواق المغاربة ، ورواق الشوام ، ورواق الروم أى الأتراك ، ورواق الحبرت ، وقد أفرد للطلبة القادمين من الحبشة والأقاليم المتاخمة لها مثل إرتريا والصومال ، ورواق المكاوية ويقطنه أبناء مكة وسائر جهات الحجاز ، ورواق البغدادية ويقيم فيه أبناء العراق ، ورواق السلمانية وخصص لأبناء أفغانستان ، ورواق الهنود لأبناء الهند ، ورواق اليمنية لأبناء اليمن ، وغير ذلك من أروقة : وكانت الإقامة فى الأروقة مقصورة فى الغالب على الطلاب الفقراء والمنقطعين ومعظم الأغراب ، أما الطلاب الأثرياء فكانوا يسكنون فى منطقة الأزهر : ويهمن أن نذكر هنا أن تعدد الأروقة يعطى فكرة واضحة عن كثرة البلاد الإسلامية التى كان أبناؤها يفدون منها على الأزهر طلابا للعلم ، وكان هؤلاء الطلبة الوافدون يحملون معهم إلى بلادهم باللغة العربية رسالة الإسلام الدينية والثقافية والعلمية ، وهكذا كان الأزهر عنصرا فعالا وإيجابيا فى الحضارة الإنسانية فى عصر أجمع معظم الباحثين على أنه كان من أحلك فترات التاريخ المصرى : ويلاحظ أن الغالبية الساحقة من شعوب الأمة العربية قد وقعت تحت حكم الدولة العثمانية ، فأصبح الاتصال بينها سهلا ميسرا ، إذ لم تكن هناك حدود عازلة بين الأقاليم العربية الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية ، ولذلك لم تنقطع الصلات بين مصر وبين شقيقاتها العربيات إبان الحكم العثمانى : وكان فى استطاعة العربى أن يفد من المشرق العربى أو من المغرب العربى إلى مصر ،

ويعمارس فيها ألوانا شتى من النشاط الثقافى أو الاقتصادى ، دون أن تقام فى وجهه العقبات : وكان قدوم الأساتذة والطلاب من أرجاء العالم الإسلامى إلى الأزهر إبان الحكم العثمانى دليلا على احتفاظ الأزهر بشخصيته العالمية ذات الطابع الإسلامى العربى . وكانت هذه الشخصية بارزة قوية واضحة طوال القرون الثلاثة التى امتد إليها الحكم العثمانى . وكان أى عالم يفخر بأنه تخرج فى الأزهر ، أو أنه أحد أساتذته ، أو أنه حاضر فى يوم من الأيام فى رحابه ، أى أنه كان — وفقاً للمصطلح الجامعى الحديث — أستاذا زائراً فى الأزهر :

سابعاً : نظرة العثمانيين إلى الأزهر

وأخيراً كانت نظرة العثمانيين إلى الأزهر جامعاً وجامعة من بين العوامل التى ساعدت الأزهر دون قصد منهم على الحفاظ على الطابع العربى لمصر . فقد أظهر العثمانيون احتراماً عميقاً للأزهر وعلمائه . وكانت هناك عدة بواعمث أملت عليهم هذه السياسة : كان الأزهر بعد سقوط الدولة الفاطمية قد غدا المركز الرئيسى للدراسات السنية فى العالم الإسلامى ، والعثمانيون يعتقدون المذهب السنى ، ويتعصبون له أشد التعصب ، وخاضوا من أجل الحفاظ عليه حروباً ضارية ضد الدولة الصفوية التى أنشأها اسماعيل الصفوى فى فارس ، وحاول أن ينشر بين رعايا الدولة العثمانية فى الأناضول مذهباً شيعياً فوضوا يسمى مذهب « قزل باش » أى الرأس الأحمر كخطوة للقضاء على المذهب السنى ، ومد نفوذ تلك الدولة الشيعية إلى ضفاف البوسفور ، فكان من الطبيعى أن يلتقى الأزهر من الحكام الجدد السنيين المغرقين فى التعصب لمذهبهم تقديراً للقائمين على أمره ، والعاملين فى رحابه . أما الباعث الثانى فكان حرص العثمانيين على اجتذاب قلوب المصريين نحوهم بإظهار الاحترام

العميق للأزهر الذى كان يحتل المكانة الأولى بين مساجد مصر ومعاهدها العلمية . وكانت مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى - التاسع الهجرى - وقبل الغزو العسكرى العثمانى قد استأثرت بفضل الأزهر بالزعامة الأدبية والدينية معا فى العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد فى الشرق ، وتصدع الأندلس فى الغرب : فكان الأزهر هو الجامعة الإسلامية الكبرى : وكان القرن الخامس عشر الميلادى هو العصر الذهبى للأزهر ، سواء من حيث مكانته العلمية أو إنتاجه الفكرى أو الحشد الرائع الذى كان يضمه من أفذاذ العلماء فى شتى التخصصات ، أو الرصيد الضخم من المؤلفات التى وضعوها ، وامتازت بعمقها وأصالتها وتنوعها ، وطرافة الكثير من عناصرها . ولم يكن الأزهر شيئا جديدا أو طارئا بالنسبة للعثمانيين ، فقد كانت له شهرة راسخة فى بلاد الدولة العثمانية اجتذب إليه أفواجا من الطلاب العثمانيين نهلوا العلم فى رحابه ثم حملوه إلى بلادهم ، كما شهد الأزهر بجمهرة من العلماء العثمانيين ، ممن برعوا فى العلوم العربية الإسلامية شدوا رحالهم إلى مصر ، فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتصادروا بعضا من حلقة الدراسية ، وألقوا دروسهم فى الحديث والتفسير والفلسفة والمنطق والبيان والنحو ، فالروابط^(١)

(١) يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أسماء بعض العلماء الأتراك العثمانيين الذين وفدوا على الأزهر خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين وقاموا بالتدريس فى الأزهر . ومنهم :

- (أ) شمس الدين الفناوى ، جاء إلى مصر فى أواخر القرن الثامن الهجرى .
- (ب) يعقوب بن إدريس الشهير بقرا يعقوب المتوفى سنة ٨٣٣ هـ .
- (ج) محيى الدين الكافية جى المتوفى سنة ٨٧٩ هـ . والكافية جى نسبة إلى متن «الكافية» فى علم النحو ، وذلك لتعمقه فى هذا العلم وبراعته فى شرحه . وكان شيخا للسيوطى وغيره من الأعلام المصريين .
- (د) المولى أحمد بن اسماعيل الكورافى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ .

انظر :

محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠ - ١٤١ ،

العلمية والروحية كانت قائمة بين الأزهر وبين العثمانيين قبل أن يدخلوا مصر
غزاة فاتحين :

والحق أن الأزهر بمكانته العالية في العالم الإسلامى وماضيه الحافل ونفوذه
الروحى ومجده العلمى ، وقيامه قرونا طويلة على حفظ التراث العربى بما
يضمه هذا التراث من ألوان الثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، وما اشتهر عن
علمائه من التبحر فى العلوم ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة عن مقائنها ، كل
أولئك أضنى على الأزهر نوعا من القدسية، وجعل له هبة فى نفوس العثمانيين ،
فلم يحاولوا المساس بمركزه، أو عرقلته عن أداء رسالته ، وظل الأزهر موطن
الثقافة العربية يجتذب إليه نابتة البلاد فى مصر وغيرها من أنحاء العالم الإسلامى،
الأمر الذى ساعد الأزهر على الحفاظ على الطابع العربى لمصر :

* * *

وعلى الرغم من أن السلطان سليم الأول أمر بترحيل بعض العلماء إلى
الآستانة ، وكانوا طائفة من نواب القضاة على المذاهب الأربعة ، فضلا عن
عدد كبير من الصناع والعمال الفنيين المصريين ، فقد أظهر هذا السلطان احتراماً
للأزهر . وفى خلال الشهور الثمينة التى قضاه فى مصر بعد انتهاء العمليات
الحربية كان يحرص على التردد على الأزهر من آن لآن ، ويؤدى فيه صلاة
الجمعة متبركا بقدسيته ، ويوزع الأموال والخيرات على مجاوريه^(١)، وقد
استهدف السلطان سليم الأول من إظهار الاحترام للأزهر إشاعة الطمأنينة

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . طبعة بولاق ١٣١٢ هـ ١٨٩٤ م ، ج ٣ ص ١١٦ ،
ص ١٣٢ .

محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة . تاريخ تأليفه ١٠٥٤ هـ
(١٦٤٤ م) مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة : تحت رقم ٢٢٦١ تاريخ ، ورقة
رقم ١٥ مخطوطة .

في قلوب المصريين ، فلا يشعرون بنفور من الحكم الجديد : وكان المجتمع المصري مجتمعاً دينياً ، وعمل سليم على الإفادة من العاطفة الدينية القوية المتأصلة في نفوس المصريين : فالسلطان العثماني حاكم مسلم مثلهم ، وهو سني مثلهم ، وهو يظهر احتراماً للأزهر مثلهم : وكان الزمن — في تقدير السلطان سليم —

= وما هو جدير بالذكر أن الأستاذ هولت Holt P. M. في بحثه الذي قدمه إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذي عقد في لندن في إبريل ١٩٦٥ قد ذكر أن كتاب ابن أبي السرور يسمى «الروضة الزهية» ، أما الأستاذ جمال الدين الشيال فقد ذكر في بحثه المقدم إلى هذا المؤتمر أن اسم الكتاب هو «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» متفقاً مع ما هو موجود في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة . فن بين المخطوطات المودعة في هذه الدار يوجد مخطوطان : الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة سنة ١٠٥٤ مخطوط — تاريخ — ٢٢٦١ الزهية الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة الممزية سنة ١٠٥٩ مخطوط — تاريخ — ٢٢٦٦

ويذكر الأستاذ محمد أنيس في الكتيب الذي نشره له معهد الدراسات العربية بالقاهرة في سنة ١٩٦٢ بعنوان «مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني» كتاب الزهية الزهية ضمن مؤلفات ابن أبي السرور البكري . ولم يشر إلى الكتاب الآخر وهو الروضة المأنوسة . كما يذكر أن لهذا البكري بحث يسمى «تفريج الكربة في دفع الطلبة» وأنه لم يعثر على هذا البحث . ولكن هذا البحث موجود في مصر ، وإن اسمه «كشف الكربة في تفريج الغمة» فرغ منه مؤلفه في ربيع الآخر سنة ١٠٢٢ هـ (٢١ مايو — ١٨ يونيو ١٦١٣) وقد أرخ فيه البكري لمصر خلال الفترة من سنة ٩٩٠ هـ إلى ١٠٢٢ (١٥٨٢ — ١٦١٣) وتناول في إضافة الفتنة العسكرية وقد أطلق عليها «الطلبة العسكرية» .

أنظر كلاماً من . . :

Holt P. M.; Ottoman Egypt (1517-1798). An account of Arabic Historical Sources.

Gamal El Din El Shayyal; Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-century Egypt.

والبحثن منشوران في مجلد أبحاث المؤتمر :

Holt P. M., Political and Social change in Modern Egypt. pp. 3-10 and 117-131 respectively.

دكتور محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢ — ٢٣ .

كفيلاً بأن يجعل المصريين يحولون ولاءهم إلى السلطان العثماني بعد أن دالت دولة المماليك : والحق أن الوشيجة الدينية الإسلامية التي ربطت بين العثمانيين والمصريين كانت الورقة الراجعة في يد الحكام العثمانيين : فباسم الدين فرضوا سيطرتهم على المصريين : ولم تكن قد وجدت بعد في نفوس المصريين العاطفة القومية التي تجعلهم يثيرون على الوضع السياسي لبلادهم . ومن ثم بدأ الشعب المصري رويدا رويدا ينظر إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين ، و « خادم الحرمين الشريفين » ، وينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل ، وبخاصة بعد أن اتسعت رقعتها فشملت معظم البلاد العربية في آسيا وأفريقيا :

وسار خلفاء السلطان سليم الأول على نهجه من حيث نظرهم إلى الأزهر : فقد أظهروا رعاية له ، واحتراما وتقديراً لعلمائه ، دون أن يتدخلوا في شئونه أو يمسوا نظم التعليم فيه ، ولم يحاولوا إدخال الدراسات التركية سواء الأدبية أو اللغوية أو غيرها في الأزهر : ولم يحاولوا المزج بين الدراسات العربية في الأزهر وبين أية ثقافة تركية ، ولم يحاولوا طمس الوجه العربي الأصيل للأزهر بصبغة عثمانية . وبنى الأزهر في مظهره ومخبره ، وفي ظاهره وباطنه ، عربيا أصيلاً شامخاً لم يطأ رأسه لأحد من الحكام العثمانيين :

* * *

ولم يتأثر الأزهر من التغيير الذي أحدثه العثمانيون بجعل المذهب الحنفي المذهب الفقهي الرسمي في مصر ، بدلا من المذهب الشافعي ، لأن الفقه على المذاهب الأربعة كان يدرس في الأزهر قبل دخول العثمانيين مصر :

واحترم العثمانيون المذهب الشافعي، إذ كان سواد المصريين يعتنقونه ويعتبرون^(١) مصر « بلد الإمام الشافعي » منذ أن وفد إليها سنة ١٩٩ هـ (٨١٤-٨١٥ م)، وعكفت في جامع عمرو على إلقاء شروحه في القرآن والحديث والفقه وعلوم اللغة، وملك على المصريين قلوبهم : وكانت حلقاته أكثر الحلق ازدحاما في الجامع العتيق، وظل الإمام الشافعي مقبلا في مصر حتى جاز إلى ربه ليلة الجمعة ٢٩ من رجب سنة ٢٠٤ (٢ يناير ٨٢٠) ودفن بالقاهرة . وكان الباشوات العثمانيون يحرصون على زيارة ضريح الإمام الشافعي قبل أن يباشروا مهام منصبهم في مصر^(٢) :

(١) يقرر أحد الباحثين أن سكان القاهرة وكذلك سكان مدن الوجه البحري حتى هذا الوقت الذي نعيشه يعتنقون المذهب الشافعي بينما أغلب أهل الوجه القبلي يعتنقون المذهب المالكي . انظر :

الأستاذ عبدالحليم الجندي : الإمام الشافعي . دارالكتاب العربي ، القاهرة ، يناير ١٩٦٧ ، ص ٣٦٥ .
(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٣) يذكر الأستاذ كومب Etienne Combe نقلا عن فانسلب Vansleb الألماني الأصل الفرنسي الجنسية والذي وضع كتابا في أواخر القرن السابع عشر اسمه :

Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en Egypte.
Paris, 1698.

أنه إذا أصدر السلطان فرمانا بعزل الباشا من منصبه أو إذا جانب الباشا التوفيق في حكم مصر بحيث كانت مدة ولايته مليئة بالاضطرابات أو تفشى الأوبئة وما إلى ذلك كان أهل القاهرة ينسبون هذا الإخفاق أو ذلك العزل إلى أن الباشا العثماني قد تقاعس عن زيارة ضريح الإمام الشافعي قبل أن يتولى سلطات وظيفته . ومنشأ هذا الاعتقاد رواية يرددها سكان القاهرة خلفا عن سلف مؤداها أن السلطان سليم الأول كان متهيئا لدخول القاهرة خشية أن يكون الأمراء المماليك قد بيتوا له خدعة حربية . ولم يجرؤ على دخول القاهرة إلا بعد أن رأى في المنام الإمام محمد بن إدريس الشافعي يبشره بدخول القاهرة ، فدخلها سليم في اليوم التالي لهذا المنام .

انظر :

Précis de l'Histoire d'Egypte, ouvr. cit., t. III, p.57.

ثامنا : عدم تعيين العلماء العثمانيين في منصب شيخ الأزهر

وهناك مسألتان لا مناص من الإشارة إليهما ونحن نتناول نظرة العثمانيين إلى الأزهر ، أما المسألة الأولى ، فتتلخص في أن الدولة العثمانية لم تعين أى عالم عثماني في منصب شيخ الجامع الأزهر طوال الحكم العثماني ، وعلى وجه التحديد منذ إنشاء هذا المنصب في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، أى السابع عشر الميلادى ، بل تركت هذا المنصب يشغله العلماء المصريون دون أن ينافسهم فيه علماء عثمانيون . وكانت نظرة الآستانة إلى منصب شيخ الأزهر تختلف عن نظرتها إلى منصب قاضى القضاة في مصر ، إذ قصرت التعيين في المنصب الأخير على العثمانيين ، وكان يطلق على شاغله قاضى عسكر ، أو قاضى عسكر أفندى . وكانت الدولة توفده من الآستانة إلى القاهرة وهو لا يعرف اللغة العربية : أما منصب شيخ الأزهر فقد أبقت الدولة على عروبته ومصريته في آن واحد : ويصف الجبرقى منصب شيخ الأزهر بقوله : « إنه أعظم مناصب العلماء ^(١) » . وكان موقف الدولة من هذا المنصب متمشيا مع السياسة العليا التى درجت عليها وهى عدم التدخل في شئون الأزهر : ولا شك في أن تعيين العلماء المصريين دون سواهم في منصب شيخ الأزهر كان من أهم العوامل التى أعانت تلك الجامعة الإسلامية العربية العتيبة على الحفاظ على اللغة العربية ، وبالتالي على دعم الطابع العربى لمصر :

وأما المسألة الثانية فتتمثل في أنه لم يتقلد أحد من علماء الحنفية منصب شيخ الجامع الأزهر طوال الحكم العثماني أيضا ، وإنما تقلب على مشيخة الأزهر إبان هذه الفترة علماء من الشافعية والمالكية ، بحيث كان منصب شيخ الأزهر محصورا في علماء هذين المذاهبين : ونستقى هذه الحقيقة من ثبت رسمى أصدرته

(١) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

وزارة الأوقاف وشئون الأزهر في سنة ١٩٦٤ متضمنا أسماء شيوخ الأزهر ومذاهبيهم ، والمدة التي قضوها كل منهم شيخا للأزهر^(١). وإلى جانب هذه الحقيقة توجد حقيقتان أخريان نخرج بهما من الدراسة التحليلية لهذا الثبت: الأول أن كفة علماء الأزهر من الشافعية الذين تولوا المشيخة كانت من حيث العدد هي الراجحة بالنسبة للمالكية خلال الحكم العثماني ، إذ كانت نسبتهم ٧ : ٥ ، والحقيقة الثانية أن العثمانيين لم يجعلوا اعتناق المذهب الحنفي

(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر: الأزهر تاريخه وتطوره . مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢٩ - ٣٢٠ .

وانظر أيضا :

الأزهر في ١٢ عاما : سجل وضع تنفيذاً لقرار وزاري رقم ٢ لسنة ١٩٦٤ صدر عن وزير الأوقاف وشئون الأزهر . وقد قامت بإعداد السجل لجنة برئاسة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضي وكيل الأزهر ومثل فيها مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للأزهر والإدارة العامة للمعاهد الأزهرية . ص ٢٧ - ٧٢ ، ولم تذكر سنة طبع الكتاب .

(٢) شيوخ الأزهر إبان الحكم العثماني

الشيوخ المالكيون :

ترتيبهم في تولي المشيخة

الأول

الشيخ محمد عبد الله الحرشي المتوفى سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م)

الثالث

الشيخ محمد النشقي (١١٠٦ - ١١٢٠ هـ) (١٦٩٤ - ١٧٠٨)

الرابع

الشيخ عبد الباقي القليبي (١١٢٠ - ؟) (١٧٠٨ - ؟)

الشيخ محمد شنين أسندت إليه المشيخة عقب وفاة الشيخ القليبي وظل متقلداً إياها حتى وفاته سنة ١١٣٣ هـ (١٧٢١) .

الخامس

الشيخ إبراهيم موسى الفيوي (١١٣٣ - ١١٣٧) (١٧٢١ - ١٧٢٥)

السادس

الشيوخ الشافعيون :

الشيخ إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوي (١١٠١ - ١١٠٦) (١٦٩٠ - ١٦٩٤)

الثاني

الشيخ عبد الله الشبراوي (١١٣٧ - ١١٧١) (١٧٢٥ - ١٧٥٧)

السابع

الثامن

الشيخ محمد سالم أحمد الحفني (١١٧١ - ١١٨١) (١٧٥٧ - ١٧٦٧)

الشيخ عبد الرؤوف محمد عبد الرحمن السجيني (١١٨١ - ١١٨٢) (١٧٦٧ - ١٧٦٨)

الشيخ أحمد عبد المنعم يوسف الدمهوري (١١٨٢ - ١١٩٠) (١٧٦٨ - ١٧٧٦)

الشيخ أحمد العروسي (١١٩٢ - ١٢٠٨) (١٧٧٨ - ١٧٩٣)

الأزهر ظل شاغراً بعد وفاة الشيخ الدمهوري حتى سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨) حين عين الشيخ

أحمد العروسي شيخاً للأزهر

الحادي عشر

الثاني عشر

الشيخ عبد الله الشرقاوي (١٢٠٨ - ١٢٢٧) (١٧٩٣ - ١٨١٢)

— وهو المذهب الرسمي — شرطاً لابد من توفره Sine qua non فيمن يلي هذا المنصب الديني الخطير ، بل تركوا اختيار شيخ الأزهر مطلقاً من كل قيد مذهبي ، ومنوطاً بالمشايخ أنفسهم^(١) ، على الرغم من أن العثمانيين كانوا يفضلون بطبيعة الحال أن يكون شيخ الأزهر حنفياً ، ولكنهم أمسكوا عن الزج بأنفسهم في شئون الأزهر كما سبق أن ذكرنا ، والمعنى المستفاد من ذلك أن القيد المذهبي الذي وضعه العثمانيون على منصب كبير القضاة بقصر التعيين فيه على الحنفية لم ينسحب على منصب شيخ الجامع الأزهر^(٢) ، وأخيراً فإن هناك حقيقة نستقيها من تاريخ مصر إبان الحكم العثماني ، وهي أن العلماء الحنفية لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء عدم توليهم مشيخة الأزهر ، فقد سعى بعضهم

(١) كان اختيار شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني — وهو العصر الذي شهد إنشاء هذا المنصب — باتفاق الأشراف فيما بينهم . فإذا أجمعوا أمرهم على اختيار أحد العلماء اتخذت السلطات الحاكمة في القاهرة الإجراءات التقليدية التي تتبع عند شغل المناصب الكبرى . فيقوم الباشا العثماني أو شيخ البلد وهو كبير الأمراء المماليك بإلباس شيخ الأزهر الجديد « فرو سمور » . وكان هذا الإجراء يعتبر إقراراً من السلطات الحاكمة بتعيينه شيخاً للأزهر . أما إذا اختلفت كلمة العلماء واحتدمت المنافسة بين المرشحين واستحال الاتفاق ، تدخل الأمراء المماليك وأغا الإنكشارية ، وكانوا يقفون عادة إلى جانب المرشح الذي يبدو لهم أن معظم المشايخ يؤيدون ترشيحه .

(٢) يقول الأستاذ دي شابرول de Chabrol إن قاضي القضاة كان يشترط فيه أن يكون حنفياً ، أما قضاة الأقاليم فلم يكن يطبق هذا الشرط المذهبي عليهم .

La Cour de Constantinople professe la secte de Hanafy. C'est pourquoi le quady a' askar doit toujours en être. On n'observe pas la même attention à l'égard des qâdy des provinces. p. 12

انظر البحث الذي نشر في :

Description de l'Egypte. t. 18 première partie. pp. 1-340.

تحت عنوان :

Essai sur les mœurs des habitants (sic) modernes de l'Egypte.

سعيًا حثيثًا ليتقلدوا هذا المنصب الرفيع، وحدثت اضطرابات في الأزهر نتيجة
احتدام المنافسة بين الحنفية والشافعية بوجه خاص^(١) :

* * *

وكان من مظاهر تقدير الدولة العثمانية لعلماء الأزهر حرصها على عدم
المساس بنظام « الرزق الإحباسية » وهي الأراضي الزراعية التي حُبست ،
أو وقفت للإنفاق من ريعها على المساجد والأرباب والأسبلة والتكايا والمدارس
والصدقات ، وما إلى ذلك من وجوه البر : وكانت هذه الأراضي معفاة من
الضرائب : وكان المشايخ علماء الأزهر هم المنتظرين عليها أو على معظم
هذه الأوقاف : وكانت تدر عليهم دخلاً محترماً . وقد ظل علماء الأزهر
نظراً لهذه الأوقاف طوال الحكم العثماني ، حتى إذا تولى محمد علي حكم
مصر سنة ١٨٠٥ كان من بين أساليبه المالية « لاستنضاح » المال تجريد

(١) يذكر الجبرتي تفاصيل دقيقة وبثيرة عن المساعي التي بذلها الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشي
الحنفي لتعيينه شيخاً للجامع الأزهر ، ويوضح مراحل المنافسة التي احتدمت بينه وبين الشيخ
أحمد العروسي الشافعي ، وانقسام العلماء إلى فريقين كل منهما يناصر مرشحه الحنفي أو الشافعي . وقد
استطاع هذا الانقسام سبعة أشهر وتدخل إبراهيم بك ومراد بك وغيرهما من الأمراء المماليك
تأييداً للمرشح الحنفي . ومع ذلك فقد ظفر الشيخ أحمد العروسي الشافعي بمشيخة الأزهر . وكان العلماء
الأحناف يستندون في مطالباتهم بمشيخة الأزهر إلى أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي ، وأن سلطان
الدولة العثمانية والباشا العثماني والأمراء المماليك وقاضي القضاة كل أولئك يعتنقون المذهب الحنفي ،
وأن مذهب أبي نعمان هو أقدم المذاهب في مصر . أما العلماء الشافعية فكانوا يقولون « إن مشيخة الأزهر
من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد أبداً . »

انظر الجبرتي : ج ٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

وما هو جدير بالذكر أنه لم يتقلد أحد من الحنفية مشيخة الأزهر إلا في السبعينات من القرن
التاسع عشر عندما ماعين الشيخ محمد المهدي العباسي شيخاً للأزهر سنة ١٨٧٠ (١٢٨٧)
فكان أول من تولى الأزهر من الأحناف : وكان يقوم معها بمهمة ومنصب الإفتاء . وهو أول من
تولى مشيخة الأزهر مرتين .

علماء الأزهر من هذا الإيراد أو الامتياز^(١) : فكان هذا التجريد السبب المباشر في وقوع الصدام بين محمد علي وعلماء الأزهر : واستفاد علماء الأزهر أيضا من النظام المعروف باسم « مسموح المشايخ » :

وكان الباشوات العثمانيون في مصر يخطبون ود علماء الأزهر ويتقربون إليهم تقديرًا منهم لعلمهم وفضلهم ومكانتهم . وكان لبعض الباشوات صلات علمية وصدقات وثيقة مع كثيرين من أعلام المشايخ علماء الأزهر : وكان الباشوات ينزلون من القلعة لزيارة هؤلاء العلماء في منازلهم : نذكر منهم على سبيل المثال : أحمد باشا حافظ الخادم ، وقد عين واليا على مصر في يونيو ١٥٩١ (رمضان ٩٩٩) . ووصفت الفترة التي قضها في حكم مصر بأنها كانت « ربيع العلماء والفقهاء والرعايا »^(٢) ، وكذلك السيد محمد باشا الشريف وقد تولى حكم مصر في يونيو ١٥٩٦ (شوال ١٠٠٤) ، وخص بصحبته الشيخ محمد بن أبي السرور البكرى والد الشيخ محمد بن محمد أبي السرور البكرى المؤرخ المصرى ، وكان يستمع إلى دروسه : ومما يذكر أن هذا الباشا جدد القبلة القديمة في الجامع الأزهر ، ورتب عدسا لطلابه^(٣) : وأخيرًا نذكر

(١) بدأ محمد علي بفرض ضرائب على أراضى الأوقاف ، ثم وضع يده على الأرض الموقوفة وتولى الإنفاق من إيراداتها على جهات البر التي حددها الواقف . وإذا بقي شيء من حصيلة الوقف ضمه إلى خزانة الدولة . ولكنه لم يتعرض لمبدأ الوقف في ذاته .

(٢) محمد بن أبي السرور البكرى : الروضة المأنوسة ، مخطوط سبق ذكره . ورقة رقم ٢١ . وانظر أيضا :

يوسف افندي الملوى الشهير بابن الوكيل : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب . فرغ منه مؤلفه في شوال ١١٣١ (أغسطس ١٧١٩) مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج تحت رقم ٥١ تاريخ . ورقة رقم ٨٨ مخطوط .

(٣) محمد بن أبي السرور البكرى :

الروضة المأنوسة ورقة رقم ٢٢ مخطوط .

والنزهة الزهية ورقة رقم ٣١ مخطوط .

جعفر باشا الذى عين واليا على مصر فى فبراير ١٦١٩ (ربيع أول ١٠٢٨) ، وكان من صفوة العلماء العثمانيين ، واشتهر ببحوثه فى العلوم الإسلامية ، وبخاصة علمى التفسير والكلام ، واستبشر علماء الأزهر بتعيينه واليا على مصر وشاركوا فى الاحتفال بمقدمه^(١) . وكان أحمد باشا كور والى مصر يستقبل فى قصره بالقلعة صدور العلماء مثل الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النبراوى والشيخ سليمان المنصورى والشيخ حسن الجبرقى ، ويخوض معهم فى أحاديث علمية . وكانت أحب الأوقات إلى قلبه تلك التى كان يقضيها مع علماء الأزهر مستمعاً إليهم : وكان يقول لهم « المسموع عندنا بالديار الرومية (يقصد بلاد الدولة العثمانية عامة والآستانة بخاصة) أن مصر منبع الفضائل والعلوم »^(٢) . وكان يأنس للشيخ حسن الجبرقى - والد عبد الرحمن الجبرقى المورخ - وخصص له يومين كل أسبوع هما السبت والأربعاء يأخذ العلم عنه « ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفأتى »^(٣) .

(١) محمد بن عبد المعطى الإسحاقى : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . فرغ من تأليفه ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ م) . مخطوط بمكتبة رفاة الطهطاوى بمدينة سوهاج تحت رقم ٣٧٩ تاريخ من ص ص ٤٤٢ - ٤٤٥ وانظر أيضاً :

مصطفى الصفوى : صفة الإيمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلاطان . مخطوط مودع فى مكتبة رفاة الطهطاوى فى مدينة سوهاج . فرغ منه مؤلفه فى ربيع أول ١٢٢٣ (مايو ١٨٠٨) وهو برقم ٥١ تاريخ من ١٥٨

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٧ . وقد ظل أحمد باشا كور والياً على مصر حتى اليوم العاشر من شهر شوال سنة ١١٦٣ (١٢ سبتمبر ١٧٥٠) .

(٣) المصدر السابق .

وكان من مظاهر رعاية الدولة العثمانية للأزهر اهتمامها بالمحافظة على عمارة المسجد ، وبدأت صور شتى لهذا الاهتمام على مدى القرون الثلاثة التي امتد إليها الحكم العثماني. وحسبنا أن نشير إلى مثال رائع لهذه الرعاية الحانية : لاحظ الشيخ محمد شتن شيخ الجامع الأزهر أن بعض أجزاء من بناية المسجد قد أصابها تصدع ، وأنها أصبحت آيلة للسقوط . فبعد في يوم الخميس الخامس والعشرين من يناير ١٧٢٠ (الخامس عشر من ربيع أول ١١٣٢) إلى القلعة حيث قابل الوالي العثماني واسمه على باشا المظلوم وأنبأ إليه مخاوفه. وكان مما قاله هذا الشيخ الحليل للباشا العثماني : « المرجو من حضرتكم وعالي همتكم أن تكتبوا إلى حضرة مولانا السلطان نصره الله العزيز الرحمن لينعم على الجامع الأزهر بالعمارة ، فإنه محل العلم الذي ببقائه بقاء الدولة العثمانية : ولك وله الثواب من الملك الوهاب » ، واهتم الباشا بالأمر ، ورأى أن يضفي مزيداً من الأهمية على طلب الشيخ محمد شتن ، فاقترح أن يضع كبار المشايخ علماء الأزهر مذكرة في هذا الصدد ترفع إلى السلطان بعد أن يوقعوا عليها ، ويشترك الباشا وكبار الأمراء المماليك في وضع أختامهم عليها : واستجاب السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) إلى طلب علماء الأزهر ، وأوفد بعثة عثمانية رسمية إلى مصر تحمل رد السلطان بالموافقة على اعتماد خمسين كيساً ديوانياً من مال الخزانة للإنفاق منها على إصلاح المسجد^(١) :

(١) انظر مخطوطين محفوظين في مكتبة رفاعه الطهطاوى في مدينة سوهاج .

(أ) مرتضى بك ابن مصطفى بك ابن حسن بك : ذيل تحفة الأسياب . فرغ منه مؤلفه في ربيع آخر ١١٣٦ يناير ١٧٢٤ وهو برقم ٢٨ تاريخ ورفات رقم ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٢ .

(ب) مصطفى الصفوى الشافعى القلماوى : صفوة الزمان فيمن تولى عل مصر من أمير وسلفان . مخطوط سبق ذكره ، ص ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وتوجه وفد رسمي عثماني إلى الجامع الأزهر في الحادى عشر من فبراير ١٧٢١ (الخامس عشر من ربيع آخر ١١٣٣) ، وكان هذا الوفد يضم قاضى القضاة العثماني في مصر ، وأعضاء البعثة العثمانية التى جاءت من الآستانة وكبار ضباط جيش الاحتلال العثماني ، ويوسف بك الخزار ناظر الأزهر ، وعددا من المهندسين : وكان في استقبالهم عند باب المدرسة الأقبغاوية الشيخ محمد شنن شيخ الجامع الأزهر ، وأقام لهم مأدبة تكريما لهم ، وبعد أن فرغوا من تناول الطعام كشفوا على جميع جدران المسجد ، وبدأت عمليات الترميم ، وتجاوزت نفقاتها الاعتماد المالى الذى قرره السلطان ، إذ بلغت تكاليفها ٥٨ كيسا ديوانيا ، وقد غطى هذه الزيادة كل من أمير الحج وشيخ البلد : أما الشيخ محمد شنن الذى سعى في تجديد عمارة الأزهر وإصلاحه فلم يكتب له أن يشاهد نتائج مساعيه ، إذ جاز إلى ربه في السابع من مارس ١٧٢١ ، (الثامن من جمادى الأولى ١١٣٣) :

وإذا ذكرنا الباشوات العثمانيين الذين اهتموا بإصلاح مباني الجامع الأزهر فلا بد أن نشير إلى العمارة التى أمر بها الأمير عبد الرحمن بن حسن جاويش القازدغلى كتنخدا سنة ١٧٥٣ (١١٦٧) هـ ، لأنها لم تكن أكبر عمارة معمارية أجريت بالمسجد في العصر العثماني فحسب ، بل كانت أكبر وأضخم عمارة شهدها هذا الجامع منذ إنشائه والفراغ من بنائه في رمضان ٣٦١ (يونيو ٩٧٢) حتى تلك السنة : فقد أضافت هذا الأمير أقساما هامة إلى بنيانه وتخطيطه فضلا عن ثلاث مآذن : ويعطى الجبرقى وصفا مسهبا ودقيقا عن الإضافات التى قام بها عبد الرحمن كتنخدا^(١) ، وحسبنا أن هذا الأمير « زاد في مقصورة

(١) دكتور أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الأول . العصر الفاطمى .

دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ص ٨ - ٥ .

الجامع الأزهر مقدار النصف طولاً وعرضاً يشتمل على خمسين عاموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب النقي ، وبني به محراباً جديداً ومنبراً ، وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة ، وبني بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وبداخله رحبة متسعة ، وصهريج عظيم وسقاية لشرب العطاشى المسارين : : : » ويقول الجبرقى أيضاً إن الإضافات الجديدة فى الجامع الأزهر جاءت « من أحسن المباني فى العظم والوجاهة والفخامة » : ويعتبر المؤرخون عبد الرحمن كنتخدا رائد العمارة الإسلامية فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وأنه جمع فى أكثر مبانيه بين الفن والجمال^(١) ، واشتهر باسم « صاحب الخيرات والعائز فى مصر والشام والروم »^(٢) .

* * *

يبين من هذا التحليل السريع لبعض الأوضاع التى كانت سائدة فى مصر إبان الحكم العثمانى أن دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر كان نتاج عدة عوامل تضافرت معاً فى الإبقاء على الوجه العربى لمصر ، وكان بعضها عوامل ذاتية انبثقت من الأزهر نفسه ، ومن رسوخ مركزه فى الحياة المصرية بحيث طبعها بطابع خاص ، وغدا الأزهر جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة فى مصر سواء فى النواحي السياسية أو الدينية أو العلمية أو الاجتماعية ، بينما كان البعض الآخر من هذه العوامل يتصل بما يمكن أن نطلق عليه فلسفة الحكم العثمانى : ومما لا مراء فيه أن العثمانيين قد أسهموا عن غير قصد فى

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة وتاريخها وآثارها (١٨٢٥-١٩٦٩) من جواهر القائد إلى الجبرقى المؤرخ . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) الجبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٧ .

— ٧١٥ —

تمكين الأزهر من القيام بهذا الدور ، فكان هو الحصن الحصين للغة العربية .
 وكان علماء الأزهر ومجاوروه هم حراس هذا المعقل ، حافظوا على التراث
 الحضارى الفكرى الإسلامى ، وبخاصة اللغة العربية لساناً وأدباً وسط ظروف
 متناهية فى قسوتها وظلامها وعسفها ، واستطاعوا طوال ثلاثة قرون رد اللغة
 التركية عن التسلل إلى المجتمع المصرى. وليس من المبالغة أن نقرر أن أسى
 خدمة أسداها الأزهر فى تاريخه الحافل عبر العصور والأدهار إلى مصر
 والعروبة إنما تتمثل فى اضطلاعها بالمحافظة على اللغة العربية ، وما نجم عن هذه
 المحافظة من آثار بعيدة : وكفى الأزهر فخراً وفضلاً أنه حفظ للغة العربية
 حياتها ، ولثقافة العربية أصالتها ، ولمصر طابعها العربى ، وأصبح الاسم العلمى
 الذى يطلق عليها خلال الفترة من سنة ٩٢٣ حتى سنة ١٢١٣ هـ (١٥١٧-١٧٩٨)
 هو « مصر العربية إبان الحكم العثمانى » :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

من أهم المصادر والمراجع التي ورد ذكرها في هوامش هذا البحث

أولا : المخطوطات

- (١) ابن الوكيل ، يوسف افندى الملوى الشهير بابن الوكيل :
تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، وهو محفوظ
برقم ٢٨ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج :
من ورقة ١ إلى ورقة ١٨٠ لابن الوكيل $\frac{٩٢٢}{١١٣١}$
ومن ورقة ١٨١ إلى ورقة ٢٠٢ وهى آخر المخطوط من تأليف مرتضى
بك ابن مصطفى بك ابن حسن بك الكردى الدمشقى $\frac{١١٣١}{١١٣٦}$
- (٢) أحمد الدمهورى : اللطائف النووية فى المنح الديمهرورية :
محفوظ برقم ٢٣٢ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج ،
١٠٢ صفحة من القطع المتوسط :
- (٣) الإسماعى ، محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى
الإسماعى المنوفى الشافعى :
لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول :
محفوظ برقم ٣٧٩ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج ،
أنجز تأليفه فى ٢٦ ربيع آخر ١٠١٦ هـ

(٤) البكرى، الشيخ السيد محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديق:

الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة :

محفوظ برقم ٢٢٦١ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

فرغ منه مؤلفه فى سنة ١٠٥٤ هـ

(٥) _____ :

الزهوة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية :

محفوظ برقم ٢٢٦٦ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

فرغ منه مؤلفه فى ١٣ ذى الحجة ١٠٥٩ هـ

(٦) الشبراوى ، عبد الله الشبراوى :

نزهة الأبصار فى رابى الأشعار

محفوظ برقم ١٠١ أدب بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج :

(٧) الصفوى ، مصطفى الصفوى الشافعى القلعاوى :

تاريخ صفوة الزمان قيمن تول على مصر من أمير وسطان :

محفوظ برقم ٥١ تاريخ بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج :

(٨) الغزى، نجم الدين بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

الغزى العامرى القرشى الشافعى :

الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة .

محفوظ برقم ١٢٠٦ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

(٩) النابلسى، عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم بن النابلسى الدمشقى

الحنفى القادرى النقشبندى :

الحقيقة والحجاز ، فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .

محفوظ برقم ٢٤٨١ تاريخ المكتبة انشيمورية بدار الكتب والوثائق

القومية بالقاهرة .

- (١٠) مصطفى ابن الحاج ابراهيم تابع المرحوم حسين أغا عزبان :
تاريخ وقائع مصر القاهرة ، كنانة الله في أرضه :
محفوظ برقم ٤٠٤٨ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة :

ثانيا : المطبوعات العربية مرتبة أبجديا

- (١) ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الشهير بابن إياس :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المشهور بتاريخ مصر : طبعة بولاق ،
١٣١٢ هـ (١٨٩٤ - ١٨٩٥ م) .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :

تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٨ :

- (٣) أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) بالاشتراك مع الدكتور محمد
بديع شريف وزكى الخاسنى : دراسات تاريخية في النهضة العربية
الحديثة : لم تذكر سنة الطبع . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة :

(٤) أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :

- المقدمة التي وضعها لكتاب «حوادث دمشق اليومية» ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ
(١٧٤١ - ١٧٦٢ م) ألفه الشيخ أحمد البديري الحلاق ونقحه الشيخ
محمد سعيد القاسمى : وحققه ونشره الدكتور عزت : من مطبوعات
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٩ :

(٥) أحمد فكرى (دكتور) :

- مساجد القاهرة . ومدارسها . الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة

١٩٦٥ .

- (٦) الجبرتي ، عبد الرحمن حسن الجبرتي (الشيخ) :
عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م)
أربعة أجزاء :
- (٧) المحبي ، محمد الأمين فضل الله بن محب الله المحبي :
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر : القاهرة ، ١٢٨٤ هـ
(١٨٦٧ - ١٨٦٨) أربعة أجزاء :
- (٨) المرادي ، محمد خليل المرادي :
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر : القاهرة ، ١٣٠١ (١٨٨٣ م)
أربعة أجزاء :
- (٩) المقرئ ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرئ :
نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب . مطبعة بولاق بالقاهرة ، ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢)
أربعة أجزاء .
- (١٠) توفيق الطويل (دكتور) :
التصوف في مصر إبان الحكم العثماني : القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع
- (١١) حسن عثمان (دكتور) :
تاريخ مصر في العهد العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨ :
دراسة نشرت في مجلد باسم « المحمل في التاريخ المصري » القاهرة
١٩٤٢ :
- (١٢) عبد الحليم الجندى (المستشار) :
الإمام الشافعي : القاهرة ، يناير ١٩٦٧ .

- (١٣) عبد الرحمن زكى (دكتور) :
القاهرة ، تاريخها وآثارها (٩٦٩ - ١٨٢٥) من جوهر القائد إلى
الجبرقى المؤرخ . القاهرة : ١٩٦٦ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- (١٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :
عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، القاهرة : ١٩٦٧ .
- (١٥) _____ :
أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩
(الفصول ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ الخاصة بالدولة العثمانية
وخصائصها ، والزحف العسكرى العثمانى ومراحله وخصائصه ،
والنذر الأولى لاضمحلال الدولة العثمانية)
- (١٦) على الجرتلى (دكتور) :
تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٢ .
- (١٧) على مبارك باشا :
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة
والشهيره ، القاهرة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ - ١٨٨٩) ٢٠ جزءا
- (١٨) محمد أنيس (دكتور) :
مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، مطبوعات معهد الدراسات
العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- (١٩) محمد جميل بيهم :
العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب : بيروت ، ١٩٥٧ .

— ٧٢٢ —

(٢٠) محمد عبد الله عنان :

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية : القاهرة ، ١٩٤٧ .

(٢١) ————— :

تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، الطبعة الثانية : ١٩٥٨

(٢٢) محمد فهمي لطيفة (دكتور) :

تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٤٤

(٢٣) محمد فؤاد شكرى (دكتور) :

مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١) القاهرة ،
١٩٥٨ ، ثلاثة اجزاء

(٢٤) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر :

الأزهر تاريخه وتطوره ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤) :
وضع مقدمة الكتاب الأستاذ الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف
وشئون الأزهر وقتذاك .

(٢٥) الأزهر في ١٢ عاما :

سجل وضع تنفيذاً لقرار وزارى رقم ٢ لسنة ١٩٦٤ صدر عن وزير
الأوقاف وشئون الأزهر : وقامت باعداد السجل لجنة برئاسة الأستاذ
الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر ومثل فيها مجمع البحوث
الإسلامية والمجلس الأعلى للأزهر والإدارة العامة للمعاهد الأزهرية .
لم تذكر سنة طبع السجل :

ثالثا : المصادر والمراجع غير العربية مرتبة أبجديا

- (1) Dr. Afaf Loutfi El Sayed; The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the Early Nineteenth Century with a detailed introduction on Mamluk Egypt.

A Historical Study presented to the Conference on the Modern History of Egypt held in London in April 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

See No. 8 in this bibliography.

- (2) André Raymond ; Quartiers et Mouvements Populaires au Caire au XVIII siècle.

Communication faites au congrès sur l'histoire de l'Egypte Moderne qui s'est tenu à Londres en avril 1965. Voir No. 8 dans cette bibliographie.

- (3) Chabrol (de); Essai sur les mœurs des habitants (sic) modernes de l'Egypte.

dans :

Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et de Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'Armée française. Seconde édition, celle de Panckoucke, Paris, 1821-1829. T. XVIII, Première partie, pp. 1 - 340.

- (4) Combe Etienne; L'Egypte Ottomane, de la Conquête par Selim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798).

dans :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols.

Tome troisième. Le Caire, 1933. Première Partie.

- (5) Estève le Comte; Mémoire sur les finances de l'Egypte, depuis sa conquête par le Sultan Selym 1er, jusqu'à celle du général en chef Bonaparte.

dans :

Description de l'Egypte; t. XII. pp. 41 - 248.

- (6) Gamal El Din El Shayyal; Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-century Egypt,

A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.

- (7) Holt P. M.; Ottoman Egypt (1517-1798): An account of Arabic Historical Sources.

A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.

- (8); Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. London, 1968.

Professor Holt, being the editor, included in this volume the essays presented to the Conference on the History of Modern Egypt, held in April, 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

- (9) Jomard E.; Description de la ville et de la citadelle du Kaire (sic), accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (sic), sur sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVIII, Deuxième partie, pp. 113-538.

- (10) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798-1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le Général Bertrand. Paris, 1847. 2 vols.

- (11) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte, ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey et suivis du récit des événemens (sic) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali. Paris, 1830-1836. 10 vols.

- (12) Stanford J. Shaw ; The Financial and Administrative Organisation and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. Princeton University Press. Princeton N. J., 1962.
- (13) ; Ottoman Egypt in the Eighteenth Century. The Nizâmnâme - i Missir of Cezzar Ahmed Pasha. Edited and translated from the Original Turkish by Stanford J. Shaw. Harvard, 1962. Distributed for the Center for Middle Eastern Monographs.
- (14) ; Landholding and Land-tax Revenues in Ottoman Egypt.
A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.
- (15) Vansleb ; Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en Egypte Paris, 1698.

القاهرة مدينة النهضة الأدبية العربية

البروفيسور الدكتور عبد الكريم جبرمانوس

القاهرة مدينة النهضة الادبية العربية

البروفيسور الدكتور محمد الكرم جبرائيل

احتلت الخرافات والخزعبلات في عصر القرون الوسطى في أوروبا مكان العلوم القديمة ، حيث اختفى الأمان لدى العامة ومجموعات الشعب ليسيطر بدلا منه الخوف والرعب على الانسان . لهذا أطلق العلماء والمؤرخون على عصر القرون الوسطى في أوروبا عصر الظلمات . . عصر الخوف والجهل وعدم المعرفة . .

وبينما كانت أوروبا غارقة في قاع الحياة ، كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، في بلاد العرب بمعجزاته الإلهية يوقظ في الشعب العربي قدرته النائمة ، لينتصر بسلاحه البسيط وحميته الدينية على جيوش البيزنطيين والفرس المكتملة حرييا وعسكريا . . وليثبت أن ليس السيف ، وليست القوى الفجة هما سبيل النصر وليؤكد أن الروح والإيمان هما اللذان قادا الحروب العربية إلى الفوز والنصر :

لقد انهزمت وقهرت أقوى الدول قبل عهد الإسلام ، ولقد علم النبي محمد البحث عن المعرفة في قوله مامعناه ابحثوا عن المعرفة ولو كانت في الصين وكانت هذه هي إحدى علامات الإسلام العربي : وبهذا اتسع نطاق

اللغة العربية في الشرق حتى الهند وآسيا الوسطى وفي أوروبا عامة ، وعبرت
اللغة قارة أفريقيا حتى عمت الأندلس :

وبهذا ، وفي كل مكان دعا الاسلام إلى النهوض بالمسلمين وإلى الارتفاع
بمستوى المعرفة فبنيت المساجد ، ولم يكن الغرض منها هو إقامة شعائر الصلاة
وحدها ، لكنها أصبحت مدارس أيضا للمسلمين حيث علمت مختلف العلوم
من القراءة حتى الفلسفة . وكانت مدارس هذه المساجد الإسلامية ومركزها
الأزهر الشريف ، نموذجا لمثيلاتها بعد ذلك في معاهد وجامعات أوروبا :
بل أن كلمة جامع العربية أطلقت بعد ذلك على الجامعة التي تحوى مختلف
الفروع والعلوم. فعندما كان القساوسة في أوروبا يحاولون معرفة القراءة
فقط كادت تكون الممدن العربية في القاهرة ودمشق وبغداد والأندلس
على قدر كبير من القراءة والكتابة . وبينما كانت المخطوطات اللاتينية
في الأديرة المسيحية الأوروبية تعلوها الأتربة من أثر عدم استعمالها ، كانت
المكتبات العربية تزخر بمئات الألوف من المخطوطات تقف في خدمة طالبي
العلم وراغبيه . لقد ترجم العلماء العرب العلوم القديمة والفلسفة والميكانيكا
والجبر والفلك ، حيث لا تزال بعض النجوم تحتفظ بأسمائها العربية الأصلية :
لقد طور العرب علم الطب منذ العصر القديم . وعلم الصناعة والتقدم العامي
الكبير الذي أحرزوه في مجال الكيمياء يسجل بفخر عظمة الحياة الخيرة وحاسة
الذوق وحسن المذاق في مختلف البلاد والمدن العربية :

لقد أنقذت العبقريّة العربية الإنسانية من الجهل وسلطت النور على
ما يعيش فيها من ظلام : لهذا فليس غريبا أن تكون الإنسانية بأجمعها
مدينة بالشكر والحمد للعالم العربي :

وبجانب العواصم العربية دمشق وبغداد وقرطبة وصقلية وغرناطة
لمعت وأضاءت في أفريقيا نجمة إسمها القاهرة ، عملت على تحقيق الثقافة
الانسانية معلنة إياها في رفعة وانتصار : هذه المدينة المنتصرة هي التي تحتفل
اليوم بعيدها الألفى التاريخي :

لقد تطور الجوهر على مر السنوات الألف مارا بالتبديلات والتغيرات
حتى أصبحت مدينة كبيرة : : وهي اليوم أجمل عواصم العالم وموضع
الاهتمام وللشعب المصرى أن يفخر بذكرياته التاريخية التي ترونها مدينة
الثرية . القاهرة :

لا توجد في أى من مدن العالم مدينة تستطيع أن تفخر بتاريخها العريق
كالقاهرة . . حيث ترتفع فيها على قرب من الأهرام شاحنة ، وحيث
أخرجت الحفريات للعالم أقدم وأعظم الثقافة الإنسانية . إن قاهرة
القرون الوسطى العربية والفاطمين وحكم المماليك والمساجد الرائعة
لكلها آثار فخر . لقد أعلن الأزهر ذو الألف عام كيف استطاع أن يحصل
على العجائب من قدرة الانسان وعظمته : إن تاريخ القاهرة لم ينفصل ولم
يتغير ولم يمسه سوء تحت الحكم الأجنبي ، وظل دائما تاريخا عربيا
وإسلاميا ، لأن في هذه المدينة ولد الأدب العربى كما ولد العلم .

وفي النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتخذت العقلية العربية في
مصر ، القاهرة طريقا لها . فارتقت التقاليد الإسلامية وظهرت ،
وفهم المجددون الموجهون لاتجاهات الديمقراطية الإسلامية كلمة العصر
وروحه ، وأبدعت الآلة البخارية والسكك الحديدية وعصر الكهرباء
علاقات جديدة لنهضة الحياة ، عكست إشعاعات روحية وفكرية على عبد الله
فكرى وعبد الله النديم ومحمود سامى البارودى وعلى باشا مبارك ، وإسماعيل

صبرى . كما أن محمد عبده وجمال الدين الافغانى أكبر معلمين للجيل المصرى الجديد فى ذلك الوقت ، قد خطا طريقا جديدا فى القاهرة بالنسبة للعربية وللإسلام عامة . وكان تلامذتهم فى الأدب المصرى وفى العلوم من أكبر الممتازين نذكر منهم محمد حسين هيكل والعقاد وعبد القادر المازنى وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ، بل وطه حسين أيضا . . . لقد ولدت الثقافة العربية فى القاهرة وما زالت هذه المدينة تقبض على ناصية القيادة الفكرية للأدب العربى ومركزا له فى العالم المعاصر .

لقد قادتنى أحلامى ورغباتى وأفكارى إلى القاهرة قبل أن أراها أو أحل بها . لقد تعلمت العربية بعد أن فرغت من تعلمى للتركية والفارسية ، وعندما دعانى الشاعر الهندى الكبير رابندرانات طاغور عام ١٩٢٩ لكى أدرس التاريخ الإسلامى فى جامعته ، بدأت فى مراسلة كتاب القاهرة الممتازين : كان من بين مراسلى ، الصديق محمد عبد الله عنان الذى أرسل لى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » ، ثم كتابه « مصر الإسلامية » ، ثم كتاب « ابن خلدون » إحدى الدراسات الفريدة العميقة ، وبالمراسلة وثقت فيه ليعمل على تكوين وإنشاء نادى القلم المصرى . : إذ أننى بناء على طلب الكاتب الانجليزى الشهير جون جولدزورثى قد عملت أمينا عاما لنادى القلم المحرقى فى عام ١٩٢٦ ، وفى عام ١٩٢٨ عملت على تكوين نادى القلم البلغارى أثناء زيارتى هناك . ولقد سعدت كل السعادة أن محاولتى لم تذهب هباء وتكالت خباوات عنان ومتاعبه بالنجاح ، وخرج نادى القلم المصرى إلى النور تحت رئاسة الدكتور طه حسين حيث انضم إليه نخبة من أنجح الكتاب المصريين :

وفى طريق عودتى من الهند عام ١٩٣٣ سافرت إلى لندن ، وسعيت إلى مستشفى سانت جورج حيث زرت فيها الشاعر العربى الكبير الدكتور ابراهيم ناجى الذى كان يرقد هناك إثر حادث تصادم سيارة . وحينما دخلت

عليه وتحدثت بالعربية قابلني بترحاب كبير منطلق البشر ، لكنني مازلت أذكر أنني لم أفهم من حديثه كلمة واحدة هي «ازيك» ، خاصة بعد أن نظرت إليه في سداجة ويأس :. إذ عجبت كيف بعد كل هذه القراءات العربية الكثيرة التي قمت بها لم أستطع أن أفهم كلمة «ازيك» عند سماعي لها خاصة، في أول مقابلة لي وجها لوجه وعينا بعين مع أول كاتب عربي . لكن كيف كان لي أن أعرف بعد قراءتي للقرآن الكريم والعديد من الكتب العربية ، أنهم في القاهرة يستعملون كلمة «ازيك» اختصارا لكلمة «اي زيك» :

لقد عدت إلى القاهرة والخوف يملأني ، لأنني لم أسمع الكلمات التي اعرفها مثل اقول لك ، لكنني سمعت بدلا منها «اقولك» . لقد كان علي أن اشترى اذنا جديدة وعقلا جديدا لأفهم كلمات وتعبيرات أصدقائي الكتاب لكن الحقيقة أن زملائي من الكتاب قد تصرفوا معي بكل حب وأخوة . لقد صبحني عبد الله عنان إلى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ الطواهي مستأدنا منه أن أحضر محاضراته ودروسه في مسجد الأزهر ، وهناك على الأرض أجلس متربعا وأتعلم وأنهل من المعرفة الإلهية :

عندما كنت في الهند أسلمت عائدا إلى الديانة الإسلامية في مسجد دلهي الكبير ، وقد أهلني هذا للدخول إلى رحاب مسجد الأزهر الشريف لأتربع بين جدرانه وأخذ مكاني بين صفوف المشايخ . لقد تفتح أمامي عالم جديد . . لقد تحققت بين أعمدة الأزهر الديمقراطية الإسلامية الكاملة بكل ما تحمله من معان ، وبين هذه الأعمدة كان هناك مصريون وسودانيون ومغربيون وجزائريون وهنود ومن مالاي والصين وبوشنيك واتراك ، وبين هؤلاء الأزهرين جميعا كنت أنا الطالب الحري الوحيد : لقد كنت سعيدا ،

وإلى اليوم لازلت أفخر بأن قادني المصير إلى هذا الطريق .. لقد طوقت
أساتذتي في الأزهر بحبي واحترامى لهم ، وهم أيضا بادلونى هذه الحجة .

بل أنه كان من دواعى سرورى وفخرى أن حضرت ووضعت حجر
الأساس عام ١٩٦٤ للجامعة الازهرية عندما انبثق من الأزهر القديم جامعة
مكتملة عصرية مقرها القاهرة ابدعتها حكومتها الجمهورية ، بل لأننى
القيت عدة محاضرات فى كلية اللغة العربية وأصول الدين عن الأدب العربى
تحت رئاسة البروفيسور ابراهيم محمد نجا . لقد كان الطلبة الجامعيون
متعطشين للعلم والمعرفة :

يثير اهتمامى منذ عشرات السنين الإنشقاق بين اللغتين الفصحى والعامية ؛
لم ألاحظ مثل هذه الفروق الهامة بينهما فى أى لغة أخرى : لقد قلقت على
العربية وخفت ألا تستطيع المدارس أن ترفع من مستوى اللغة العامية ،
لغة الشعب . وأن يقع خطاف الثقافة بين الفصحى والعامية : . هذا الخطاف
الذى يعمل كالمسبك أو كالمصهر ليحول الفصحى إلى عامية منصهرة من
المغرب إلى إيران . ولقد ساعدنى كثير من الكتاب على تخفيف هذا
القلق من نفسى :

بحثت عن عباس محمود العقاد فى مصر الجديدة : : صديقى العقاد الكاتب
والشاعر والفيلسوف وصاحب الثقافة العريضة . كان طويل القامة ، قوى
العود ، جميل الوجه . من مدرس بسيط ظل يتصارع مع نفسه حتى وصل إلى
درجة علمية لإعترف بها أصدقاؤه . استمعت إلى كلمات العقاد فى كثير من
الورع والتموى والإحترام : لقد عرفت أعماله من قبل . لقد كان العقاد من
أعظم الفخورين بنفسه وبشعره الذى يكتبه ، قرأ لى من بين أشعاره «ديوان
عابر سبيل » قرأه بلزقاع موسيقى منغم ، فأبرز موسيقية الشعر العربى وارتفع
به إلى العنان .

وحينما ذكرت له ما أحس به من شقاق بين الفصحى والعامية رد قائلا « لاتفاق إن الوقت واللغة كفيلا بحسم الأمر . لقد كانت اللغة العربية منذ قديم الزمان سليمة ومفهومة لدى العامة ، ثم فقدنا استقلالنا السياسى حيث حكمنا الدخلاء الأجانب ، وبقي الشعب دون تعليم يتحدث اللغة العامية : إن التعليم المدرسى سوف يعلم شعبنا العربية الفصحى ، وبعد وقت قليل سيتكلم كل واحد بالعربية . : إن الحكم الانجليزى الاستعمارى لم ينشئ مدارس انجليزية منذ الثورة المصرية التى حررت الشعب ، فإن حكومة الثورة تعمل على رفع مستوى التعليم ونشره بين السكان ، والصحافة تلعب دورا هاما فى ذلك : لقد رضى الشعب قبل ذلك بمصيره مؤثرا السكوت ، لكنه اليوم نهض ليبحث عن طريقه وصالحه :

وفى نفس المدارس تعلمت المرأة القراءة والكتابة ، والنساء الآن يقمن بدورهن لإنعاش أدب القصة. وهذا سوف يرفع من شأن المرأة المصرية ويخرجها من معقل « الحريم » لتقوم بدورها الفعال فى تطور حياة مجتمعنا المعاصر » : كثيرا ما كنت ضيف العقاد ، استمعت لساعات طوال إلى إجاباته العديدة التى يرد بها على أسئلتى . لقد كان يرى بالنسبة للأدب أنه من الضرورى أن يؤثر روحيا ووجدانيا ، وكان يطلب ذلك من الكاتب ومن القارئ فى نفس الوقت . كان يقول « لا يكتفى أن يكتب الانسان فقط : بل عليه أن يتعلم كيف يقرأ أيضا » . لقد كان العقاد يجيد القراءة والكتابة ، لم يتعمق أحد مثله من الأوربيين مثلما تعمق هو فى أعمال الفلاسفة اسبينوزا ، كنت ، شوبنهاور ، نوردا ، فونت : دهشت للحديث المنمق المديح الذى أعده خصيصا راديو القاهرة بمناسبة ٧٠ عاما على ميلاده للاحتفال بجماعة اصدقاء العقاد :

إن القاهرة لتتمتع بالتقدير والاحترام ، مثلها في ذلك مثل العصر
الآثني القديم . لأن كل من يحل بها من الباحثين الغربيين ومن الكتاب يحس
وكأنه في وطنه الأم . لقد استقبلت كثيرا من الكتاب المصريين ، من أمثال
اللامع توفيق الحكيم ، الذى أراد أن يكتب أدبا مصرياً حقيقياً باذلاً كل
جهوده ومعرفته من أجل هذا الهدف : تعلم وعاش فترة في باريس ،
وحينما عاد إلى القاهرة أحس بأنه أحضر معه نسيم باريس إلى مصر . أراد أن
يكتب بما يحس وبما يريد أن يعبر . لم يتأثر بالأدب القديم أو بأشكاله المختلفة
عن الجمال أو عن سباق الغزلان في الصحراء ، لم يرتعد أو يرتجف أو قرأ
عن البردانيين (المقروران) اللذين تركا الأطلال باكينين : . ومع ذلك
فقد اتخذ الحكيم موضوعاته من الحرافات الإسلامية القديمة لأنه يستطيع بخياله
أن يرمز بكل قوة إلى ما يريد . لكن الجديد عنده أن الشكل واللغة جديدان ،
وهو في حوارته يتنرب شيئاً فشيئاً من لغة الشارع . لقد كتب اسطورة شهرزاد ،
لكنه يعرض لنا فيها أناساً أحياء . لقد تحدث مرة عن الأدب فقال : « كثير
من بيننا من يقضمون العظم ، وبهذا يفقدون شهيتهم للطعام : . هذه
الشبهة التى تتوق إلى اللحم الطرى .. لهذا اتجه أنا إلى الشعب الذى لم يصل
بعد لحالة الاشباع ، فقد يساوى هذا شيئاً » . لقد واسيته بقولى « انتظر
قليلاً بشئ من الصبر : . فلسوف يأتى اليوم ، وعندما يوجد في القاهرة
هؤلاء الناس فسيفرأون كل سطر خطته يدك » .

إن من أهم أعمال توفيق الحكيم التى رفعت إلى مكانة عالية ، مسرحياته
الدرامية . لقد ترجمت إحدى مجلداته الضخمة بما فيها من مسرحيات إلى اللغة
الفرنسية ، ومن خلال هذه المسرحيات تعرف العالم على وجهه من وجوه
المجتمع المصرى وعلى صورة عن حياته :

ويناقد محمد أمين حسونه في قصته «مصر الحرة» التصادم القائم بين الحياة المحمدية الشرقية وبين حياة التمدن الأوربية . وبطل قصته شاب مصري يقع في حب فتاة أوربية ، وتفصح القصة عن موضوع حزين لقصة الزواج الذي يرغبه الشاب الحائر بين الجدور المتأصلة في نفسه وتقاليده الإسلام والإحساس والتمتع بالحرية .

ثم مجلده «الورد الأبيض» حيث يرسم صورة عن رياح الصحراء وعن أمواج رمالها منذ آلاف السنين مبرزاً رغبة امرأة انجليزية في الحرية ، وحريتها في الحب : هذه المرأة التي ماتت أوروبا الباردة وفي أحضان القاهرة الملهبة المشتعلة تبحث عن السعادة .

لقد أثارت الثورة المصرية أدب حسونه وضمته إلى ركبها ، وبترقبه للأشياء وبملاحظاته وخبراته الطويلة استطاع بكتابه «كفاح الشعب» أن يحقق الكثير وقت الثورة المصرية :

وفي نفس دائرة أمين حسونه الأدبية يعمل الدكتور إبراهيم ناجي والدكتور أحمد زكي أبو شادي ونيقولا يوسف ومحمود تيمور ، ابن أحمد تيمور باشا . لقد رأى الإبن نور الحياة منذ مهده في الأدب والفن . نشأ في هذه البيئة الأدبية التي ورث منها الكثير عن عائلته : إن محمود تيمور ليكشف عن نفسه الملونة وكأنها ألوان قوس قزح . لقد ظل على مر السنين الطويلة صديقا مخلصا لي ، وإنني لأكن له ما يقابل إخلاصه لي بكثير من الحب والاحترام ، واستمتع دائما بإبداعاته الأدبية ، في أكثر من أربعين مجلدا تجمع أعماله الأدبية التي ترجمت أغلبها للغات أجنبية هامة . لقد عرفت أعماله من دراسات كثيرة له ، لكنني والحقيقة عاجز عن تقديرها حق التقدير من كثرة منحوية من عظمة .

إن القاهرة مدينة الألف عام لتستطيع أن تفخر بأبنائها الكتاب :
ميدان العتبة الخضراء من أهم الميادين حركة في مدينة القاهرة .: هناك
حيث المقاهى الصغيرة ، يلتهم روادها من القراء ، الجرائد اليومية ليقرءوها ثم
يجتمعوا في المقهى للمناقشة والمجادلة ، ذلك لأن روح الانسان القاهرى
تتحرك للأبد ولا تنصت أبدا ، ولأن الأفكار تندفع اماما بقوة بركانية من
عمول المجتمعين : . هناك لا يمكن للملل أن يجد طريقة ، ولا مجال لغير العلم
والاستفادة :

على هذه المقاهى تعرفت على صاحب العينين اللامعتين صغير البنية ، صديق
كامل الكيلانى : . هذا الشاعر الحى ، رجل المكتبة الذى دائما ما يقتبس
من الشعر العربى باغة أدبية مضبوطة خالية من الأخطاء . وهو قد قسم بطبعة
المتوقد الكتاب إلى نوعين . . كتاب جياد ، وكتاب سوء : وأهم ما يميزه
في مجال الأدب العربى سلسلة القصص الخيالية للأطفال ، التى من خلالها
استطاع أن يساهم في تعليم النشء اللغة العربية السليمة .

اما الدكتور زكى أبو شادى فهو طبيب وشاعر وناقد ومترجم ، قدم
جديدا للأدب العربى : . وترجم للعربية بعضا من مسرحيات شكسبير ،
وفى ديوانه الشعرى يعرض مواضيع مصرية تتصل بالشعر الوجدانى ليعبر عن
أحاسيس الشعب ورأى الشعب . قدم لكثير من أصدقائه : . هذه الكتب
التى أخذت طريقها مع الثورة المصرية الحديثة . لقد كان زكى أبو شادى
شخصية ذكية وتعرض بنقده لكثير من الشعراء العرب . ولقد كان من رأيه
أن الأدب الدرامى له المقام الأكبر ، وأن مهمة المسرح هى تعليم المصريين
التحدث السليم باللغة ومراعاة سلامة نطقها . فلغة المسرح ما هى إلا لغة المجتمع

التي يتحدث بها الناس. ولقد كان من رأيه أيضا أن الشعر موسيقى، وأنه فكرة وإحساس، وأنه لا يتحمل قيود القواعد وسلاسلها. : وقد دخل أيضا ميدان الشعر الحديث غير المقفى :

ولقد أصدر بعد ذلك مع عدد من أبحاثه مجلة تحت اسم « أبولو » واسم المجلة نفسه كان برنامجا لها ، حيث عملت على ترجمة أعمال الشعراء الأوربيين إلى اللغة العربية حتى تتعرف مصر على الشعر الحقيقي — كما قال لي — لأن جوهر الشعر العربي القديم هو الكلمة وجمال الشكل وليس المعنى أو العقل ، وفي آخر وداع لنا هكذا قال لي : « إن الشاعر هو بنى عصره : . لذا يجب عليه ألا يكون معظما وممجدا للماضي ، لكنه من الضروري أن يصبح ابن العصر ». ومنذ وفاته والشعراء المعاصرون يرددون وصيته الأدبية هذه .

لقد كان بجانب الدكتور زكى أبو شادى الكاتب المناضل عالم كبير آخر ومفكر عميق ، هو صديق سلامه موسى صاحب النفس الطيبة الحاملة كما كانت تبدو وتظهر ، كثيرا ما كنت ضيفا على هذا الصديق . لقد كان سلامة موسى أول المصريين الذين عرفوا علم الاجتماع الأوربي وكذلك قوانين الحياة الاجتماعية. حقيقة إن العالم الكبير محمد عبده ترجم للعربية الدراسات التي كتبها هربرت سبنسر عن التربية بعد ظهورها بقليل ، هذه الدراسات التي كانت بمثابة الزيادة الفكرية في الستينات من القرن الماضي . لكن سلامة موسى عرف بعلم الطبيعة والدارونية وبعلم الحياة الاجتماعى الذى كتبه سبنسر ، كما عرف بنظريات فرويد فى علم النفس. لقد أعان سلامة موسى أن السلالة المصرية اليوم أمتدادا لسلالة الفراعنة والقديماء ، وفى هذا ما يبعث على الفخر لمصر فى العصور الوسطى ومصر العصر الحديث اللتين هما امتداد لتاريخها القديم .

- ٧٤٠ -

لازلت اذكر بالخير الجريدة اليومية « السياسية » ، اذكر قصرها الجميل
المنبى على الطراز العربى حيث تغطى حديقتها شتاء أشعة الشمس ، هناك حيث
تحدثت مع الدكتور محمد حسين هيكل رئيس التحرير : وعندما علم الدكتور
هيكل بأننى تلميذ جولدزهر اجناس قال لى « لقد حدثنى أحمد زكى باشا
عنه ، لقد حضر هذا العالم إلى بودابست قبل الحرب وزار جامعة بودابست ، التى
تركت فى نفسه أعمق الأثر ، لقد سمع أن هناك عالما مجريا يلتقى محاضراته على
المسيحيين فى قواعد الاسلام : ومنذ ذلك الوقت فأنا المجرى الثانى ، الذى أصبح
خلفا له ، لكننى مسلما وحاج .

لقد أنهى الدكتور هيكل الجامعة فى باريس ، وهناك تكون عقليا
وفكريا ، وأعد نفسه لكتابة القصة التاريخية المصرية . فى قصته زينب نجد
تطور النقد واضحا ، فقد وقف هيكل إلى جانب قاسم أمين مطالبا بتحرير
المرأة ، وكان نائرا مجددا يحارب ليخرج الشعب المصرى من الجمود. لهذا
فقد كان يعنف ويزجر كتاب الحرائد الشاحين الضعفاء . لقد كان نائرا
وبأحاسيسه الدينية كتب كتابه « حياة محمد » عن الرسول صلى الله عليه وسلم .
يذكر فى كتابه « فى منزل الوحي » فى الصفحة الثامنة والثلاثين ، يكتب أننى كنت
مثلا له فى تشجيعه على السفر لاتمام مراسم الحج فى مكة المكرمة :

والآن ، وأنا أستنشق هواء القاهرة العطر ، أحس وكأننى الباشا
الذى كتب عنه محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام فى قصته الفكهة
هذا الباشا الذى استيقظ من حلم مئات السنين وحضر عرضا إلى
القاهرة فلم يصدق عينيه . وأنا أيضا نفس الشئ . لقد كنت حاضرا
عام ١٩٣٤ فى افتتاح مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهأنذا وكأننى أستيقظ
من حلمى لأشهد التقدم والرقى الذى وصل إليه المجمع . إن مهمة المجمع عظيمة

الشأن في توحيد وتنسيق الحسرية الروحية والفكرية لعلماء المسلمين الذين انحازوا ومالوا إلى الغرب باستشراقهم. اننى لفخور بذلك. : فخور بأننى منذ عشرات السنين وأنا أعمل كمجرب وحيد وكعضو بالمراسلة لهذا المجمع العلمى القدير :

وهناك في مجمع اللغة العربية تقابلت مع منصور فهمى باشا الذى كان أميناً عاماً للمجمع : وعقدت صداقة متينة أيضاً مع العالم أحمد حسن الزيات واليوم نسعد بالعالم ابراهيم مذكور أمين عام مجمع اللغة العربية :

وفى المجمع ينشط المجتهد شوقى أمين مدرس السابى ، ويجلس على كرسي الرئاسة — ليس فى القاهرة وحدها ، بل فى العالم العربى أجمع — الدكتور طه حسين . لقد كتبت كثيراً عن هذا العالم المتجدد الذى يرى — إلى بعيد — كل شىء ، لقد وقف قلمى دائماً بجانبه حينما تعرض للهجوم. وأثناء وجودى فى وطنى بالبحر بعيداً عن شاطئ النيل قرأت له كل كتاباته . . قرأتها واستمتعت بها : اننى أقف أمامه بكثير من الاحترام والتقدير ، وأكبر فخر لى أن كتابى عن تاريخ الأدب العربى الذى أهديته إليه قد أتاح لى أن يكتب دكتور طه بخطه الكريم رسالة منه . . هذه الرسالة أحفظها بكثير من الاحترام والتقدير : يالها من ذكريات لا تحصى ، فجعلنى أفكر فى الكتاب والعلماء الذين عرفتهم ، هؤلاء الذين ينعمون فى جنان خالدة أبدية. . أوه . ابراهيم عبد القادر المازنى ، أحمد أمين الذى كتب دراسات فى تاريخ الاسلام فى كتابه « فجر الاسلام » وكتابه « ضحى الإسلام » ، وفيض الخاطر : : : : كم تعلمت منهم : لكن العالم الدكتور محمد خلف الله أحمد ما زال بخير وفى تقدم وازدهار ، وأنور الجندي الناقد ، والضاحك للابد أحمد رابى الشاعر والمترجم الذى كتب لعندليب الشرق أم كلثوم كثيراً من الاشعار والأغنيات :

إن عجلة الزمن لا تتوقف ، وأنما لتحطم كل من يقف في طريقها :
لقد اختفى السلاطين والملوك من بعدهم ، واشتعلت القاهرة فرحا بأصوات
الشعب مهللة للجمهورية ، وأخذ أبطال شجعان على عاتقهم تحديد المصير
وتجاهه . فتقدم إلى الامام أصحاب الأقلام ، وتحررت الصحافة ، وساعدت
كثير من المجالات والجرائد اليومية والأسبوعية الكتاب على نشر قصصهم وأعمالهم
في مجلات أولا . . ثم في اطار الكتاب بعد ذلك . وتحررت المرأة المصرية
وأتاحت لها فرص التعليم الجامعى ، ومن النساء اليوم دكتوره عائشة عبد الرحمن
ودكتورة نعام أحمد فؤاد ، وأخيرا وليس آخرا دكتورة سمير القلماوى
الاستاذة الجامعية ورئيسة مجلس ادارة هيئة التأليف والنشر : وهن جميعا من
أعلام الثقافة المصرية

وفى عهد الجمهورية خرجت إلى النور القصة المصرية الجديدة، واذكر
بعضا من كتابها الاصدقاء .. النابغة يوسف السباعى الذى يمتد بقلمه نحو واقعية
الحياة راسما مشاكل المجتمع المصرى بريشته رسما دقيقا، وكذلك أمين يوسف
غراب ومحمود البدوى ويوسف ادريس ، وكل قصصهم تنبع من الحياة المصرية،
ثم نجيب محفوظ وعبد الحميد جوده السحار وعبد الحليم عبد الله ونجيب
العقيدى وعبد الرحمن الشرقاوى بقصصه التى تبحث فى حياة الجيل المعاصر
للمجتمع من خلال تشريح الحقيقة وتحليلها .. والجميع يبرزون أمراض المجتمع
ومواجهه وكيفية العلاج والقضاء عليها .

كما كتب مسرحيات تاريخية الكاتب العربى المولود فى الجنوب العربى
والمستوطن بالقاهرة على أحمد باكثير : : حيث كتب عن ثورة القرامطة
فى اسلوب حى شيق .

ويرى عبد الرحمن الشرقاوى أن سنة ١٩٥٥ تعتبر بمثابة نقطة هامة فى حياة الأدب المصرى ، حتى هذه السنة كانت أغلب القصص تدور موضوعاتها حول الحب ، ومع ذلك فقد كتب ابراهيم عبد الحليم قصته « أيام الطفولة » التى تحمل أفكارا اشتراكية :

إن روح النقد الأدبى فى القاهرة اليوم تتمتع بقوة علمية ، وفى هذا الميدان نجد صديقين قديمين يحتلان مراكز الامتياز ، هما ابراهيم المصرى وعبد الرحمن صدقى :

إلى جانب أدب النثر فى القاهرة لم يسكت الشعراء المصريون ، وهل يستطيع بلد عربى أن يعيش بدون شعراء ؟ هناك حسن كامل الصيرفى الذى يكتب عن الطبيعة لقرائه رسما لهم صورة عصرية عن الفكر الحديث :

إن الشعر العربى الجديد قد ازدهر فى كل بلد عربى ، لكن القاهرة ظلت دائما مركزا ونموذجا ، فى كل عام تقام المسابقات الشعرية فى القاعة الذهبية حيث يحضر الشعراء العرب من كافة البلاد العربية ، وكأنه عصر هارون الرشيد الخيالى حينما كان يستدعى الشعراء للتسابق : إن الشعر العربى يشيع من مولد الانسان إلى مماته :

وفى القاهرة تعمل رابطة الأدب العربى الحديث تحت قيادة الناقد اللامع عبد اللطيف السحرى ، التى اختارت اعضاءها من بين الادباء الممتازين : وهناك جماعة أخرى تلتف حول الشاعر خالد الجرنوسى ، ومن بين هذه الجماعة شاعرات مصريات كثيرات منهن جليله رضا وزينب حسين : وفى جماعة ثالثة تعمل تحت اسم الأخوة العربية على رأسها جميله العلايلى محررة مجلة الأهداف :

ما من شك أن الشعر العربي الحديث منذ الثورة المصرية المحررة قد خرج صوته ليعلن الحرية التي اعتبرها الفكرة الأساسية ، ليكون الشعر هو صوت الحرية : وتعكس هذه الفكرة أشعار خالد الخرنوبى الملحمية « حدث فى عصر الرشيد » ، وأشعار فوزى العنيل « أغنيات الحرية » . وكذلك الشاعر المؤرخ صديق العالم محمد عبد الغنى حسن بشعره الثورى :

إن شخصية الشعر المصرى الحديث تتجه إلى طريق الطبيعة ، وتقرب من الطبيعة ذاتها ، كما أن الشعراء يتفاعلون مع روح الطبيعة وروح العصر. هكذا نرى محمود حسن اسماعيل الذى يقف امام الساقية مترقبا متى ينضج القمح ، أو امام البقرة فى المرعى ليسجل ذلك فى ديوان شعره « هكذا أغنى » :

إن طريق الشعراء المصريين طويل ممتد ، ومصيرهم ليس له من نهاية : . إن الذين ولدوا على أرض القاهرة وتنفسوا هواءها هم اليوم رواد الحركة الثقافية الشعرية العربية وقوادها الروحيون الذين يساعدون على متابعة التقدم الاجتماعى للمجتمع :

إن القاهرة الألف عام ، المتعددة الألوان ، المتعددة الوجوه ، فى مبانيها ومعمارها ، فى معاهدها ومرافقها العلمية ، فى متاحفها وفى تقدمها الإنتاجى ومشاكلها الاجتماعية ، لتجد طابورا ضخما يقف من خلفها يشد أزرها .. وعددا غير قليل مليئا بالإعزاز بنفسه وبشعبه وانتصاراته هذا الطابور وهذا العدد ، هو كتابها وشعراؤها : : بأقلامهم وإبداعاتهم .

تورات العساكر في القاهرة

في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر، ومغزاتها

للكتور عبد الكريم رافق

ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر والقرن الأول من القرن السابع عشر، ومفزاها

للككتور عبد الكريم رافق

١ - الوقائع .

٢ - الأسباب ،

٣ - المغزى :

١ - الوقائع

بدأت أولى ثورات العساكر السباهية^(١) في القاهرة في ٢ شوال ٩٩٧ / ١٤
آب ١٥٨٩ ، ثم توالى ، بشكل متقطع ، حتى قضى عليها في عام ١٦٠٩ .
وقد حدثت الثورة الأولى في عهد حاكم مصر العثماني اويس باشا (٩٩٤ -
٩٩٩ / ١٥٨٦ - ١٥٩١) ، وهاجمه العساكر الثائرون ، وهو في الديوان ،
فهرب من وجههم ، ولكنهم اقتحموا بيته ، وسرقوا أنفس مافيه ،

(١) يشير اليهم المؤرخون المحليون غالبا باسم «سباهية». أما أن هذه الثورة هي أولى ثورات
العساكر السباهية فقد أشار إلى ذلك كل من : أحمد شلبي ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر
القاهرة من الوزراء والباشا ، مخطوط في جامعة Yale في الولايات المتحدة الأمريكية ، رقم
Landberg 3 ، الورقة ٧ ب ؛ وأيضا مخطوط مجهول المؤلف والعنوان عن تاريخ مصر من
٨٥٧ / ١٤٥٣ إلى ١١٢٠ / ١٧٠٩ ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1855
الورقة ٣٥ أ .

وقتلوا ثلاثة من أتباعه : كما اقتحموا بيت قاضي القضاة ، أى القضاة
الحنفى الروى بمصر الملا أحمد أفندى الأنصارى ، وقطعوا رأس أغا
عائفة الجاويشية . وفى ٤ شوال / ١٦ آب قبض الثائرون على اثنين من القضاة ،
وقطعوا رأسيهما فى اليوم التالى ، وعلقوهما بالحميرة التى بالرميلة . واعتدى
العساكر المتمردون على الحوانيت فى القاهرة ، وهاجموا بيوت الأكابر
وأصحاب المناصب من أولاد العرب (أى السكان المحليين ^(١)) بالسلاح ،
وأخذوا منهم ما يريدون ، وهرب بعض الأعيان ، ومن بينهم أمير الحج
المصرى .

(١) استعمل تعبير « أولاد العرب » فى كتابات المؤرخين المحليين المعاصرين وفى الأوامر
العثمانية ، منذ القرن السادس عشر ، للدلالة على السكان العرب المحليين ، تمييزاً لهم عن العثمانيين
الذين عرفوا محلياً أحياناً بالعثمانيين ، وأحياناً بالتركان ، وغالباً بالأروام (بسبب احتلالهم
مناطق الروم ، أى البيزنطيين ، ماوراء طوروس والفرات ، التى كان يحتلها قبلهم البيزنطيون ،
أصحاب مذهب الروم الأرثوذكس ، ثم سلاجقة الروم الذين لصقت بهم صفة مثل البلاد
العثمانية .

انظر حول مفهوم روم وأروام الشروح والمصادر المذكورة فى كتابنا :

The Province of Damascus, 1723 - 1783, Khayats, Beirut, 1966,
P. 7 n. 1.

وأيضاً تميزاً لهم عن المماليك الذين أشار إليهم المؤرخون المصريون ، أمثال ابن إياس ومحمد
ابن أبى السرور البكرى الصديق ، باسم الاتراك ، أو الشراكسة ، أو الغز (وكان المؤرخون
المحليون ، سواء فى بلاد الشام أو فى مصر ، يشيرون إلى البدو باسم عرب ، عربان ، أو أعراب .
انظر : مخطوط باريس ، رقم 1855 Arabe ، الورقة ٥١ أ ، حيث ذكر فى أحداث
سنة ١٠٦٧ - ١٦٥٦ - ١٦٥٧ أنه أخرج فى القاهرة من البلديات السبع جميع أولاد العرب
من المصريين والشاميين ؛ ويذكر مخطوط (مجهول المؤلف) زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر
المحرسة ، المتحف البريطانى بلندن ، رقم 9972 Add. الورقة ٩ ب عن هذا الحادث
أن التحقيق تناول « أولاد العرب جميعاً » ، ثم يقول بعد ذلك « أولاد عرب وشوام » وذلك
لتبيان هوية الشاميين . وكلا المصدرين يعنىان بتعبير أولاد العرب السكان العرب المحليين . انظر
حول ورود تعبير أولاد العرب evladi Arab فى الأوامر العثمانية فى القرن السادس
عشر كتاب : U. Heyd, Ottoman documents on Palestine, 1552 -

1615, Oxford, 1960, PP. 48 n. 2, 55 n. 6

وانظر تعليقنا على ارتباط Heyd فى تفسير هذا التعبير والمزج بينه وبين بدو ، مع شروحننا
على ذلك فى كتابنا The Province of Damascus. P. 7, n. 1

ومما يلفت النظر في أعمال الثائرين اعتداؤهم على الأعيان وأصحاب المال من السكان المحليين ، من قضاة وأصحاب مناصب وتجار ، ونهب ما يمكن من المتاع والمسال منهم ، لأن العامل الاقتصادى ، كما سنرى ، كان أساساً في ثورتهم . وصب الثائرون نقمتهم خاصة ضد أولاد العرب فطالبوا بمنعهم من الانتساب إلى الطوائف العسكرية ومن استخدام الممالك البيض :

وقد اجتمع قاضى القضاة والدفتر دار وغيرهما من كبار موظفى الدولة ، بما فى ذلك قادة العساكر الطائعين ، فى ٨ شوال ٢٠ آب ، فى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، وحذروا العساكر من عاقبة أعمالهم ، ولكن بدون جدوى . واضطر أويس باشا إلى اصدار أمره إلى قاضى القضاة بمنح العساكر الثائرين ما يريدون ، بعد أن أخذوا ابن أويس باشا رهينة حتى يتألوا مطالبهم. وحين تم لهم ذلك ، هدأت ثورتهم^(١) : فما هى مطالبهم ؟ .

(١) يراجع حول هذه الأحداث : محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية ، مخطوط فى المكتبة الوطنية فى فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A. F. 283 ، الاوراق ، ١٤٧ - ١٤٨ ؛ المؤلف نفسه ، الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المتحف البريطانى بلندن ، رقم Add. 9973 ، الاوراق ٢٠ ب - ٢١ ؛ المؤلف نفسه ، المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ١٩٢٦ ، ٦١ أ - ٦٢ ب ؛ المؤلف نفسه ، النزعة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢٦٦ ، الاوراق ، ٢٩ أ - ٣٠ أ ؛ وانظر أيضا : محمد البرلس السعدى الدمياطى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، مخطوط فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، برقم تاريخ ٨١ ، ويوجد فيلم مصور عنه برقم ٢٦ ، فى معهد إحياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية فى القاهرة ، الاوراق ، ٥ ب - ٨ ب ؛ أحمد شلبى ، ٧ ب - ٨ أ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٥ أ - ٣٥ ب ؛ محمد بن عبد المعطى الإسماعلى ، أخبار الدول فى مصر من أبواب الدول ، القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ١٣٩ .

بالإضافة إلى مطالبة العساكر الثائرين بوضع بعض القيود الهامة على نشاط أولاد العرب ، فقد طالبوا ، قبل كل شيء ، بالسماح لهم بأخذ الطلبة (جمعها ، كما في المصادر المعاصرة ، طلب أو مطالب) ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الأقطان في الريف ، ويأخذونها لأنفسهم دون وجه شرعي^(١) ، وأصبحوا يضاعفون هذه المبالغ كلما لمسوا القوة في أنفسهم . وكانوا ، مثلا يأتون إلى كاشف إحدى الكشوفيات ، ويطلبون منه أن يكتب لهم على إحدى النواحي مبلغا من المال ، بحجة أن أحد الأشخاص اشتكى على شخص آخر ، أو على مجموعة من الأشخاص ، في الناحية المذكورة ، بمبلغ من المال ، فيضطر الكاشف ، لإزاء قوتهم ، أن يكتب لهم ما يريدون ، بالإضافة إلى حق الطريق ، ويعني هذا أجرتهم الخاصة لقيامهم بالتبليغ والتنفيذ^(٢) ، ويأخذون المبالغ كلها لهم . وقد حدث أن بلدة بالمنوفية ، تخص المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، كان مقررا عليها من الضرائب في السنة مائة ألف ونصف (أي نصف فضة ، وهذا تعبير عامي استخدم للدلالة على البارة المتداولة آنئذ في مصر^(٣)) ، ولكنها غرمت بالطلبة ضعف هذا المبلغ^(٤) .

(١) يقول محمد بن أبي السرور البكري الصديقي : « والغالب أن جميع مايقع من مثل ذلك لأصل له بل الجميع لا أصل له فهذا معنى الطلبة » ، ويذكر ذلك في جميع مؤلفاته السابقة ، انظر ، على سبيل المثال ، التحفة البهية ، ص ٥٥ ب ؛ وانظر أيضا حول معنى الطلبة ، Stanford J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton 1962, PP. 89 f.

سيدر هذا باختصار كما يلي : Ottoman Egypt, 1517 - 1798

(٢) انظر حول هذا الأمر : Shaw, Ottoman Egypt, 1517-1798, PP. 87 f.

(٣) انظر : Ibid. 65 n. 169 وانظر أيضا : الإسحاق ، ص ١٤٢ .

(٤) انظر : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ص ٥٥ ب - ٥٦ ، الكواكب الباهرة ، ص ٢٦ ب - ٢٨ ، المنح الرحمانية ، ص ٨١ ب - ٨٢ ، الزهرة الزهية ، ص ٣٨ ب - ٣٩ .

وإذا ما تفحصنا هوية العساكر الثائرين وجدنا أنهم كانوا من السباهية (الفرسان) المتمركزين في الأقاليم : وكانوا مزيجاً من طوائف التفنكجية (Tüfenkciyye)، والجنليان (Gönüllüyan)، والمماليك الشراكسة (Çerakise) وتشتق كلمة تفنكجية من تفنكجي، أي حامل البندقية، وتعني كلمة جنليان المتطوعين، ثم حورت إلى جنليان، بالنسبة إلى جملي، أي صاحب جملي، نظراً لاستخدام أفرادها الجمال : وقد دخل أفراد هاتين الطائفتين إلى مصر، برفقة السلطان سليم الأول العثماني حين فتحها عام ١٥١٧. أما طائفة الشراكسة فقد تأسست عام ١٥٢٤ من المماليك الموالين المقيمين في مصر : وعهد إلى أفراد هذه الطوائف الثلاث من السباهية بمهام توطيد الأمن في الأقاليم، وحماية الفلاحين، ومساعدة الكشاف في جمع الضرائب : ويخضع أفراد هذه الطوائف حين وجودهم في القاهرة إلى سلطة أغا طائفة الجاويشية^(١). وربما يفسر ذلك قتل العساكر، في الثورة السابقة، لأغا الجاويشية حين شقوا عصا الطاعة في القاهرة :

ويبدو أن زمام المبادرة في ثورات العساكر هذه كان بيد المماليك السباهية، بدليل أن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي قد وصف الثائرين بأنهم من الغز^(٢)، وهذا تعبير أطلق على المماليك في مصر في العهد العثماني^(٣). ويذكر أيضاً أن المماليك، بازدياد نفوذهم في مصر في العهد العثماني

(١) انظر حول هذه الطوائف : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, PP. 196 f.

وايضاً المؤلف نفسه *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Harvard, 1964*, PP. 89 f.

سيذكر المصدر الأخير باختصار كما يلي : *Ottoman Egypt*.

(٢) يذكر هذا في جميع مؤلفاته، انظر مثلاً : التحفة البهية، ٥٥٥ ب، والمنح الرحمانية ٨١ ب.

(٣) انظر : P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922*, London 1966, P. 76 n. 1

وانظر ايضاً : A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900*, London, 1939, P. 54 n. 10.

قد تكاثر انتسابهم إلى طائفتي التفنكجية والجنليان ، حتى اقتصرت تقريبا عضوية هاتين الطائفتين عليهما في القرن الثامن عشر : ^(١) وقد أطلق على محمد باشا (حاكم مصر من ١٦٠٧ إلى ١٦١١) ، الذي قضى على ثورات العساكر السباهية في مصر عام ١٦٠٩ ، كما سرى بعد قليل ، لقب قول قران (Kul Kiran) ، أى محطم الممالك ^(٢) ، مما يدل على اشتها الممالك بين الثائرين ، واعتبار القضاء على الثائرين قضاء بالدرجة الأولى على نفوذ الممالك الذين سيطروا بينهم : ولعل هذا ما يفسر كره الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم في استخدام الممالك البيض والانتساب إلى الطوائف العسكرية : خوفا من مقاسمتهم نفوذهم وامتيازاتهم. والجدير بالذكر أن استيراد الممالك البيض إلى مصر كان يرفض أحيانا ، في حالة عدم سدهم الحاجة المحلية ، باستيراد ممالك سود من أفريقية : وكثيرا ما كان يدب العداء بين الممالك البيض والممالك السود ؛ ومن هنا ، كما يبدو ، اقتصار مطالبة العساكر الثائرين بمنع أولاد العرب من استخدام الممالك البيض فقط لأنهم من أبناء جنسهم .

وقد أدى تحاذل أويس باشا أمام العساكر المتمردين ، بعد أن حاول ^(٣) الفتك بهم ، إلى ازدياد نفوذهم ، خاصة وأنه اضطر إلى تلبية مطالبهم :

- (١) انظر Shaw, *Ottoman Egypt*, P. 89 (76)
- (٢) انظر حول هذا اللقب : أحمد شلبي ، ١٠ ب ، ومخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٩ : وانظر أيضا Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, P. 74.
- (٣) انظر حول ذلك : D. Ayalon, "Studies on al-Jabarti I, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. III, Part 3, Oct. 1960, PP. 310 f.
- (٤) يصفه محمد بن أبي السرور البكري الصديقي بأن له « التفات لمسكر مصر فقامت نفوسهم لذلك وهجموا عليه » ، انظر ، مثلا ، من مؤلفاته : التحفة البهية ، ٤٧ : ، والزهرة الزهية ، ٢٩ ب .

وبلغت جراءة العساكر حداً كبيراً في أول رجب ١٠٠٦ / ٧ شباط ١٥٩٨ ،
في عهد حاكم مصر الشريف محمد باشا (١٠٠٤ - ١٠٠٦ ، ١٥٩٦ -
١٥٩٨) ، حين جمعوا جموعهم من سائر الأقاليم ، واعترضوا طريق هذا
الباشا ، قرب قلعة القاهرة ، وأطلقوا النار عليه ، فهرب والتجأ إلى القلعة ،
وأصبحت السلطة الفعلية بيدهم : « وبطلت أحكام الوزير المذكور وصار
الحل والعقد لطائفة الأسباهية ^(١) . وقتل العساكر الناثرون بعض كبار الأمراء
والموظفين والأعيان ، ممن كانوا يعارضون مصالحهم وتتبعوا أولاد العرب
وقتلوا كل من وجدوه منهم « يتزى بزى الأروام » ، على حد تعبير محمد
ابن أبي السرور البكرى الصديقي ^(٢) ، وربما يقصد بذلك الذين أصبحوا منهم
عساكر وموظفين عثمانين ، أى أرواماً ^(٣) ، في محاولة من العساكر ، كما يبدو ،
للحيلولة دون تسرب أولاد العرب إلى الطبقة الحاكمة ^(٤) :

وتكرر تحدى العساكر السباهية لحاكمي مصر التاليين : خضر باشا
(١٠٠٦ - ١٠١٠ ، ١٥٩٨ - ١٦٠١) وعلى باشا السلحدار (١٠١٠ - ١٠١٢)
(١٦٠١ - ١٦٠٣) ، وقتلوا عدداً من كبار الموظفين : ويبدو أن العساكر
حاولوا أن يسبغوا على تمردهم بعض الشرعية ، لكسب عطف الرأى العام ،
فنصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الدولة والشعب ، واتهموا بعض أعوان
خضر باشا بالتلاعب بالشونة (أى عنبر المون السلطانية) ، كما اتهموا على
باشا السلحدار بالتلاعب بأسعار القمح وبأنه سبب الغلاء :

(١) مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٢٣٧ ، وأحمد شلبي ، ٢٢٩ ؛
وانظر أيضاً : الإسحاق ، ١٤٣ .
(٢) التحفة البهية ، ٥٠ ، الكواكب السائرة ، ٢٣ ، النزهة ، ٣٢ .
(٣) يتضح هذا من تعبير محمد بن أبي السرور البكرى الصديقي في : المنح الرحمانية ،
٢٩٧ - ٢٩٧ ب .
(٤) محمد البرلسي ، ١٠ .

وبلغت جراءة العساكر المتمردين ذروتها حين قتلوا حاكم مصر إبراهيم باشا ،
في الأول من جمادى الأولى ١٠١٣ / ٢٥ أيلول ١٦٠٤ ، فعرف ، تبعاً لذلك ،
بالمقتول . وكان مهتماً بإزالة الطلبة والتجسس على العساكر المتمردين
للقضاء عليهم ، ففاجأوه وهو في شبرا ، من ضواحي القاهرة ،
وقتلوه ، ثم طافوا برأسه ، ورأس أمير آخر قتلوه ، في شوارع القاهرة ،
وعلقوها على باب زويلة « كما يفعل بأقل الناس » — على حد تعبير محمد
ابن أبي السرور البكري الصديقي . وكان ذلك إمعاناً منهم في التحدي ، ثم
نصبوا قائم مقام مكانه ، وكأنهم بذلك أصحاب السلطة الوحيدون في مصر .
وكان وقع هذه الأحداث قويا لدى سلطات استانبول ، فعهدت إلى
محمد باشا الكرجي الخادم بولاية مصر بالتفحص عن أصل الطلبة ، وملاحقة
قتلة إبراهيم باشا ، وتمكن محمد باشا ، خلال مدة حكمه من ٢٨ تشرين
الأول ١٦٠٤ إلى ١٦ تموز ١٦٠٥ ، من قتل عدد كبير من المتمردين ، واعتمد
على مساعدة البدو في مطاردتهم . وتختلف الروايات حول عدد من قتلهم ،
فيذكر محمد بن أبي السرور البكري الصديقي أن القتلى بلغوا مائتين .^(١) ويذكر
كل من أحمد شلبي وصاحب « زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر » أنهم كانوا
حوالي ثلاثمائة .^(٢) ومهما يكن ، فلم يقض على جميع العساكر المتمردين ، واستمر
بالتالي التمرد ، لأن قصر عهد محمد باشا ، كما يبدو ، لم ينح له ذلك .

ولاشك أن البطش بهذا العدد قد أضعف المتمردين ، ويمكن ذلك حاكم
مصر اللاحق محمد باشا (١٠١٦ — ١٠٢٠ ، ١٦٠٧ — ١٦١١) ، من القضاء
نهائياً على تمردهم ونفوذهم في شهر ذى القعدة ١٠١٧ ، شباط ١٦٠٩ وإبطال

(١) انظر مثلاً : التحفة البهية ، ٥٢ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٤ ب ، المنح الرحمانية ،
٧٧ آ ، الزهرة الزهية ، ٣٥ ب .

(٢) انظر على التوالي : ١٠ ب ، ب ؛ وانظر أيضاً : مخطوط باريس ، رقم 1855 Arabe
، ٣٨ ب .

الطلبة . وكان محمد باشا ، وهو في طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة لاستلام منصبه ، ترد إليه الشكاوى من الأهلى ضد الظلم والطغيان ، وقد عقد في ١٥ صفر ١٠١٦ ، ١١ حزيران ١٦٠٧ ديوانا في القاهرة ، ضم الصناجق ، أصحاب النفوذ المتصاعد ، وممثلين عن الطوائف العسكرية ، وندد بالموقف السلبي لهؤلاء الزعماء من مقتل إبراهيم باشا ، وأبرز خطأ سلطانيا بمعاينة القتلة . وأعقب خطوته هذه بقتل بعض الكشاف الفاسدين من حكام الأقاليم وبإبطال الطلبة . وبدأ بتعبئة القوات الموالية للبطش بالعساكر المتمردين . وكان هؤلاء قد اثارهم اجراءات محمد باشا ، ولاسيما أوامره بإزالة الطلبة ، فعدوا العزم على الدفاع عن مصالحهم ، وتنادوا إلى الاجتماع عند مقام أحمد البدوي في طنطا ، حيث تحالفوا على عدم دفع الطلبة وعلى قتل الزعماء المؤيدين للباشا ، وعينوا من بينهم ساطانا ووزراء . وبدل هذا على جرأة الثائرين ومحاولتهم تقويض السلطة العثمانية من أساسها ، وربما كانت وراء ذلك مطامع سياسية مملوكية استغلت الثورة لاهدافها . وزحف الثائرون نحو القاهرة ، بعد أن اقتسموا حاراتها لنهبها ، وروعوا سكان القرى التي مروا بها أثناء سيرهم :

واستعد محمد باشا ، من ناحيته ، للملاقاة الثائرين ، وحشد العناصر الموالية والطائفة من صناجق وجاويشية ومتفرقة وانكشارية وعرب ومرتزقة من اللاوند ، كما أنه استنجد ببعض قبائل البدو : وخرجت هذه القوات من القاهرة ، يحمل معظمها البنادق وتصحبها المدافع ، في ٩ ذى القعدة ١٠١٧ ، ١٤ شباط ١٦٠٩ ، واصطدمت ، في اليوم التالي ، بالثائرين في الخانقاه ، في ضواحي القاهرة . وقد هزم الثائرون ، وكان من بينهم جماعة ليسوا من العساكر اندسوا في صفوفهم ، وقتل نحو من خمسين من هؤلاء ، كما قتل عدد كبير من قادة وأفراد العساكر الثائرين ، ونفي حوالي من ثلاثمائة

إلى أربعمئة منهم إلى اليمن . وبلغ ما قتل من الثائرين ، حسب إحدى الروايات^(١) في عهد كل من محمد باشا الكرجي الخادم (١٦٠٤ - ١٦٠٥) وعهد محمد باشا الخالي بالغ أكثر من ثلاثمئة متمرّد ، ونفى مثل هذا العدد إلى اليمن . وفي رواية أخرى^(٢) أنه قتل ، في عهد هذين الحاكمين ، أكثر من أربعمئة متمرّد . ونفى مثل هذا العدد إلى اليمن :

ويعلق محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في مؤلفاته على هذا الانتصار بقوله : « وهو في الحقيقة الفتح الثاني لمصر في الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى » . ويدل هذا القول على مدى النفوذ الذي تمتع به الثائرون : وعلى خطورة عملهم في تنصيب سلطان من بينهم : كما يدل على أهمية فرض الهيبة العثمانية لا ضد الثائرين فحسب ، بل ضد عناصر مملوكية طموحة ، كما لو أن فتحا عثمانيا جديدا قد حدث . وقد وضع محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، بهذه المناسبة ، مؤلفاً صغيراً أسماه : « تفريج الكربة بدفع الطلبة » ولا يعرف مكان وجوده الآن . وقيل شعر كثير بطري عمل محمد باشا الذي أصبح يعرف لدى المؤرخين المحليين بالألقاب التالية : « معمر مصر » و « مبطل الطلبة بعد أن استحيل لإبطالها » ، وبلقب « قول قران » ، بالتركية :

وقد استغل محمد باشا انتصاره على الثائرين وإلغاء الطلبة فأدخل عددا من الإصلاحات الإدارية ، ونظم أمر الالتزام والرزق ، بنوعها العسكري

(١) هذه رواية محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، انظر : التحفة البهية ٢٥٣ ، ٥٤ ب - ٥٥ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٤ ب السائرة ، ٢٤ ب ، ٢٦ ب - ٢٦ ب ، المنح الرحمانية ، ٢٧٨ ، ٨٠ ب - ٨١ ب ، النزهة الزهية ، ٣٥ ب - ٧ ب - ٢٣٨ .

(٢) يشترك في ذكرها كل من : أحمد شلبي ، ١٠ ب ، ٢١١ ، مخطوط باريس ، رقم 1855 Arabe ، ٣٨ ب ، ٩ ب ، انظر أيضا : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر ، ٤ ب .

والدينى ، وهى مدفوعات خاصة ، نظم العثمانيون إعطاءها للمستحقين^(١) . وتفحص صكوك الترام المرتقة ، وكلما رأى صكا قديما ، أولا قيمة قانونية له أعاده إلى الدولة . كما أنه ألغى العمل بدفتر الشراكسة الذى فيه ضبط الأرزاق ، والذى كان قد ألغى العمل به سابقا ، بعد أن أعاد المماليك وغيرهم استخدامه ليستفيدوا من امتيازاتهم القديمة : وحصر العمل بموجب دفتر التريع الذى أحله العثمانيون محل دفتر الشراكسة فى ٩٣٣ ١٥٢٦ - ١٥٢٧^(٢) . وخص محمد باشا اليوم الثامن والعشرين من كل شهر موعد الصرف رواتب العساكر والموظفين ، وأمر بدفع الرواتب بكاملها ، وذلك لتحاشي تدمير أصحابها . وقد أتاح طول حكم محمد باشا فى مصر ، الذى تجاوز السنوات الأربع ، الفرصة له للقيام بهذه الإجراءات المأماة^(٣) :

١- الأسباب :

يتبين لنا من تفحص الأسباب التى أدت إلى ثورات العساكر فى مصر أن هناك أسبابا عامة ، عسكرية واقتصادية ، تتعلق بوضع الإمبراطورية العثمانية ككل ، وأسبابا خاصة تتعلق بولاية مصر بالذات :

(١) انظر حول الرزق : تاريخها وأنواعها ، Shaw, *Ottoman Egypt*, 1517-1798, PP. 45-50, *Ottomon Egypt*, P. 115 (155)

(٢) انظر : أحمد شلبي ، ٢٤ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣١ ؛

الاسحاق ، ١٣٦ .

(٣) انظر حول الأحداث السابقة منذ مطلع القرن السابع عشر : محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، التحفة البهية ، ٢٥٠ - ٥٨ هـ ، الكواكب السائرة ، ٢٢٢ - ٢٨ هـ ، المنح الرحانية ، ٦٧ هـ - ٨٥ هـ ، النزهة الزهية ، ٣٢ هـ - ٥ هـ ؛ المؤلف نفسه ، الروضة المانوسة فى أخبار مصر المحروسة ، مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ٢٢٦١ ، الأوراق ، ٢٣ هـ - ٢٢٦ هـ ؛ محمد البرلى ، ١١١ - ٦٠ هـ (بهاية المخطوط) ؛ أحمد شلبي ، ٢٩ - ١١١ هـ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٧ - ٣٩ هـ ؛ الإسحاق ،

١٤٣ - ١٥١

لقد بدأ الضعف العسكرى العثمانى يظهر للعيان ، بشكل واضح ، فى اعقاب وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) : وكانت فتوحاته وأمجاده قد طغت على بدور الضعف والفساد فى الدولة وحجبها ، لفترة ، عن معظم العيان . وفى عهد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤) تجمدت حدود الامبراطورية العثمانية ، وأخذت فى التقلص التدريجى بعد ذلك^(١) . وانعكس أثر ذلك على تطور الدولة ككل ، لاسيما وأن الدولة العثمانية قد ازدهرت على الفتح ، وخاصة غزو أعداء الدين : وقد ظهر ضعف الدولة فى شخصيات السلاطين أنفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية فى قيادة الجيش وفى الإدارة ، وانقطعوا إلى حياة القصر الخاصة ومؤامراته^(٢) :

ومن مظاهر ضعف الدولة ازدياد نفوذ الانكشارية ، ففسد نظامهم ، وطمع المسلمون الأحرار فى لتجنيد فى صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم : وأهملت الدمشمة (جمع الشبان من البلقان لا دخالهم الجيش) ، بالتدريج حتى بطلت

(١) انظر حول ذلك : B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, London, 1961, PP. 24-29; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, PP. 52-57; E. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, reprinted by Khayats, Beirut, 1963, PP. 156-223; H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West*, Vol. I, in 2 parts. London, 1951, 1957, see I. i. 91-94;

وانظر ايضا : مخطوط باريس ، رقم 1855 Arabe ، ٧٢ - ١٢٠ ، مخطوط مجهول المؤلف (انظر حول ذلك كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ - ١٧٩٨ ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٤٢٩) بمنوان : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مكتبة جامعة Yale ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، برقم 229 Landberg ، الأوراق ٧٧ - ٢٨١ .

Gibb and Bowen, I: 37

(٢) انظر :

في الربع الثاني من القرن السابع عشر : وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين إلى صفوفهم ، ومارسوا كثيراً من التعسف في الولايات بشكل أرهق أهلها لكثرة ما ابتزوه منهم من مال^(١) .

وكان قد رافق اعتماد الدولة ، بشكل متزايد ، على الانكشارية ، منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر ، إهمال الاعتماد على الجند الإقطاعي بالتدريب ، وانحط بنتيجة ذلك نظام الإقطاع : وكان تأثير ذلك حاسماً بالنسبة للحياة الاقتصادية في الدولة ، لأن الجندى الإقطاعي وإن لم يعد قادراً على مجابهة الجندى الأوربي الأحسن تدريباً ، فقد غدا وجوده ، بالنسبة للاستقرار وحسن الإنتاج في الريف ، أمراً ضرورياً . وهكذا ، فإن ضعف الجندى الإقطاعي أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة ، أن تسيطر على جزء كبير من الريف وتستثمره لصالحها . وكانت تتصرف في أراضي الدولة إما بأخذها كإقطاع إن وجد - وقد تضاعف أمر هذا بالتدريب - أو بالتزام ضرائبها . وقد شاع نظام الالتزام ، بشكل كبير ، في أراضي الدولة بعد انحطاط الإقطاعات وأصحابها ، وصاحب ذلك كثيراً من التلاعب بأراضي الدولة ، وظهرت قوى محلية ثائرة تستمد ساطتها من التزام الضرائب أو دعم الملتزمين ، وتقوم بابتزاز الأموال من الفلاحين . وكان ذلك ملحوظاً وقد أفقر الريف نتيجة لهذه المساوئ ، واندثر كثير من القرى بسبب هجرة أصحابها منها . وكان ذلك ملحوظاً منذ عهد السلطان سليمان القانوني^(٢) :

Ibid, PP. 180 f.

(١) انظر :

Lewis, *Emergence*, P. 32, n. 19

(٢) انظر :

ونتيج عن تكاثر عدد الجنود الانكشارية وعدد الموظفين الذين يتقاضون المرتبات بعد أن تضاعف الاعتماد على الجنود والموظفين الإقطاعيين ، أن ازداد ارتباك الاقتصاد العثماني : وما زاد في تناقص واردات الدولة لفقر الريف نتيجة التلاعب بنظام الالتزام وعدم توفر الأمن ، ثم فساد كبار الموظفين الذين عمّت الرشوة بينهم .

وتأثر اقتصاد الدولة العثمانية أيضا بنقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الأقصى المارة في أراضيها ، إذ أنه بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، في الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، أصبح بعض هذه البضائع يصدر مباشرة إلى أوروبا ، عبر هذا الطريق ، وأحيانا بعد تصديره من أوروبا إلى الدولة العثمانية. وبالرغم من أن قسما كبيرا من بضائع الشرق الأقصى بقي يمر في القرن السادس عشر عبر موانئ البحر الأحمر وميناء البصرة إلى أوروبا ، إلا أن هذا تناقص بمرور الزمن ، نظرا لازدياد تهديد أمن القوافل التجارية البرية ونمو قوة الإمبراطوريات الأوروبية الغربية في الشرق الأقصى . وخسرت الدولة العثمانية ، وولاية مصر خاصة ، من جراء ذلك موارد مالية كبيرة .

وقد نتج عن العوامل السابقة ضغط على النقد العثماني ولم تستطع موارد الدولة من المعادن سد الحاجة المتزايدة للنقد : وتصادف في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والأزمة النقدية مستفحلة ، أن تدفقت الفضة والذهب إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط من العالم الجديد - أمريكا - ، وذلك بواسطة الأسبانين . فارتباك النقد العثماني ، تبعاً لذلك ، وانهارت قيمة وحدته الفضية وهي الأتجة (أو الأسبر). وارتفع سعر الذهب ، وقل وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة نجحت محاولة الدولة العثمانية تخفيض سعر الأتجة

عام ١٥٨٤ في القضاء على الأزمة النقدية وغلاء أسعار المعيشة . واستفحل انهيار النقد ، وصدرت عملات جديدة في القرن السابع عشر ، وانهارت قيمتها بدورها :^(١)

والذي يهمننا من هذا الانهيار الاقتصادي وانخفاض قيمة النقد انعكاس ذلك على سلوك الموظفين والعسكريين الذين يتقاضون المرتبات : فقد عمد الموظفون إلى قبول الرشوة للتعويض عن انخفاض قيمة مرتباتهم^(٢) ، واستثمرت هذه العادة لانعدام مراقبة الدولة . وعبر العساكر عن سخطهم لانهيار القيمة الشرائية لمرتباتهم ، بطريقتهم الخاصة ، أى بالثورات وفرض إبراز المال بالقوة . وهكذا قام العساكر بثورات وفتن في اليمن ومصر وبلاد الشام ، وشجعهم على ذلك ضعف الهيبة العثمانية بصورة عامة . وقاسى الشعب في الولايات العربية ، كما في غيرها ، من ظلمهم :

ومما تجدر ملاحظته أن ثورات العساكر هذه بدأت ، بالنسبة للولايات العربية ، في مناطق الأطراف ، في اليمن مثلاً ، حيث هدد الزيدون السلطة العثمانية ، وانتقلت ، بعد ذلك ، في اتجاه الداخل ، فعمت مصر وبلاد الشام . وقد ظهر أول آثار الضائقة الاقتصادية بين العساكر العثمانيين في اليمن : وكانت هذه الولاية العثمانية من نوع ساليانلي^(٣) (Saliyaneli) ، أى أن موظفيها ، بما فيهم العساكر ، يعطون مرتبات سنوية ، وليس إقطاعات

(١) انظر حول ذلك : Ibid. , PP. 27-33; Gibb and Bowen; I. ii, 51 ff; F. Braudel, *La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1949, PP. 391-394, 417-420.

(٢) انظر مثلاً : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٦ ب ، قارن مع ٤٦ آ .

Gibb and Bowen, I. i. 147, 148, n. 3

(٣) انظر :

لقاء خدماتهم : وحدث في أوائل الستينات من القرن السادس عشر أن انخفضت القيمة الشرائية للعملة الفضية في اليمن ، بسبب غلبة النحاس فيها ، وذلك بالنسبة « للدينار »^(١) الذهبي السلطاني الذي كانت تدفع الرواتب على أساسه وارتفعت أسعار الحاجيات ، تبعد لذلك : ويذكر قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، صاحب « البرق اليمني في الفتح العثماني » ، الذي عاصر هذه الأحداث ، أن السكة قد تلفت وأن « الدينار والذهب السلطاني هو الآن في الروم بستان عثماني ، وفي مصر بثمانين عثمانيا ، وصار في اليمن بثلاثمائة عثماني ، ومازال يترأى : : إلى أن صار الدينار الذهبي بألفين من العثماني ، وكان ذلك سببا لخراب العسكر وفقدهم ، فصار من يملك مائة عثماني عاوفة في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني : : فيصرف له في الديوان عن الثلاثة آلاف عثماني دينار واحد ونصف » ، وهذا على حد قول قطب الدين المكي ، « لا يفي بهممن القهوة التي يشربها ، فضلا عن سائر حوائجهم وضرورياتهم ، فشرعوا في ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن إنصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ، إلى أن أرهقوا الرعية وأضعفوها^(٢) : » ويقول قطب الدين المكي في مكان آخر « وضعفت علوفاتهم بهذه الدراهم السكة التي صارت الفاوس النحاس خيرا منها^(٣) . » ونتج عن ذلك ضعف العساكر في اليمن عن القتال ، ولجئوا إلى

(١) هكذا وردت في كتابات المؤرخ المحلي قطب بن أحمد النهروالي المكي ، وربما كانت تسمية محلية للنقد الذهبي العثماني المعروف آنذاك رسميا باسم شريف أو أشرف ، ولدى التجار الأوروبيين باسم سلطان ، انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 50, n. 12

(٢) البرق اليمني في الفتح العثماني ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ، وانظر أيضا ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق ، ١٩٠ .

— ٧٦٣ —

الإمام مطهر الزيدى ، كبير الزعماء المحليين ، الذى استغل ذلك للثورة على العثمانيين . فكلفت الدواية أحد ولاتها المشهورين ، سنان باشا ، بإخضاع الثائرين الزيديين فى اليمن ، وتم اسنان باشا ذلك فى الفترة بين ١٥٦٩ و ١٥٧١ ، ووصف قطب الدين المكى هذا الانتصار بأنه الفتح الثانى العثمانى لليمن^(١) :

وتأثرت ولاية مصر ، بدورها ، بالأزمة النقدية وانعكس ذلك على سلوك الموظفين فيها . والسؤالان اللذان يطرحان : ماهو مدى تأثير العملة النقدية فى مصر بالأزمة النقدية العامة ، ولماذا ثار العساكر السباهية دون غيرهم ؟ :

بدأت قيمة العملة النقدية فى ولاية مصر بالاختلال ، بشكل ملحوظ فى عهد الحاكم العثمانى على باشا الصوفى (١٥٦٤ - ١٥٦٦) حين بدأت دار ضرب النقود فى مصر تمزج كمية من النحاس ، أكثر من المعتاد مع العملة الفضية ، فانهارت قيمتها تبعا لذلك ، وضجت الرعايا : ويعلق محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى على ذلك بقوله « : : : : وما زال يختل نظام المعاملة إلى يومنا هذا »^(٢) ، أى فترة النصف الأول من القرن السابع عشر التى عاصرها الصديقى^(٣) . وسواء كان أمر تزييف العملة قد تم برغبة الكسب من قبل على باشا الصوفى أو الذين تعهدوا دار الضرب فى عهده ، فإن هذا الأمر يدل على ارتباك عام فى قيمة النقد ، بدليل أنه استشرى بعد ذلك .

(١) الفتح الأول كان فى ١٥٣٩/٩٤٥ انظر : البرق إيماني فى الفتح العثمانى ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ وانظر أيضا : محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية ، ٤٥ ، الكواكب السائرة ، ١٩٠ ، أحمد شلبى ، ٦ ب ؛ الإسحاقى ، ١٣٧ .
(٢) انظر : التحفة البهية ، ٤٣ ، الكواكب السائرة ، ١٧ ب - ١٨ ، المنح الرحمانية ، ٤٧ - ٤٨ ب ، النزهة الزهية ، ٢٤ ب .
(٣) انظر حول تأليف محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى كتبه التاريخية : التحفة البهية ، ٤٠ ، الكواكب السائرة ، ١٥ ، النزهة الزهية ، ٢١ ب .

وحدث في مصر عام ١٥٨٤ ، قبل ثورة العساكر السباهية بحوالى خمس سنوات ، أن انخفضت قيمة البارة الفضية ، المعروفة محليا بنصف فضة ، وذلك بمقدار النصف . وقد تم هذا في نفس الوقت الذى انخفضت فيه قيمة الأفحة الفضية العثمانية بالمقدار ذاته ، بالنسبة لقيمة النقد الذهبى الأجنبى المتوفر محليا والنقود الذهبى العثمانى المعروف بالشريفى ، وارتفعت نتيجة ذلك تكاليف المعيشة وحدثت ثورات بين الجند أصحاب الرواتب حتى فى قلب العاصمة إستانبول^(١) .

فى حين أن عساكر اليمن انهارت قوتهم إثر انهيار مرتباتهم ولجئوا إلى الأمير مطهر الزيدى ، نجس أن العساكر السباهية فى مصر استغلوا قوتهم العسكرية فعمدوا إلى فرض الطلبة وإتزاز الأموال ، واستفحلت ثرواتهم خلال سنوات قليلة من انهيار قيمة البارة المصرية مما أدى إلى ازدياد تدهور السكان . وحاولت الدولة التدخل بشكل جدى على يد أويس باشا فثاروا ضده .

أما السؤال الآخر : لماذا أثار العساكر السباهية دون غيرهم ، فيمكن الإجابة عنه بالتعرف على الأسباب الخاصة بمصر التى أدت إلى إعداء هؤلاء الجنود السباهية وغيرهم من العساكر ورجال الإدارة المرتبات لقاء أعمالهم ، عوضا عن الإقطاعات ، ذات القيمة الاقتصادية الأكثر استقرارا . ثم التعرف على قيمة مرتبات هؤلاء العساكر السباهية :

كانت ولاية مصر ، أشبه بولاية اليمن ، من نوع ساليالى . ولعل أحسن تفسير لعدم تطبيق العثمانيين نظام الإقطاع فى أراضي مصر هو رغبتهم

(١) انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 51-52

في الحيلولة دون استغلال المالك منحهم الإقطاعات مجدداً لتوطيد نفوذهم^(١) في ولاية غنية وبعيدة نسبياً عن متناول السلطة المركزية كولاية مصر ، فأبقتهم أصحاب مرتبات يعتمدون ، مع غيرهم من الموظفين ، على خزينة الدولة ، وما يربط بذلك من خضوع مباشر لها . ولكن أصحاب المرتبات هؤلاء لم يعدوا الوسيلة للكسب ولغرض نفوذهم ، مستفيدين من ضعف السلطة العثمانية :

وكان أفراد الطوائف السبائية الثلاث ، منذ الأيام الأولى للحكم العثماني في مصر ، أقل الطوائف العسكرية راتباً وأكثرها استعداداً للثورة^(٢) . فلا عجب إذ أن يستغل هؤلاء العساكر قوتهم وسلطتهم في الريف ، حيث رقابة الباشا العثماني — في فترة ضعف الدولة — شبه منعدمة أو نائية في أحسن الظن ، لاستثمار الفلاحين ، وأن يثوروا عندما وجدوا الفوائد التي بدأوا يحنونها مهددة بالزوال :

ولم يكن انهيار حال العساكر في اليمن وثورة السبائية في مصر حادثين منعزلين بل شكلا جزءاً من ظاهرة عامة في التمرد العسكري . ولم تكن بلاد الشام بأحسن حظاً إذ روع المتسلطون من الانكشارية أصحاب المرتبات مناطقها الريفية الغنية . ويذكر لنا المؤرخ الدمشقي المعاصر شرف الدين موسى الأنصاري ارتفاع أسعار المسواد الغذائية في دمشق على الرغم من استيراد القمح

(١) انظر ايضاً : Stanford J. Shaw, 'Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt', in, P. M. Holt, (ed.) *Political and Social Change in Modern Egypt*, London, 1968, P. 92; Stanford J. Shaw, 'The Land law of Ottoman Egypt (960/1553) : a contribution to the study of landholding in the early years of Ottoman rule in Egypt', *Der Islam*, Band 38/1-2, 1962, PP. 111-112.
(٢) انظر : ر . Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, PP. 196 f. *Ottoman Egypt*, 89 (76)

وتوفره في الأسواق، وذلك بسبب انهيار قيمة النقد، إلى جانب عوامل طبيعية أخرى^(١). وقد استغل انكشارية دمشق، منذ أواخر القرن السادس عشر، هذا الوضع فتعاطوا التجارة والربا، ومدوا نفوذهم إلى ولاية حلب الغنية حيث كانت تذهب طائفة منهم كل سنة للخدمة وأحياناً لفرض خدمتها، في تحصيل أموال الميرى من قرى الولاية: واستغل أيضاً انكشارية دمشق دعوة الدولة لهم لقتال الأمراء الثائرين شمالى حلب، في هذه الفترة لتوطيد نفوذهم هناك. ومارسوا كثيراً من الظلم وابتزاز المال من الولاية بالقوة^(٢):

وبالرغم من انتشار التمرد العسكرى في عدد من الولايات العربية، فقد تميزت ثورات العساكر السباهية في ولاية مصر، دون غيرها، بغلبة العنصر المملوكى فيها. فما هو مغزى ذلك بالنسبة للصراع على النفوذ بينهم وبين أولاد العرب:

* * *

(٣) المغزى :

يتضح مغزى ثورات العساكر في مصر لدى تعرفنا على العناصر المتميزة بين الحكوميين وعلاقتها بعضها مع بعض: وكان هؤلاء يتألفون السكان المحليين (أولاد العرب)، بما في ذلك البدو (العرب، العربان، أو الأعراب)، ومن المماليك الذين كانوا يكونون العداء للحاكمين العثمانيين

(١) شرف الدين موسى الأنصارى، نزهة الخاطر وهجة الناظر، مخطوط في الظاهرية، برقم ٧٨١٤، الأوراق، ٣٣٥-٣٥: ب، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١-٣٤١: ب، ٣٨٥، ٣٨٨: ب.

(٢) انظر حول ذلك كتابنا: بلاد الشام ومصر، ص ١٥٤، ١٨٦ - ١٨٩.

ولأولاد العرب على حد سواء ، وبالمقارنة مع بلاد الشام مثلاً نجد أن الصورة هناك أقل تعقيداً لأن المحكومين اقتصروا على عنصر متجانس نوعاً ما من السكان المحليين ، ولم توجد طائفة قوية ذات مصالح تدافع عنها مثل المماليك : وإذا كانت بعض الأسر المملوكية قد بقيت في الشام ، في غزة مثلاً ، إثر انهيار السلطنة المملوكية ، فقد تلاشى نفوذها تدريجياً بعد ذلك ، واندجت مع السكان المحليين : وغنى عن القول أن معظم المماليك في الشام قد انسحبوا إثر الفتح العثماني ، إلى مصر ، مركز قوتهم الرئيسي ، حيث بقوا يرفدون بمماليك جدد طيلة العهد العثماني مما أبقاهم طائفة متميزة ، ومن هنا تعقد الصراع السياسي في مصر :

إن هذه الصور العامة من الصراع على النفوذ بين فئات القوة في مصر تشكل خلفية أساسية لمحاولتنا فهم مغزى ثورات العساكر : وتلفت النظر في هذه الثورات ظاهرتان :

الأولى : بروز العنصر المملوكي فيها وصراعه مع الحاكمين العثمانيين ،
والثانية : معاداة الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم في دخول الجيش العثماني واستخدام المماليك البيض :

ولم تكن ثورات العساكر هذه أول محاولة يقوم بها العنصر المملوكي للتعبير عن نفوذه ومطامعه فقد قام المماليك بأكثر من ثورة في أعقاب الفتح العثماني ، ولكن ثورتهم الآن كانت أول تمرد مملوكي على نطاق واسع يحدث بعد أكثر من نصف قرن من الهدوء إثر صدور القانون نامه في ٩٣١ / ١٥٢٤ - ١٥٢٥ :

وإذا ما استعرضنا النفوذ المملوكي منذ الفتح العثماني وجدنا أن ذلك تعاظم ، أو بالأحرى استمر ، في ولاية خاير بك على مصر : وعاد المماليك ، في عهده ، إلى الخدمة العسكرية ، وأنفقت عليهم الجاهلية . وبلغ الأمر أن

استخدموا في قمع بعض الانكشارية الذين تمردوا على أوامر السلطان سليم الأول^(١). وسمح لكبار الموظفين المماليك بالاستمرار في وظائفهم في الكشوفيات وإمارة الحج وغير ذلك من الوظائف الهامة . وإذا بدا أن قسماً كبيراً من المماليك قد أيد العثمانيين ، أو استمر في الوظائف الإدارية والعسكرية في عهدهم ، فإن قسماً آخر منهم ، ضم بعض هؤلاء المؤيدين في الظاهر ، كان يبطن الحقد على العثمانيين وينتظر الفرصة للثورة عليهم :

وقد قامت أولى الثورات المملوكية على العثمانيين في مصر عام ١٥٢٢ ، إثر وفاة خاير بك . وكانت الثورة بزعامة اثنين من كبار الموظفين المماليك : إينال السيفي كاشف الغربية وجانم السيفي كاشف البنسا والفيوم وأمير الحاج . وكانت صيحة الثائرين مملوكية تقليدية : « لن نترك المملوكية ل هؤلاء الترك الذين لا يعرفون ملاقاتة الفرسان^(٢) » . وفي هذا تعبير واضح عن كراهية ، بل احتقار المماليك الفرسان للعثمانيين حملة البنادق . وقد قضى العثمانيون على الثورة ، وقتل أو هرب زعمائها . ولكن العثمانيين لم يغتنموا الفرصة لإبادة المماليك . واستمر كثيرون منهم يتمتعون بنفوذ كبير في مصر ، وخاصة في الجيش والإدارة .

وفي أواخر عام ١٥٢٣ حانت فرصة أخرى استغلها المماليك الناقمون للتعبير عن سخطهم على العثمانيين . فقد تمرد حاكم مصر العثماني أحمد باشا (ومن هنا لقب فيما بعد بالخائن) ، على السلطة المركزية في إستانبول بسبب طموحه ، وأيضاً بسبب تأمر الدولة عليه ، وأعان نفسه سلطاناً . وكان

(١) انظر محمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ - ٥ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٣ ، الجزء ٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق جزء ٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ .

(٣) انظر حول هذه الثورة كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

٧٦٩ -

في طليعة مؤيديه المماليك . ولكن الدولة العثمانية سرعان ما قضت على ثورته ^(١) :
وأدخلت عقب ذلك تنظيمات إدارية وعسكرية هامة ، بموجب القانون نامه
ودفتر التربيع الذى نظم الاستفادة من الرزق ، فتوطدت السلطة العثمانية
وحيل - لفترة - دون استغلال المماليك للأنظمة القديمة التى بقى كثير منها
سائداً منذ الفتح العثمانى :

وبلغت السلطة العثمانية شأواً كبيراً من القوة ، فى عهد السلطان سليمان
القانونى وانعكست هذه السلطة على الإدارة العثمانية فى الولايات ، فسيطرت
عليها بالقوة والإرهاب وبما طبقته من قوانين :

واستمرت هيبة الدولة قائمة فى مصر إلى مابعد وفاة السلطان سليمان
القانونى بقليل . وبدأت إذ ذاك عوامل الضعف العسكرى والاقتصادى تعمل
عملها ، فقامت الثورات ، ومن جملتها ثورات العساكر السباهية فى مصر : وعاد
المماليك ، من جديد ، للظهور كعنصر ثائر : ولأدل على طموح هؤلاء
الثائرين وعمق تحديهم للعثمانيين من إعلانهم سلطاناً من بينهم ، وتسميتهم
الوزراء ، واقتسامهم حارات القاهرة للسيطرة عليها : وتشبه حركة
التحدى هذه ماسبق أن قام به أحمد باشا الخائن ، ومن قبله جان بردى
الغزالى والى دمشق الذى استغل فرصة وفاة السلطان سليم الأول فى ١٥٢٠
ليعلن انفصاله عن العثمانيين وارتداده إلى المملوكية ، وسمى نفسه سلطاناً ،
ثم قتل ^(٢) : وقد تمكنت السلطة العثمانية ، بعد أن استنفرت جميع قواتها ، من
القضاء على العساكر الثائرين فى عام ١٦٠٩ : ومرة أخرى لم يقض العثمانيون

(١) المصدر السابق ، ١٤٠ - ١٤٣ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الثورة وانكسارها على ممالك مصر فى المصدر السابق ، ص

١٢٠ - ١٢٤ ، ١٢٨ - ١٣٠ ، ١٣٧ - ١٣٨ .

على وجود المماليك ولم يمنعوا استيرداهم إلى مصر : وإذا كان قد قضى الآن على تمرد الطائفة المملوكية السباهية ، فإن الموظفين الإداريين من المماليك ظلوا يتمتعون بسلطة كبيرة في إمارة الحاج والكشوفيات والدفتر دارية وغيرها .

وما لبث المماليك أن عادوا ، بعد ذلك ، إلى الاشتهار السياسى والعسكرى ، من خلال رتبة الصنجدية ، وبرز بينهم زعيم طائفة الفقارية رضوان بك الفقارى الذى أمر ، فى حوالى ١٦٣٠ ، بوضع نسب له (قهر الوجوه العباسية بذكر نسب الجراكسة من قريش) يتفق مع مركزه كأمر للحاج المصرى ، ومع ازدياد النفوذ الذى بلغه المماليك . وبالرغم من الضربة التى وجهت للطائفة الفقارية ، وبالتالى للمماليك ورتبة الصنجدية ، فى عام ١٦٦٠ من قبل السلطة العثمانية ، فقد استمر نفوذ المماليك يتزايد ببطء إلى أن بلغ الذروة فى عهد على بك بلوط قبان (Bulut Kapen) ، أى قابض الغمام : ولم يقض على نفوذ المماليك نهائيا حتى ظهور محمد على باشا الألبانى ، فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد أن أضعفتهم الحملة الفرنسية . ولم يستفد الجناح الآخر من المحكومين ، أى أولاد العرب ، من زوال منافسيهم المماليك فى الوصول إلى السلطة السياسية ، إذ حل الألبانيون محل المماليك وتمتعوا بقوة منظمة وبسلطة أكبر :

والظاهرة الثانية التى تسترعى الاهتمام فى ثورات العساكر السباهية هى معاداة الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم فى دخول الجيش العثمانى

(١) انظر الدراسة التالية الهامة لهذا النسب : P. M. Holt, 'The Exalted lineage of Ridwan Bey', BSOAS, X X I I. 2 (1959), PP. 221-230.

(٢) انظر كنايتا : بلاد الشام ومصر ، ص ٢٦٧ - ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق . ص ٤٠١ - ٤٠٩ .

واستخدام المماليك البيض : وهذا يعني أن أولاد العرب قد بدأوا يتسربون إلى الطوائف العسكرية العثمانية ويتمتعون بامتيازاتها ، مما أثار حقد العساكر ، وخاصة المماليك الذين ازداد عداوتهم لأولاد العرب نظراً لاستخدام هؤلاء المماليك البيض : ولتبيان الدور الذي بدأ يلعبه أولاد العرب إلى الحد الذي أثار حقد الثائرين ، ولتوضيح أصول العداء بين المماليك وأولاد العرب يحسن بنا استعراض العلاقة بين هذين الفريقين منذ الفتح العثماني :

لم يتبدل وضع أولاد العرب ، من الناحية السياسية ، إثر الفتح العثماني ، إذ حل حاكم غير عربي مكان حاكم آخر غير عربي : واستغل البدو تبدل السلطة فحاولوا التمرد على التنظيمات المملوكية السابقة ، وعلى محاولات العثمانيين فرض سيطرتهم عليهم : ولعبوا دوراً هاماً في دعم ، أو التعخلي عن دعم ، الثائرين الأوائل على العثمانيين : إينال السيفي وجانم السيفي ، وأحمد باشا الخائن . واعترف العثمانيون بلمرة بدو هواراة الأشداء في الصعيد ، واستمر الأمر كذلك حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر حين عين حاكم عثماني للصعيد ، مركزه جرجا . أما بالنسبة للقبائل الأخرى في أقاليم الشرقية والغربية والبحيرة ، فقد عمد العثمانيون إلى فرض سيطرتهم عليهم بضرب قبيلة بأخرى ، أو زعيم بأخر ضمن القبيلة الواحدة ، وبإجراءات تنظيمية أخرى^(١) :

وأصبح وضع أولاد العرب ، بصورة عامة ، أكثر تعقيداً ، عقب الفتح العثماني ؛ لأنهم دخلوا في صراع مع طائفة المماليك التي سعت لاسترداد سلطتها من العثمانيين وإبقاء أولاد العرب أدنى مرتبة منها ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية : وهكذا حاول المماليك ، بدافع من سيطرتهم

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٣٨ .

السابقة واستمرار نفوذهم العسكرى والإدارى فى العهد العثمانى ، أن تكون لهم اليد العليا محلياً كخطوة أولى فى توطيد سلطتهم ، ومن هنا كانت شدة عدائهم لزيادة نفوذ أولاد العرب :

ونلاحظ هذا العداء فى العلاقة بين جناحى المحكومين منذ أن حاول المماليك استعادة نفوذهم عقب الاحتلال العثمانى . ونرى فى ولاية خاير بك المملوكى كيف قتل إينال السيفى وجانم السيفى اثنين من مشايخ بدو الغربية من آل مرعى ، ثأراً لتسليمهما السلطان المملوكى طومان باى إلى العثمانيين^(١) ؟ ونرى أيضاً كيف عمد خاير بك ، أثناء ولايته ، فى عام ٩٢٥ / ١٥١٩ ، إلى تعيين أمير الحاج من المماليك بعد أن شغل هذا المنصب فى السنتين السابقتين موظفون محليون . واستمر تعيين المماليك أمراء للحاج بعد ذلك ؛ ويدل هذا الأمر على عودة المماليك لأشغال الوظائف الهامة وإبعاد السكان المحليين عنها .

وقد رضح المحكومون ، من ممالك وأولاد عرب ، فى ولاية مصر ، كما فى غيرها من الولايات العربية فى عهد السلطان سليمان القانونى ، لقوة العثمانيين التى تجلت محلياً وخارجياً . وتوالى على ولاية مصر فى فترة القوة هذه ولادة مشهورون ، مثل سليمان باشا الخادم الذى اشتهر بحملاته فى المحيط الهندى ، وسان باشا صاحب الحملات الناجحة فى اليمن ؛ وكانت انتصارات الجيوش العثمانية فى العراق واليمن وسواحل أفريقية الشرقية ، فى سواكن ومصروع ، وفى البلقان بصورة خاصة ، وما تلا ذلك من إقامة الزينة ،

(١) انظر : ابن إياس ، جزء ٥ ، ٢٩٥ - ٢٩٦ ؛ أحمد بن زنبيل الرمال ، مخطوط عن مصر ، نسخة المكتبة الوطنية فى ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 الورقة ١٣٧ ب .

(٢) انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

بهذه المناسبات ، في الولايات تذكيرا ماديا بقوة الدولة وجبروتها وعاملا على زرع الخوف منها وتقديم الطاعة لها :

وحين بدأ الضعف يستفحل في الدولة العثمانية ، بعد عهد السلطان سليمان القانوني ، استغل ذلك أولاد العسرب في ولاية مصر ، وحاولوا كما حاول اسمياؤهم في الشام ، الانتساب إلى الطوائف العسكرية ، بعد أن اختلت أنظمتها للاستفادة من امتيازاتها. وتلا ذلك صراع على النفوذ بين المماليك وأولاد العرب :

ولتوضيح الصعاب التي وضعها المماليك أمام أولاد العرب في مصر ليحولوا دون ازدياد نفوذهم ، يمكننا أن نقوم بمقارنة مع ما حدث في ولاية الشام ، في هذه الأثناء ، من انتساب أولاد العرب إلى الطائفة الانكشارية : ففي عام ١٥٧٧ وجه السلطان العثماني فرماناً إلى والي الشام يأمره فيه بأن يعين في الوظائف التي تشغل بين الانكشارية أفراداً من أصل رومي وليس من المحليين أو الغرباء . ولكن دخول غير الأروام طائفة الانكشارية لم يتوقف بصدور هذا فرمان ، بل ازداد شدة ، وسرعان ما سيطر أولاد العرب في ولاية الشام على طائفة الإنكشارية حتى أصبحت تعرف ، تبعاً لذلك ، في حوالى منتصف القرن السابع عشر ، باسم الانكشارية البرلية (أى المحلية) نسبة لهم : واضطر السلطان أن يرسل طائفة أخرى من الانكشارية ، عرفت بالقابى قول ، لدعم نفوذه : ^(١) وفي ولاية حلب حيث امتنعت الطائفة الانكشارية على السكان المحليين ، نظرا لقوة النفوذ العثماني ووقوع حلب على طريق الجيوش العثمانية المتجهة إلى الجهة الفارسية ، عبر السكان المحليون عن ازدياد نفوذهم بانتسابهم إلى طائفة الأشراف : ومن هنا كثر عدد الأشراف في حلب (مما اقتضى تزويهم الأنساب) ، وصراعهم المستمر مع الانكشارية ^(٢) :

(١) انظر كتابنا : *The Province of Damascus, 27-33*

(٢) انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ٨٦ - ٨٧ .

وحين حاول أولاد العرب في مصر الانتساب إلى الطوائف العسكرية، كمتنافس لقوتهم ولحماية مصالحهم في الوقت نفسه، وقف المماليك حجرة عثرة في سبيلهم، وحالوا دون ازدياد نفوذهم عسكرياً. ويذكر في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر كيف تكتل العساكر السباهية (الذين ازدادت سيطرة المماليك عليهم) مع أقوى طائفتين عسكريتين: الانكشارية والعرب، في محاولة لإخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية. وحدثت نتيجة لذلك، فتنة كبيرة في الطوائف العسكرية السبع من عزل وتولية ونفي وغير ذلك^(١): ونستدل من هذا على استمرار أولاد العرب في محاولاتهم الانتساب إلى الطوائف العسكرية وعلى اشتداد معارضة المماليك واتساعها ضدهم:

وفي أعقاب القضاء على نفوذ الطائفة الفقارية في مصر عام ١٦٦٠ وانتعاش السلطة العثمانية في عهد الوزراء العظام من آل كوبرلي، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، شدد العثمانيون من قبضتهم ضد ازدياد النفوذ المحلي^(٢)، وأرسلوا أمراً إلى مصر في شوال ١٠٧١ / حزيران ١٦٦١ بإخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية^(٣):

وبانتهاء هذه الطفرة من القوة العثمانية في عهد آل كوبرلي، في أواخر

(١) مخطوط باريس، رقم Arabe 1855 ٢٥١؛ وانظر أيضاً: زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر، ٩ ب.

(٢) قضوا في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر على ثورة حسن باشا في حلب وعلى تمرد زعماء الانكشارية في دمشق، انظر كتابنا: بلاد الشام ومصر، ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) مخطوط باريس، رقم Arabe 1855 ٥١ ب؛ أحمد شلبي، ٢٢١.

القرن السابع عشر ، اشتد الانحطاط في السلطة العثمانية ، واستغل ذلك المماليك الذين اشتهروا كثيراً في مصر في القرن الثامن عشر وأصبحوا حكامها الفعليين ، وطفخوا على نفوذ أولاد العرب :

وبزوال سلطة المماليك في الربع الأول من القرن التاسع عشر لم يستفد أولاد العرب سياسياً من القضاء على منافسيهم التقاييد بين ، رغم ما أبرزوه من قوة وما قاموا به من ثورات شعبية ضد الفرنسيين لأن أسرة محمد على الألباني حلت محل المماليك ومحل العثمانيين عملياً : وقد استخدم الحكام الألبانيون أولاد العرب في الجيش ، ولكن حيل بينهم وبين الوصول إلى أعلى الرتب العسكرية. وأدى ذلك إلى مقاومة العساكر من أولاد العرب ، بقيادة الضابط أحمد عرابي المصري ، السيطرة التركية — الشركسية على الجيش : وكمثل لأولاد العرب في صراعهم الطويل ضد المتسطين الأغراب أبرز أحمد عرابي هويته العربية — المصرية في اسمه ^(١) :

(١) انظر : J. M. Ahmad, *The Intellectual origins of Egyptian nationalism*, London, 1960, P. 25.

مسائل القاهرة

عثمان الكعك

مسائل القاهرة

عثمان الكتاك

الباب الأول : -

أسباب ونتائج

أطرح قضية ولا أحلها : ، والقضية في الحقيقة قضيتان ، أوهى قضية واحدة ، ولكنها ذات زمنين :

الزمن الأول : يعني ما سبق يوم الارتحال إلى القاهرة من إعدادات .

١ - إعدادات للتوثق من سلامة المغرب من الثورات البربرية أو غيرها ، وتأمين البلاد السوداء ومحاولة فتح الأندلس أو على الأقل عزلها ، ومن التأكد من سيادة البحر المتوسط في حوضيه الشرق والغرب ، بالاستيلاء على جزيرة قريطش (كريت أو كريد) واستيساق الأمن بسردانيا وكوسينا وصقلية وقلورية (كالابريا - جنوب إيطاليا) واستتباب الأمن بالأربطة الموجودة بجنوب فرنسا .

٢ - إعدادات عسكرية ، وذلك بحشد جنود البربر من القبائل ، سواء شرقى وادى شلف - قبائل صنهاجة وكتامة ، أو غربى وادى شلف - قبائل مصمودة وزناتة ، أو جنوبى وادى شلف - كقبائل جدالة وأوروبا .

— ٧٨٠ —

٣ — إعدادات مالية، وذلك بجمع الاعتمادات اللازمة لنفقات الجيش والرحلة، وما يتبع ذلك وينجم عنه :

٤ — إعدادات الاستخلاف وبيان السلوك وضبط السياسة التي سببها من سيخلف الخليفة الفاطمي بالمغرب، ويضطلع بمسؤولياته فيه، ويحقق السياسة التي سينهجها يوم تنتقل الخلافة إلى القاهرة، وتريد أن تتفرغ إلى واجبات أخرى في الشرفى الأوسط ونجاه بنزلة، وما يتبع الفتح من توغل في المنطقة .

٥ — نشر العقائدية الفاطمية في الضفة الشمالية من البحر المتوسط في فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا وبلغاريا، تمهيداً لفتح هذه الجهات يوماً ما، كخطوة أولى لفتح بنزلة والأندلس، أو كنتيجة حتمية لفتحهما :

٦ — إعداد الرحلة نفسها ببناء المراكز التي ستمر بها القافلة مرحلة بعد مرحلة، واتخاذ العدة اللازمة من طرف وكالة الشؤون للتوثق من تموين الجيش والمدنيين والحيوان وضمان السبل والمبيت والنقلة والأكل والشرب، ومباغ أدنى من المرافق :

الزمن الثانى :

انتقال القافلة الميمونة من مدينة المنصورية قرب القيروان إلى الإسكندرية أولاً، ثم إلى القاهرة في النهاية . وبيان المراحل التي مرت بها، وضبط مواقفها وما كان عليه الجو الأدبي المحيط بها خلال المرور :

قد قلت إلى أضع قضية، وذلك لأن هذه القضية لم توضع في جملتها، ولا في تفاصيلها على ما بلغ إليه علمنا على الأقل، ولأننا بدون وضعها أو محاولة حلها لانفهم من نتائج—بعد استقرار الفاطميين بالقاهرة—القليل، ويقوتنا كثير :
أما أننا لاندعي حلها فلاسباب ثلاثة :

السبب الأول : هو أن الموضوع متسع الأطراف جداً لا يمكن أمام توافر المواضيع في هذا المؤتمر الألقى الإشارة إليه تاميلاً ، إلا أن يتولاه من هذا الشباب العربي الناهض من يضبط إطاره ، ويدقق جزئياته ، ويجمع وثائقه الكتابية والأثرية وحتى الفولكلورية :

السبب الثاني : هو أن معلومتنا عن هذه الرحلة تعتمد على أصول ثلاثة : الأصل الأول : المصادر الكتابية ، ومنها ما هو مطبوع ، ومنها ما هو مخطوط ، ومنها ما هو مفقود ، فيجب أن نربص قليلاً حتى يطبع المخطوط ، كالحال المسابير للقاضي النعمان بن حيون ، أو نعثر على المفقود كأخبار الدولة لأحمد بن الحزار الطيب القيرواني ، وتاريخ إفريقية والمغرب لأبراهيم الرقيق القيرواني ،

الأصل الثاني - المصادر الأثرية ، وذلك أن الطريق من المنصورية إلى مسرطة فيما بعد مدينة طرابلس تتوالى فيه مراكز العمران : وقد وصفه لنا عبد الله التيجاني في رحلته فلا احتياج إلى بناء استراحات وقصور ، ونجعات للجيش ، والقافلة الكسروانية . وإنما المشكلة في مقطوع الطريق بين مسرطة وإجدابية ، وبصورة أقل حدة بين إجدابية والإسكندرية :

ونحن نعلم أن تميم بن المعز الفاطمي تولى إنشاء هذه المراكز ، فيجب البحث عنها ، وأجراء حفريات بها ، ونشر الأحجار التذكارية التي رسمها تميم ، والتي يوجد البعض منها في متاحف ليبيا . ولا سيما في متحف الشحات قرب مدينة البيضاء :

وقد بنى تميم قصرأ لأبيه في كل مركز هام ، من ذلك قصر إجدابية الذي وقع العثور عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، فأين هي بقية القصور ، وأية حفريات أجريت للعثور عليها ؟ :

الأصل الثالث — إذا فاتنا أن نجد نصاً مكتوباً أو أثراً مدرّساً، فنحن نلتجئ إلى العلوم الملحقّة بالعلوم التاريخيّة كالنقادة (ستانلى لين بول : علم النقود) ، فنحن نعرف رحلة الفاطميين من سجلماسة في أقصى المغرب إلى القيروان من خلال ماضربوه من النقود على التوالي مرحلة بعد مرحلة ، مع ضبط دار الضرب واسم المرحلة وتاريخها ، وليس لنا إلى الآن ما يشبه ذلك في القصر الليبي ، لأنه لم يعثر على المقدار الكافي من النقود ، أولاً لأنه لم تضرب نقود باسم المراحل — من يدري ؟ — فنحن ننتظر أن يقع العثور على شيء من ذلك ، عندما يبدأ اخواننا الليبيون في نشر النقود الأثرية في مجموعات :

أو كالتقاسة (إبيغرافيا — علم فتح المغلق من النصوص المنقوشة على الحجر أو الخشب أو المعدن) :

وإذا كانت التقاسة البونيقية أو الأطينية الموجودة بليبيا قد نشرت ، فإن التقاسة العربية لم تنشر ، ولا سيما ما يخص أفاريز القصر الفاطمي بأجدابية ، الذى نشر عنه بعض الشيء بمجلة مديرية الآثار الليبية (١٩٦٦) ، والألواح التذكارية التي رسمها تميم ، والموجودة بمتاحف برقة على الخصوص : وقد انبعث من الشباب الليبي بفضل رسالة الجامعة الليبية واهتمام الحكومة الوطنية نخبة نعول عليهم كثيراً في الاضطلاع بهذا الموضوع الهام . فلننتظر قليلاً ، ولنتح الفرصة أخرى لهذا الشباب أن يعمل عملاً صالحاً لا تارة هذا الموضوع الهام :

أو كالفولكلور فإنه يحفظ تقاليد وعادات وعقائديات ، وصوراً موروثة قد نستفيد منها في دراسة موضوعنا ، ونحن نعلم أن الكثير من الدول التي استقلت بأوروبا في القرن الماضي أو بعد الحرب العالمية الأولى ، كشفت جوانب كثيرة من تاريخها بدراسة فولكلورها :

فما هو المتبقى في الطبقات الشعبية في المغرب من التقاليد والعادات الفاطمية، وما يجري على الألسن، ولو بدون تعليل من العقائد ؟
لكن انتظار إمامة اللثام عن هذه الكنوز لا يقعد بنا عن الاستفادة من القليل الموجود ، فما لا يدرك كله لا يترك كله : ونحن أصحاب هذا القل . إن شاء الله تعالى .

فذلكة تاريخية

ما هي الأسباب التي دعت الفاطميين إلى الانتقال إلى القاهرة ؟ هل هي راجعة إلى سياسة فشلت ، أو إلى إخفاق نظام قائم ، أو أزمة مذهبية ، أو ضائقة مالية ، أو حب توسع ؟
وهل هذا الانتقال كان مقصوداً بالذات ومبيتاً من قبل ؟ . فما أفريقية والمغرب إلا مرحلة انشاء للدولة الفاطمية ومغرب تجارب لسياستها وحريتها ونظامها الحكمي والعسكري والحضري والتعليمي ، وإرادة قضاء أزمة النشوء في غير مسقط رأس الفواطم بسوريا وهل هو عزم ثابت على تأمين المغرب وأفريقيا السوداء ، والبلاد الواقعة بالحووض الغربي من البحر المتوسط ، تمهيدا للرجوع مع اكتساب وسائل وإمكانات أوفروا أعظم كماً وكيفاً ونوعاً ؟

لنفهم هذا وتبين الحقيقة ، يجب أن نعرف ماهي الفاطمية :
الفاطمية مذهب ديني ، ونظام خلافة عقائدية ، يصح أن تكون عالمية :
أ — المذهب الديني : وهو المذهب الشيعي ، جاء إلى المغرب وقضى على دول الأغلبة والرسامين والأدارسة : ووجد أمامه المذهب المالكي والمذهب الحنفي وهو مذهب العباسيين السائد ببلاط الأغلبة ، والعائلات الحكومية بأفريقية ، والمذهب الإباضي السائد ببلاط الرسامين ، وجنوب تونس ، والجزائر ، وشمالى ليبيا بجبل نفوسة ، ومدينة زوارة .

فاصطدم الشيعة الفاطميون بالمالكية من رجال مدرسة القيروان اصطداماً عنيفاً بالمناقشة أولاً ، مثل مناقشات ابن الحداد القيرواني (انظر معالم الإيمان لابن ناجي في ترجمة ابن الحداد نفسه) او بالاستشهاد مثل استشهاد محمد بن خيرون (انظر ترجمته في معالم الإيمان) ، أو بالانتفاضات من طرف الرباطين . وفي سواحل المغرب والحزائر وتونس وليبيا الف رباط على الساحل ، فيها رجال من المدرسة المالكية السحنونية القيروانية ، عاهدوا الله على أن يدافعوا عن الثغور من هجوم الخارج والداخل :

والحوادث الرباطية كثيرة ، أورد جانباً منها ابن ناجي أيضاً في غضون كتابه القيم :

فرجال المالكية والمرابطون بالربطة والقرى الرباطية بالسواحل المغربية ضد الفواطم بشكل عنيف :

وكان الاصطدام مع الحنفية قليلاً ، لأن الدولة الأغلبية التي هي دولة حنفية قد انتقلت إلى المشرق ، وانتقل أنصارها ورجال الحنفية إلى صقلية ، فلم تبق هناك مقاومة :

وكان الاصطدام مع الإباضية عنيفاً ومسلحاً ، سواء مع رجال الدولة الرسمية بتبهرت وما إليها ، أو مع ثورة الزعيم البربري أبي يزيد مخلد بن النكارى كيداد ، فقد كادت تقضى على الدولة الفاطمية بالتمام والكمال :

وهذا ما دعا المعز إلى التوثق من البربر على اختلاف قبائلهم ، ومن تأمين المنطقة الحساسة البربرية بالمغرب التي هي منطقة وادي شلف ، على مقربة من من تبهرت عاصمة الرستميين أنفسهم (انظر عن الرستميين — ابن الصغير ، وابن عذاري ، وغيرهما من المصادر) :

على أن البربر هادنوا المعز بعد انكسار ابن يزيد، وذهاب الدويلات الصغيرة التي كانت ضاربة بالمغرب ؛

واذن ففضية الخلاف المذهبي كانت فقط عاملا مرجحاً ، لاسيما أصلياً في انتقال الفاطميين إلى القاهرة ؛

قلنا إن الفاطمية مذهب ديني ، ورأينا أن هذا المذهب الديني لم يكن بالإضافة إلى النقلة إلا عاملاً مرجحاً ليس إلا ؛

وقلنا إن الفاطمية خلافة ؛ والخلافة في الإسلام لا يمكن أن تتعدد، ومع ذلك فهناك في عصر المعز لدين الله الفاطمي المنتقل إلى القاهرة ثلاث خلافات : الخلافة العباسية ببغداد ، ثم الخلافة الأموية المجددة بالأندلس ، ثم الخلافة الفاطمية بالمهدية والمغرب . ومن واجب كل خلافة أن تقضي على الخلافين الآخرين ، تلك كانت سياسة الدولة العباسية التي أنشأت دولة الأغالبة ، للقضاء على الأدارسة والأمويين بالأندلس ، وتلك كانت سياسة الخلافة الأموية التي كانت تنوى الاعتماد على البربر الإباضية للقضاء على الفواطم بالمغرب ، وعندما ذهب ابن يزيد غلند بن كيداد لطلب النجدة ، وتبدير الخطة مع البلاط الأموي بقرطبة ؛

وإذن فالفاطميون كانوا ينوون القضاء على خلافتين إسلاميتين، إذ لا يمكن أن تقوم إلا خلافة واحدة، فأرادوها لأنفسهم، إذ رأوا أنفسهم الأحق بها ؛ فقيام الفواطم كخلافة بين خلافتين يجب أن تضمحلاً لفائدتها ، وأن تزولا من مسرح التاريخ لتنفرد بالملك هو سبب جوهرى في الانتقال، بل هو سبب عقائدى وتأسيسى : وسرى أن الفاطميين أرسلوا جوهر القائد قصد الاستيلاء على سبتة تمهيداً لفتح الأندلس ، فلم يفلح ، فأرجئ الأمر إلى غد، ولم يبق إلا الابتداء بالدولة العباسية ، ثم يسهل الله أمر الأندلس فيما بعد ؛

بل رأينا جوهر الصقلي يتحول بعد فشله أمام سبته إلى المغرب والبلاد
السوداء تأليباً للرجال وخملاً للأموال : ويبعدو أنه إذا وجد آذاناً صاغية ،
وقلوباً واعية في الدعوة إلى المشرق ، فإنه لم يفلح في الدعوة إلى الأندلس ،
وكان فيما بعد من المرابطين والموحدين ، لم يحن وقته بعد في زمن جوهر الصقلي ،
فأرجى الأمر ، ولم يقطع الرجاء منه إلى حين :

وإذا فالنظام الخلفي هو السبب الأصل ، أو أحد الأسباب الأصلية
في انتقال الفاطميين :

رأينا أن اصطدام الفاطمية كذهب مع بقية المذاهب القائمة بالمغرب ،
لم يكن إلا عاملاً مرجحاً في الانتقال :

ورأينا أن الفاطمية كخلافة إسلامية وجدت نفسها بين خلافتين :
العباسية في الشرق ، والأموية المجددة في الأندلس — مع وجوب وحدة الخلافة —
قد كان عاملاً أصيلاً في الانتقال ، وقلنا إن الفاطمية هي أيضاً عقائدية نزوعة
إلى الانتشار العالمي : وهي تستمد عناصر فلسفية إيرانية وهندية . نجدها قد
انتشرت بجنوب أوروبا من فرنسا إلى بلغاريا ، وقد كانت جماعة من المسلمين
بالمناطق التي احتلها الفاطميون من فرنسا ، سواء بالساحل أو على ضفتي نهر
الرون ، كما نجد مسلمين فواطم بيوغوسلافيا وبلغاريا قبل الفتح العثماني ٥
(انظر مادة « بلغار » في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى) ٥

وتسمى هذه النزعة نزعة الكاتار ، ولا تزال موجودة بالجنوب الغربي
من فرنسا تحت التقيّة ، وأحياناً تبرز جبهة — وهذا موضوع واسع وطريف
يحتاج إلى تحقيق ، فهذه النزعة التوسعية العقائدية الفاطمية كانت من أسباب
الفتوحات التي جرت بالسواحل الأوربية من حوض البحر المتوسط ، وانتشار
العقائدية بواسطة الدعاة هو إيجاد الأنصار : وفتح رومة الموقت هو تمهيد

لفتح بيزنطة ، إذ أن الفاطميين لم يحاولوا القضاء على العباسية والأموية من حيث
أنهما خلافتان إسلاميتان . لكنهم كانوا ينوون القضاء على رومة وبيزنطة ، لتم
السيادة النهائية في البحر المتوسط شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . وفكرة الاستيلاء
على رومة وعلى بيزنطة كانت في برنامج الأغلبة أنفسهم ، إما لحسابهم الخاص ،
أو لحساب العباسيين الذين زرعوهم بإفريقية ، لخطة سياسية تحديدية من ناحية ،
لتوقيف تيار الإدارة والأمويين ، وتوسعية فيما بعد لتوحيد المغرب مع الاندلس ،
والاستيلاء على رومة وبيزنطة . على أن هذه السياسة التوسعية تكاد تكون قاعدة
قارة لدى جميع الشعوب التي كانت لها - عبر التاريخ - صولة بالبحر المتوسط :
الفينيقيون ، ثم الرومان ، ثم البيزنطيون في العصور القديمة ،
والفرنسيون والإيطاليون والأسبانيون في العهد الاستعماري المنصرم .

غير أن دوافع الفاطميين ليست توسعية فحسب ، بل دينية وعقائدية ،
واستراتيجية دفاعية وهجومية في الآن الواحد : فامتلاك الجزر المتحكمة
في مضائق البحر المتوسط ، والتحكم في مصائر هذه البواغيز نفسها جبل طارق ،
وسردينيا ، وصقلية ، وقريطش ، وأهم الموانئ في هذا البحر كوهان ، وتونس ،
وبجاية ، وبنزرت ، والمهدية ، وطرابلس ، وبنغازي ، وبالرم ، والاسكندرية
وبنزرت هي ضرورية بدون خلاف :

ونحن لنا أمثلة من هذه النظرية « الوقائية » في عامة العصور التاريخية بالبحر
المتوسط :

ومن اليوم الذي تحول فيه الفاطميون من القبروان البرية إلى المهديّة
البحرية التي هي شبه جزيرة تحاكي بارجة كبرى مدرعة متجهة نحو صميم البحر
المتوسط ، لم يبق هناك من شك في أن هذه السيادة البحرية تتطلب امتلاك
الجزر والنقط الحساسة :

وبقي أن نساءل بعد هذا هل هناك أسباب اقتصادية ؟ :

والأسباب الاقتصادية تكون :

أولاً - سلبية - بمعنى أن البلاد الموجودة فيها هذه الأسباب السلبية غير قائمة بنفسها ، ولا متوفرة بها أسباب المعاش إلا من طريق التوريد ، أو من طريق التوسع الخارجى ، فجبل لبنان في عهد الفينيقيين وحتى بعده لا يكتفى لمعاش أهل لبنان فتوسعوا في البحر المتوسط بالملاحة وفي القارة الأفريقية بالقوافل وعاشوا من التجارة والملاحة . وابطاليا لاتضمن معاش الرومان ولا تكفل لهم قمح الاختياز ، ولازيت التآدم ، ولاخنة النشوة ، ولا ثمار التنقل ، فاحتاجوا إلى التوسع في المغرب وغيره ، حتى كان المغرب «هرى رومة وظميرها» :

وليس هذا شأن المغرب الفاطمى ، فهو أغنى تربة ، وأجدى زراعة ، وأعظم إغلا لا ، وأوفر صناعة ، وأعم تجارة في جميع عصوره المزدهرة : وقد وصف لنا أبو عبيد البكرى المغرب الفاطمى في كتابه «الممالك والممالك» اعتماداً على موسوعة محمد بن يوسف الوراق التى وصف فيها ديار المغرب بلداً بلداً . فإذا به أغنى مايكون ، وإذا بالزياتين تمتد غير منقطعة من قابس إلى طنجة ، وإذا بجدران المنازل تتواصل من القيروان إلى المهدية : وإذا بأنهار تكروور تفيض تبرا على المغرب كما قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : (وأهـار تكروور هى وادى الذهب والسينغال والنيجر) :

وإذا كانت خلافة من الخلافات الثلاث مزدهرة اقتصادياً حقاً ، فهى الخلافة الفاطمية لما وحدها صناعة الحرير ، والزجاج ، والقاشاني ، والكاغذ في البحر المتوسط ولها غابات الأخشاب الصالحة بصناعة السفن ، وأتخاذ الأثاث : ولها فضة مردانيا ، وكبريت صقلية ، وزئبقها ، ونفطها ، ولها مرجان طبرقة ، وحديد المغرب ، ونحاس موريطانيا ، إلى غير ذلك :

- ٧٨٩ -

وليس الأمر كذلك، بالإضافة إلى الخلافة الأموية بالأندلس : فالأندلس شبه جزيرة ودارحرب، وثغر ملتهب النيران على الدوام، والأمر كذلك أيضاً بالإضافة إلى الخلافة العباسية التي أوهنتها الشعوبية الانفصالية، والفتن المستمرة وأخطار الإيرانيين والأتراك :

ومع أن الأندلس والإمبراطورية العباسية كانتا في أوج الحضارة في هذا القرن الرابع، فإن المغرب كان أكثر ازدهاراً من الناحية الاقتصادية على الأقل . فليس انتقال الفاطميين إلى الشرق من باب التوسع الاقتصادي السلبي، على ما ذكرنا من وجوه .

ثانياً - الأسباب الاقتصادية الإيجابية، وتعني ازدياد الإنتاج على الاستهلاك المحلي، والاحتياج إلى التصدير، فالتضخم الاقتصادي الزائد على الاكتفاء الذاتي يتطلب أسواقاً وتسويقها، والأسواق تتطلب تأسيس مراكز تجارية، ومناطق نفوذ أو لإنتاج اقتصادي، وكلاهما يتطلب اسطولا حريياً، وأسطولا تجارياً .

والازدهار الاقتصادي يتسبب في وفرة النسل، وارتفاع الدرجة الديموغرافية، وإيجاد رصيد بشري طافح مشاغب :

وهذا ما كان عليه واقع الفاطميين بالمغرب . والأمثلة على ذلك في التاريخ المعاصر كثيرة قائمة لاتدحض . فالسبب الاقتصادي هو سبب زيادة لأسباب نقصان، ودافع تصدير لاتوريد :

ويتضح من كل ما سبق أن الفاطميين كانوا ينوون منذ الأول الانتقال إلى المشرق بعد تأمين المغرب، والحصول على نتائج تجارتهم المغربية . وأن الأسباب الداعية إلى هذا التوسع هي أسباب دينية (توحيد الخلافة) وعقائدية (نشر النظام الفلسفي الفاطمي) والتوسع الاقتصادي :

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر وهو أن المغرب الفاطمي في هذا القرن الرابع كان يزخر بالنفوس ، ويزخر بالإطارات على اختلافها ، ويزخر بالمحصولات الزراعية والصناعية :

فازدياد النفوس تلك يؤلف مشاكل لا بد من حلها ، وأفضل الحلول هو التوسع الخارجى ، أعنى الاغتراب : ماذا صنع الفينيقيون أمام نفس المشكل ؟ اغتربوا : ماذا صنع اللبانيون في القرن الماضى حينما اغتربوا ؟ والمغرب الفاطمي كان محتاجاً إلى الاغتراب أيضاً :

ثم إن ازياذ النفوس يقتضى الاستخدام الشامل : وقد استوعبت الفلاحة والصناعة والتجارة والملاحة والمهن الحرة ما استوعبت : واستوعب التجنيد العام للجيوش الترابية والجيوش البحرية ما استوعب . لكن الفاطميين ، ولا سيما المعز لدين الله وجد نفسه أمام أسطول حربى عظيم بعدد قطعه ، وعظيم بتجهيزه ، وعظيم برجال قيادته . ووجد نفسه أمام جيش عربى بربرى لا يحصى عدداً وعدة ، له إطار ممتاز جداً . فماذا يصنع بأسطول مرابط بثغوره ، وبجيش مرابط فى ثكناته ، ينفق عليهما النفقات الموجهة ، وهما لا يتحركان ؟

لقد علم القرطاجنيون بنتيجة ذلك فى حرب المرتزقة ، وعرفها أهل الاندلس فى ابتكار الجيوش المراقبة فى الخواضر والبوادي ، وقيام دول الطوائف ، واندلاع نيران فتن وحروب طاحنة : والأمثلة كثيرة :

ولإذن فلم يكن للمعز بد من استخدام الجيوش فى بعثة عسكرية طويلة النفس ، واسعة النطاق :

وهكذا نرى المعز الذى اتخذ الجيش لتدوين المغرب وفتح الاندلس ، واتخذ الأسطول لتركيز الأمن فى أهم جزر البحر المتوسط التى هى مفاتيحه ، ومضائق هذا البحر وثغوره ، نراه قد وجد نفسه أمام مشكلة جديدة ، بعد أن

- ٧٩١ -

فشل في بعض أهدافه تلك، ونجح في البقية، وعلى كل، فقد انتهت مهمة الجيش والأسطول في المغرب. فماذا يصنع؟ يجب ولا شك أن يعطى للجيش والأسطول أهدافاً جديدة:

على أن المعز كان ينوى منذ الأول حشد جيش جرار وأسطول جبار، قصد فتح المشرق، لكن الحركة العسكرية التي قام بها جوهر في ربوع المغرب والسوادين، وتجنيد القبائل على اختلافها، وتحويلها من التطاحن بين بعضها إلى التضافر، وزوال الدويلات الصغيرة التي كانت مصدر شغب قد ضحمت الجيش والأسطول إلى أبعد حد. فبقاؤه عاطلاً بالمغرب ينتظر الطوارئ خطر شديد، فلا بد حينئذ من تحويله من الأهداف المغربية إلى الأهداف المشرقية، ولا بد من تحويل الأسطول من تغور الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى تغور الحوض الشرقي: فالمعز وقع في نفس شبكته:

وكانت مراكز التعليم بالمغرب كونهت إشارات علياً ممتازة، سواء في بيت الحكمة بالقيروان، حيث ترجمت الكتب البونيقية، واللاتينية، والبربرية، وحيث أخرج إطار من المهندسين والأطباء والفلكيين، أو بجامع القيروان، وجامع القرويين بفاس، وجامع المهدي، وجامع بجاية، وجامع بالرم، حيث أخرجت إشارات من رجال الدين والأدب والفلسفة.

وهنا وجبت أيضاً قضية تصدير الأذفة، فإذا تكونت في البلاد طبقة من الشغاليين الفكريين العاطلين عن العمل، كانت مصدر شغب كبير.

ولا حل لذلك إلا بالتشغيل الشامل في الداخل، فإذا بقيت بعد ذلك بقية وجب تصديرها، وهذا هو المشكل الذي وجد الفاطميون أنفسهم أمامه.

فكانت القيروان تصدر العلماء إلى صقلية، وإيطاليا. فحققت هدفين: الأول تشغيل المفكرين العاطلين: والهدف الثاني تحقيق الإشعاع الثقافي والعلمي

- ٧٩٢ -

الفاطمي : وهكذا اسست الجامعات بايطاليا ولا سيما جامعة سالرن قرب نابلي وأسست مدرسة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ورأسها أحد أبناء القيروان الذي ضاع عنا اسمه العربي وبقي اسمه اللاطيني نغني به قسطنطين الافريقى وهكذا آلت حركة تصدير الأدمغة إلى أوروبا إلى حركة نقل علوم وإشعاع ثقافة في هذا العصر الفاطمي انبنى عليها فيما بعد انبعاث نهضة أوروبية في العلوم والآداب والفلسفة : وحتى في المعمار .

فتكون في صقلية وإيطاليا فن مدجن شبيه بالفن المعماري المدجن الذي وجد بالاندلس وذلك أن التقنيين المسلمين كانوا كثرة والتقنيين الأوروبيين كانوا قلة فاحتاجوا إلى جلب التقنيين المسلمين الذين بنوهم كنائسهم وأديرتهم ومدارسهم وقصورهم حسب الطراز الإسلامي الغربي مبع تعديلات اقتضتها النصرانية . فهذا هو الفن المدجن ،

واتجه تصدير الأدمغة بعد اكتفاء أوروبا إلى البلاد السوداء بواسطة الأربطة الصحراوية التي انتهت إلى قيام دولة المرابطين وكثير من زعماء رجالها من القيروان ،

كما أن البعثة إلى الشقيقة مصر اعتمدت أساساً على مشروع ثقافي هو بناء الجامع الأزهر أو الجامعة الأزهرية : وكانت على رأسها نخبة من رجال العلم والأدب والمعمار ، على أن التبادل الثقافي وأحياناً التعاون الثقافي والحضري بين تونس والشقيقة مصر قديم ومتواصل . فكانت الحضارة القرطاجنية متأثرة بالحضارة المصرية الفرعونية إلى أبعد حد ، وكان الطلبة التونسيون في عهد الولاة الأول يذهبون في طلب العلم إلى القسطنط : وعندما انحط العلم بتونس في العهد العثماني الأول كان الطلبة التونسيون يذهبون إلى الأزهر نفسه :

وكان كثير من علماء تونس بالأزهر يدرسون بالأزهر . ولا سيما
ابناء الحريد ممن يسمون بالقسطلاني نسبة الى قسطلية وهى بلاد الحريد
فى الجنوب الغربى التونسى . وسيصير الأزهر بمكتبته الفاطمية الأولى وبنو
معماره وبحلقات تدريسه وبمن كان به من طلبة وأساتذة مصدر إشعاع معمارى
وعلمى ودينى وأدبى على ربوع الشرق الأوسط والديار الإفريقية والمغربية
على وجه الدهر فهذه هى - على وجه العموم - الأسباب التى دعت
الفاطميين المغاربة الى الانتقال الى الشرق وتحويل مركز الخلافة من المهديّة الى
القاهرة ، ومركز الثقل الحضري من افريقيا الى مصر ، ومركز الاشعاع
الكبير من جامع المهديّة الى الأزهر .

فاضطرت صقلية الى أن تعمل وحدها كمركز إشعاع ثقافى عربى
وإسلامى بأوربا، فساعد ذلك على انتعاش الحضارة الإفريقية وانتشار حضارة
العرب بالزيادة لاسيما فى عهد الملوك النورماندين حينما ظهر امثال الجغرافى
الموسوعى الشريف الإدريسي والفيلسوف عبد الحق بن سبعين واللغوى ابن
القطاع السعدى والشاعر ابن حمد يس وجمهرة من المعمارين قد أغلقت
أسماءهم وطويت تراجمهم :

وجاء هذا العصر الصنهاجى الذى هو عصر بطولات وملاحم
ومعارك ختامية قليل نصيبها من التوفيق .

اكتشف الصنهاجيون بارود المدافع وصنعوا المدافع بدار الكيمياء
بالمهديّة فاكتسبوا به معركة واحدة ضد النورماندين فى وقعة رأس الديماس
قرب المهديّة .

واستولى بنو هلال وبنو سليم على البوادي فانقسمت افريقية الى ملوك
طوائف ولم يبق الا التناح الأرب والفنون والمعمار ، فتذهب حضارة وتأتي حضارة

ولم تنجح التجربة البربرية الى جربها المعز وقد كان يعلم بذلك الا أنه أراد
اكتساب الوقت كما قال :

الباب الثاني

اعداد الرحلة إلى القاهرة

الزمن الأول

والرحلة في الحقيقة رحلتان

فالأولى هي ارسالية القائد جوهر بعد وفاة آخر امراء الإخشيدية وذلك
لبسط النفوذ الفاطمي على مصر ، وبناء مدينة القاهرة والجامع الازهر ،
واعداد انتقال الفاطميين من المهديّة التي هي عاصمتهم المغربية إلى القاهرة
التي ستكون عاصمتهم بالشرق الأوسط وبها دار الخلافة :

وهذا يقتضى إعداد العدة . فالفسطاط كانت قاعدة ولاية ، والعسكر
والقطائع كانتا قاعدتي إمارة . أما القاهرة فستكون عاصمة خلافة :
من حيث تخطيطها وتحصينها ومؤسساتها العلمية والاجتماعية والدينية
والاقتصادية ، ومن حيث دواوينها الحكومية وثأيساتها العسكرية والحربية
وديارها وقصورها ومرافقها ، هي من حيث كل ذلك دار خلافة وعاصمة
« القاهرة » كسروانية لاقاعدة ولاية أو امارة :

فوجب على القائد جوهر أن يكون في الآن الواحد قائد جيش
وأمر أسطول مصر عاصمة الخلافة ، ومدير مملكة كسروانية ، ومنظم
رحلة المعز . كل ذلك في أرفع مستوى وهو مستوى الخلافة التي يجب أن
تكون أعلى مرتبة من خلافة العباسيين في الشرق والأمويين في الاندلس :

— ٧٩٥ —

فإذا تم كل ذلك واستطاع جوهر الصقلي أن يضطلع بمسؤولياته في هذه المجموعة العملاقية من المهمات انتقل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة : وانتقلت بانتقاله الخلافة الفاطمية إلى مصر ونحوت مصر من مستوى امارة إلى مستوى خلافة :

— فالرحلة الثانية هي رحلة المعز نفسه مع عائلته ورجال دولته وانصاره ومن أراد من السكان وهذه هي التي نعينها :
وهذه الرحلة في ذاتها تحتاج هي أيضا إلى إعدادات مختلفة نيينها كما يلي :

(١) الإعداد العسكري : وهو يعنى —

(أ) محاولة الاستيلاء على الأندلس :

(ب) تدويخ المغرب .

(ج) تدويخ البلاد السوداء :

(د) التوثق من جزر البحر المتوسط الغربية (سرديانيا وصقلية وقرشقة — ماعد الجزر الشرقية من ميورقة ومينورقة ويايسته التي كانت بأيدي الأمويين الأندلسيين ، وتأمين سواحل فرنسا وإيطاليا لعزل الأندلس والحد من حركات الأسطول الأندلسي وحرمانه من حرية الحولان فضلا عن المبادرة بسواحل المغرب أو البلاد السودانية أو فرنسا أو إيطاليا .

(هـ) الاستلاء على مائيسر من جزر الأرخبيل اليوناني ولاسيما جزير قريطش (كريت — كريد) التي تؤلف مع مدينة سوسة (أو أبو لونيا) قرب البيضاء في برقة بوغاز لايد من اكتسابه لتأمين حركات الاسطول الفاطمي نحو مصر .

واليك البيان —

قال ابن العذارى ص ٣١٦

وفي سنة ٣٤٦ هـ إلى مدينة سبتة وال من قبل عبد الرحمن الناصر وأمره
بتحصينها وبناء سورها . فبناه بالكذان :

وفي سنة ٣٤٧ هـ دخل جوهر قائد ابني تميم إلى الغرب واستولى على مدينة
فاس ثم توجه إلى تطوان ووصل إلى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها .
ثم قال — وفي سنة ٣٤٨ هـ وصل كتاب صاحب سبتة إلى أمير الأندلس
عبد الرحمن الناصر يعرفه بما فتح عليه في عسكر جوهر :

فلما عجز القائد جوهر عن فتح سبتة، وبالتالي عن فتح الأندلس والقضاء
على الدولة الأموية هناك توجه إلى جنوب المغرب من بلاد سوس الأقصى .
قال ابن عذارى عطفًا على تراجع جوهر عن سبتة — وقصد بعساكره إلى
بجلماسة . ففر امامه صاحبها محمد بن الأمين الفتح ، وتحصن في حصن
على مسافة ١٢ ميلا من بجلماسة بأهله وماله وبعض أصحابه ... واستولى جوهر
على بجلماسة فملكها :

واذن فقد استولى جوهر على كامل بلاد المغرب إلى مدينة تطوان شمالا
بدخول الغاية . وبقي خارجا عنه الوجه التجريبي المقابل للأندلس الذي يمكن
فتحها منه :

واذ فاته أن يفتح الأندلس فلم يفته أن يؤمن المغرب وأن يحشد منه
جنود مصمودة وكتامة وزناتة وصنهاجة وأن يجبي أموال هذه الدنيا
المترامية الأطراف وأن يجمع ذهب بلاد تكرر التي هي بلاد السودان
وقد أصاب بذلك ثلاثة أهداف :

الهدف الأول — تأمين المغرب ونجاء الانتفاضات والانتفاضات به .

الهدف الثاني — التجنيد العام المغربي :

الهدف الثالث — جمع المال اللازم لأية حملة عسكرية يقررها المعز بعد أن أثبت لديه أن فتح الأندلس متعذر إلى حين على الأقل :

وأراد الفاطميون أن يأمنوا على الخوض الغربي من البحر المتوسط وما فيه من جزر مثل سردينيا واقريطش وصقلية وارقلورية وجنوب فرنسا مثل سان تروبير ولوفر ويجوس وسهول وادي الرون إلى حدود سويسرة .

قال عبد الرحمن بن خلدون في حديثه عن الاسطول :

« ... وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر (الأبيض المتوسط) من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه ، وامتطوا للفتح سائر أيامهم (يعني المسلمين) فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة (هذه كانت عند الأمويين ثم عند مجاهد العامري) = انظار اطروحة السيدة كليلا سرناللي (بالعربية) عن غزو سردينيا قدمتها للجامعة المصرية = وسردينيا وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك اصروم . وكان أبو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون بأساطيلهم من المهديّة على مدينة جنوة مرات فتتقلب بالظفر والغنيمة » .

إلى أن قال : « والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من ناحية هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل (ويقصد بها أوروبا) لها من العدو الشمالية توقع بملوك الفرنج وتتحزن في ممالكهم كما وقع في أيام بني

أبي الحسن ملوك صقلية القائلين بدولة العبيدين (الفاطميين . نسبة إلى عبد الله المهدي مؤسس الدولة ، وعاصمتها المهدية) : وانحازت أم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها :

واساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الأسد بفريسته :

ونستطيع أن نتتبع مع ابن خلدون حوادث هذه الجزر وقلورية وغيرها في هذه المدة فهي تعيننا ، واليك البيان :

(أ) - على عهد أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي ثاني الخلفاء الفاطميين بالمغرب : قال ابن خلدون : « ثم جهز أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي أسطولا ضخما لغزو ساحل افرنجة وعقد عليه ليعقوب بن اسحاق . فأتعخن في بلاد الافرنجة وسبي ونزل بلد جنوة وافتتحها وعظم صنع الله في شأنها : ومروا بسرديانة من جزر الفرنج فالتحنوا فيها »

(ب) على عهد المنصور الفاطمي ابن أبي القاسم ثالث الخلفاء الفاطميين قال ابن خلدون : « ثم عقد المنصور سنة ٣٣٣ هـ للحسن بن علي أبي الحسين الكلبي على صقلية واعمالها : : . وبلغ المنصور أن ملك الفرنج يريد غزو المسلمين : فأخرج أسطوله وشحنه بالعساكر لنظر مولاه فرج الصقلي (أو الصقلي على اختلاف المخطوطات) وأمر الحسن بن علي صاحب صقلية بالخروج معه : فجاوزا البحر إلى عدوة الافرنجة ، ونزلوا قلورية (كالابريا = جنوب ايطاليا شرق صقلية وبينهما بوغاز مسينة .) لقبهم رجار وهو (وحده إذ أن الرومان لم يصلوا بعد صقلية) ملك الافرنج فهزموه . وكان فتحا لا كفء له . وذلك سنة ٣٤٠ هـ » :

(ج) - سنة ٣٤٤ - على عهد المعز لدين الله الفاطمي الخليفة الرابع :
قال ابن خلدون : « وبعث (المعز بن المنصور بن القائم بأمر الله) إلى الحسن
ابن علي (الكلبي) عامل صقلية سنة ٣٤٤ أن يخرج بأسطوله إلى ساحل المرية
من بلاد الأندلس ، فعاث فيه وغنم وسبي . »

- قال ابن خلدون :

« : : : وافتتح صاحب صقلية سنة ٣٤١ قلعة طيرمين (سمي الآن تاورمينه) من
حصون صقلية بعد حصار طويل أجهدهم . فزاولوا على حكم صاحب صقلية
بعد تسعة اشهر ونصف للحصار : وأسكن المسلمين بالقلعة وسماها « المعزية »
نسبة إلى المعز صاحب افريقية . »

« : : : وقعة الحجاز لسنة ٣٥٤ :

- ثم سير صاحب صقلية بعدها - وهو أحمد بن الحسن بن علي بن
أبي الحسين - مدده إلى مدينة مسينة وساروا بجمعهم إلى رمطة : وزحف إلى
عسكر الروم مستميتا . فقاتلهم أمير الروم بجماعة من البطارقة ، وهزموا
اقبح هزيمة (أي الروم) واعترضهم خندق ، فسقطوا فيه : واثخن المسلمون
فيهم ، وغنموا عسكرهم . واشتد الحصار على أهل رمطة ، وعدموا الأقوات
ففتحها المسلمون عنوة ، وركب كل الروم البحر يطلبون النجاة ، فاتبعهم
الأمير أحمد بن الحسن في أسطوله . فأدركهم وسيج بعض المسلمين في
الماء وحرقت مراكبهم وانهزموا .

وبث أحمد سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها : . وكانت الوقعة
سنة ٣٥٤ وتسمى وقعة الحجاز .

هذه مارواه ابن خلدون مسلسلا تسلسلا تاريخيا ثم عطف فزاد الموضوع
بسطة . وأورد ابن الاثير الخبر على نفس النسق مع بعض الزيادات :

ومن كل هذا يظهر جليا أن المعز أسس دولة أميرية بصقلية مستقلة عن الصنهاجيين وجرب هذه الدولة في الحروب وتدير الممالك فأقامت الدليل التماطع على اضطلاعها بالأمور فكان تديره لذلك موفقا .

— قال ابن الأثير : « : سنة ٣٦١ : : وفي هذه السنة سار المعز لدين الله العلوي من افريقيا يريد الديار المصرية : وكان أول مسيرة أواخر شوال وكان أول رحيله من المنصورية وأقام بسردانيا وهي قرية قريبة من القيروان . . واستعمل على بلاد افريقية يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري :

إلا أنه لم يجعل له حكما على جزيرة صقلية ، ولا على مدينة طرابلس الغرب ولا على اجراية وثرث وجعل على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين (الكلبي) على ماقدما ، وجعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي ، وكان أثرا عنده . »

ويتبين من هذا أن المعز أراد أن يقصى بلكين بن زيري عن حكم صقلية — من ناحية ، وعن حكم صقلية وبرقة من ناحية أخرى . فاسند حكم صقلية إلى أسرة عربية قحة تتولى الإمارة هناك أبا عن جد . ولعل السبب الذي دعا المعز إلى ابعاد بلكين عن صقلية هو ألا تكون ييده البواغيز وطريق اوروبا ، اما السبب في اقصائه عن طرابلس وبرقة فهو الا يكون بيده طريق مصر والمشرق ، وأن يقصر عمله على المغرب حتى يصرف الهممة فقط في تأكيد الأمن بالديار المغربية ، واذا تيسر في فتح الأندلس أو جوانب منها ، وفي الاستيلاء على مايتيسر من البلاد السوداء . ولو نظرنا إلى السياسة الصنهاجية لوجدناها اتبعت هذه الخطة بدقة ، لكن هذا خارج عن موضوعنا .

٨٠١ =

ويبدو من هذا ايضا أن المعز أراد ان يؤلف وحدة بحرية قاعدتها الاسكندرية وجناحها السواحل الليبية غربا والسواحل الشمالية شرقا ومراكزها البحرية جزر صقلية وسردانيا ومالطة وقريطش وقوصرة . وبذلك يكون التهديد لرومية والقسطنطينية أوفر والخطة للاستيلاء أحكم . وأقل ما يقال أن المعز ضمن لنفسه وللخلافة وللفاطمية بوجه عام حرية المناورة البحرية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط .

فبحرب شلف قضى المعز على زناتة عدوة صنهاجة وضمن لنفسه السيادة على القسم الغربي من الجزائر . وبالعدول عن استخلاف جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي زعيم زناتة وصاحب الإمارة بالمسيلة وحالة الاستخلاف إلى بلكين ابن زيري زعيم صنهاجة قضى على مزاعم زناتة ورد الأمر إلى عدوتها ومزاحمتها صنهاجة . وارتاح من حروب وادي شلف التي لم تنته طوال القرون الا في هذه الآونة وبفتحة لجنوب المغرب

تم حكمة على السوس الأقصى وموريطانيا وجهات من السوادين : وبانتصار الاسطول الصقلي على الاسطول الاندلسي في وقعة المرية ، عزل الاسطول الأندلسي وتمت السيادة للأسطول الصقلي الفاطمي في الحوض الغربي من البحر المتوسط وبانتصاره في وقعة المجاز تم له الحكم على صقلية وجنوب ايطاليا والاستيلاء على سان تروبير ولوفرينجوس وجنوة تم التحكم في سواحل جنوب فرنسا فأستت بها الرباطات الفاطمية : كما استتت رباطات أخرى على طول ساحل نابلي :

وهكذا تم على احسن حال الإمداد العسكري .

٢ اعداد الاستخلاف :

لم يشأ المعز لدين الله أن يترك شيئا للصدفة ولأن يبنى بابا من أبواب المفاجأة الطارئة ، لذلك أعد استخلافه بغاية الدقة ، وفكر في موجباته

٨٠٢ -

المنعوية العامة واختيار الخلف الأوفق ، والتوثيق من الشعب المغربي
والوصى عليه ، وقام بذلك في دفعتين :

الدفعة الاولى : الوصية العامة

الدفعة الثانية : اختيار الوصى

١ - الوصية العامة - أورد قصتها المقرري

(أ) في « اتعاظ الحنفاء » ج ٢ ص ١٣٦

(٢) في « خطط القاهرة » ج ٢ ص ١٦٤ مع اختلاف يسير في الالفاظ

كما قال الدكتور جمال الدين الشيال ،

قال المقرري (اتعاظ الحنفاء) :

« واستدعى المعز - وهو بالمنصورية في يوم شات ، بارد الريح عدة
شيوخ من شيوخ كتامة ، وامر بإدخالهم اليه من غير الباب الذي جرى الرسم
به ، فاذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح ، وخوله
كساء ، وعليه جبة ، وحوالية ابواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب ،
وبين يديه مرفع ودواة ؛ وكتب حوالية ، فقال « ، ، ، ياخواننا : اصبحت
اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء - وانها الآن بحيث تسمع
كلامي : اترى اخواننا يظنون انا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب
في الثقل والديباج والحريير والفنك والسمور والمسك والخمر والغناء كما يفعل
أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن انقل إليكم فاحضركم لتشاهدوا حالى اذا خلوت
دونكم واحتجبت عنكم وانى لافضلكم فى احوالكم الا فيما لا بد لى
منه من دنياكم وبما خصنى الله به من امامتكم ، وانى مشغول بكتب ترد على
من المشرق والمغرب ، اجيب عنها بخطى ، وانى لا اشتغل بشىء من ملاذ الدنيا
الا بما صان ارواحكم ، وعمر بلادكم ، واذل اعداءكم ، وقمع اضدادكم ،

= ٨٠٤ =

فأفعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثلما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها إلى غيركم ، ليتصل في الناس الحميل ، ويكثر الخير وينتشر العدل .

واقبلوا بعدها على نساءكم ، والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرخوا إلى الكثير منهن والرغبة فيهن ، فيتنقص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم وتضعف غرائزكم ، فحسب الرجل الواحدة ، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا انكم اذا لزمتم ما أمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم - انهضوا ، رحمكم الله ونصركم ، «

(ب) اختيار الوصي : المشكلة الكبرى هي الوقوع على الشخص الافضل الذي سيخلف الفاطميين بالمغرب ويجري السياسة التي يريدونها ويبقى الشعب معه على ولائه للفاطميين وقد جرى الامر كما يلي :

(١) اختيار أبي أحمد جعفر بن علي أمير المسيلة بالشرق الجزائري ، وهو ينتسب إلى عائلة اندلسية قدمت من اسبانيا واسست المسيلة واقامت اماره وحسن ولاؤها للفاطميين . (اتعاط) ١٤٢ قال المقرئ : « ولما عزم » المعز « على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب ، فوقع اختياره على أبي أحمد جعفر بن علي الأمير ، فاستدعاه وأسر اليه انه يريد استخلافه بالمغرب : - فقال : « ترك معي أحد أولادك أو اخوتك جالسا في القصر ، وأنا أدبر ، ولا تسألني عن شيء من الأموال ، لان ما أجيبه يكون بازاء ما أنفقه ، - واذا أردت أمرا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي » -

— ٨٠٤ —

— وهكذا نرى جعفر يريد الاستقلال بشؤون المغرب السياسية والادارية والمالية والقضائية ، وليس ابن الخليفة الفاطمي أو أخوه الا مجرد صورة حدود محصورة . فالملك يهيم ولا يدبر والتدبير بيد جعفر

— لذلك أجابه المعز بما رواه المقرئى هكذا :

« فغضب المعز وقال :

« يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني : قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشداً » ، ، ، فخرج

(ب) اختيار يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي .

قال المقرئى (اتعاظ ١٤٢) :

« ، ، ، واستدعى المعز يوسف بن زيري الصنهاجي وقال له :

« تأهب لخلافة المغرب »

فاكبر ذلك وقال :

« يامولانا : انت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صفا لكم المغرب ، فكيف يصفوني وأنا صنهاجي بربري ، ؟ ، ، ، قتلتي يامولانا بلا سيف ولا رمح »

— فلم يزل به حتى أجاب — وقال :

« يامولانا ، بشريطة أن تولى القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر ان تشق به ، وتجعلني أنا قائما بين أيديهم ، فن استعصى عليهم امروني به حتى أعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم وأنا خادهم بين ذلك » . فحسن هذا من

— ٨٠٥ —

المعز ، ، ، (وزاد المقریزی فی الخطط ٢ / ١٦٦) (وشكره - فلما انصرف قال له عم ابيه أبو طالب أحمد بن المهدي عبيد الله :

— « يامولانا : وثثق بهذا القول من يوسف أنه نبى بما ذكره ؟ »

— فقال المعز :

« ياعمنا ، : كم بين قول يوسف وقول جعفر ، واعلم ياعم أن الامر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، فاذا تناولت المسدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا :

أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره « ويوسف هذا هو : أبو الفتوح يوسف المشتهر ببلكين (بالكاف الفارسية المعقودة) بن زبرى بن مناد الصنهاجى :

وذكر ابن عذارى (البيان المغرب ١ / ٣٢٦) « لما خرج ابو نعيم (المعز لدين الله) من افريقية إلى المشرق استخلف (أبا الفتوح يوسف - كما مر) وامر الكتاب أن يكتبوا إلى العمال وولاة الاشغال بالسمع والطاعة لابي الفتوح يوسف ، وبقي أبو الفتوح أميرا على افريقية والمغرب كله » :
(٣) الاعداد الديماغوجى : اكتساب عواطف الشعب المغربى بأعمال ظاهرة تذيع الصيت وتمتلك النفوس وتغرس الود وتطابق الألسنة بالحمد .

ولم ير المعز لذلك أفضل من اعداد عام لجميع اطفال المغرب فالاعداد ويسمى عندنا الطهور هو من أفضل الشعائر عند المغاربة يحتفلون به كل الاحتفال ويولون له ويتكلمون من أجله النفقة الموجهة .

— قال المقریزی (اتعاظ ١٣٥)

« ، ، ، وفى سنة ٣٥١ كان اعداد المعز لدين الله الأمراء بلية : عبد الله ، ونزار ، وعقيل ، فحين عزم على طهورهم كاتب عماله وولاته من لدن

— ٨٠٩ —

برقة إلى أقصى سبلماسة ، وما بين ذلك ، وما حوته مملكة إلى جزيرة صقلية
وما والاها ، في حضروبدو ، وبحر وبر ، وسهل وجبل ، بطهور من وجد من
أولاد سائر الخلق — حرهم وعبدتهم وأبيضهم وأسودهم ، وذئبهم وشريفهم ،
ومليهم وذمهم ، الذين حوتهم مملكة لمدة شهر ، وتوعد على ترك ذلك :

وأمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم وما يصالح أحوالهم من مطعم
ومشرب وملبس وطيب وغيره بمقدار رتبهم وأحوالهم :

فكان من جملة المنفق في ذلك مما حمل إلى جزيرة صقلية وحدها من المال —
سوى الخلع والثياب — خمسون هملا من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف
دينار ، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على أهل عمله :
وابتدئ بالختان في مستهل ربيع الأول منها ٣٥١ هـ ، فكان المعز يطهر
في اليوم من أيام الشهر بحضرته اثنتا عشر ألف صبي وفوقها وذونها ، وختن
من أهل صقلية وحدها خمسة عشر ألف صبي —

— وكان وزن خسر الاكياس المفرغة مما انفق في هذا الاعذار مائة
وسبعين قنطارا بالبغدادى :

٥ — الأعداد الخارجى — استكمل المعز الاستعدادات الداخلية —
كما رأينا — ولكن بقي بعد ذلك الاستعداد الخارجى ، ونعنى به :

(١) بعثة جوهر إلى مصر ٣٥٧ — ٣٥٩ —

قال المقرئى : « كانت جملة المال ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ ديناراً (ذهباً) ، فانفقها
أجمع على العساكر التي سيرها إلى مصر في سنتي ٣٥٨ و ٣٥٩ هـ مع القائد جوهر ،
وكان رحيله في ١٤ ربيع الأول منها ، ومعه ألف رجل مال ، ومن السلاح
والخيل والعدد مالا يوصف ، فقدم جوهر إلى مصر :

— ٨٠٧ —

ووصلت البشارة بفتحها في نصف رمضان سنة ٣٥٨ هـ فمر المعز سرورا كبيرا وقال ابن عبد الظاهر ، فيما نقله عنه المقرئ في « انعاظ الحنفا » ص ١٦١ :

« لما تحقق المعز وفاة كافور الاخشيدى جهز جوهر وصحبته العساكر ، ثم برز بموضع يعرف برقادة (٧ كم جنوب القيروان = انظر عنه ياقوت والبكري وجورج مرسى في كتابه « الفن الإسلامى » الترجمة العربية) وخرج في أكثر من مائة الف فارس ، وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال ، وكان المعز يخرج إلى جوهر في كل يوم ويخلو به ، وأمره أن يأخذ من بيوت الأموال ما يريد زيادة على ما أعطاه :

وركب اليه المعز يوما فجلس وقام جوهر بين يديه ، فالتفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم معه وقال : « والله لوخرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، وليزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تفقر الدنيا » (انعاظ ص ١٦١) — وأراد جوهر أن يؤثر على الناس نفسيا ويبين لهم أن الأمر جد ، قال ابن عبد الظاهر « ونزل جوهر مناخة موضع القاهرة الآن يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، واختط القصر ، وبات الناس فلما أصبحوا حضروا للهناء فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل »

ثم أراد أن يمتلك نفوس الشعب بالأحسان إلية قال ابن عبد الظاهر : ولما أصبح جوهر انفذ على ابن الوليد القاضى لعسكره ، وبين أحمال مال ومناد ينادى : « من أراد الصدقة فليصر إلى دار ابن جعفر » فاجتمع خلق من المستورين والفقراء فصاروا بهم إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص بالفسطاط) ففرق فيهم «

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب - عبد امير المؤمنين المعز لدين الله -
صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم :
لأنه قد ورد من سألتموه الترسيل والاجتماع معي وهم : أبو جعفر مسام
الشريف ، أطال الله بقاءه ، وأبو اسماعيل الرسى - أيده الله - وأبو الطيب
الهاشمي - أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر - أعزه الله - والقاضي -
أعزه الله :

- وذكروا عنكم أنكم التستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم
وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم :

- فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله
عليه - وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم
وتسارعوا إلى طاعته ، العاصمة لكم والعائدة بالسلامة لكم وبالسعادة عليكم» :
« وهو أنه - صلوات الله عليه - لم يكن إخراج العساكر المنصورة ،
والجيوش المظفرة إلا لمسا فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد
تخطفتكم الأيدي ، واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاعتدار على
بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم
وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق :

وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين -
صلوات الله عليه - بإخراج العساكر المنصورة وبإفاده بالجيوش المظفرة
دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم
الخرى ، وشملتهم الدلة ، واكتنفتهم المصائب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل
عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ،
فلم يغتهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكى عينه مانالهم ،

وأسهرها محل بهم : وهو : مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله
الله عليه —

فرجا — بفضل الله ، وإحسانه لديه ، وما عبوده وأجراه عليه
استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى
عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل ، وآثر إقامة الحج الذي
تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، واذ لا يأمنون
على أنفسهم ولا على أموالهم ، واذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت
دمائهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ماجرت به عادته من صلاح الطرقات
وقطع عبث العابثين فيها : ليتطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفظوا
بالأطعمة والأقوات إذ كان قد انتهى إليه — صلوات الله عليه — انقطاع طرقاتها
لخوف مادتها ، اذ لازاجر للمعتمدين ولا دافع للظالمين :

ثم تجسديد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية
المباركة ، وقطع الغش منها اذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر
في أمور المسلمين إلا لإصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها :

— وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — إلى
عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى
الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان
وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقار الأحوال وحيطة
أهل البلد ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى
أمورهم إلا على ما لم شعهم ، وأقام أودهم ، وأصالح بالهم ، وجمع قلوبهم ،
وألّف كلمتهم على طاعة وليه ومولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله
عليه — وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى — صلوات
الله عليه — باثباتها عليكم :

وأن أجريكم في الموارث على كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم -
وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من
المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال :

وأن أتقدم في رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعدل
مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا أنقطعها
عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لا باحالة على من يقبض منهم .

« وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صاوات الله عليه - مما ضمنه
كتابه هذا ما ذكره من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا
أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - من إنكم ذكرتم وجوها التستم ذكرها في كتاب
أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم - والا فلم يكن لذكرها معنى
ولا في نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشرعية متبعة ، وهي إقامتكم
على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم ،
والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الامة
من الصحابة - رضى الله عنهم - والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين
جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر
رمضان وفطره وقيام لياليه (صلاة التراويح التي لم يكن الشيعة يرونها) والزكاة
والحج والجهاد على أمر الله وكتابه ، ومانصه نبيه - صلى الله عليه وسلم -
في سنته واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه - . .

« ولكم على امان الله التام العام ، الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد
المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهلكم ونعمكم
وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم :

وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويدب عنكم ، ويمنع منكم فلا يتعرض إلى أذاكم ، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قوكم - فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره وتعرفون بركته ، وتغبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - :

ولكم على الوفاء بما التزمته ، وأعطيتكم إياه عهد الله وغلظ ميثاقه وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين - قدس الله أرواحهم - : وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله - صلوات الله عليه - فتصريحون بها ، وتعلنون بالانصراف إليها ، وتخرجون إلى وتسلمون على ، وتكونون بين يدي إلى أن أعبأ بالحسر وأنزل في المناخ المبارك (مكان القاهرة المعزية) وتحافظون - من بعد - على الطاعة وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وتلزمون ما أمرت به :

وفقكم الله وأرشدكم أجمعين :

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه في شعبان سنة ٣٥٨ هـ :

وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار ، وتم الأمر ، وأكلت الجماعة معه وودعوه وانصرفوا :

ثم انتقض الجماعة في خبر طويل وقالوا : « ما بيننا وبين جوهر إلا السيف » واستعدوا للحرب ، ووقع القتال بينهم وبين جعفر بن فلاح القائد الثاني لحيش المعز فتغلب عليهم ، قال المقرئ (ص ١٥٦) وأصبح الناس على خطة عظيمة ، فبكروا في يوم الاثنين إلى دار الشريف مسلم يسألونه الكتاب إلى جوهر في إعادة أمانهم :

فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان ، وجلس الناس عنده ، وقد طاف على بن الحسين بن لؤلؤ — صاحب الشرطة السفلى — ومعه رسول جوهر ، وبند عليه اسم المعز لدين الله وبين أيديهما الأجراس بأن لا مؤونة ، ولا كلفة وأمن الناس ، وفرقت البنود ، فاشتر كل من عنده بند بنده في درب حارته :

— وجاء الجواب إلى الشريف وقت العصر ، ونسخة بعد البسملة :

« ... وصل كتاب الشريف الجليل — أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه — وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون : فوقفت على مسائل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعأت إلى الشريف أعزه الله أن يؤمن كيف رأى ، وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبت كيف يشاء ، فهو أمانى ، وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا امير المؤمنين — صلوات الله عليه .

وقد كتبت إلى الوزير — أيده الله — بالاحتياط على دور الهاربين ، إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ... الخ : » ، فاستبشرت الجماعة وابتهجوا ، وعملوا على المسير في الغد إلى الحيزة ، للقاء جوهر مع الشريف مسلم ، وبات الناس على هدوء وطمأنينة :

وهكذا انتهت القضية وتم الصلح واستوسق الأمر للفاطميين مع تفاصيل وزيادات أوردتها المقرئى وغيره ، وليس من موضوعنا استعراضها هاهنا ، ومن يراجع المقرئى في الانعاط والخطط ، أو ابن تغرى في النجوم الزاهرة يجد بغيته وزيادة .

(ب) بيعة الحرمين الشريفين ، لاشك أن بيعة الحرمين الشريفين — هي من ناحية الدبلوماسية الإسلامية قوة صارمة تمتلك بها القلوب وتجمع بها الكلمة ويتوحد بها الإسلام وتنتصر بها الخلافة ، فاذا نجح الفاطميون في اكتساب هذه الحولة ، فقد ربحوا قضيتهم دبلوماسيا في أوسع نطاق :

وقد افتتح ذلك المنصور نفسه والد المعز عقب انتصاره على أبي يزيد مخلد ابن كيدان النكارى الخارجى ، وإليك تسلسل الأحداث :

(١) ٣٣٩ هـ - إرجاع الحجر الأسود إلى الكعبة ، وهذه قضية أقلقت بال المسلمين مشرقاً ومغرباً قرابة ربع قرن ، وذلك أن سليمان بن الحسن القرمطى اقتلعه سنة ٣١٧ هـ فى أيام المقتدر العباسى ، فعجز العباسيون عن إرجاعه إلى مكانه ، فلما مضت دولة المقتدر ، ومضت خمسة أعوام على دولة المطيع أرجعه المنصور الفاطمى إلى مكانه سنة ٣٣٩ هـ :

قال ابن عذارى فى « البيان المغرب » ص ٣١٣ :

« ... وفى سنة ٣٣٩ هـ تحرك أبو الطاهر المنصور إلى بلاد المشرق ، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام ، وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المطيع (الخليفة العباسى) ، وكان الذى اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطى فى سنة ٣١٧ هـ فى أيام المقتدر العباسى ، والذى تولى قلعه بيده بأمر القرمطى جعفر بن أبي علاج ، ولما مات القرمطى وجه إخوته الحجر ، فرد إلى موضعه فى هذه السنة ، ووضعه بيده حسين بن المروذى الكنانى ، وكانت غيبة الحجر من يوم قلعه إلى يوم رده اثنتين وعشرين سنة وأنحوها » ، ا هـ أول فقره حجج الناس ٢٢ حجة وليس فى الكعبة الحجر الأسود ، فعظم ذلك على المسلمين فلما أرجعه المنصور الفاطمى بعد أن عجز عنه عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالاندلس ، والمطيع من خلفاء بنى العباس كانت موجة تفريج فى العالم الإسلامى ورنه استحسن وإكبار لهذا النجاح الفاطمى عند عامة المسلمين :

وهكذا لعبت الدبلوماسية الفاطمية دوراً أساسياً وعظيماً بقدر ما كان موفقاً وناجحاً مائة مائة بالمائة :

(٢) ٣٤٨ هـ - التدخل بالمساعى الحميدة بين أشراف مكة :

وذلك أن الخلاف قد استفحل بين بنى حسن وبنى جعفر بن أبى طالب بالحجاز وآل إلى مشادة مسلحة مات فيها الكثير من الجانبين ، وعلم بذلك المعز فأرسل رسله بالتوجيهات والمسال لإصلاح ذات البين بين الطرفين فنجحوا في هذه المهمة الدقيقة أيما نجاح :

قال المقرئى (اتعاظ ١٤٥) :

« وبلغ المعز ، وهو بالمغرب - أمر الحرب بين بنى حسن وبنى جعفر بن أبى طالب (بالحجاز) وأنه قتل من بنى حسن أكثر مما قتل من بنى جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا سرّاً سعوا بين الطائفتين حتى اصطلحتا :

وتحملوا الحملات عنهما :

وكان فاضل القتلى من بنى حسن عن بنى جعفر سبعين قتيلاً :

فأدى القدوم ذلك اليهم :

وعقدوا بينهم في المسجد الحرام صلحاً :

وتحملوا ديّاتهم من مال المعز ، وذلك في سنة ٣٤٨ هـ :

فصار ذلك جميلاً عند بنى حسن للمعز :

(٣) ٣٥٨ هـ واعترفت بنو حسن بهذا الجميل الذى أسداه المعز : فلما دخل جوهر مصر ، بادر حسن بن جعفر الحسنى ، فلك مكة ودعا للمعز ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان :

وعطف المقرئى قائلاً :

« ، فلما دخل جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسنى ، فلك مكة ودعا للمعز ، فبعث بالخبر إلى المعز ، فأنفذه من المعز إليه بتقليده الحرم وأعماله »

وقال ابن عثرى :

« ودعى للمعز بمكة في موسم هذه السنة (٣٥٨) »

« ... ودعا أبو مسلم العلوى بالمدينة للمعز » وأراد المعز أن يكمل الإحسان فأرسل أحمالاً بمال ، وأخرى بمتاع للحرمين في نفس السنة ، قال المقرئ (ص ١٧٢) :

« ... وأنفذ المعز عسكرياً (٣٥٨) وأحمال مال عدتها عشرون حملاً للحرمين الشريفين وعدة أحمال متاع ، »

ولإذن فقد نجح المعز في توحيد الحكم بالحرمين وتأمين طريق الحج بالعساكر وإعانة أهل الحجاز والحجيج بالمال والمتاع .

ولا ننسى أن الحج هو مؤتمر اسلامي ، أى مصدر من مصادر الدعاية الكبرى النافذة في كل قطر من أقطار الاسلام ، فإذا قامت الدبلوماسية الفاطمية بأعمال كبرى عجز غيرها من الخلافتين العباسية والاموية فقد كسب المعز المعركة الدبلوماسية والإعلامية في أوسع مدى ، وهذا زيادة عن انضمام الجزيرة العربية إلى الخلافة الفاطمية ، فصارت لها حدود مشتركة مع الفاطميين وصار أمر الحج من مناسك وزياره وعمرة وتقديس بأيدي الفاطميين ، دون العباسيين أو الأمويين :

وصارت ضفتا بحر القلزم (البحر الأحمر) بأيدي الفاطميين ، وامتلكوا بوغاز باب المندب وكان هذا فائحة لدخول المذهب الشيعي إلى اليمن والخليج العربي ، وانتشار الدعوة فيه ، اعداداً لانتشاره بالهند في جولة ثانية قريبة جداً ان شاء الله .

ولورسمنا خريطة بهذه التوسعات لتبين لنا أنها تطويق للعباسيين من الغرب والجنوب ، وأن الخلافة العباسية قد صارت مقصورة على العراق ، بعد أن خرجت الشام وضمت إلى الفاطميين في نفس الوقت :

وقد كانت الخلافة العباسية قبل ذلك تشمل برقة ومصر وجزيرة العرب والشام فزال عنها قرابة خمسة ملايين من الكيلومترات المربعة وبقي لديها نصف مليون فعلا باعتبار أن الشعوبية حققت فعلا إنقسام الجهات الشرقية الهندية والتركية والإيرانية إلى دويلات مستقلة عمليا—فخرجت عن حكم العباسيين وبقيت صلة إسمية — وأحيانا لم تبق تزايد أو تنقص بحسب الأيام والظروف والأحوال : على حين أن حكم الخلافة الفاطمية ازداد ٥٠٠٠ كم طولا من القيروان إلى الشرق ولم يكن إلا ٢٥٠٠ كم من فاس إلى المهدية ، فتضاعف ثلاثة أضعاف كما على الأقل — أما كيفا فأكثر وصارت بأيدي الفاطميين عامة البحار القديمة والبواغيز ، من المحيط أو بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي ، والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وبحر عمان والضفة الغربية من الخليج العربي . (ج) — إنضمام الشام — الشام يشمل فلسطين (الرملة) وسوريا (دمشق وحلب وأنطاكية) ولبنان (صور وصيدا وبيروت وطرابلس الشام) والأردن .

وقد تم انضمامه حسب التسلسل الآتي :

(١) — الاستيلاء على الرملة ،

٣٥٨ في رواية ٣٥٩ في أخرى :

قال ابن عذارى (٣١١/١)

« حوادث ٣٥٨ » — ، سار جعفر بن فلاح إلى الشام وقبض على الحسين ابن عبد الله (بن طنج) ، وأنفذه إلى جوهر ، فأنفذ جوهر الحسين المذكور مع جماعة من الإخشيدية مع هدية إلى المعز ، فوصلت إلى إفريقية مع ولده جعفر في رجب من سنة ٣٥٩ هـ »

لكن المقرئى أرخ الحادث بسنة ٣٥٩ هـ ، قال (اتعاظ ١٦٨) :

= ٨١٨ =

« ، ولائتي عشرة بقيت منه (الحرم) سار جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق إلى الشام ، وقاتل القرامطة بالرملة وهزمهم ، وأسر الحسين بن عبيد الله بن طنج وجماعة ، وبعثهم في القيود إلى جوهر » :

ثم استأنف الموضوع ص ١٧٢ وزاده بسطة فقال :

« وورد الخبر بفتح جعفر بن فلاح دمشق ودخولها :

وكان من خبر جعفر بن فلاح أنه لما سار من القاهرة في عسكره كان على الرملة ودمشق الحسن بن عبيد الله بن طنج ، فلما بلغه دخول جوهر القائد إلى مصر بعساكر المعز سار عن دمشق في شهر رمضان ، واستخلف عليها شمول الإخشيدى ، وكان شمول يحقد في نفسه منه ، ويكاتب جوهر القائد ، فنزل ابن طنج الرملة ، ، ،

— إلى أن قال : « وقرب منه جعفر بن فلاح ، وقد انتشرت كتبه إلى ولاية الأعمال بعدهم الإحسان ويدعوهم إلى طاعة المعز ، فالتقى بآبن طنج وحاربه فانهزم منه ، واحتوى على عساكره ، فقتل كثيرا من أصحابه وأخلده أسيرا في النصف من رجب سنة تسع (٣٥٩ هـ) فأقام بالرملة يتبع من كان لابن طنج وأصحابه » :

(٢) الاستيلاء على دمشق :

قال المقرئ ص ١٧٢ : « وورد الخبر بفتح جعفر بن فلاح دمشق »

= وفصل الخبر ص ١٧٤ :

(٣) الاستيلاء على طبرية ص ١٧٣ :

- ٨١٩ -

« وسار (ابن فلاح) إلى طبرية فبنى قصرا عند الجسر ليحارب فاتاك غلام ملهم - وكان عليها من قبل كافور الاخشيدى ، فلم يعرض له ملهم وملك جعفر طبرية » :

٤) الإستيلاء على أنطاكية :

قال المقرئى ص ١٧٧ :

« فلما كان فى ربيع الاول سنة ٣٦٠ هـ أنفذ جعفر غلامه فتوح على عسكر إلى أنطاكية ، وكان لها فى أيدي الروم نحو من ثلاث سنين الخ ، ، ، ثم حاول جعفر بن فلاح الإستيلاء على إسكندرونة فلم يفلح ،
٥) الإستيلاء على حلب (٣٠٠) وانتهاء دولة الحمدانيين :

قال المقرئى : (١٧٩) :

« وفيها اصطلح قرعونة - مولى سيف الدولة بن حمدان - متولى حلب - وابو المعالى شريف بن سسيف الدولة فخطب له قرعونة بحلب - وخطبا جميعا فى معاملتها للامام المعز بحلب وحمص » :
وهكذا انضم الشام وجزء من الأناضول إلى المعز قبل أن يأتى مصر بعامين كما انضمت الجزيرة العربية قبل أن يصل مصر بأربع سنوات فلم تبق امامه إلا العراق بالإضافة إلى الخلافة العباسية وقد طوقها بهلال محكم الحلقات :

أو بزنطة وقد وضع قدما أولى بالاناضول لكن إمبراطورية بزنطة سوف لا تسقط إلا بأيدي الترك العثمانيين فى عهد محمد الفاتح :

وهكذا تمت خطة الإعداد الخارجى على أكمل وجه ، وإذا بقيت هنالك فتن هنا وهناك مع القرامطة فهذا مدخول عليه ولايزيد من أمر الدويلات

= ٨٢٠ =

البربرية الزناتية أو انتفاضات صقلية المحلية التي لم تفاق راحة الدولة
الفاطمية ولاهي بلغت مبلغا يمكن أن تؤخذ له العدة ويفرغ منه :

قال ابن عذارى :

« ولما وصلت البشارة من الشام بكسر عساكر أبي عبد الله الحسن
القرمطي (ابن طنج) المعروف بالأعصم ، انشد ابن هاني قصيدة منها :

ماشتت لاما شامت الأقدار

فأحكم فأنت الواحد القهار

الاعداد المالى :

قال المقرئى فى كتابه ((اتعاظ الحنفا)) ص ١٣٨ :

((: : واستدعى المعز يوما أبا جعفر بن حسين بن مهذب - صاحب بيت
المال : وهو بالمغرب - فوجده فى وسط القصر جالسا على صندوق وبين
يديه الوف صناديق مبددة فى صحن القصر ، فقال له المعز : ((هذه صناديق
مال وقد شد على ترتيبها . فانظرها ورتبها)) قال أبو جعفر بن حسين : ((فأخذت
أجمعها إلى أن صارت مرتبة . وبين يدي جماعة من خدام بيت المال والفراشين :
وأفقدت إليه أعلمه فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها وأن يعاق عليها ونختم
بختامه - وقال : « قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك)) وكانت جملة ما
٢٤٠٠٠٠٠ دينار - وذلك فى سنة ٣٥٧ » :

وليس هذا المال إلا بعض ماخصص من إعمادات : قال المقرئى
(ص ١٦١) قال ابن عبد الظاهر فى كتابه « الروضة البهية الزاهرة فى خطط
المعزية القاهرة » :

((فلما تحقق المعز وفاة كافور (الاخشيدي) جهز جوهرا وصحبته
العساكر - تم برز بموضع يعرف برقادة . وخرج فى أكثر من مائة ألف

فارس ، وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال - وكان المعز يخرج إلى جوهر في كل يوم ويخلو به :

وأمره أن يأخذ من بيوت الأموال ما يريد زيادة على ما أعطاه :

وهذه الاعتمادات - زيادة عن الفيض على السكان والسخرة إنما هي لجيش جوهر فقط : ولسنا نعلم مبلغ الإعتمادات اللازمة :

(١) لبناء محلات الطريق وقصورها والإنفاق على كل محطة ومرحلة :

(٢) لنفقات إعداد الرحيل وما يحتاج إليه السفر :

الباب الثالث

الرحلة الميمونة

رأينا في الباب الأول ماهى الأسباب التى من أجلها نقل المعز لدين الله الفاطمى الخلافة الفاطمية من المهديّة إلى القاهرة المعزية :

وبينا المصادر التى يمكن الاعتماد عليها حاليا . وما يمكن الاعتماد عليه منها فى القريب العاجل - إن شاء الله تعالى .

ورأينا فى الباب الثانى الاعتمادات اللازمة على اختلافها من عسكرية وسياسية ودبلوماسية ومالية وغيرها . وليس مذكّرناه منها تحديدا ولا بد : بل إن المقام لا يقتضى التوسع فأهملنا الكثير وفاتنا الأكثر : وليس الأمر إلا الماء ، ولا مزيد :

ووصلنا الباب الثالث والأخير وهو الرحلة نفسها .

فنقول قال المقرئى فى كتابه ((اتعاظ الحنفاء)) ص ١٣٨ :

(وفى سنة ٣٥٥ هـ أمر المعز بحفر الآبار فى طريق مصر ، وأن يبنى له

فى كل منزلة قصر ففعل ذلك ،) :

هذا كلام مقتضب جدا . فلم يذكر المقرئ ما هي المنازل أى المراحل التى بنيت فيها القصور ولا من تولى بناءها :

على أن المسافة بين المنصورية التى خرج منها المعز لدين الله بقاءتة فى ٢٢ شوال ٣٦١ هـ - ٧ أغسطس ٩٧٢ ، والإسكندرية التى وصلها يوم الجمعة ٢٤ شعبان ٣٦٧ هـ - ٩٧٣ م (أو ٢٥ منه) هذه المسافة هى ٢٦٠٠ كم .

وقد مر المعز باجدابية فى مشارف برقة يوم ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢ هـ . فىكون قضى من المنصورية إلى اجدابية فى برقة ٢٠٢ يوما منها ثمانية أيام باقية من شهر شوال ٣٦١ هـ وأشهر كاملة : ذوالقعدة وذوالحجة من سنة ٣٦١ هـ ، ومحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثانى من سنة ٣٦٢ هـ و ١٤ يوما من جمادى الأولى سنة ٣٦٢ هـ ، والمسافة بين المنصورية واجدابية هى ٢٠٠٠ كم فىكون معدل مسير القافلة ١٠ كم فى اليوم : ولا شك أن السرعة كانت أكثر من ذلك باعتبار طول الإقامة وقصرها حسب أهمية المنزلة المقام بها .

أما المسافة بين اجدابية والأسكندرية فهى ٦٠٠ كم تقريبا :

وقد طواها المعز بين ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢ هـ و ٢٤ شعبان ٣٦٢ فى مدة ١٠٠ يوم ولا تستغرب هذا الإبطاء فإن المسالك فى الجبل الأخضر الذى هو كله جبال عالية مشرفة على البحر وغابات كثيفة ثم صحراء مريقة ، ولا شك أن المعز قضى مدة استراحة واستجمام بالقصر السلطانى الرائع الذى بناه له ولده تميم بمدينة اجدابية التى كانت يومئذ عاصمة برقة . وقد انتهى من المفازة الصحراوية الكبرى التى طوها ١٠٠٠ كم بخليج سرت الكبير بين مصراتة واجدابية : ودخل منطقة الزياتين والغابات : فاحتاج إلى أن يستريح قليلا :

واجدابية عاصمة علم وأدب وإدارة : وبها جامع صحنون بن سعيد التنوخى الذى درس به طوال ست سنوات : وهى مركز المدرسة البرقاوية المالكية . ومنها العلامة

- ٨٢٣ -

اللغوي أبراهيم الاجداني صاحب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ وهو عالم ظهر بعد هذا التاريخ بقرن ونيف وتدل مرتبته العلمية وتصانيفه على المستوى الثقافي الذي بلغته اجداية يومئذ :

ولا يزال قصر المعزل الذي بناه له ولده تميم موجودا في حالة خراب : وقد درس دراسة سطحية نشرت في المجلة الاثرية الليبية لسنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ، ونقلت زخارفه الرائعة إلى متحف الشحات قرب البيضاء : وهو لا يزال يحتاج إلى تنقيب متواصل : ونجد في المجلة المذكورة صور الاسود المنحوتة التي كانت تزخرف أروقة هذا القصر :

كما لا يزال نرى باجداية جامع سحنون بن سعيد التنوخي زعيم المدرسة المالكية بالمغرب فلا يزال محرابه قائما وأعمدته وبيت صلاته وصحنه : وأما زخارفه المنقوشة في الحصن أوفى الحجر والتي فيها كتابات كوفية بخط الطومار لي أكبر خط عربي وعلمي (٣٣م) فإنها نقلت إلى متحف الشحات : ولم ينشر عنها شيء إلى الآن :

وقد زرت مدينة اجداية في شهر أكتوبر ١٩٦٦ واطلعت على القصر وعلى جامع سحنون وذهبت إلى متحف الشحات سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٨ وطالعت الخطوط الكوفية التي هناك ، وشاهدت مرة أخرى الزخارف المذكورة : ولم يكن لي من الوقت يومئذ ما يسمح لي بدراسة الموضوع مع أن السيد مدير المتحف أبدى رغبته الطيبة ، بارك الله فيه - في أن تسند إلى تلك المهمة . ورغبتي أنا هي أن يتولى ذلك أحد أبناء ليبيا المتخرجين من الجامعة الليبية وهم قادرون على ذلك وزيادة :

إن الحملة التي أوردناها أعلاه ثمينة جدا مع أنها متضبة : فهي لم تذكر لنا من هي الشخصية اللازمة التي كلفها المعز بالاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة والشاقة ؟ :

— ٨٣٤ —

النصوص التي بين أيدينا صامته عن ذلك ، وتأتي الآثار فتخبرنا بوضوح
وبما لا يَحتمل شكاً أنها شخصية تميم بن المعز الشاعر :

فقد نقش اسمه بجلاء فوق الأحجار التأسيسية التي عثر عليها وحفظت
بمتاحف ليبيا ولا سيما المرج ومتحف الشحات : فقد ورد فيها باتفاق شامل :
((بما أمر بعمله الأمير تميم بن المعز . . .)) :

فتميم هو صاحب الاشغال والمكلف بهذه التأسيسات التي تبلغ العشرات
ومع ذلك فالنصوص تصوره لنا شاعراً خليعاً مخلداً للذات ليس الا حتى
اضطر المعز إلى إبعاده عن الخلافة وتولية أخيه :

من الذي كتب هذه النصوص ؟

ولماذا أهملوا هذا الحادث والحوا على حوادث أخرى ثانوية الأهمية ؟

ولماذا وصلنا ديوان تميم في القسم المصري والمشرق وضاع القسمان التونسي ،
ولا سيما الليبي الذي قد يفيدنا عن أعمال تميم بالقطر الليبي الشقيق وحياته العملية
الشغيلة هناك المليئة بالاحداث والتشييد والانجاز : أليس كل ذلك إلا من أجل
مكيدة ((تأمر الصمت)) التي نسجت احبولتها لتميم والتي كان أكبر ناصحيهما
الأستاذ جوذر ؟

لكن التاريخ لا يظلم احداً ، وطال الزمان أم قصر فإن الحقيقة سوف
تظهر ويتبين الغث من السمين والصحيح من المهرج المزيف :

وإذا كنا قد عرفنا بعد مضي عشرة قرون من تأمر الصمت من هو
الذي قام بهذه الاعمال الهرقلية فقد بقي علينا أن نبحث في حفريات عن
هذه اللوحات وأن نجتمعها ، وأن نحفظها وأن ننشرها في دراسة منهجية ؟
ويجب الإبتداء بنشر ما هو موجود منها :

أما الآن فقد آن الأوان لاستعراض مآثره من المراحل التي مرت بها القافلة :

(١) ممن وماذا كانت تتركب القافلة الميمونة ؟

نعلم بعض ذلك مما أورده المقرئى ص ١٨٦ :

((:::: ودخل معه جميع من كان وفد اليه ، وجميع أولاده وإخوته وعمومه وسائر ولد المهدي وأدخل معه توابيت آبائه المهدي والقائم والمنصور)) وهذا كلام مقتضب نستطيع أن نشرحه بعض الشرح مما أورده المقرئى في ((اتعاظ الخفاء)) :

(١) اخوته (اتعاظ ١٣٢) حيدرة مات بمصر في جمادى الآخرة سنة ٣٧٢ هـ وصلى عليه العزيز بالله ، هاشم : مات بمصر في ربيع الأول سنة ٣٦٨ هـ وصلى عليه العزيز بالله :

وأما اللذان ماتا قبل الرحلة فهما : طاهر : مات في المحرم سنة ٣٥٩ هـ بالمهدية . والحسين مات بالمغرب :

(٢) أخواته وهن خمس : ثلاث ، وهن هبة وأسماء وأروى ، من بمصر أيام المعز لدين الله . وأم سلمة ماتت بمصر أيام العزيز بالله فهن قد شاركن في القافلة : وأما أخته منصوره فقد ماتت بالمغرب :

(٣) عمومته أبناء القائم بن عبيد الله .

— أبو عبد الله جعفر ومات في أيام المعز بمصر على ما يظهر : وحزه وعدنان وأبو كنانة قبضوا بالمغرب : ويوسف مات أثناء الرحلة بركة سنة ٣٦٢ هـ ، وعبد الجبار توفي بمصر سنة ٣٣٧ هـ قبل الرحلة الميمونة :

وترك القائم أربع بنات لانعلم على وجه التحقيق من ماتت منهن بمصرومن ماتت بالمغرب : اما الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا المعز على العرش الفاطمي بالمهدية فقد نقلوا في توابيت إلى القاهرة في صحبة القافلة :

وكذلك انتقل الهيكل الحكومي بأسرة مثل وزير المال (صاحب بيت المال) محمد بن الحسين بن المهذب (اتعاض ص ١٩٦) النعمان واولاده : وانتقلت القبائل البربرية من كتامة ومصمودة ، وجاءت نخبة من الشعراء والفقهاء والعلماء والمطربين والمهندسين ورجال السياسة الخ :

(٢) القافلة — قال المقرئ : ص ١٤٤ :

((: : ولما عزم على الرحيل إلى مصر اتاه بلكين بن زيري بالنى جمل من ابل زنانة وحمل له بالقصور من الذخائر وسبك الدنانير على شكل الطواحين (الطواحين ؟) جعل على كل جمل قطعتين في وسط كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة إلى الأخرى :

فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصار يقفون في الطرق لرؤية بيت المال المحمول : : :))

الفان من الإبل لحمل المال : فكم من ابل وخيل وبغال وحمير لحمل الرجال والمتاع ؟ وكم من قباب محمولة للوقاية من الحر والقر لحمل النساء ؟ لاشك أن هذه القافلة التي خرجت من المنصورية إلى سردانيا كانت تمتد من المنصورية إلى طريق السبيكة ، وأن أهل القيروان ، التي لم تكن تبعد عن المنصورية إلا ٨٠٠ م في الشمال كانوا ينظرون القافلة من المناظر والسطوح وأعلى الأسوار وأبراج باب سلم ومقبرة قريس المشرفة على المنصورية :

(٣) تاريخ الخروج — قال المقرئ : ص ١٤٤ :

((: : : وخرج المعز من المغرب يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة ٣٦١ هـ)

وهو يوافق يوم ٧ أغسطس ٩٧٢ م أى أننا فى صميم الصيف القبروانى الحار .

وفى ابران السمام المسماة بتونس (أوسو) وهى اربعون ، يوما (نصفها صيف ونصفها خريف ويبدأ النصف الثانى الذى هو الخريف التونسى الجميل يوم ١٥ أغسطس ويدوم إلى أوائل الرمان أى إلى نوفمبر بدخول الغاية وإذن فقد اختار المعز الوقت المناسب :

— ثم قال المقريزى :

((: . : وخرج من المنصورية — ومعه بلكين — إلى سردانيا)) :

والمنصورية معروفة منذ ملوكى بنى الخليفة المنصور إثر انتصاره على أبى يزيد وجعله لايبعد إلا ٨٠٠ م عن القبروان فى الجنوب منها — ويسمى الآن صبرة :

وسردانيا معروفة : وهى ليست الجزيرة الايطالية الواقعة شمال صقلية وجنوب كرسكة وإنما سميت باسم الجزيرة ذكرى لفتحها : وهى قصور أنيقة وحدائق غناء بين جبال عالية ترممها حنية تجلب الماء من الشريعة إلى القبروان على بعد ٤٠ كم : وهى غرب القبروان فى طريق سببلة على الشمال منه :

والمعز الذى كان (يقول بالقال) قصد المنصورية ثم سردانيا لأن الأولى تذكره بالانتصار والثانية بالفتح : ولأنه أراد أن يستريح وبشتم نسيم سردانيا العليل المعطر بعير الفل والياسمين والورد والقرنفل والعطر ومن يدرى ؟ لعله أراد أن تبقى له آخر ذكرى جميلة من هذه المشاهد الافريقية الرائعة :

والطريق من المنصورية إلى سردانيا غربا يمر بين مقبرة قريس في الشمال وسور القيروان وباب سلم : فتبدو القيروان ولا سيما منارة جامع عقبة والأسوار المصنوعة من الآجر والمزخرفة بشكل جميل : ثم يمر الطريق بين الحدائق والبساتين ومغارس الناز والليمون والبرقوق والخوخ والتين ومعرشات العنب . إلى أن يلاقى جبال الظهرية التونسية في الشمال ، وفي حصن تلك الجبال قد قبت سردانيا تحت قننها الرائعة : قال المقرئزي :

سَلَّمَ ((المعز)) إليه (بلكين بن زيري أبي الفتوح يوسف) أفريقية والمغرب يوم الأربعاء لتسع بقين من ذي الحجة وأمر سائر الناس له بالسمع والطاعة : وفوض إليه أمور البلاد ، ما خلا جزيرة صقلية ، فإنه ترك أمرها لحسن ابن علي بن أبي الحسين وطرابلس وأعمالها » :

وقد رأينا ذلك فيما سبق وبيننا أسبابه ، فيما سلف .

ثم إن المعز أوصى بلكين بما يلي :

قال المقرئزي : ((إن نسيت ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء ، إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوانك وبنى عمك فلمهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . وافعل مع أهل الحاضرة خيرا)) :

وإذا أمعنا النظر في تاريخ خروج المعز من المنصورية — ٢٢ شوال ، وتاريخ خروجه من سردانيا — ٢١ ذي الحجة — نجده قضى هناك شهرين — من ٧ أغسطس إلى أوائل أكتوبر يقضى محارق (أوسو) وينتظر أمطار الخريف لتوفير المساء والعشب وتبريد الجو :

وتوجه المعز في الطريق السلطاني فمر بصفاقس وسكت المؤرخون — فيما نعلم — عن وصوله ومقامه بعاصمة الجنوب التونسي لكننا نجد نصبا عن وصوله ومقامه بقابس .

(٤) مرحلة قابس (٤٠٤ كم) عن تونس في الجنوب على خليج قابس وسط
واحة من النخيل وبها الأمراء من بنى ميمون ولهم قصور قرب مقام الصاحب
أبي لبابة رضى الله عنه وبها مناذة منها ساحة عنبروعين سلام. فيحسن المقام بها.
قال المقرئى (ص ١٨٤) .

(وفى شهر ربيع الآخر ٣٦٢ هـ تواترت الأخبار بمسير المعز إلى مصر :
وورد كتابة من قابس : فتأهب جوهر لذلك : واخذ فى عمارة القصر والزيادة
فيه) :

واذا اعتبرنا هذا التاريخ - الخروج ٢١ ذوالحجة - وصول الخبر من
قابس ربيع الآخر فقد انقضت مدة أربعة أشهر . ولنحذف منها مدة شهرين
لابد منها لوصول البريد من قابس فيكون قضى المعز بين سردانيا وصفافس
وقابس رحلة وإقامة شهرين كاملين فدخل طرابلس فى صميم الشتاء (ديسمبر)
وهذا لا يهم لأن شتاء طرابلس وطريق سرت لطيف دافئ جميل :

ويبدو أن المعز لم يطل المقام بطرابلس ولا بالطريق إلى سرت وإجدابية :
ولا نعرف شيئا عن مقامه بطرابلس - فيما نذكر وبلغ علمنا على الأقل :
ولا نعرف كثيرا عن مقامه بمدينة الخمس قرب لبسة المدينة الرومانية
الخالدة :

ولكنه قطع هذه المسافة من مسراطة إلى اجدابية - وهى صحراء -
فى مثل السهم :

(٥) مقامه باجدابية - فقد بلغ اجدابية حتى تحدثنا عنها يوم الاثنين ١٤ جمادى
الأولى سنة ٣٦٢ هـ ، ونزل بقصره خارج برقة .

فقد مضت ثلاثة أشهر من خروجه من قابس لأن خبر إقامته بقابس وصل القاهرة في ربيع الآخر والوصول كان في جمادى الأولى : وقد قضى البريد شهرين في الطريق ويضاف إليها شهر ربيع فتكون خلتها ثلاثة أشهر :

واستراح المعز بقصر إجدابية الكسرواني الذي بناه تميم وزخرفه بالنقوش والأسود المنحوتة وخطوط الطومار مما نقلت آثاره إلى متحف الشحات . ولا يزال القصر موجودا يشهد بعظمة الفاطميين :

ووجب أن يستريح المعز بعد اجتياز ما يقرب من ٨٠٠ كم من الصحراء : ثم انتقل إلى برنيق وسط غابات الزيتون والتين ومزارع الحبوب ومراعي الغنم التي اشتهرت بها برقة :

وبرنيق مدينة مشهورة هي مدينة بنغازي اليوم تقع بين بحيرة وبحر وسط واحة من البساتين والنخيل وهي تبعد ١٧٠ كم في الشمال الشرقي من إجدابية : وليست لنا وثائق عن إقامة المعز ببرنيق التي كانت عاصمة :

(٦) برقة — ومنها انتقل إلى المسرح أو مدينة برقة في الجبل الأخضر : قال المقرئزي (ص ١٨٤) :

(وفي أول رجب ٣٦٢ هـ كدت جوهر الناس للقاء المعز : فتأهبوا لذلك . وخرج أبوطاهر القاضي : وسائر الشهود والفقهاء ووجوه التجار إلى الحيزة مبرزين للقاء المعز : فأقاموا بها أربعين يوما حتى ورد الكتاب بوصول المعز إلى برقة)) :

ومر المعز بالبيضاء والشحات وسوسة ودرنة وطبرق : وهو يواصل السير حتى اجتاز الحدود الليبية المصرية :

(٨) الوصول إلى الإسكندرية :

قال المقرئزي : ((ولخمس بقين من شعبان ٣٦٢ هـ ورد الخبر بوصول المعز إلى الإسكندرية ولقية أبوطاهر القاضي ومن معه . فخاطبهم بخطاب طويل .

— ٨٣١ —

وأخبرهم أنه لم يسر لزيادة في ملك ولا رجال ولا سار إلا رغبة في الجهاد ،
ونصرة للمسلمين وخلع على القاضي وأجازه وحمله :

ولقية أبو جعفر مسلم في جماعة الأشراف ومعهم وجوه البلد بنواحي محلة
حفص : وترجلوا له كلهم : وكان سائراً فوقف :

وتقدم إليه أولاً أبو جعفر مسلم ، ثم الناس على طبقاتهم ، وقبلوا له
الأرض وهو واقف : حتى فرغ الناس من السلام عليه :

ثم سار وسأله أبو جعفر مسلم — وهو يحاذيه — وسأل عن الأشراف .
فتقدم إليه أكابرهم : ، ثم عزم على الشريف مسلم وأمره بركوب قبة
لان الحر كان شديداً وكان الصوم فقدمت إليه قبة محلاة على ناقة ، وعادله
غلام له :))

(٩) الوصول إلى الجزيرة . تم قال المقرئ : « ونزل المعز إلى الجزيرة » وقال
ص ١٨٦ ونزل المعز إلى الجزيرة فخرج إليه جماعة من بقي : وعقد جوهر جسر
الجزيرة وعقد جسراً آخر عند المختار بالجزيرة حتى سار عليه إلى القسطنطينية ثم إلى
القاهرة : وزينت له القسطنطينية فلم يشقها :

(١٠) الوصول إلى القاهرة : وصل القاهرة الثلاثاء لبع خلون من شهر
رمضان ٣٦٢ هـ — ودخل القصر الذي أعده له جوهر في نفس اليوم :
قال ابن زولاق :

ولما وصل المعز إلى قصره خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل
من دخل معه واستقر في قصره بأولاده وحشمة وخواص عبيده : والقصر
يومئذ مشتمل على ما فيه من عبيد وورق وجوهر وحلي وفرش وأوان وثياب

— ٨٣٢ —

وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم ، وبيت المال بحاله بما فيه. وفيه جميع ما يكون للملوك» إلى هنا بلغنا خاتمة المطاف تاركين لحضرات الباحثين المجال فسيحاً ليدرسوا مانع عن الرحلة الميمونة من نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية فقد كانت قافلة المعز تشمل العلماء كما تشمل الجنود وتشمل الشعراء كما تشمل الأمراء وتشمل المعارين كما تشمل القضاة والمفكرين ، وتشمل الفنانين كما تشمل التقنيين فالبحث عن وجوه هذه البعث فسيح المجال وفيما أوردناه كفاية الفروع واستحقاق للولوع وفوق كل ذي علم عليم :

جمال الدين الأفغاني في القاهرة

للاستاذ الدكتور عثمان أمين

جمال الدين الافغانى فى القاهرة

للاستاذ الدكتور عثمان أمين

رائد التحرير :

جمال الدين الافغانى شخصية من ألمع الشخصيات الشرقية ، فهو علم من
أعلام النهضة الفكرية الحديثة، وزعيم روحى شرقى ، ومصلح اجتماعى عصرى
وداعية سياسى ثورى :

اجتمعت له مواهب عقلية نادرة وصفات أخلاقية عالية جعلت لشخصيته
مغناطيسية تجذب النفوس : فهو باعتراف الجميع كاتب مبدع وخطيب بليغ
ومجادل مقنع ومتحدث بارع . وهو أيضا كما وصفه تلميذه الإمام محمد عبده :
سلم القلب ، حاذ المزاج ، شديد العزم ، شجاع مقدام ، كثير البذل ، قوى
الاعتماد على الله لا يبالى بصروف الزمان ، قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن
الغرور بمناصبها وزخرفها راغب عن المسادة متعفف عن لذات الحس ، مؤثر لمنع
الروح كلف لمباهج المعسرفة لم يتزوج وأبى أن يعلق قلبه بالمسأل أو البنين
أو الرتب والمناصب وإنما أراد أن يقضى حياته حراً طليقا كالهواء أو كالطير
على الغصون أو كالليث لا يعدم فريسة أينما ذهب « كما وصف هو نفسه » :
ولد السيد جمال الدين الإفغانى فى قرية « أسعد أباد » من قرى كثر من أعمال

مكاوول فى أفغانستان وأبوہ « صفتر » من سادات الأفغانين ينتسب إلى السيد على الترميذى المحدث الذى يرقى نسبه إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب وقد كانت أسرة جمال الدين ذات بأس وقوة ومكانة فى أفغانستان .

وقد تنافس كتاب الشرقين فى نسبة جمال الدين إلى بلادهم فذهب بعض الإيرانيين إلى أنه إيراني ولد فى « أسعد أباد » بإيران وحاول بعض الأتراك أن يثبتوا أنه من أصل تركى وأنه ولد فى أزربيجان كما ذهب بعض الهنود إلى أنه نشأ فى قرية « شيرون » فى بلاد الهند فترجمت إلى « أسعد أباد » لأسباب دبلوماسية .

ويحلون لنا بصدد اختلاف الأقوال فى نسبة جمال الدين إلى الأفغان أن تقول ماقاله « دالا ميسير » بصدد نزاع من هذا القبيل : أن الرجال الممتازين ينتسبون فى الحقيقة إلى القرية وإلى الأمة التى تفاخر بهم : أنهم قليل عددهم وقد ألفت بهم المقادير على سطح الأرض . فليسوا زينة ولا قنية لأحد بل هم أفذاذ من النوع الإنسانى الذى لاسبيل إلى تعريفه » :

والحق أنه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به ، وإنما عاش منذ طفولته سائحاً جواباً ، فكان وطنه الشرق كله : أقام بالأفغان وفارس والهند والعراق وزار بلاد العرب وتركيا وسافر إلى كثير من عواصم أوروبا وقيل أيضاً أنه زار « أمريكا » وكتب فى الصحف الشرقية والعربية وخطب فى المحافل والمجامع العربية والأوربية ، وخالط رجال العلم والدين والادب والسياسة ، فى الشرق والمغرب

ولقد ترك الزعيم الأفغانى فى نفس المفكر الفرنسى رينان انطباعاً قوياً أشار إليه « رينان » فى مايوسنة ١٨٨٣ بقوله : « كنت أتحدث اليه (أى إلى الأفغانى)

فكان ينجّل إلى من حرية فكره ونبالة طبعه وإخلاص قلبه اننى أرى وجهها
لوجه أحد معارف القدماء وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أولئك
الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانسانى . «ذلك
جمال الدين الأفغانى فى رأى «رينان» :

ولايتسع المقام لاستيفاء تاريخ ذلك النابغة الأفغانى الذى أختلفت فيه
الأقوال وحارت فى فهمه العقول . حتى قال فيه الكاتب الفرنسى « روشفور » :
السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبي ويكاد هو نفسه أن يكون نبيا :
فبينما يراه رنان فيلسوفا كبيرا ومفكرا دينيا متحررا يراه روشفور من كبار دعاة
الأديان وقريبا من طبقة الأنبياء :

كان هذ الرجل ذو العبقرية القذة رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر
الشعوب الشرقية كما قال ولفرد بلنت فقد جذبت اليه قوة شخصيته وسحرها
فى القاهرة وفى استانبول قبلها جماعه من الشباب المتحمسين كان فى وسعه أن
يلدغ بينهم فى غير ماتحفظ ذخيرة معارفه المتنوعة ويوليهم قبسا من روحه
النافذة ، ويبث فيهم شيئا من شجاعته النادرة . والواقع أنه كان لابد للانسان
فى ذلك العصر من أن يكون ذا حظ عظيم من الشجاعة حتى يعبر عن آرائه
فى حرية : فلم يكن الحسديو أ سماعيل يطبق أى معارضة وكانت السلطات
الدينية العليا — التى لاذت بالصمت أزاء المظالم عهدا طويلا — قد استكانت
إلى تلك الحال وأيدتها بالسمع والطاعة ٥

فى تلك الظلمه الحالكة التى أطبقت على الحياة الأخلاقية والعقلية فى القاهرة
فى ذلك الحين انبثت تعاليم جمال الدين الحرثة كبريق يأخذ بالأبصار ٥

الأفغانى وتلاميذه فى القاهرة :

التف حول جمال الدين صفوة القوم فى القاهرة، ونشط الأفغانى لبث تعاليمه الحرة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل ، وأخذ يقرأ لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة فى الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع ، فكان ذلك فتحا فى موضوعات التعليم — ومن المحقق أن جمال الدين كان يفيض قوة ذاتية وسحرا فطريا : فاستطاع أن ينفخ من روحه فى تلاميذه كما قال جرجى زيدان : « ففتحوا أعينهم وإذا هم فى ظلمة وقد جاءهم النور فاقبسوا منه ، فضلا منه ، العلم والفلسفة ، روحانيه أرتهم حالهم كما هى ، إذ تمزقت فى عقولهم حجب الأوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية :

قدم السيد الأفغانى إلى القاهرة للمرة الأولى سنة ١٨٦٩ وكانت شهرته قد سبقته إلى هذه البلاد : ولما سمع الشيخ محمد بمقدم ذلك النابغة الكبير ذهب لزيارته فى صحبة الشيخ حسن الطويل الذى كان أستاذا للمنطق فى الأزهر : وتحدث السيد جمال الدين الأفغانى إلى زائريه أحاديث طلية طريقة فى تفسير القرآن وفى التصوف الإسلامى فكانت شخصيته تخلب الباب سامعيه : ولما عاد جمال الدين إلى القاهرة للمرة الثانية سنة ١٨٧١ بادر محمد عبده إلى لقائه وتلمذ له وأصبح يلزمه كظله ووجد الشاب المصرى عند السيد الأفغانى روحا جديدة غير مألوقة لدى شيوخ الأزهر : وجد عنده مذهباً فلسفياً واحداً ونظرة إلى الحياة عميقة وصورة عن الكون منظمة ، وبالإجمال وجد عنده تلك الفلسفة المنسقة الشاملة التى تتناول مجالى النظر والعمل وتشمل الله والعالم والإنسان : وكان طبيعياً — وقد اتصل الشاب الأزهرى بتلك الشخصية الجذابة القوية — أن يفتن بها وأن ينساق إلى الطريق التى رسمتها له : فلا بدع

إذن أن ترى محمد عبده الذى كان يناصر فى كتاب العقيدة المحمدية « آراء
السنيين والأشاعرة - وهم يمثلون حزب المحافظين فى الإسلام - لا يتردد
الآن فى التحول عن تلك الطريق وإذا به فى كتاب « الحاشية على شرح
العقائد النسفية » ينقلب مناصرا للمعتزلة والعقليين وجميع النظائر من الأحرار
والمتسبحين : ولا بدع أيضا أن ينصرف الشاب الصوفى عن ممارسة الزهد
واعتزل الناس وأن يأخذ فى تذوق الحياة العاملة مقتديا بأستاذه جمال الدين
وأن يقبل على دراسة العلوم المختلفة التى خلعت منها مناهج التدريس فى الأزهر
كالفلسفة ، وعلم الكلام ، والرياضيات ، والأخلاق ، والسياسة : وقضى
محمد عبده فى صحبة جمال الدين شهورا يحيا حياة الفكر والروح وهو متهيج متحمس
نشوان متعطش إلى ارتشاف المعرفة من يد يناييعها الصافية متشوق إلى شهود
العهد الميمون الذى تتحقق فيه مثل الحق والخير والجمال : ولم يفته أن يسجل
فى نعمة صوفية سارة اعجابه بأستاذه وحماسته له : فن ذلك ما كتبه فى نسخة
نقلها بخطه من كتاب قديم حيث قال فى خاتمتها : « وكان الفراغ من قراءته
وتقريره عند لسان الحق وقائد الخلق إلى جانب الحق خلاصة من تجلس بالحكمة
ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والعمه محى الحق والدين استاذنا السيد
جمال الدين » ثم هو لا يتردد فى اعلان حماسة تلك لأستاذه فى باكورة مصنفاته :
نجدته يتحدث عن الأفغانى سنة ١٨٧٤ فى بداية « رسالة الواردات » فيصفه بصفى
« الحكيم الكامل والحق القائم » :

الأفغانى والمحفل الماسونى فى القاهرة :

لما كان جمال الدين ميالا بفطرته إلى السياسة عالميا فى دقائقها ، فقد نظر
فى حال مصر نظر المدقق الحكيم ورأى ما آلت إليه من تدخل الأجنبي وتفاقم أمره
يوما فيوم فعلم أنه لا بد من تغيير أحوالها وكان قد انتظم فى سلك الجمعية الماسونية :

وكان المحفل الماسونى — فى ذلك الوقت يجذب تبادل الأفكار بين الرجال الواقفين على دخائل السياسة وينشئ بينهم رابطة من التضامن والتعاون :

وأول نقد وجهه جمال الدين إلى المحفل الماسونى بالقاهرة رده على قول أحد الأعضاء بأن الماسونية لا تدخل لها فى السياسة ، وأنه يخشى على المحفل من بأس الحكومة وبطشها ، ونهض جمال الدين : وقال :

كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الحيد يمكن يدخل بين اسطوائى المحافل الماسونية : إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لاتستعمل لهدم الفاسد ولتشيد معالم حرية صحيحة و إخاء ومساواة ولذلك صروح الظلم والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة : ثم قال : « أول ما شوقنى لأنضم إلى البنائين الأحرار شعاً كبير خطير يدعو إلى الحرية ، المساواة ، الأخاء ، ويعمل على تقدير كرامة وأقامة ميزان العدل » فارتسم فى ذهنى معنى للماسونية هو همة للعمل وعزة نفس وشتم وبذل الحياة فى سبيل مثل أعلى هو نصرة المظلوم ومقاومة الظالم ولكن مع الأسف أرى أن جرائم الأثرة والأنانية وحب الرياسة وانسياق الجماعات إلى العمل إرضاء لشهواتها وجنبا للمنافع الخاصة وغير ذلك من الأمور التى قامت الماسونية الحرة للقضاء عليها مازالت متفشية بين أعضائها :

ثم قال فى ذلك المحفل أيضا ردا على خطاب لأحدهم : « أنتم اليوم بين رئيس ومروءس ، تابع ومتبوع ، مال يجمع ، وجزية للشرق تؤدى ، وليس من عمل يدل على أدنى أثر من الحياة الماسونية فى الشرق : »

ولما يئس جمال الدين من المحفل الماسونى الإسكتلندى أنشأ محفلا وطنياً جديدا قسمه شعبا ، شعبة مهمتها مراقبة الشئون العسكرية لمطالبة « ناظر

الجهادية » بإنصاف الضباط الوطنيين الذين تجاوزوا في الخدمة بالسودان الحد الذى تستوجه القوانين ، وشعبة ثانية للحقانية ، وثالثة للمالية وأخرى للأشغال :

وبقية الوزارات والمصالح الحكومية مهمتها المحافظة على حقوق المواطنين الوطنيين ومساواتهم بغير المصريين ممن كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة ، وهال الأمر الخديوى توفيق ، فطلب مقابلة جمال الدين ، فذهب إليه بعد ملاحظة أيام : وقال الخديوى لجمال الدين : « إننى أحب كل خير للمصريين ويسرنى أن أراهم فى أعلى درجات الرقى ولكن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلتقى عليه ماتلقونه من الدروس والأحوال المثيرة للنفوس فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة : فأجابه جمال الدين « ليسمح لى سمو الخديو أن أقول فى حرية وإخلاص أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه ليس محروما من وجود العالم والعاقل : فالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم . فان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد حكماً صورياً ، وأمرتم بإجراء انتخاب نواب من الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وإرادتكم كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » وبالطبع غضب الخديوى أشد الغضب على السيد جمال الدين ولكنه لم يظهر له شيئاً ، وأسرها فى نفسه :

الأفغانى المصلح الدينى والسياسى :

كان جمال الدين رائداً لحركة تحرير دينى وسياسى ، كان يرى أن أساس حركة الإصلاح الدينى هى الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية ، والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجده ، ولا لتخلص من ذل ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة بالدالة على

فساد آخر الزمان فيما حملهم على عدم السعى وراء الإصلاح والنجاح فلا بد من بث العقائد الدينية الحقبة بين أفراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح، لكي تقودهم لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة :

ولذلك دعا جمال الدين المستنيرين من المسلمين إلى النظر في حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نموا طبيعيا وأن يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية .

وما من قطر من أقطار الشرق إلا أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره في مصر : فهو من أول العاملين على تطور الروح الوطني في هذه البلاد وقد نسب إليه — بحسب الدور التاريخي — « أبو القومية » وقد استطاع الرجل بخطبه الملهبة أن يبث في النفوس نزوعا إلى الحرية ، ورغبة في العدالة ، خطب مرة قبل خلع الخديوي اسماعيل فقال : أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ماتسد به الرمي وثقوم بأود العيال : فلماذا لاتشق قلب ظالمك ؟ لماذا لاتشق قلب الدين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس ، وتنبيه الحكوميين إلى حقوقهم قبل الحاكمين : فاتجه الناس إلى نقد تصرفات أصحاب السلطان وأخذت تنضائل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شئون الرعية ، وكذلك بذل جمال الدين جهدا كبيرا في تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب في شئونهم وطفق يخاطبهم مستثيرا فيهم معاني العزة القومية ، ومما قاله مرة في خطاب له : « لو كان في عروقكم دم ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر ، فتثير الشعور والحمية ، لما رضيت بهذا الذل ، ولما قعدتم على القضاء وأنتم تضحكون : تناوبتكم أيدي الغزاة من كل جنس ، وأنتم كقطع الصخر الملقاة في الفلاة ، لاصوت لهم ولا حس ،

وعلى أثر ذلك أخذت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور وأخذ الوطنيون يطالبون الخديوى بإنشاء مجلس نيابي وبدأ الخديوى وكأنه مرحب بهذه المطالب فانبرى جمال الدين محمداً الوطنيين من الإستنانه للوعود المعسولة وقال : « أيها الاخوان : أن القوة الوطنية لأى أمة لا يمكن أن تحوز معناها الحقيقي إلا إذا كانت نابعة من نفس الأمة : وأى مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محرقة لهما فثقوا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها : : : فأى مجلس نيابي يقوم على إرادة خارجة عن إرادة الأمة - مثل هذا المجلس لا قيمة له ولن يعيش طويلا ولا ترجى منه للأمة فائدة .

ثم قال ضاحكا ضحكة متألم : « سترون أن الذى سيكون نائبا عن شعب قد سلبت حريته وابتلى بما ابتلى به هو ذلك الذى كان آلة حماد بيد القوة التى عملت على وصول وطنه ومواطنيه إلى ما وصلوا اليه من بؤس وهو أن نائبيكم سيكون : : هو ذلك الوجه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه وذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ذلك الرجل الذى لا يستطيع مواجهة الحاكم الظالم بأى حجة ولو كانت من الحجج الساطعة ، وذلك الرجل الذى يرى فى إرادة القوة الحائرة كل خير وحكمة ويرى فى كل دفاع عن وطنه وفى كل محاولة لرد الاعتداء قلة أدب وسوء تدبير .

وما لبث الوطنيون أن تأثروا بأفكار جمال الدين وما بينه فيهم من النفور من السياسة البريطانية فى مصر وقد ترجمت أقوال السيد وأرسلت إلى جرائد إنجلترا : وبلغ من اهتمامهم بها هناك أن تولى « جلاد ستون » رئيس الوزارة البريطانية أمر مناقشتها . وداخل الخوف مستر « فايفانى » قنصل إنجلترا اذ ذاك فجمع عن طريق من بثه من الرقباء والجواسيس ما أُرهب به الخديوى الذى

كانت في نفسه أشياء من جمال الدين اذ لم ينس ما سمعه منه شخصيا في المقابلة التي أشرنا اليها فأصدر أمره باخراج السيد جمال الدين من مصر فغادرها سنة ١٨٧٩ هـ

معارضة جمال الدين والطعن فيه :

كان طبيعيا أن يثير موقف جمال الدين معارضة له ويخطأ عليه من كل صوب : من رجال الدين المحافظين الذين أخذوا بتقولون عليه ويرتابون في تعاليمه بدعوى أنها خطر على العقيدة ، وكذلك من أحكام المستبدين ومن الأجانب الطامعين ، وكانت أحوال مصر السياسية والمالية قد ساءت مما أدى إلى التدخل الأوربي في شئوننا بحجة « المراقبة الثنائية » من إنجلترا وفرنسا ثم إلى عزل الخديو إسماعيل نتيجة بذخه وطغيانه : وكان توفيق قبل ارتقائه إلى العرش قد عاهد جمال الدين الأفغانى وأصحابه الأحرار على تأييدهم في مطالبهم الإصلاحية . ولكن سرعان ما تنكر لهم حين آل الحكم إليه وانتهى به الأمر إلى أبعاد السيد جمال الدين عن مصر ، كما سبق أن بينا — ارضاء لنصيحة من الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يخشون إقامة حكم نيابى في البلاد :

كثرت الاقاويل والمفتريات التي روجها المغرضون بقصد أن يحجبوا أنظار الجمهور عن الشخصية الحقيقية للسيد جمال الدين ، شخصية المفكر المصلح الذى لم يكن يبغي من دعوته إلا استنهاض العالم الاسلامى الذى قضى عليه بالعجز والعقم نتيجة تحبط المحترفين من رجال الدين والحكام السياسيين : ومن قبل المفتريات البليدة التي وجهت للطعن في شخصية جمال الدين وريقات نشرت في القاهرة بعنوان : « تحذير الأمم من كتب العجم » كلها تجريح وقح ، ونهجم رخيص لا شئ إلا أنه اعتنق قضية الفكر الحر والثورة على الفساد أيا كان وحيثما كان : حتى قيل فيه أنه كان يتناول السوط بيمنائه ويوزع الثورة بيسراه !

أشرنا فيما سبق إلى أثر جمال الدين في الإصلاح السياسي ، وليس هنالك شك في أن لجمال الدين يدا في الحركة العراقية : ومن المحقق أن المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسه كما قال شكيب ارسلان : « وأن كان هب على ذلك الزرع من شوم الجهل ، ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس السياسية ، ماصوح نصرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق ، أو حركة إصلاح تشفق من وراءها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق أعوان الاستعمار : »

على أن جمال الدين قد عرف بالدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » التي ترمي إلى اتحاد جميع الشعوب التي تعيش في كنف الإسلام لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبي : وقد كان السيد يقول في هذا الصدد : أن الدول الغربية تنتحل الأعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقولها : « أن الممالك الإسلامية هذه ، إنما هي من الانحطاط والمهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها في حين أن تلك الدول عنها لاتكف عن التذرع بألوف الذرائع حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على حركة النهضة والإصلاح في البلاد الإسلامية : ومن ثم يجب على العالم الإسلامي أن يتحد في حلق دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء » :

غير أن جمال الدين لم يكن يعنى بالجامعة الإسلامية إحلال قومية الدين محل قومية القطر ، وإنما كان يرغب في أن تتحد جميع الاقطار الإسلامية مع استقلال كل منها عن الآخر إلى هدف واحد هو التحرير السياسي : ومن أجل النهوض بالوطن الافغانى أو المصرى أو التركى أو الفارسى : كان يعمل على نهضة الإسلام الذي يتغلغل في الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار

الإسلامية المختلفة. على أن عبء النهوض بمهمة الإصلاح الديني ميقع في صميمه على عاتق تلميذه الغيور محمد عبده الذي سيكون « لوثر » الشرق حقا .

ولكننا نعتقد أن الجامعة الإسلامية التي اشتهر جمال الدين بالدعوة إليها لم تكن إلا تمهيدا لتحقيق جامعة أوسع هي ما يمكن أن نسميها « بالجامعة الشرقية » فهو قد رأى في الشرق تخلفا ناشئا عن ضعف الإرادة والخلل القومي وتفرق الكلمة والاستسلام والتخاذل ، ورأى في الغرب تقدما ماديا عقليا وروح تعصب على الشرق وعدوانا على بلاده وسعيا إلى شعوبه بحجة ضعف الشرق عن أن يكون قواما على شئون نفسه : فسعى سعيا حثيثا لجمع شتات أهل الشرق وتوحيد كلمتهم وإيقاظ همهم للذود عن كياناتهم والخللاص من الخطر المهدق بهم: ورأى أن السبيل إلى ذلك أن يسعى كل ملك أو أمير في الشرق إلى ترقية شعبه وتحصينه بالحكم الدستوري ووقفه على التقدم الغربي وتقويته للتتحالف على الإتحاد مع الأمم الشرقية الأخرى لتلتقي جهود الجميع عند الغرض المشترك وهو التحرر السياسي :

وقد كان الشرق هو الهم الأكبر لجمال الدين الأفغاني يهتف باسمه ولا ينقطع عن ذكره ليله ونهاره :

روى المخزومي باشا أن الأفغاني كثيرا ما كان يقول : « الشرق الشرق لقد أمضيت فكري لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء أنقسام أهليه وتشتيت أرائهم واختلافهم على الإتحاد واتحادهم على الاختلاف . فقد أتفقوا على ألا يتفقوا ولا تقوم على هذا لقوم قائمة :

والحق أن قدوم السيد جمال الدين إلى مصر كان مبدء النهضة الفكرية والسياسية التي نشهدا الآن في البلاد والتي نراها في رؤساء البلاد الأفريقية

— ٨٤٧ —

الآسيوية رامية إلى اكتناه أسرار القوة الغربية وإعادة الشرق سيرته الأولى من العلم والمدنية .

وما أحسب الجامعة الشرقية التي دعا إليها جمال الدين لإلا جامعة المستقبل ،
وما أحسب إلا أننا سائرون في طريقها لأنها مناط أمل الشرق في دفع مطامع الغرب :

ونعتقد أن خير ما يصور شخصية الأفغاني في طموحه وأبائه وحقيقة الرسالة التي اضطلع بعبثها طول حياته والتي أراد أن يرسمها تلاميذه من بعده هو ذلك المعنى الذي عبر عنه الشاعر حين قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

عرض من الأسس الاجتماعية والإقتصادية التي قامت عليها جماعة العلماء في القرن الثامن عشر

دكتورة

عفاف لطفى السيد

ملخص

عرض من الأسس الاجتماعية والاقتصادية التي قامت عليها جماعة العلماء في القرن الثامن عشر

دكتورة
عفاف لطفي السيد

ملخص

أن جماعة العلماء باعتبارها عنصراً هاماً في السياق الاجتماعي والاقتصادي للحياة في القرن الثامن عشر ، أنما تستحق أن تفرد لها دراسة مهتدية بهذا الضوء .
ولسوف تكشف هذه الدراسة عن جوانب ذات قيمة كبيرة في مجالات المعاملات الاقتصادية والمالية في ذلك العصر : ولهذا فإن مصدر الدخل لجماعة العلماء واستثماراتهم ، هو أمر يعد مجالا شيقا من مجالات الدراسة التي لا يستطيع المرء إيفاءها حقها في هذا البحث .

ويعمدنا عبد الرحمن الجبرتي^١ بتفصيلات لمصادر الدخل لدى كثير من كبار علماء عصره ، ولقد ركزت الضوء في هذا البحث على أربعة من أبرزهم ، هم الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر والشيخ المهدي والشيخ السادات والشيخ البكري^٢ وقد عرفنا من الجبرتي ومن غيره من المصادر أن كبار العلماء الذين لم يكونوا يتلقون أي رواتب لقاء ما يقومون به من تدريس ، كانوا مع ذلك يحصلون على مرتبات من مصادر رسمية ، كبيت المال أو الأموال الموقوفة على المدن المقدسة ؛ وإن كانوا قد اعتمدوا بصفة عامة على الأوقاف باعتبارها المصدر

الرئيسى للدخل . وكان هذان الموردان بطبيعة الامر يتركزان فى أيدي الممالك
مثلا كان الوضع بالنسبة لمنح أحتيات الإلتزام : ولذلك فإن المرء يستطيع
فى نهاية الأمر أن يقول إن العلماء كانوا معتمدين على ولاية الممالك ورعايتهم :
ومن ناحية أخرى كان الممالك يعتمدون على العلماء باعتبارهم حلقة الوصل
بينهم وبين مجموع السكان : ومع اطراد ضعف سلطان الممالك فى آواخر
القرن الثامن عشر ، وازدياد حاجتهم للتأييد الشعبى ، نجد أنهم ضاعفوا ما كانوا
يغدقونه من أموال على « العلماء » :

ونستطيع أن نرى صورة أشد دقة لختلف الدخول المالية حين نبحث
الوقفيات التى حددها العلماء ، مثل تلك التى أعدها محمد البكرى فى عام
١٧٧٩ م (١١٩٣ هـ) : وتحدد هذه الوقفية ممتلكاته ، وتطلعنا على تفاصيل
رواتبه ومصادرها :

ونحن نلاحظ فى الختام أن كبار « العلماء » — شأنهم شأن أغلب القاهريين
قد استثمروا أموالهم فى الضياع الزراعية أول الأمر ، ثم امتد نشاطهم إلى
الحوانيت والوكالات والحمامات الخ ، وانعطفوا أخيرا إلى ميدان التجارة :
أما من كانوا يتمتعون بحثية كبيرة أو كانوا ذوى أصول ريفية فقد حصلوا
على الترامات ، وأن كانت الإستثمارات فى مجال الأراضى فى القرن الثامن
عشر تعد من قبيل المجازفة إلا لمن كان ذا سلطان : واستمر هذا الوضع القلق
بضع سنين فى القرن التاسع عشر إلى أن أقر سعيد بالملكية الخاصة للأراضى :

قاهرة الناصر خسرو

فرانشيسكو جابرييللي

ملخص

قاهرة الناصر خسرو

فرانشيسكو جابريللي

ملخص

إن نشر « السفرنامه » وترجمتها الفرنسية بقلم « شارل شيفر » — على الرغم من عيوبهما — قد قربا إلى الأذهان ، منذ نهاية القرن الماضي ، ذلك السفر الفريد الصادر في منتصف القرن الحادى عشر (القرن الخامس للهجرة) والذي يرسم صورة حية لجزء متراعى الأطراف من العالم الاسلامى فى ذلك العهد ، والذي يهمنى الآن من كتاب رحلة الناصر خسرو هو وصفه للقاهرة التى أقام فيها مدة سنة ، فقدم لنا عنها صوراً رائعة وتفاصيلاً طريفة ، فى مذكرات بنت الساعة ، كتبت بأسلوب عتيق خشن يتجاهل قواعد اللغة :

ونرى فى هذا الوصف — وهو من أقدم ما لدينا عن هذه الحاضرة الإسلامية — مدينتى « مصر » (فسطاط عمرو والقديمة مع ما أضافه اليها العباسيون والطولونيون) ، والقاهرة مقر الفاطميين الجديد ، مستقلة كل منها عن الأخرى ، وكل منهما موضع ملاحظات مختلفة كل الاختلاف : يبدأ المؤلف بوصف عاصمة الخلافة الجديدة ، بدور أمرائها ، وقصور الخليفة القسائمة فى أماكن منعزلة فى حماية الحرس الإمبراطورى ، والمباني الأخرى المخصصة للسراة ، كل مبنى بعيد عن الآخر ومحاط بجدران ، والمساجد الرئيسية الأربعة (وفى طليعتها

الأزهر) ، ومجموعة الدكاكين المملوكة للحاكم والمؤجرة لذوى الحرف ،
ويلى ذلك صفحات معروفة عن الخليج ، والاحتفال بوفاء النيل وما يصحبه
من استعراض للجيش فى حضور الخليفة الشاب المستنصر وهو حليق الرأس ،
مرتديا ملابس عادية ، رغم الأبهة المتجلية فى موكبه :

وتعالج فقرة أخرى من الكتاب وصف المدينة القديمة ، مدينة مصر قبل
الفاطميين بجوامعها السبعة ، التى إذا ما أضيفت إلى جوامع القاهرة الأربعة ،
جعلت للمدينتين خمسة عشر جامعاً — على حد قول الناصر الذى يهزأ بقواعد الجمع —
وأولها جامع ابن طولون محاطاً بأسواره الجبارة ، ثم جامع عمرو بجدرانها
المكسوة بالرخام الفاخر وشمعدانه الفضى العملاق بمصابيح السبعائة ، وهو
يعج بالأساتذة والطلبة والمقرئين والكتبة الذين يحرقون الحجج والعقود ،
وبالقرب من جامع عمرو يقع سوق القناديل المتخيم بالسلع والمنتجات النادرة
النفيسة التى يستعرضها المؤلف ويعدددها بما طبع عليه من حب الاستطلاع ،
فيبدى إعجابه بما تحويه أسواق القاهرة من مختلف الأعشاب والفواكه
ويشير إعجابه أيضاً المباني الشاهقة ذات الطوابق الأربعة أو السبعة أو حتى
الأربعة عشر على حد قوله — وهى بمثابة ناطحات سحاب القرون الوسطى —
بما فيها من ورش لا تبطل حركتها ، وحشود المارة فى الشوارع — وكثير
منهم ممتطون الدواب — وشبكات الأزقة فى الأحياء الكبرى المكتظة بالسكان
كما هى قائمة حتى الآن فى المراكز التاريخية القديمة فى الشرق والغرب^٣
والخوارى التى تحجب عنها نور الشمس المباني المرتفعة المتلاصقة حتى تحيط
بها ، فتدعو الحال إلى إنارتها بالمصابيح :

ثم ينتقل الوصف من القاهرة القديمة إلى قصور الخليفة التى زارها الناصر
بفضل موظف من أصدقائه ، فيشيد بكنوزها — كنوز الفاطميين — ومطابخها
العامرة وما تقدمه للمرضى والمساكين ، إذ أن ما استرعى نظر هذا الرحالة ،

وكان يردده باستمرار في فصول كتابه الخاصة بمصر والقاهرة ، هو العدالة والإنسانية والرعاية التي كانت هذه الامبراطورية الشيعية تحيط بها الشعب ، والعطف الذي كان بيديه الخليفة نحو رعاياه واهتمامه البالغ بشئونهم ، إلى حد أنه كان يردعهم عن أداء فريضة الحج في سنوات الفاقة في الحجاز ، ويرفض المال الذي قدمه أقارب ثرى من اليهود بعد اغتياله لبشروا به سلامتهم. ويروى المؤلف أن ذميا آخر كان من المسيحيين دعاه الوزير بكل كياسة ، من قبل الخليفة ، لمساعدته السكان الجائعين بما لديه من مخزونات القمح ، سواء على سبيل الاعارة أو البيع ويقرر المسيحي بأنه سعيد بوضع أمواله تحت تصرف الحكومة . وهكذا نرى تعاطفا قريبا بين الأديان سائدا في وادى النيل أيام المستنصر ، تحت شعار المحبة للجنس البشرى ، الأمر الذى حظى دون شك بموافقة قلبية من حكيم المعرة الضرير الذى زاره الناصر في نفس هذه الرحلة . أما نحن فلنا أن نكون أقل تفاؤلا بالنسبة لهذه النقطة لمعرفةنا الاولى بتاريخ مصر الفاطمية وبتاريخ الإنسانية أيضا ولكن الأمر الذى لانزاع فيه هو أن القاهرة في عهد المستنصر تركت في نفس الرحالة إنطباعا بما كانت عليه من رفاهية و ثراء وأمن اجتماعي ، فكان دائما يردد هذه النغمة :

وهناك مسألة كبرى مازالت تفتقر إلى الحل منذ عرفت بقية مؤلفات الناصر ودوره كتابع من أتباع الإسماعيلية ومروج لها في بلاده : وإيمانه الراسخ العميق بالدعوة الفاطمية التي نادى بها حتى مماته في جبال « بامير » الشاخنة الواعرة ، فللمرء أن يتساءل لماذا لا توجد كلمة واحدة في « السفرنامه » ، وفي الفصل المتعلق بمصر بالذات ، عن عقيدة الفاطميين ومذهبهم وتنظيمهم * و « السفرنامه » ، كما وصل إلى أيدينا على الأقل ، هو كتاب مشرب بالروح السنية ، كان لأي مسلم بعيد عن بدعة الشيعة أن يكتبه ، لأنه يشجب التعصب الشيعي في « طبرية » الذى يحول دون زيارة المسافرين لقبر « أبي هريرة » ،

وهو إذ يتكلم عن « قرمط » البحرين ، مبدئياً إعجابه بتنظيمهم الإقتصادي والإجتماعي ، يصفهم بأنهم منشقون خارجون على الإسلام : ومع ذلك يرى بعض العلماء العصريين مثل « إيقانو » و « برتلز » أن اعتناق الناصر لمذهب الاسماعيلية سابق لقدمه إلى مصر الذي ثبتها في عقيدته فحسب : وحتى لو أنه جاء إلى وادي النيل وهو سني ، كما ظن البعض في البداية ، وشاهد مصر الفاطمية برخائها وحسن تنظيمها مما حمله على اعتناق الإنشقاق أو سهله له ، فكيف لم يذكر كلمة واحدة عن تحوله هذا في سرد رحلته ، وكيف تعتمد أن يتجاهل مالهذه الدولة وملوكها من طابع الإنشقاق ، فتكلم عن المستنصر - وقد اقتبس اسمه فيما بعد حتى في أشعاره الدعائية فتسمى بالمستنصر - باعتباره مجرد «سلطان» البلاد كأى عاهل آخر في العالم الإسلامى والمعروف أن هذه المشكلة حملت أحد الباحثين على انكار تطابق شخصية مؤلف «السفرنامه» وشخصية داعية المذهب الإسماعيلي ، وأول مسئول عن ظاهرة إنقسام الشخصية هذه هو الناصر خسرو ذاته فيما كتب :

وقد حاولت في مقال كتبت في شباني تحليل خلو «السفرنامه» من كل إعراف وكل إشارة مذهبية ، بذلك الإتجاه الخاص الذى تتميز به كتب «الرحلات» من أنها لا تتنوع عموماً على مناقشات عقائدية ويكتفى مؤلفوها بوصف موضوعي لما رأوه في أسفارهم : ولست أجهل ، عند العودة إلى نفس الموضوع بعد ثلاثين عاماً ، أن هناك ميلاً إلى اعتبار « السفرنامه » المتاح لنا الآن ، مختصراً من المؤلف الأصيل ، حرره وهذبه أحد السذجين : وهذا افتراض كنت قد حاولت أن أفنده في مقال على اعتبار أن لاداعى له ، ولكن يجب الآن إعادة النظر فيه بسبب ظهور آثار مرجحة لنص آخر غير مهذب من «السفرنامه» نقلت إلينا عن مؤلف فارسي عصري ، يحتوى على تفاصيل هامة عن إقامة الناصر في مصر (ومن ضمنها مقابلاته مع المستنصر) ، ومن المستبعد أن تكون مزيفه : وعليه

فإن احتمال أن يكون المؤلف برمته، وخاصة الفصل الخاص بمصر، قد اختصر وحذفت منه تفاصيل جارحة عن المذهب القويم، (وأن يعثر في الشرق يوما ما على نص أكمل)، هذا الاحتمال ليس مما يجب استبعاده : ومع ذلك فإن بعض الشك قائم ويحيط بهذا المؤلف الغريب مما يثير فضولنا ولا يشبعه، فكيف نفسر أن المنقح الذي أبقي على لقب أمير المؤمنين الذي أطلقت الناصر ليس فقط على الحسين بن علي جد الفاطميين، بل مرتين أيضا على خليفة القاهرة الذي دعى دائما بالسلطان ؟ ومن وجهة أخرى لو أن الأمر كذلك، لسرعان ما حذف بعض الفقرات عن العلاقات بين الناصر والخليفة، وهذا لا يكفي ليعمل تماما تلك اللهجة الموضوعية الحيادية السائدة في الكتاب كله، فيما يتعلق بالمسائل العقيدية والدينية عامة . وإنى أرى تعليلا أفضل لها في رغبة الكاتب في التزام قواعد المصنفات الأدبية التي تأبى عليه أن يقتحم في مشاهداته خلال رحلته، شيئا من اختباره الشخصية كمعتنق للمذهب الجديد .

وعلى أية حال، فهذه المشكلة المتعلقة بتلك الشخصية الغامضة التي الفت الكتاب، ومنطق تطورها النفسى الذى يصعب تتبعه، لانتعينا كثيرا، أن ما يعيننا ليس ماتوارى عنا من طيات كتابه، أو ما لم يكن له أى وجود فيه، بل ما وصل إلينا منه : وهو لقاءه بعاصمة النيل، التي تجلت فيها المدينة الإسلامية في مصر بأبهى معانيها . أن الناصر خسرو شاهد وبسط أمام أعيننا تلك المدينة — أو بالأحرى المدينتين — اللتين سرعان ما كونتا مدينة واحدة، مثلا رائعا لحاضرة في القرون الوسطى، زاخرة بالسكان، يعلو فيها ضجيج التجار وأرباب الحرف، مرصعة بقصور بهيجة وحدائق غناء، حيث كانت تقام احتفالات البلاط الفاطمى التي حدثنا عنها كتاب آخرون معاصرون : ويبدو أن الناصر لم يعر الحياة الفكرية الثفان في العاصمة حتى بلغت أوج ازدهارها في عهد الفاطميين : ومن الجائز أنه عالج هذه الناحية فيما حذف من أجزاء

كتابه ، إن كان هناك حذف : ولكن الأمر الذى ركز عليه والذى يسجل بالفخر للأسرة العبيدية ، دون إن ينال منه أية كراهية دينية ، هو ما كانت تشعه حولها من شعور بالأمان والعدالة : إن العدالة والأمان الإجتماعى طالما راودا أحلام الإنسان ولاسيما فى البلاد المفتقرة إليها ، وكان يظن فى البلاد الإسلامية أن تحقيقها لن يكون إلا على يد رجل مختار أو مهدى مرسل من السماء ، ولكنهما مع ذلك تجسدا فى حقيقتها التاريخية ، على ضفاف النيل ، فى عهد أسرة منحدره من مهدى منتظر « ليملاً بالعدالة الأرض المليئة بالظلم » فهل من التجاوز أن نقرر بأن هذا التوفيق بين حلم لا يستطيع تحقيقه إلا مهدى مرسل من السماء والواقع الذى تجلى فى المدينة التى كان يجلس على العرش فيها أحفاد المهدى الفاطمى ، هذا التوافق هو خير ثناء قدمه الناصر خسرو فى كتاب رحلته إلى خلفاء مصر الخوارج ، وقد أصبح لهم فيما بعد فى وطنه داعياً ومبشراً لا يعرف الكلال :

تشييد مدينة القاهرة

د. بكرى زويل

ملخص

تشيد مدينة القاهرة

ك. كرزويل

ملخص

لم يأت فتح الفاطميين لمصر مصادفة بل نتج بناء على سياسة مرسومة ومدروسة من مدة طويلة ، اذ كان الفاطميون وحتى قبل تشيد مدينتهم المهدية في تونس (في ذى القعدة عام ٣٠٤ هـ) قد احتلوا الاسكندرية لمدة ستة أشهر ، ولم تفشل حملتهم الثانية على مصر (في عام ٣٠٦ هـ) إلا بفضل إمدادات عسكرية جئ بها من بغداد . كما أن الحاكم الفاطمي المعز لدين الله منذ توليه الحكم في شوال ٣٤١ هـ ، كرس نفسه لاعداد حملته على مصر واهتم حتى بحفر الآبار وأقامة الاستراحات على طول الطريق الصحراوي المؤدى إلى الاسكندرية :

واذا كان تحديد عام ٣٥٨ الهجرى (الموافق ٩٦٩ الميلادى) لقيام المعز بحملته على مصر قد تم متأثراً نوعاً بنبؤات عن قيام امبراطورية فاطمية مقبلة ، إلا أن المعز قد انحاز أساساً لرأى يعقوب بن كلس ، أحد المنشقين من القيادة المصرية — وكان منحرفاً بعض الشيء — الذى كان قد فر هارباً عام ٣٥٦ هـ إلى المهدية وأخذ يحث المعز على انتهاز ضعف مركز مصر السياسى والاقتصادى في ذلك الحين ، فأرسل جوهر القائد على رأس جيش قوامه ١٠٠,٠٠٠ جندي

وبعد هزيمة القوات المصرية هزيمة حاسمة في ١٧ شعبان ٨٣٥٨ استقرت القوات الفاطمية في منطقة تقع شمالى الفسطاط . وشرع جوهر القائد في المساء ذاته في وضع الأساس لقصر المعز ، إذ كانت العادات الماثورة حينذاك تحتم إقامته بعيداً عن المناطق الآهلة بالمدينين :

وكان ذلك الموقع يسمى باسم المنصورية ، وكان هذا بدون شك تشبهاً بعاصمة الفاطميين السابقة صبرة المنصورية خارج القيروان . أما مايروى من أن إطلاق اسم القاهرة عليها قد نتج عن تصادف مرور كوكب (قاهر الفلك) في سماء هذه البقعة عندما نعق غراب معطياً بذلك إشارة البدء في الحفر لإرساء الأساسات ، فهو أمر يكاد يكون أسطورة خرافية . ويرجح أن يكون لاسم القاهرة قد أطلق على المنصورية عند قدوم المعز في موكب النصر ودخوله المدينة بعد ذلك بحوالى أربعة أعوام . وكانت الأسوار الأصلية للمدينة — وقد أختفت هذه الأسوار تماماً عندما تولى بدر الجمالى ثم صلاح الدين إعادة تحصين المدينة — مبنية بقوالب لفت كبر حجمها نظر المشاهدين . ويمكن اقتفاء أثر هذه الأسوار الأصلية وبالتفصيل يفضل شرح المقرئى لها في كتابه « الخطط » :

ويبدو أن قصر الخليفة — الذى كان داخل الأسوار وله عشرة أبواب واثنا عشر جناحاً (قصراً) فيما يقال — قد بنى جزء منه على الأقل بالحجر . إلا أن مسجد الجامع الأزهر وهو المبنى الوحيد الباقي من العهد الفاطمى المتقدم داخل الأسوار قد بنى من الطوب المحروق . وقد بدأ في بنائه في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ .

وقد تم الاعتراف بهذا المسجد رسمياً في عام ٨٣٧٨ هـ ، واحتفظ له بطابعه الأصيل باعتباره مؤسسة تعليمية ، فلم يطرأ على بنيانه أى تعديل معمارى . ويبدو من تصميمه أنه كان المثال الذى كان اتخذه الحاكم في بناء مسجده ، رغم أنه مازال من غير الواضح تماماً ما إذا كان قد اشتمل في الأصل على بوالى في ثلاثة من جوانب الصحن ، كما هو الحال في المبنى القائم حالياً .

عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة

كريستل كيدر

ملخص

عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة

كريستل كيلر

ملخص

رغم مانص عليه الإسلام من منع إقامة عمائر الأضرحة ، إلا أن هذه العمائر قد تمت وانتشرت ، وأخذت تؤدي دوراً هاماً في داخل مدينة القاهرة : فقد بدأت في الظهور حين شرعت الطبقات الحاكمة في إعداد الأضرحة لأفرادها ، أو لأسرهم ، تحت إشرافها مباشرة . وكانت تأصلت في سوريا في ظل حكم الأيوبيين لها ، وانتقلت إلى العاصمة في أواخر عهدهم (انظر ضريح السلطان الصالح نجم الدين أيوب ١٢٥٠م) .

وكان الضريح يقام دائماً في الشارع الأساسى الذى يربط مجموعة من الأبنية بعضها ببعض ، ذلك أن الضريح كان يعد بمثابة رمز له مكانته ، ويستلزم من ثم مكاناً بارزاً . وكان الوضع الأمثل للضريح في داخل المدينة هو أن يقام في الجانب المواجه للكعبة . ونادراً ما كان يحدث ذلك بسبب صعوبة إيجاد قطعة أرض مناسبة للبناء داخل المدينة تتوفر لها — مثلما تتوفر للشارع في نفس الوقت — مزية مواجهة الكعبة . ولابد أن الإهتمام بتحقيق مثل هذا الوضع المثالى قد أدى بالسلطين إلى تشييد مبانيهم على الجانب الغربى من القصبة (قلاون والناصر محمد وبرقوق والمويد وبرزباى) ،

وكان الضريح في العادة يتجه ناحية الكعبة ، فكان يخضع من ثم إلى نفس الإجراءات المعمارية التي استهدفت تكييف الأبنية الأصيلة في المدينة لاعتبارات تخطيط الشوارع وقد تمت بنجاح عملية معالجة التناظر الغريب في مجال تخطيط العائر الدينية والدنيوية ، وذلك خلال حكم المماليك الجراكسة (انظر ابن تغري بردي ١٤٤٠ م وفيجماس ١٤٨٠ م ، ونخايربك ١٥٠٢ م) :

على أن الاهتمام بالجوانب الدينية كان يضعف بن الحين والحين ، وذلك لتزايد العناية بأمور تخطيط المدينة ، وبالتالي لم يتحقق للضريح توجيه الملائم ناحية الكعبة ، مما جعله متنسق مع وضع المكان المخصص للصلاة في المسجد (انظر مجمع يماس ١٣٣٠ م وايدو مر البهلوان قبيل ١٤٦٣ م وسودون القصر اوى ١٤٦٨ م) : وقد جرت العادة على الاهتمام بالجوانب الملائمة الدنيوية على حساب غيرها من الجوانب ، كلما نشأ صراع أو خلاف .

تجار القاهرة الأجنبي ف عهـد الفاطميين والأيوبيين

كلود كاهن

ملخص

تجار القاهرة الأجنبيون في عهد الفاطميين والأيوبيين

كلود كاهين

ملخص

من المعروف جيداً أن التجار الغربيين في القرون الأخيرة من الأجيال الوسطى كثيراً ما ترددوا على مصر ، وكانت الإسكندرية طبعاً محط رحالهم ، وسرعان ما حصل معظمهم فيها على امتيازات مختلفة ، وحق الإقامة في فنادق خاصة لكل أمة ، وكان للقاهرة أيضاً مع ذلك أن تجذبهم باعتبارها مقر الحكومة والبلاط ، وأكبر مدينة في البلاد ، إلا أن أحوالهم فيها كانت متقلبة ، فكان من حقهم دائماً — إلا في زمن الحرب — أن يأتوا إليها بصفة مؤقتة ، ولكن لم يكن لهم في عهد الأيوبيين والمماليك أى مقر ثابت شبيه بفنادق الإسكندرية ، وعلى النقيض من ذلك فإن مراجع كثيرة ، لم يعرف أغلبها إلا أخيراً ، مثل « الجنيزة » اليهودية العربية بالقاهرة ، والمعاهدة الضريبية للمخزومي ، وحتى يوميات يحيى الأنطاكي ، تشير إلى أن الغربيين كانوا يترددون بكثرة على مصر في عهد الفاطميين كله — أى قبل الحرب الصليبية — وأن المعاملة التي كانوا يعاملون بها ، حتى بعد الحرب الصليبية الأولى ، كانت تتسم ، ولا سيما في القاهرة ، بتسامح لم يشاهد فيما بعد ، ومعظم الإيطاليين الذين ترددوا على مصر والقاهرة في القرن الفاطمي الأول ،

كانوا على ما يظهر من مدينة « أمالقي » ، وكان مائتان منهم على وجه التقريب في العاصمة المصرية في صيف السنوات الأخيرة من القرن الرابع (الهجري) العاشر (الميلادي) ، واحتل إيطاليو الشمال تدريجياً فيما بعد المكان الأول ، ولدنيا فيما يتعلق بتجار مدينة « بيزا » وثائق مستخرجة من المحفوظات الفاطمية في البداية كان الروم كافة مجموعين في مبنى خاص أطلق عليه ، كما في الاسكندرية اسم غامض هو « دار المناخ » . ثم بدأ اتجاه في القرن السادس (الهجري) الثاني عشر (الميلادي) نحو السماح بفنادق خاصة لكل أمة ، وعندما استقر الفرنجة في سوريا وفلسطين ، أصبح من المتعذر التمييز بين التجار الغربيين الحديرين بالتشجيع ، والأعداء الواجب محاربتهم ، وكانت الصفقتان تجتمعان أحياناً وحسب الظروف في نفس الأشخاص :

وعندما اشتدت الحرب بين الفرنجة ومصر ، وتولى الأمور فيها صلاح الدين ، الذي كان يميل أكثر من أسلافه إلى الحرب المقدسة ، اتخذت تدابير لتقييد حرية تنقل التجار في داخل البلاد ، وعليه فإن العهد الفاطمي كان من هذه الناحية ، ومن نواح كثيرة غيرها ، عصراً متساهلاً بقسطوافر من التفتح والليبرالية .

زيارة الرحالة العربي الأندلسي ”الشهاب أحمد الحجري“ لمدينة القلعة في القرن السابع عشر

كليليا سارتنلي تشيركوا

ملخص

زيارة الرحالة العربي الأندلسي «الشهاب أحمد الحجري» لمدينة القاهرة في القرن السابع عشر

كليليا سارللى تشيركوا

ملخص

خلال إقامتي الأخيرة بالقاهرة في أكتوبر ١٩٦٤ ، وجدت في دار الكتب مخطوطا جذب انتباهي ، وهو كتاب « ناصر الدين ، على القوم الكافرين ، وهو السيف الأشهر على كل من كفر » ومؤلفه الشيخ الشهاب أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي ، ولهذا المخطوط أهمية كبرى ، فهو عمل من أعمال السير الذاتية ، مع ملاحظات للدفاع عن الإسلام إذا قورن بالمسيحية وهو لمؤلف عربي أندلسي أقام في المغرب ثم بعثه السلطان مولاي زيدان في مهمة إلى فرنسا وهولندا ، وبعد ذلك زار مصر وتونس .

وهذا المخطوط الموجود في دار الكتب ، والذي يعتبر النسخة الوحيدة الكاملة المعروفة ، قد كتبه المؤلف بنفسه بخط مغربي ، وهو مفهرس تحت رقم ط ١٦٣٤ ، ويحتوي على ١٣١ ورقة (٢١ سم ١٤) وكل ورقة تحتوي على ١٧ سطرا ، وقد تم تحريره في شهر رجب سنة ١٥١ هـ - ١٦٤١ م : وبعد أن وجدت هذا الكتاب الذي كان يعتبر مفقودا ، وبعد أن قمت ببعض أبحاث عن المؤلف ، استطعت إضافة بعض التفاصيل إلى ما كنا نعرفه

عنه من قبل ، فبالنسبة لمؤلفاته نجد أن أقدمها هو « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » ، وقد كتبه في القاهرة ، ولم نحصل من هذه الرحلة المفقودة إلا على بعض أجزاء منها وبطريقة غير مباشرة ، أما الكتاب الثانى ويسمى « كتاب ناصر الدين » فقد نشر منه حتى اليوم أربعة فصول .

وبمناسبة ندوة تاريخ القاهرة ، فإن فى نيتى عرض انطباعات الحجرى عن هذه المدينة ، ونقل ما يقوله فى مؤلفه « كتاب ناصر الدين » عن الأشخاص الذين التقى بهم فيها .

ويقول كاتبنا معجباً بعظمة القاهرة « وتقول النصارى إن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ثم هذه المدينة يريش (هكذا) ثم مدينة إشبونة ببلاد الأندلس وكان من حقهم أن يذكروا مصر ، إلا أنهم يقولون لها القاهرة الكبيرة ، وإذا جمعنا مع مصر مصر العتيق (هكذا) وبولاق وقاية باى (هكذا) لم ندر من هى (هكذا) أعظم يريش أو مصر بما ذكرنا » .

ويقول فى جزء آخر من الكتاب :

« ... فأما مصر المحروسة بالله فهى من أعظم مدن الدنيا ، هى مثل يريش بفرنصة إذا أضفنا إليها مصر العتيق (هكذا) وبولق (هكذا) ، وهى تحتوى على اثنتى عشرة ألف قرية . »

ومن رواية الحجرى نعرف أيضاً أنه قد أتاحت له الفرصة فى القاهرة لمعرفة علماء الأزهر ، وإقامة علاقات مع الرهبان المسيحيين ، وهذا يعد دليلاً آخر على اهتمامه الشديد بالعلاقات القائمة بين الإسلام والديانات الأخرى وهذا الإهتمام يعود إلى أصله المراكشى ، وبالذات إلى هذا الاتجاه الموجود عند المراكشين الذى يدفعهم إلى إقامة جسر بين الإسلام والمسيحية .

مصر في "يوميات" مارين سانودو

ماريا نالينو

ملخص

مصر في "يوميات" مارين سانودو

ماريا نالسينو

ملخص

في نهاية القرن الخامس عشر، وبالذات، ابتداء من أول يناير ١٤٩٦ م بدأ نبيل من نبلاء فينيسيا، هو مارين سانودو (١٤٦٦ - ١٥٣٦ م) في تدوين جميع الأحداث التي كانت تقع في مدينته يوما بيوم، على قطع كبيرة من الورق. وكان سانودو - بصفته عضوا في مجلس المدينة ثم عضوا في مجلس شيوخ الجمهورية - لا يتابع أحداث مدينته متابعة مباشرة فحسب بل يتابع الأحداث في جميع دول أوروبا وآسيا وأفريقيا، التي كانت ترتبط بها فينيسيا بعلاقات سياسية أو تجارية. أن مجرد كتابة «يوميات»، وتسجيل أحداث العالم بما كان في ذلك الوقت بدعة منتشرة بين نبلاء فينيسيا وصحيح أنه قد عثر على يوميات مشابهة عن هذه الفترة، ولكن لا توجد يوميات تمتاز بدقة يوميات سانودو واتساع مجال معلوماتها. أن مؤلفنا يضيف إلى البيانات التي يقدمها عن الأحداث السياسية كل أنواع المعلومات عن الحياة الاجتماعية، والحياة الثقافية، والتجارية والعادات: وهذه المعلومات تمتاز بالدقة الفائقة، لأنه لم يكن يكتفى - في سبيل الاحتفاظ بمرجع دقيق وأمين عما كان يحدث في أنحاء العالم في هذه الفترة - بأن يروي الوقائع بأسلوبه هو،

بل كان يقوم بنسخ المستندات الرسمية ، والمخطوطات والروايات التي كان يرسلها - فراء فينيسيا وقناصلها لحكومة الجمهورية ، بل ينقل بخطه خطابات التجار أو الاشخاص الذين كانوا يزورون البلاد الأخرى لأى سبب من الأسباب ، ويرسلون تقارير إلى حكومتهم. ولقد استمر سانودو في القيام بعمله هذا حتى سبتمبر ١٥٣٣ م . وبعد أن قضى نجدة في ١٥٣٦ م ، أصبحت « يومياته » (وهذا هو الاسم الذى أطلق على هذا المؤلف باللغة الايطالية (ملكا للجمهورية) : المؤلف يتكون من ٥٨ مجلداً كبيراً (٤٠,٠٠٠ صفحة مكتوبة بخط جميل واضح) تعتبر مصدراً ممتازاً قيماً للدراسة تاريخ هذه الحقبة . وهذه المجلدات محفوظة في الوقت الحاضر في المكتبة الرسمية بفينيسيا : ولتحتاج أهمية هذه المخطوطات إلى تأكيد. في بداية القرن التاسع عشر ، أثناء حروب نابليون أرسلت الحكومة النمساوية النسخة الأصلية من هذه « اليوميات » إلى مدينة فينيسيا ، ولم تعد إلى مكتبة فينيسيا إلا بعد حرب ١٨٦٦ : ومع ذلك فقد قام أحد سكان فينيسيا بكتابة نسخة من « اليوميات » في عام ١٧٨٤ م ، احتفظ بها في فينيسيا أثناء غياب النسخة الاصلية : وطبعت « اليوميات » في فينيسيا في الفترة ما بين عام ١٨٧٩ ، ١٩٠٣ م ، في ٥٨ مجلدا ضخماً على عامودين : ونفدت هذه الطبعة ، مما جعل حكومة فينيسيا تفكر في طبع نسخة مصورة منها .

وفيما يتعلق بتاريخ مصر في نهاية عهد المماليك وبداية العهد العثماني ، فإن « يوميات » سانودو تعتبر مصدراً من الدرجة الأولى : فاليوميات تبدأ كما سبق أن ذكرت في أول يناير ١٤٩٦ ، أى قبل أشهر قليلة من وفاة السلطان قايتباي (٧ أغسطس ١٤٩٦) . وبالفعل ، فقد أورد مؤلفنا ، في شهر أغسطس من هذا العام ، خطاباً كتبه قنصل فينيسيا في الإسكندرية في ٢٦ مايو. وفي هذا الخطاب نرى القنصل يحيط بحكومته علماً بمعرض السلطان وبعزمه على أن

يجعل الرعية تعرف بابنـه الشاب محمد خليفة له : وتستمر « اليوميات » في وصف أخبار موت قايتباى ، وتقدم معلومات مفصلة ودقيقة جدا عن الفترة الصاخبة التى تمتد من تاريخ موت قايتباى حتى ارتقاء قنصوه الغورى عرش السلطنة فى ابريل ١٥٠١ ، تلك الفترة التى توالى فيها على عرش السلطنة أربعة من السلاطين . أما الحديث عن السنوات الخمس عشرة التى استغرقها حكم قنصوه الغورى ، وهى فترة هامة بالذات فيما يتعلق بعلاقات فينسيا ، فان سانودو يقدم عنها معلومات مفصلة ، كما يقدم معلومات مماثلة بشأن الفترة التى استغرقها حكم السلطان طومان باى . كما يذكر الكثير عن الغزو التركى (١٥١٧م) ، وعن السنوات الأولى من الحكم العثمانى :

إن فى نيتى أن أعنى عناية فائقة بالجزء الذى خصصه سانودو فى « يومياته » لتاريخ مصر ، وأن أقوم بمقارنة ماكتبه المؤرخ الفينيسى النبيل مع مادونه المؤرخون العرب ، ولا سيما ابن أياس ومحمد بن طولون ، عن نفس هذه الفترة . ولقد نشرت مقالة أولى عن الفترة التى تمتد من موت السلطان قايتباى حتى ارتقاء قنصوه الغورى عرش السلطنة فى عام ١٥٠١م. وظهرت هذه المقالة فى عام ١٩٦٥ فى « تحقيقات » اكاديمية دى لينشيبى ، بروما :

دلائل علی وجود علاقات بین المقول والممالی

سایکل روجبدر

ملخص

دلائل على وجود علاقات بين المغول والمماليك

(١٢٦٠ - ١٣٦٠)

ساكيل روجرز

ملخص

منذ قبيل معركة عين جالوت (١٢٥٩) حتى انصرام وقت طويل بعد هدنة حلب (١٣٢٢) ، كانت العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المماليك والمغول في أشد حالات توترها . فقد كانت هناك فترة من الحروب استمرت زهاء ستين عاما ، تلها فترة أخرى كان الطرفان فيها يحتملان بعضهما بعضاً على كره منهما . وفي نفس هذا الوقت ظهر بين المماليك البحرية في مصر وسوريا ميسل إلى الفن المغولي ، وعلى الأخص إلى الفن ذي الطابع الصيني (بعد عام ١٣٢٧) : وقد كان لهذا الميل غلبة كبيرة ، وهو أمر يبعث على الدهشة ، خصوصا إذا علما أن المعايير الفنية الإيرانية في مجال الزخارف المعمارية قد أهملت : وتتضح هذه الصلة إذا تدبرنا بإمعان أربعة أعمال فنية هي مصحف أولجايتو (مصر حول ١٣٢٦) ، ومحراب مدرسة الناصر محمد بالقاهرة (تم في ١٣٠٣) ، وحوض فاسلوا (مصر أوسوريا ١٢٩٠ - ١٣١٠) ، والصورة التي تنصدر مخطوط مقامات الحريري في فينا (ربما نقشت بمصر ،

(١٣٣٤) ، فضلاً عما نتوصل إليه من دلائل إذا تأملنا التحف الخزفية التي ظهرت في العصر المملوكي .

وتدل الأسانيد الأدبية والأثرية معاً على أنه من غير المحتمل أن يكون ميل الممالك إلى الفن المغولي قد استلهم كلية مما كان يرد من بلاد الصين إبان حكم أسرة يوان ، ذلك أن حجم البلاد الصينية كان محدوداً ، ولا يمكن أن يفسر محاكاة الممالك للتحف المغولية غير المطبوعة بالطابع الصيني ، وخصوصاً للقطع الخزفية التي ظهرت في سلطان أباد . والرأى السائد أن غالبية النماذج الفنية ذات الطابع المغولي (بل والنماذج الصينية أيضاً فيما يحتمل) وقد وصلت إلى مصر عن طريق التجمعات القبلية وموانئ منطقة القرم المتصلة بها . ولكن هذه الموانئ كانت بمثابة منافذ للعبور ، تمر فيها تجارة أوروبا مع إيران . أما واردات الممالك من هذه المنطقة فقد اقتصر على المواد الخام والأطعمة والفراء والعبيد ، ولم تكن إيران مصدراً لأي من هذه السلع . ويميل أسهل الفروض إلى الإيحاء بوجود طريق مباشر للتجارة بين إيران ومصر ، حيث أن الطريق البري الذي يمر من العراق إلى سوريا قد ظل مفتوحاً طوال فترة الحرب بين الدولتين . غير أنه كان يمكن سواء للاجئين أو الهدايا الشخصية أن تؤدي دوراً كبيراً في عملية النقل ، ولا يهمننا من ثم إلا القول بأن التجار المصريين الذين كانوا من وجهة نظر المغول يتمتعون بمنزلة السفراء ، قد أقادوا أكبر الفائدة من مركزهم الممتاز في إطار المناطق الواقعة تحت حكم المغول . وليس من المدهش — كما قد يبدو لأول وهلة — أن يحدث هذا التطور في ظل المنافسة السياسية والدينية العنيفة : بل إن هذا التطور يعتبر في واقع الأمر جزءاً من النهضة الثقافية في مصر إبان القرن الرابع عشر ، تلك النهضة التي يعتبر من معالمها نمو علمي الجغرافيا ومسح الأراضي ، كعلمين تجريبيين . وينعكس هذا الأمر ضمن ما ينعكس ، على تزايد الوعي بالفن والعمارة خارج نطاق الأراضي الخاضعة لسيطرة الممالك ، وتلك ظاهرة تعتبر من نواح عدة شيئاً فريداً في تاريخ الإسلام ،

إسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية

محبوب بن ميلاد

إسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية

مختار بن ميسار

ليس من الهين - على الباحث المعاصر - أن يتجرد - في هذا الزمن المضطرب الصاخب العنيف - للحديث عن حقيقة الإسهام الذي كان لإسهام الفاطميين في آفاق الفلسفة الإسلامية ، فالفلسفة الدينية الباطنية التي كانت عماد حركتهم أثناء دعوتهم السرية ، وعماد دولتهم أثناء اضطلاعهم بأعباء الحكم وشؤون السياسة ، أثارت من أصداء الجدل المحتدم ، وسط عالم إسلامي ، تصدعت أركانه ، وتبعثرت أوصاله ، وتششت أحلامه ، وتعددت نزعاته وتباينت فرقه :

وليس يمكن لهذا الباحث المعاصر أن يحمر في شأن تلك الفلسفة الدينية الباطنية من دون أن يجد نفسه مضطراً اضطراراً إلى أن يثير أهم القضايا التي هي قضايا الدين وقضايا الفلسفة ، فيما للدين وفيما للفلسفة من طابع الطرافة في العناية بتخصيص « منزلة الإنسان » في هذا الوجود ، وبتقنين شروط نجاحه وإخفاقه ، وخذلانه ، ونجاته وخسرانه ، سواء كان ذلك في صعيد الأفراد ، أو في صعيد الجماعات :

لاولا يمكن - كذلك - للباحث المعاصر أن يطمع في إنصاف الفاطميين وفي إنصاف محاولتهم الدينية الفلسفية ، في نطاق الأجواء الإسلامية ما لم يعتبر

— جملة قبل التفصيل — جنس « المغامرة » التي كانت مغامرة العقول الإسلامية أثناء معالجتها قضايا التنزيل، وقضايا الفكر، وقضايا المصير الإنساني في كنف اطراد «المجهود الحضاري الإسلامي» عن طريق شتى المحاولات، وشتى التحسسات، وبالرغم مما كان لا ينفك يهزه من المحن والرزايا والانقلابات :

إن « الرصيد المعنوي » العتيد الذي كهرب الطبيعة العربية فهزها ، وحرك أشواقها وألهم عزمها، وفجر ينابيع صدقها، ودعاها إلى الخروج من فوضى المشاعر الجاهلية وضعه أهدافها، وفسولة اضطرابها إلى سعة آفاق الحق، وباندفاعات الضمير الحي في سبيل الخير، وسحر جمال الوجود في إعجاز توليده إنما هو « نور التنزيل » في إشعاعه من خلال آي القرآن الكريم أولا، ومن خلال أحاديث النبي العربي ثانياً، ومن خلال البطولة المعجزة التي صرفت شؤون الدعوة حتى جاء نصر الله، فتم توحيد الصفوف العربية الإسلامية، وتم تأسيس المجتمع الإسلامي الحديد على دعامة « عزم التقوى » :

إلا أن العقول الإسلامية سرعان ما نبهتها « الفتنة الكبرى — تنبيه الصدمة العنيفه — إلا أن إخلاصها لأنوار التنزيل، لا يمكن أن يكون الإخلاص الحي البصير، إلا إذا ما وفقت إلى أن « تهضم » أسرار قيمه، وأصوله، وغاياته القصوى » .

وللحدث التاريخي الحاسم الذي زادها شعورا بضرورة ذلك « الهضم » إنما كان اكتشاف المسلمين الفاتحين لمنطق يونان، وفلسفة يونان، ولأعلام الفكر ببلاد اليونان :

وإن أنت أجلت نظرك اليقظان، في النشاط العقلي المدهش الذي حرك الأجواء الإسلامية — وتشارك فيه — العرب والعجم جميعهم — ما بين عهد الفتوحات الإسلامية والقرن الرابع الهجري قبيل ظهور الدولة الفاطمية على

مشرح السياسة الإسلامية أدركت أن كل التيارات العقلية التي تمخض عنها ذلك النشاط العقلي الحبيب، إنما كانت ترمى — على تفاوتها في الحظوظ، وتنوعها في المقاصد والأغراض — إلى هدف واحد: التعمق أكثر في فهم أسرار التنزيل، حتى يتيسر على العقول الإسلامية أن تهضم قيمه، وأصوله، وغاياته القصوى هضمًا أزكى فأزكى، وأشمل فأشمل . . :

وهل يخفى على اللبيب أن اللغويين في تدوينهم اللغة، وأن النحاة في تقنينهم قوانين النحو والصرف، وأن المكلمين في ضروب كلامهم، وأن الفقهاء في تحريرهم المذاهب، وأن الأصوليين في تأصيلهم أصول الفقه، وأن المحدثين في جمعهم الأحاديث، وأن المؤرخين في اقتفائهم آثار السيرة والغزوات النبوية، وأن الزهاد في زهدهم، وأن المتصوفين في خوضهم تجارب تصوفهم، وأن الفلاسفة في نشاطهم الأخلاق ما كانوا إلا ليدوا العقول الإسلامية بالآلات الضرورية التي تصقل معادنها، وتشحذ قرائنها، وتلطف حاساتها، وتوسع آفاقها، فيتسنى لها — بفضل ذلك — أن تصبح « مخابر عقلية » تنعكس فيها — باتم معنى الكلمة — أسرار التنزيل فتهدى بهديه — وتهدى — على بصيرة .

وبالرغم مما تشعر به تلك التيارات العقلية على اختلافها من شعارات الكلام أو التصوف أو الفلسف، وبالرغم من تداخلها بعضها في بعض، وحتى تأثيرها بعضها ببعض، ومن تجارب بعضها مع بعض، فهي جميعها تطالب — في صدق لاشك فيه ذو صدق — بكونها تخلص دون سواها لعين المبادئ . ولعين المصادر الروحية في جلبة مجهود واحد :

ولست أعني من وراء هذا أن الباحث المعاصر مطالب بأن يصدق دعاوى أصحاب تلك التيارات العقلية على اختلافها في سبيل الاجتهاد، وعلى تبانيها في فهم التنزيل وأسراره :

ولنأى أعى أنه مطالب بألا يصدر حكمه لها أو عليها إلا بالاعتماد على البحث
النزىة الذى ىرى — عرض الحائط — ما ألقه بعضهم ببعض من شقى التهم ،
مالم يظهر من وراء التحقىق النزىة صحة التهم المحررة :

ولبس من شك عندى فى أن الباحث المعاصر الذى يشرف على قمة هذه
القمة أحرى بأن يشعر — شعور الصديق اللاهب — بخطورة الإسهام الذى
كان إسهام الفاطمىىن فى أجواء الفلسفة الإسلامىة :

هو — على أى حال — حرى بأن يؤكده أن الفاطمىىن الذين يعرضون على
محك نقده النزىة « رسائل اخوان الجامعة » أو كتاب « راحة العقل للداعى
أحمد حمىة الدين الكرمانى » أو كتابى « دعائم الإسلام » و « أساس التأوىل للقاضى
النعمان القىروانى » لا يقلون جهداً ، وإخلاصاً ، وزكاة أنفاس عن المعترلة
الذين يعرضون عىسه كتاب « المغنى فى أبواب التوحىة والعءل » للقاضى
أبى الحسن عبء الجبار أو عن السىنىن الذين يعرضون عىه كتاب « اءىاء علوم
الءىن » لأبى حامء الغزالى :

فهذه الكتب جمىعها حرىة بأن تعرض فى « حلبة رهان الفكر الإسلامى »
الشغوف باقتناص أسرار التترىل ، المىال إلى التحدىق فى حقىقة أبعاده ، الغيور
على مصىر المءتمع الإسلامى فى سلامة أركانه ، ونور قىمه ، وىمن نظامه
فى كنف أشواق الضمىر ، الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، مثلما كانت الدولة
الأموىة ، والدولة العباسىة ، والدولة الفاطمىة ، حرىة بأن تتنافس فى حلبة التارىخ ،
بما حققته فى صعىء المجهود الحضارى الإسلامى :

ولئن كان حق الباحث المعاصر الذى عرضت على محك نقده النزىة تلك
الكتب أن ىبدى فى شأنها ما شاء لإخلاصه أن ىبىءه من ضروب الاحتراز
— فأى مجهود ىسمى لىس عرضة إلى النقد من بعض جوانبه؟ — فما عىه الا أن

— ٨٩٣ —

يبدل ما بذله أصحاب تلك الكتب من صنوف الجهد ، والصبر على البحث والانقطاع لأعباء مسؤوليات الفكر ، في كنف ما كان لهم من أصالة الثقافة الدينية ، والفلسفية ، والعلمية في آن واحد .

وإني إذ أقول إنما أعني من ورائه أنه لم يعد في إيهكاننا أن نحصر الحديث عن الفلسفة الباطنية ، وعن جنس الأسهم الذي كان لإسهام الفاطميين في أجواء الفلسفة الإسلامية فيما ورثناه عن خصوم الفاطميين من شتى التهم ، وصنوف التحامل ، لا ولا يمكن لنا أن نقنع بما تنفع به بعض العقول من أنماط الحمل المقتضبة ، والأحكام المتسرعة أو المغرضة التي يراد بها - بداهة - التشنيع أو التبذيع ببعض مبادئ الباطنية ، كالقول بعصمة الإمام ، أو القول بالباطن والإغراق في القول بالباطن . فبعضهم قد ينهى به الأمر إلى درجة أن يختلق التهم اختلاقاً على نحو ما كان من البغدادى الذى أكد في كتاب « الفرق » أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة . وهو لا يكتفى بهذا بل يزيد : « أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من مضرة الدهرية وأصناف الكفرة عليهم » .

فما تم نشره - في العقود الأخيرة - من الآثار الباطنية التي كانت مخفية فلا يطلع عليها الا اهلها - يمكننا من الجزم بان الفلسفة الباطنية في حقيقتها غير التي يندر بها البغدادى بهذا العنف ويتحامل عليها هذا التحامل الفاحش الغريب الذي يفسد العقول

هي فلسفة جاهزة تتطلب مستوى عقلياً رفيعاً غير مستوى العصبية التي لا يعرف الحرج الضمير رسماً ولا للحق ظلاً ،

ولما كان يستحيل على - في هذا الحديث - أن استعرض - من خلال تلك الكتب - اجزاء ذلك الجهاز الفلسفى الدقيق التركيب ، المحكم السبك والبناء من الناحية الفلسفية الفنية الصرف ، المتعدد الجوانب والمستويات أجد نفسى مضطراً اضطراراً الى أن أكتفى ببعض الاعتبارات العامة حتى نبين بعض الملامح الحقيقية التى هى ملامح الباطنية الفاطمية . وعسى أن تعيننا تلك الإعتبارات على إنقاذ تلك الفلسفة الباطنية وأصحابها من الأجواء المتعففة التى إرادتها لها ولهم عصبية البغدادى وأمثاله ممن ترى « التقوى » لديهم تتخذ من الغيرة على الدين ذريعة لترويج شتى الأنظار القاصرة أو المغرضة فترتكب بذلك - عن علم أو عن غير علم صنوفاً من الإثم والعدوان وتخلق ألواناً من الأذى والبهتان وتعتبر كل ذلك احتساباً .

إن الباحث فى شؤون الباطنية ، المحلل لحقيقة أمرها ، الراغب فى أمانة التخصيص ونزاهة الحكم مضطر اضطراراً الى أن يفضل بين وجوه ثلاثة تطالعنا بها :

فهى تبدو - أولاً - كحركة سياسية ثورية ،

وهى تبدو - ثانياً - كحركة دينية فلسفية :

وهى تبدو - ثالثاً - كنظرة تربوية شاملة :

أما من حيث هى حركة سياسية فيجب اعتبار الباطنية الفاطمية حركة ثورية محكمة التنظيم ، تعتمد أسرار النشاط السرى وتلجأ إلى جميع وسائله . وتمتد شبكات دعايتها بمختلف الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وتبلغ الحيوية والحرارة وسعة النطاق مالم يعهده الشيعة من قبل .

وهى حركة تصدت بعزم للقضاء على النظام العباسى المتصدع الأركان لبناء نظام جديد يخلفه . وليكن من المستبعد أن تعتبر أن زعماء الحركة كانوا

— ٨٩٥ —

يحملون بتوحيد صفوف العالم الاسلامي كله تحت راية أهل البيت وفي كنف
الإخلاص لأهل البيت :

وهي حركة نزعها المثالية اللاهية لامراء فيها ولاجدال .

مما يزيد هذه النزعة المثالية لها أن كان قادة الحركة يعتبرون الدولة العباسية
« دولة الشر » ويعتبرون الدولة التي ينشدونها « دولة الخير » .

وانك لتشعر — عنيف الشعور — بكل ذلك عندما تطالع الكتب التي
اعتمدتها الحركة من الناحية المذهبية .

جاء في رسائل اخوان الصفاء تبشيراً بتخلص دولة الشر وبشروق شمس
دولة الخير :

« واعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدى . ولها غاية اليها ترتقى ، وحد
اليه تنتهى واذا بلغت إلى أقصى مدى غايتها ومنتى نهايتها ، أخذت في الانحطاط
والنقصان وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان وفي الاخرى القوة والنشاط والظهور
والانبساط . .

فهكذا حكم أهل الزمان في دولة الخير ودولة الشر . .

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في
بلد ويتفقون على رأى ودين واحد ومذهب واحد . ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً
بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً
ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم
وفيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة ، لا يعتقدون سوى رحمة الله
ورضوانه عوضاً^(١) :

(١) . راجع : رسائل الإخوان الصفاء ، الجزء ١١ ص ١٨٦ ، مطبعة دار صادر — دار بيروت .

وأن أنت أردت الأعراب عن كل هذا بالمصطلح السياسى اليونانى
قلت أنهم ينشدون بناء « المدينة الفاضلة » أو المجتمع الفاضل :

وأنى - شخصيا - لأرى أن الطف إشارة إلى هذا المعنى إنما هى فيما كان
من أمر الداعى الفاطمى أحمد حميد الدين الكرماني اذ جعل كتابه « راحة العقل »
لامبوبا بابا بابا ولا مفصلا فصلا فصلا على عادة الكتب فى التبويب والتفصيل
بل جعله ذا أسوار وذا مشارع فإنه أراد أن يكون كتابه المشتمل على زبدة
عقيدته الدينية الفلسفية « رمزا » للمدينة الفاضلة التى يغازلها : منيعة بعزة
أسوارها ، حية خصيبة بحيوية مشارعها وخصبها :

وعزتها وحيويتها وخصبها فى عزة مثلها العليا وفى حيوتها وخصبها •

وأن كنت لا تكتفى بالإشارة الرمزية اللطيفة فاردت العبارة الصريحة
أحلتك على « الرسالة الجامعة » من رسائل اخوان الصفاء . جاء فيها . « ذكرنا
أنا نبى مدينة روحانية فاضلة شريفة ويكون بناء هذه المدينة فى مملكة صاحب
الناموس الأكبر الذى يملك النفوس والاجساد ^(١) :

ولكن ماهذه المدينة الفاضلة ومن صاحب الناموس الأكبر الذى سيملك
الاجساد والنفوس ؟

وهذا يسلمنا إلى الوجه الثانى الذى تطالعنا به الباطنية الفاطمية باعتبارها
حركة فلسفية دينية .

وليس من شك فى أن القضية لمن أخطر القضايا ناهيك أنها قضية الفكر
فى الوجود وقضية المكانة الحيوية التى هى مكانة الفكر فى الوجود : : :

(١) راجع : الرسائل الجامعة ، الجزء الثانى ، ص ٣٧٢ ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

فما النظرة الفكرية التي ستحيي النفوس فتلهب العزائم وتفجر طاقات
الصدق والأخلاق في الأفراد والجماعات ؟ كيف توحيد الصفوف في كنف
المجتمع وكيف رفع الهمم فيه إلى مستوى الضمائر التي لا تأخذها في الله لومة
لائم ؟

ابن سبل العزم الخلاق ؟

وانه يمكن لك أن تخصص الباطنية الفاطمية من حيث هي حركة
فلسفية دينية ويمكن أن تخصص الأجوبة القصوى التي حظيت بها لدى
أصحابها مثل هذه الاسئلة المرهقة عن طريقين اثنين: أحدهما سلبي والآخر
إيجابي .

اما من الناحية السلبية فانه يمكن لك أن تجزم بأن الباطنية الفاطمية تفجرت
عن ازورار عميق من اصحاب الكلام والجدل والمناظرات ومن زخارف
الفاظهم التي لاتعقل المعاني الصحيحة لاعتمادها في تفكيرها على منطق صوري
ادبر الواقع وتجنب سبكة . . .

فالحرب الكلامية والجدالية التي كانت لاتنفك تجري بين النحل
الإسلامية على اختلافها المدهش في الأصول وفي الفروع لم تكن عندهم الحركة
المحيية ولا كان هدفها الأقصى الكشف عن الحق الموحد بل كان يراد منها
حب الظهور وطلب الرئاسة والقضاء على الخصوم مهما كانوا . . . ولذلك
كان زعماء الباطنية يعتبرون أهل الكلام والجدل والمناظرات « جهالا »
« علماء » : بل هم يذهبون إلى أبعد من هذا فيعتبرونهم أصحاب « فتنة العقول »
لا أصحاب تأليف القلوب وأنه ليطول بنا الحديث لو أردنا أن نستعرض لك
اقوالهم في هذا الصعيد .

جاء في كتاب « دعائم الإسلام » لأبي حنيفة النعمان بن حيون القيرواني عمدة الباطنية في الفقه — هذه الشكوى المرة : « لما كثرت الدعاوى والآراء واختلفت المذاهب والأهواء ، واخترعت الأقاويل اختراعاً ، وصارت الأمة فرقةً وأشياءاً ، ودثر أكثر السنن فانقطع ، ونجم حادت البدع وارتفع ، واتخذت كل فرقة من فرق الضلال رئيساً لها من الجهال ، فاستحلت بقوله الحرام ، وحرمت به الحلال تقليداً له ، واتباعاً لأمره ، بغير برهان من كتاب ولا سنة ، ولا بإجماع جاء من الأئمة ، والأئمة تذكرونا عند ذلك قول رسول الله « لتسلكن سبل الأمم ممن كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »^(١) :

ونذكر هذه الشكوى المرة التي رفعها القاضي النعمان القيرواني فتتردد في أذهاننا أصداء هجمات إخوان الصفاء على أصحاب الجدل ، وبالمناظرات بألفاظ مماثلة نظراً إلى أنهم « أوقعوا الخلاف والمنازعة في الأمة ، فتفرقت وتحزبت ، ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبداً ، وصاروا إلى الفتن والحروب واستحل بعضهم دماء بعض »^(٢) :

ولنلاحظ أن النصر الذي أبطله الباطنية هو هذه الثروة الجدلية التي لا تقتنص الحقائق لا النصر مطلقاً ، ولنلاحظ كذلك أن الغزالي سيعرب فيما بعد عن عين الشكوى المرة بألفاظ متشابهة ، وسيُنظم على المتكلمين هجمات أعنف وأشد وأوسع نطاقاً : « أليس هو القائل في كتاب « إحياء علوم الدين » : « استغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه

(١) راجع : القاضي النعمان القيرواني ، دعائم الإسلام . الجزء الأول ، ص ١ ، دار المعارف

بمصر ، ١٩٥١ .

(٢) راجع : رسائل إخوان الصفاء ج ٧ ص ١٥٢ — دار صادر — دار بيروت .

مشغوفاً ، فصار يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلى فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغاة ، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

هذا فيما يخص الباطنية الفاطمية من الناحية السلبية .

أما إذا ما رمت أن تخصصها إيجاباً فإنه يمكن لك أن تجزم بأنها محاولة فريدة فى تاريخ التفكير الإسلامى ، ، باعتبار أنها أرادت أن تذيب فى « بوتقة واحدة » ما أفادته .

أولاً : من التأمل فى آى القرآن الكريم ، وما غاصت عليه من أسرارها ، مع ما أفادته :

ثانياً : من التأمل فى الإنتاج الفلسفى ، سواء أكان إنتاجاً يونانياً ، أو إنتاجاً إسلامياً مع ما أفادته :

ثالثاً : من التأمل فى الوجود وفى الموجودات ، وفى التجربة الإنسانية ، حتى تكون لنا « نظرة شاملة » :

وبالرغم من أن هنالك — من الناحية الفلسفية — بعض التباين بين أسلوب القاضى النعمان القيروانى وأسلوب إخوان الصفاء فى رسائلهم ، وأسلوب الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى فى كتابه « راحة العقل » فالهدف يبقى واحداً ، وأنه ليجد أشمل عبارته وأبينها وأروعها من الناحية الفنية الصرف فى كتاب « راحة العقل » . ولم يخطئ الباطنية إذ اعتبروا هذا الكتاب أسمى قمه بلغها لإنتاجهم الدينى الفلسفى :

— ٩٠٠ —

أما ذلك الهدفت إنك تعرب عنه دقيق الإعراب عندما تؤكد أنهم يريدون الإنهاء إلى تخصيص « المترلة الإنسانية » أشمل من وراء الحقائق التي أثبتتها الحكمة اليونانية والحكمة القرآنية ، مادامت الحكمة اليونانية والحكمة القرآنية تتعلقان. كلتاها بتبليغ الإنسان كما له في الحقيقة حتى تكون حياته حياة النموز الأكبر ، لا الحسران المبين .

ولما كان الفلاسفة القداى يعتبرون الإنسان « مختصراً » للعالم ، فكان الإنسان عالماً صغيراً ، والعالم إنساناً كبيراً رأيت الباطنية يعربون عن الحقائق التي يفتنون لإيهامهم وراء تأملاتهم وعن طريق تجربة هي أقرب إلى التجربة الصوفية منها إلى النظر الصرف بثلاث عبارات متوازية أو بثلاث ترجمات : أولاهما قرآنية وثانيها فلسفية وثالثها حقيقية كونية .

وهذا يستند — طبعاً — إلى نظرية تسمى إصطلاحاً : « نظرية المثل والمثول » :

وهل أنا في حاجة إلى أن أشير إلى أنهم لا ينتهون إلى ذلك إلا عن طريق أسلوبهم في « التأويل » ، أو عن طريق فهمهم الباطن والظاهر :

وليس من شك في أن لفظ « التأويل » من أهم إصطلاحات الفلسفة الباطنية ، بل قل إنه « مفتاح » هذه الفلسفة ، بل قل إنه « المحرك » الذي يرجع إليه « حيوية » نشاطهم العقلي ، فيه يتجاوزون الظاهر فينفذون إلى الباطن ، هو بالضبط « أداة الكشف » عن أسرار الأمور سواء أكننا في صعيد آى القرآن الكريم ، أو في صعيد الوجود والموجودات :

وليس من شك — كذلك — في أن أعنف الهجمات التي منوا بها من قبل خصومهم أنهم من هذه الناحية :

وبدهى أن هذا الحديث لا يمكن أن يتسع لتحليل مذهب الباطنية
في التأويل التحليلي الفني الشامل الدقيق ، ففضية التأويل عند الباطنية حرية بأن
تفرد بدراسة ضافية مستقلة ٥

إلا أنه من الضروري أن نشير - مجرد الإشارة - إلى بعض خصائص
« التأويل الباطني » .

وأولا فيجب علينا - فللحق أوامره - أن نوكد أن محاولتهم من أجراً
المحاولات التي حاولها المفكرون الإسلاميون في ميدان الغوص على أسرار
التنزيل ، وبها كان نظرهم - كما أسلفنا - إلى التجربة الصوفية أقرب منه
إلى النظر الصرف ، وهي محاولة ما كان لأصحابها أن يضطلعوا بها ،
لو لم ينتفعوا بكل البحوث التي تقدمتهم ، سواء أكان ذلك في ميدان الكلام ،
أو في ميدان الفلسفة ، أو في ميدان التصوف ، أو في ميدان التفسير ، وسواء
أكانت تلك البحوث السابقة إنتهت إلى نتائج إيجابية ، أو إلى مآزق ٥

هي على أى حال محاولة تخطو بالبحوث في شأن أسرار التنزيل خطوة
جديدة حاشية ، ناهيك أنها تعدل عن أسلوب التفسير الذي يكتفى بالإعتماد
على شرح الألفاظ شرحاً لغوياً ، أو بإعراب الألفاظ والآيات من دون محاولة
الغوص على « المعنى الكلى » ، ولئن كانت هذه الطريقة التي يعتمد عليها المفسرون
لها فوائد التي لا تنكر وفيها الكفاية ، أو ما يشبه الكفاية فيما يخص المحكم من
القرآن ، فما أبعدها عن إشباع حاجة العقول فيما يخص المتشابه ، هي على أى
حال لا تفي بإرضاء الأشواق الفلسفية الأصيلة ، وليس في إمكان الفيلسوف
أن يقف من المتشابه موقفاً إنكفاناً معتصماً بقول بعضهم : « المتشابه هو
ما استأثر الله بعلمه » ، فما دام الكتاب العزيز كتاب هدى ورحمة ، فحرى
بلوى القلوب الواعية الطامحة ألا تدخرو سعة أو جهداً في سبيل تصيد أسرار
التنزيل في محكمه وفي متشابهه ٥

وللفن الباطنى الفاطمى الذى هو حرى بأن يفتح آفاقاً جديدة لفهمنا أسرار التنزيل - وقد يكون للصوفية وللتجربة الصوفية يد ، أى يد فى هذا الفتح - إنما هو فى إنتباه الباطنية إلى أن « متشابه القرآن هو - بالضبط - معجز التخصيص لمتشابه الوجود والموجودات فى تصورهما الساحر :

لذلك ترى الباطنية يستعملون لفظ « التأويل » فى معناه الأصلى ، أعنى العاقبة ، وإن دل اللفظ على العاقبة دل على « الحركة » أو على التصور من عاجل إلى آجل ، ومن بداية إلى نهاية ، ومن ظاهر إلى باطن ، ودل على الناموس الذى يربط بين تلك الحقائق فى إنفعالها بعضها عن بعض وفى إتصالها بعضها ببعض فى كنف معجز التشابه :

ولئن أمكن للباطنية أن يمدونا بفلسفة - عن طريق هذا التأويل - تشير إلى « التجربة الإنسانية » فى أخص خصائص تطوراتها ، فتكشف عن ناموس أضدادها وناموس تأرجحها بين الخير والشر ، والقوة والضعف ، والوحدة والإقسام ، والإنحطاط والرقى ، أليس حرياً بها أن تشيد « مدينة فاضلة » دستورها دستور « الناموس » الذى هو دستور « الحلم المخبى » الذى لا ينفك يلهب الواقع ، ويرفعه إلى المنازل العلوية :

هى البطولة الروحية تنشر لواءها على أساس البصر بالواقع وتطوراته : وليس من شك فى أن مثلاً أعلى كهذا ليفرض على أصحابه الشعور العنيف بأن تحقيقه ليس بالأمر الهين ، فما عسى أن تكون الآلة التى سيستعملونها فى سبيل هذا التحقيق ؟ :

وهذا يسلمنا إلى الوجه الأخير الذى تطلعننا به الباطنية من حيث هى نظرة تربوية شاملة أساسها البصر الدقيق بأصول التربية وبأسرارها ، وتحسن إستقلالها لغرس « القيم الجديدة » التى هى قيمها فى المجتمع الإسلامى الجديد : فالباطنية

- ٩٠٣ -

من هذه الناحية تريد أن تضطلع بالضبط بعين المهمة التي تصدى لها أهل السنة، وانتهوا إلى الاصطلاح بها على أساس النظرة الشاملة التي سبكها أبو حامد الغزالي من خلال صفحات إحياء علوم الدين :

وبدهى أن هذا الحديث ليس يمكن أن يتسع لتحليل مفصل لأنظارهم التربوية ، ولخبرتهم الحلية بأسرارها :

إلا أنه يجب علينا أن ننوه بالمجهودات الجبارة التي بذلوها في ميدان الدعاية السرية أولا ، وفي الميدان الجامعي ثانياً، وفي تنظيم دور الحكمة وتجهيزها بالمكتبات الضخمة ثالثاً :

وإن الناظر في تدريجهم درجات رعايتهم وتبويهم رسائلهم تبويبا يتدرج بالعقول من الرسائل التعليمية إلى الرسائل الحسبانية الطبيعية إلى الرسائل النفسانية العقلية إلى الرسائل الذموسية الإلهية لينتبه إلى أنهم لم يراعوا ذلك التدرج لامتحان المستجيبين وصيانة أسرارهم فحسب ، بل أيضا بالخصوص لشعورهم العنيف بأسرار نضج العقول ، فكانوا يعرجون بها شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ كمال اقتدارها على تصريف ألوان نشاطها وصنوف مآلاتها : واعية ، مميزة ، رشيدة وتجمع بين عزة العلم ، وعزة الضمير ، وعزة العمل في كنف أشمل نظرة :

وقد تكون أبلغ عبارة عن جنس البشرية التي يطمحون إلى تحقيقها هذه النصيحة التي جاءت ببعض رسائل إخوان الصفا :

« ينبغي لإخواننا ، أيدهم الله تعالى ، أن لا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتاباً من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن

— ٩٠٤ —

رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها ، وذلك أنه النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسسية والعقلية من أولها إلى آخرها ، ظاهرها وباطنها ، جليها وخفيها بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد ، وعلة واحدة ، وعالم واحد ، ونفس واحدة ، محيط جواهرها المختلفة ، واجناسها المتباينة ، وأنواعها المكننة ، وجزئياتها المتغايرة .

مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية

محمد أبو الفرج العشي

مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية

محمد أبو الفرج العشي

تقديم

يطيب لى أن أسهم بهذا البحث بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على إنشاء مدينة القاهرة التى غدت حاضرة من أكبر حواضر العالم العربى الإسلامى، وما زالت - بحمد الله - تتمتع بأكبر مركز مرموق فى الشرق عامة والوطن العربى خاصة ، وهى أمل - الجماهير المخلصة فى التصميم على الصمود ، وتجميع القوى ، وتوحيد العرب :

اخترت النقود سبيلى إلى البحث فى تطور هذه المدينة ، لأنها أضمن الوثائق الثابتة وأصدقها ، بصرف النظر عن بعض الخطيئات البسيطة التى قد تعورها لسبب من الأسباب ، ولا أظن أن أى باحث أثرى أو تاريخى يستطيع أن يستكمل بحثه وتحرياته دون أن يلجأ إلى دراسة النقود حسب الأسلوب ، المعروف فى علم النميات Numismatics :

لمحة تاريخية

بنيت (المعزية - القاهرة) إلى جوار المدن العربية التي سبقتها : القسطنطينية والعسكر والقطائع^(١) ، ومع ذلك فإن كلمة (مصر) ومعناها (الحاضرة الكبيرة) كانت تطلق على الأسماء الأخرى ، وكانت تعني الحاضرة الكبرى ، وهو الأمر نفسه في كلمة (الشام) فهي تعني (سورية) كلها وتعني عاصمتها (دمشق) ، ولكن مع ذلك فإن (دمشق) وردت على النقود منذ صدور النقود العربي المضروب حسب النمط البيزنطي قبل إصلاح عبد الملك وبعد الإصلاح ، ولم ترد مصر .

النقود العربية القديمة المضروبة في مصر : أقدم نقد وردت عليه كلمة

(مصر) هو فلس ضربه الخليفة عبد الملك بن مروان مضروبو هو من مجموعة المتحف البريطاني بلندن ، وفلس ضربه والى مصر (عبد الله بن) عبد الملك (ابن مروان) (٨٤ - ٩٠ هـ) وهو يحمل مكان الضرب (مصر) بمجموعة الأستاذ شمير شحا بجدة بالسعودية ، وفلس من عهد مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين ، ضرب على يد والى مصر عبد الملك بن مروان اللخمى^(٢) ١٣٢ هـ :

(١) ورد على درهم مضروب سنة ٢٠٥ هـ اسم (مصر الطاهرة) = راجع الرقم ١٦٨ - ١ الذى سيرد في التصنيف .

(٢) لدينا في متحف دمشق فلس عربي طريف على النمط البيزنطي مضروب في (طبرية) . وضع في أسفل الحرف M كلمة (مصرى) ، وهي واضحة تماماً . عجباً أسك الفلاس في مصر . لصالح طبرية ، أم سك في طبرية لصالح مصر ؟ هل كانت طبرية تابعة مسع فلسطين لولاية مصر ؟

(٣) هذه هي الفلاس التي تحمل كلمة مصر (ولكن توجد فلوس صاحب خراج مصر القاسم بن عبد الله كما يوجد عدد ١١٦ - ١٢٤ هـ (٧٣٤ - ٧٤١ م)) .

وقد وردت (مصر) على أنها القطر المصري كله مع أسماء المدن التي ضربت فيها الفلوس : الإسكندرية ، الفيوم ، أتريب ، ووردت مع اسم الحاضرة (الفسطاط)^(١) . وردت (مصر) لوحدها على أنها حاضرة القطر المصري في أول العهد العباسي سنة ١٣٣ هـ على الفلوس الذي أمر بضربه عبد الملك بن يزيد وإلى مصر بين سنتي ١٣٣ - ١٣٦ هـ ، ثم ظهر اسمها (مصر) على فلوس عباسي ضرب سنة ١٦٧ هـ على يد (إبراهيم) بن صالح وإلى مصر (١٦٥ - ١٦٧ هـ) ، وضربت فلوس عباسية في مصر تحمل أسماء ولاية عباسيين ، لكنها لا تحمل كلمة (مصر) ، ويوجد أيضا سنجات زجاجية تحمل أسماء ولاية وأصحاب خراج في مصر ، وهي تدل على أن النقود كانت تسك في مصر في العهد العباسي الأول :

بدا اسمها (مصر) لأول مرة على درهم عباسي ضرب سنة ١٨٠ هـ^(٢) ، ثم استمر إصدار الدرهم المصرية بشكل متقطع - كما سنرى بعد قليل -
ظهر اسم (فسطاط مصر) على درهم عباسي سنة ٢٠٤ هـ ، وظهر اسم (مصر الظاهرية) على درهم مضروب سنة ٢٠٥ هـ ، ثم ظهر اسم (مصر)^(٣) بعد تمهيد (سنشر إليه) على الدنانير لأول مرة سنة ١٩٩ هـ ، واستمر على النقود العباسية ثم الطولونية ثم العباسية ، ثم الأخشيدية ، ثم العباسية :
ثم الفاطمية :

- (١) وجدت حتى الآن ١٢ فلما مضروبا في الفسطاط نشرت في المراجع سذكها فيما بعد .
- (٢) يوجد حتى الآن من هذا الإصدار ١٧ فلما ، نشر منها ١٦ ، والأخرى محفوظة في متحف دمشق .
- (٣) نشر حتى الآن - في حد علمي - فلوس واحد محفوظ في دار الكتب المصرية .
- (٤) نشرته السيدة وداد القزاز (سوبر سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٠٦) .
- Lane-Poole : Khed. N° 863
- Berlin, N° 1385 (٥)
- Lane-poole : Jonstons cabinet (N. C. 1892, p. 160) (٦)
- (٧) نشر حتى الآن - في حبيد علمي - سبعة دنانير من ذلك الإصدار ، والثامن محفوظ في متحف دمشق .

ظهرت كلمة (المضرب) في أسفل الكتابة الوسطى من الوجه على الدينار العباسي المضروب في (مصر) ، وذلك في السنتين ٢٠٣ و ٢٠٤ هـ ، ولما نفهم من كلام المسعودي^(١) أن مصر كانت تعد من المغرب إذ ذاك :

* * *

النقود الطولونية : أنشئت مدينة القطائع في عهد أحمد بن طولون ، وضرب ابن طولون النقود ، ووضع عليها (مصر) ، ولم تذكر (القطائع) على النقود أبداً :

* * *

النقود الفاطمية : أنشئت (القاهرة) منذ سنة ٣٥٨ هـ على يد القائد جوهر الصقلي ، ومع ذلك لم يظهر اسمها على النقود ، وظلت (مصر) تبدو على النقود حتى ظهرت مرة واحدة (القاهرة المحروسة) سنة ٣٩٤ هـ ثم ظهر اسم (المعزية) على النقود المؤرخة في السنوات ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٥٣٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ هـ كما ظهر اسمها على درهم وحيد سنة ٤٧٠ هـ : وظهر اسم (المعزية) القاهرة (على الدنانير المؤرخة في : ٥٠٨ ، ٥١٨ - ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٥٥ ، ٥٦٤ - ٥٦٦ هـ .^(٨)

* * *

- (١) مروج الذهب ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .
 (٢) أقدم دينار طولوني ظهر حتى الآن مؤرخ من سنة ٢٦٠ هـ نشر في المرجعين :
 Lavoix, III, N° 4 و ٢٧٥ ص . ١٤٩٧ .
 Lane-Poole, BM. IX, P. 319, N° 761 (٣)
 (٤) ذكره الدكتور مايلز
 Miles : Fatimid Coins (NNM, N° 121, 1951), P. 50
 (٥) هذا الدرهم يحمل تاريخاً قبل انشاء القاهرة ، سنبحت فيه بعد قليل .
 Ibid, P. 51 (Thorburn Coll.)
 Zambaur : Münzprägungen des Islams, P. 189
 Miles, Op. cit., N° 387 (٦)
 Zambaur : Op. cit. P. 189 (٧)
 (٨) كل الدنانير المذكورة في : Miles : Op. cit., P. 51

وقفه تأمل في النقود الفاطمية : قبل أن تنتقل إلى نقود العهد الأيوبي يحسن بنا أن نناقش بعض الأمور الغربية التي بدت على النقود الفاطمية، وننظر في تعدد أسماء القاهرة :

١ - توجد ثلاثة دنائير فاطمية تحمل مكان الضرب (مصر) ، ذكرها الدكتور مايلز مؤرخة من السنوات : ٣٤١^(١) ، ٣٤٣^(٢) ، ٣٥٣^(٣) هـ ، ويوجد درهم يحمل (المعزية) وهو مؤرخ من سنة ٣٥٦ هـ ، أى أن هذه النقود سكّت قبل دخول الفاطميين مصر ، وقبل إنشاء القاهرة :

هذه النقود تبعث على الدهشة لذا سألت الأستاذ الدكتور مايلز عن صحة دراسة هذه النقود : فأجابني بأنه واثق من أن دارسى هذه النقود متمكنون من قدرتهم على قراءة النقود ، لذا يستبعد أن يكون أحدهم قد أخطأ ، وبخاصة فإن المرحوم لين بول أشار في الحاشية إلى أنه متأكد من قراءة التاريخ ٣٤١ هـ على الدينار المضروب حسب النمط الفاطمي المعروف في المنصورية والمهدية ، وقال ربما كان القصد من إصدار هذه النقود الدعاية الفاطمية . أقول : إذا كانت هذه النقود الأربعة سكت صحيحة وتحمل هذه التواريخ ، فإن هذا يدل على تخطيط^(٦) الخليفة الفاطمي لاحتلال مصر قبل

(١) Miles : Op. cit., P. 51

(٢) دار الكتب المصرية Lane-Poole: Khed. Lib. No 956

(٣) مجموعة الأميرة أنمايل Casanova: No 1273

(٤) Dacunha, II, P. 18, No 1424

(٥) من مجموعة المرحوم فيليب ثوربورن ، الهاوى وعالم النبات وصاحب مجموعة النقود الكبيرة التي تفرقت بين متاحف العالم والمجموعات الخاصة .

(٦) جاء في الخطط والآثار للمقرئ ج ١ ص ٣٥٢ أن المعز جمع عدة شيوخ من كتامة ، وذكر لهم اشتغاله بمصلحة الرعية وجدة في خدمة الشعب ، وطلب إليهم أن يكونوا رؤوفين بالشعب كما هو رؤوف بهم ، وبين لهم ضرر الإكثار من النساء ، وحثهم أن يقتصروا على امرأة واحدة ... وقال في آخر كلامه : « واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا - ونصركم الله - ونصركم » . ثم ورد في المرجع نفسه أن الاموال التي جمعها المعز من أجل فتح المشرق بلغت أربعة وعشرين ألف دينار ، وذلك في سنة ٣٥٧ هـ ، أنفقها جميعا على المساكين التي سيرها إلى مصر .

أن يحتلها بوقت طويل ولا بد من أن يكون - إذا كان هذا قصصه -
قد ضرب عدداً كبيراً من هذه الدنانير، وأرسلها بواسطة دعائه إلى الأشخاص
الذين يتوسم فيهم الإستجابة إلى دعوته ، لتوزيعها على الأنصار ، وفي هذه
الحالة كان يجب أن يوجد من هذه الدنانير أمثلة متعددة ، إلا إذا كان حكام
مصر الأخشيديون وضعوا أيديهم عليها أو على بعض منها وأعادوا سكها .
ولكن لو حصل أمر هام كهذا في فترة طويلة من الزمن ، لكان أحد المؤرخين
أشار إليه ، وأبان مهارة الفاطميين في الدعاية ، وحذر الأخشيديين من مقاومتها :

لو قبلنا أن هذه الدنانير التي تحمل (مصر) سكت صحيحة لغرض
الدعاية ، فكيف نقبل الدرهم المضروب سنة ٣٥٦ هـ وهو يحمل (المعزية) .
نذكر المصادر - كما سيأتي بعد قليل - أن جوهر الصقلي عندما بنى المدينة
الجديدة إلى جوار الفسطاط والقطائع أطلق عليها (المنصورية) ، ثم عندما
وصل المعز سنة ٣٦٢ هـ غير اسمها ، وأطلق عليها (المعزية) . فلو كان
الأمر مخطئاً له ، فهل كان يغيب عن جوهر الصقلي الاسم المنسوب إلى
الحليفة المنشي ؟ :

إذاً هناك احتمال أن يكون السكالك المصري في العهد الفاطمي أخطأ في كتابة
التاريخ^(١) ، وهناك احتمال ضعيف جداً أن يكون قارئ هذه النقود قد التبس
عليه أمر في قراءة هذه النقود : ومع ذلك فنحن مضطرون إلى تصنيف هذه
النقود مع النقود الفاطمية .

* * *

(١) هناك أمثلة عديدة في النقود كتب التاريخ عليها خطأ ، ولا زال العلماء يعتقدون
أنه خطأ ، مثل الدرهم العربي الخاص الذي يحمل سنة ٤٠ هـ Lavoix, I, N° 158 . وغيره
من الدراهم .

٢ - لماذا ذكرت (مصر) على النقود الفاطمية ، ولم تذكر الأسماء الأخرى (القاهرة المحروسة ، المعزية ، المعزية القاهرة) إلا نادراً أو قليلاً ؟
للجواب على هذا التساؤل أقول إن هناك احتمالين :

الاحتمال الأول : كلمة (مصر) هي الطاغية في الإستعمال ولم يدرج الإسم الجديد ، وإن هذا الأمر لا يزال حاصلًا إلى الآن ، تستعمل كلمة (مصر) عوضاً عن (القاهرة) :

مع أن هذا الاحتمال جائز ، لكنني تحريت هذا الأمر في المراجع فوجدت خصوصاً عديدة تدل على أن التمييز بين (القاهرة) و (مصر) واضح ، وإليك بعضاً منها :

المقدسى : (توفي سنة ٣٨١ هـ) : أحسن التقاسيم ... طبعة ليدن ١٩٠٦ :
خصص بحثاً لفسطاط مصر ، وبحثاً لوصف (القاهرة) ص ٢٠٠ :
ناصر خسرو : (رحلته بين سنتي ٤٢٧ - ٤٤٤ هـ) سفرنامه (تحقيقى الدكتور يحيى الخشاب ١٩٤٥) :
ص ٥٠ : ... ويتلئ « فم الخليج » من مدينة مصر ، ويتر
بالقاهرة

ص ٥١ : ... وبين مدينتي مصر والقاهرة أقل من ميل

ابن الأثير : (توفي سنة ٦٣٠ هـ) ... الطبعة المصرية سنة ١٣٠٣ هـ :
ج ٨ ، ص ٢٠٥ : ... وسار (المعز) فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار ، وبقى كثير منهم في الخيام :
ج ١١ ، ص ١٢٦ (سنة ٥٦٤ هـ) : ... وأمر شاور (عند مهاجمة الصليبيين للقاهرة) بإحراق مدينة مصر تاسع صفر ، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة :

— ٩١٤ —

المقريزى : (توفى سنة ٨٤٥ هـ) الخطط والآثار : طبعة بولاق :
ج ١ ، ص ٣٤٢ : ذكر اختصاص كل من القسطنطين والقاهرة :

لذا فإني أستبعد هذا الاحتمال ، وأميل إلى الأخذ بالإحتمال الثانى :

* * *

الإحتمال الثانى : دار السكة كانت فى مصر القديمة وظلت فيها ،
ولم تنتقل إلى المدينة الجديدة (المعزية القاهرة) إلا فى وقت متأخر. ولكن كيف
نعلل ظهور (المعزية) على دينار سنة ٣٦٢ هـ ، وظهور (القاهرة المحروسة)
على دينار سنة ٣٩٤ هـ ؟ .

أعتقد أن السكك ظل يضع (مضر) لأن دار السكة الرئيسية ظلت فى مصر
القديمة ، وأن ظهور عدد قليل من الدنانير يدل على إحداث دار جديدة للسك
فما بعد فى القاهرة .

فما يؤيد ما ذهب إليه بعض النصوص التى أوردها فيما يلى :
المقريزى : انعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٨) ،
ص ١٦٤ — ١٦٥ : « : وأمر جوهري بفتح دار الضرب ، وضرب
السكة الحمراء : » .

يلاحظ هنا أنه أمر بفتح دار الضرب ، أى أن دار الضرب كانت موجودة ،
وهى حتماً موجودة قبل الفتح الفاطمى ، ويجب أن تكون فى مدينة (مصر)
القديمة .

المقريزى : الخطط :

ج ١ ، ص ٤٠٦ : « دار الضرب : هذا المكان الذى هو الآن
(أى فى عهد المقريزى فى القرن التاسع الهجرى) دار الضرب . »

بعض القصر ، فكان خزانة بجوار الإيوان الكبير ، سجن بها
الخليفة الحافظ لدين الله : « :

يعنى هذا بأن دار الضرب نقلت إلى هذا المكان من القاهرة
في وقت متأخر ، ربما كان في العهد الأيوبي حيث ذكرت (القاهرة)
على النقود :

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، طبعة ١٩٣٣ :
ج ٤ ، ص ٥٣ : « دار الضرب بنيت في أيام الوزير المأمون
ابن البطائحي المقدم ذكره (في أيام الأمر لأحكام الله) ،
وهي بالقشاشين قبالة البيمارستان المنصوري (صححه المحقق
بالبيمارستان الفاطمي » :

يعنى هذا أن دار الضرب في العهد الفاطمي أنشئت
في القاهرة بين سنتي ٥١٥ - ٥١٩ هـ . ولكن النقود التي
تحمل (المعزى القاهرة) ضربت منذ سنة ٥٠٨ هـ - كما
سنرى - :

المقريزي : الخطط :

ج ١ ، ص ٣٤٨ : « : فبنى (جوهر) القاهرة حصنا ومعقلا
بين يدي المدينة ، وصارت القاهرة دار خلافة ، ينزلها الخليفة
بحرمه وخواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . . . » ، وقد ذكر
المقريزي نصاً آخر ص ٣٦٣ لا يخرج عن المعنى نفسه :

يفهم من هذا النص أن القاهرة اقتصر في أول أمرها على
أنها دار الحكم وسكن الحريم والخواص فقط ، لذا فإن إنشاء دار
الضرب في هذه المدينة الجديدة قد يشوبها ، ويحدث فيها ضجة

(١) لا عبرة لنقد واحد يحمل هذا التاريخ ، أعشى أن يكون دراسته مغلوطة .

ووساخة ، يضاف إلى ذلك أن دخول الصنائع والعمال إلى القاهرة يومياً من أجل العمل يُذهب من هيبة دار الحكم ، ويحدث شذوذاً في قصر المدينة الجديدة على الخواص :

* * *

٣ - تحقيق اسم المدينة الجديدة عند بنائها في العهد الفاطمي : المنصورية ، المعزية ، المعزية القاهرة ، القاهرة المعزية ، القاهرة ، القاهرة المحروسة :

إن المؤرخين والجغرافيين قد نقل بعضهم عن بعض ، وذكروا هذه الأسماء الذي نوهنا بها ، إن النقود التي وجدت حتى الآن لاتمّدتنا في تحقيق هذه القضية بمعلومات جازمة ، وذلك لأن دار الضرب - كما رجحنا سابقاً - كانت في مصر القديمة وحملت النقود على الأغلب اسم (مصر) ؟ فلنستعرض النصوص التي ذكرت هذه الأسماء :

المنصورية : أول من ذكر أن جوهر الصقلي أطلق اسم (المنصورية) على المدينة الجديدة هو المقرئزي (الخطط - ج ١ ، ص ٣٧٧) و (اتعاط الحنفا : شيال ص ١٥٨) قال : « ... ذلك أنه (جوهر) لما سار إلى الحيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكره ، وقصد إلى مناخه الذي رسمه له مولاه المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقرت به الدار ، اختط القصر ، وأصبح المسلمون يهنونه (كلدا) ، فوجدوه قد حفر الأساس في الليل ، فأدار السور اللبن ، وأسمّاها (المنصورية) ، إلى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر ، ونزل بها ، فسماها (القاهرة) : » .

نقل ابن ظهيرة (الفضائل الباهرة : تحقيق السقا والمهندس ١٩٦٩ ، ص ١٨٠) وابن تغري بردي (النجوم : ج ٤ ، ص ٤١) عن المقرئزي

وذكرا (المنصورية) . ومما يلاحظ أن الكتاب السابقين للمقرئى لم يذكروا هذا الاسم :

إن النقود الفاطمية المضروبة فى المنصورية (قرب القيروان) منذ سنة ٣٣٨ هـ ظلت تصدر باستمرار ، ولا نستطيع أن نعرف أن الدنانير التى تحمل التواريخ ٣٥٨ - ٣٦٢ هـ مضروبة فيها أوفى غيرها :

المعزّية : وردت (المعزّية) لوحدها قليلا فى كلام الكتاب ، فقد قال ناصرى خسرو (سفرنامه ص ٤٦) « .. وتسمى القاهرة « المعزّية » ، ويقال للعسكر « الفسطاط » ، لكن الكلمة وردت على النقود مستقلة ، ولكن على مقياس ضيق :

* * *

المعزّية القاهرة أو القاهرة المعزّية : ترد (القاهرة) وصفا للمعزّية ، وتأتى بعدها ؛ وهذا - فى رأين - هو الصحيح ، ثم نابت الصفة عن الموصوف ، وعلى هذا الشكل ظهرت على النقود ؛ ولكن حصل التباس على الكتاب ، فمرة كانوا يقدمون القاهرة ، ومرة يقدمون المعزّية :

ابن خلكان : (توفى سنة ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان (تحقيق محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٩) :

ج ٤ ، ص ٣١٥ (ترجمة المعز) : « وهذا المعزّ هو الذى تنسب إليه القاهرة ، فيقال : القاهرة المعزّية » :

المقرئى : (الخطط) أوردتها فى الكثير الأغلب (المعزّية القاهرة) ، لكنه مع ذلك ذكرها (القاهرة المعزّية) :

ج ١ ، ص ٣٤٨ : « أعلم أن القاهرة المعزّية : : »

- ج ١ ، ص ٣٥٤ : « : : : واليه تنسب القاهرة المعزية : : : »
 ج ٢ ، ص ١٠٨ : « اعلم أن القاهرة المعزية : : : »
 القلقشندي : (صبح الأعشى : : : القاهرة ١٣٢٢ هـ - ١٩١٤ م) :
 ج ٣ ، ص ٣٤٨ : « القاهرة ويقال فيها القاهرة المعزية نسبة إلى
 المعز الفاطمي الذي بنيت له : وربما قيل المعزية القاهرة ،
 سميت ذلك تفاؤلا » :

* * *

القاهرة : وردت لوحدها في الكثير الغالب لأنها صفة نابت عن الموصوف ،
 ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا ، لكنها لم ترد مستقلة على أى نقد فاطمي ، بل
 وردت على النقود الزنكية ثم الأيوبية ثم المملوكية :

ذكرها على هذا النحو ابن الأثير (ج ٨ ، ص ١٩٤ و ص ٢٠٥) والمقدسي
 (ص ٢٠٠) وناصرى خسرو (ص ٤٦ - ٥٧) وابن حوقل (صورة بلاد
 عراق العجم من كتاب المسالك والممالك - الطبعة الأجنبية سنة ١٨٢٢ م ،
 ص ١٠) والمقرئى (اتعاظ الحنفا : : ص ١٦٢) ، وابن جبير (توفي سنة
 ٥٧٨ هـ) (تحقيق الدكتور حسين نصار) وغيرهم : : ومن العجيب أن
 الإدريسي (توفي سنة ٥٦٠ هـ) في نزهة المشتاق ذكر الفسطاط ومصر ولم
 يذكر القاهرة :

القاهرة المحروسة : لم ترد على هذا الشكل في أى مرجع قديم ، لكن
 ستانلى لين بول ذكرها في كتابه The Story of Cairo, PP. 123 and 127
 اعتمادا على النقد المؤرخ من سنة ٣٩٤ هـ الذى نشره سابقا في : BM. IX, p. 76
 319, N° وقد وردت بهذه الصفة فيما بعد على النقود المملوكية بكثرة :

* * *

(٤) ماذا كان يقصد من وصف المعزية بالقاهرة ؟

يبدو أن الكتاب القدائي تنبها إلى معنى الكلمة ، فالتمس بعضهم تبريراً لتسميتها وعرض بعضهم بسبب التسمية تلميحاً . نذكر طرفاً من ذلك :

المقدسي (ص ٢٠٠) : « القاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي لما فتح مصر ، وقهر من فيها . . . »

ناصرى خسرو (ص ٤٧) : « : : : وقد سمي (المعز) العسكر بالقاهرة ، لأن ذلك الجيش كان قاهراً . »

المقريزي (اتعاظ الحنفا ... ص ١٦٢) قال على لسان المعز عندما جمع المشايخ ، وأثنى على جوهر لشجاعته وإخلاصه وذكر لهم عن عزمه على فتح مصر : : : « وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا . . . »

المقريزي (الخطط ج ١ ، ص ٣٦٦) : قال ابن سعيد في كتابه (المغرب في حلى المغرب عن البيهقي : : :) « وسميت القاهرة ، لأنها تقهر من شذ عنها ، ورام مخالفة أميرها ، وقدروا أن منها يملكون الأرض ، ويستولون على قهر الأمم . . . »

المقريزي (الخطط ج ١ ، ص ٣٧٧) و (اتعاظ الحنفا ص ١٥٩ - ١٦٠) ثم نقل عنه ابن ظهيرة (الفضائل ص ١٨١) ذكر قصة أسطورية كانت قيلت في بناء الإسكندرية وفي بناء القسطنطينية : خلاصتها : أن المنجمين أرادوا أن تبنى القاهرة في طالع حسن حتى لا تخرج عن ذرية الفاطميين ، فوضعوا في الأسس قوائم خشبية ، ربطوا بينها حبالاً علّق بها أجراس ، وقالوا للعمال لا ترموا الحجارة في الأسس إلا إذا سمعتم الأجراس ، وأخذوا يرصدون الطالع . ثم اتفق أن وقف غراب على حبل ، فتحركت الأجراس ، فرمى العمال الأحجار :

عندئذ صاح المنجمون : القاهرة في الطالع . وأتم المقرئى
الرواية : « ويقال إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع
الأساس ، وهو قاهر الفلك . فسموها القاهرة واقتضى نظرهم أنها
لا تزال تحت القهر : : . »

لا يفهم من كلام المقرئى تشاؤم واضح ، لكن ابن
ظهيرة يبدى تشاؤماً ويجعل الرواية تنبأً بخروج القاهرة من
أيدى الفاطميين :

هذا النوع من الروايات ذكر كثيراً في كتب التاريخ
والرحلات ، وهى تعتبر ملحا يتجمل بها الكتاب : ولكن لو
أردنا أن نجد تبريراً لهذه التسمية ، فإن انتصار الفاطميين وفوزهم
بالوصول الى المشرق ، جعلهم يتيمنون ، ويفخرون بـ قهر
العباسيين ، بل بـ قهر مذهب السنة بعد جهاد طويل . وكانوا يرجون
من وراء ذلك أن يستتب لهم الأمر ، ويوحدوا العالم الإسلامى
تحت زعامتهم ومذهبهم بعد أن دبّ الضعف في الخلافة العباسية :

* * *

النقود الزنكية :

دبّ الضعف والوهن في الدولة الفاطمية في القرن السادس الهجرى ،
وكرّرت المؤامرات وتدخل حريم القصر بالإدارة لأن الخلفاء يتسلمون
الحكم وهم أطفال : تماسكت الدولة شيئاً ما في عهد الوزير الصالح طلائع
بن رزيك ؛ لكن عمه الخليفة العاضد - كان طفلاً - دبرت مؤامرة فقتلت
الوزير ، ثم استولى على الوزارة ابنه العادل رزيك بن طلائع ، ثم قتل الآخر
بمؤامرة ثانية ، واستولى على الحكم شاور :

وقد استطاع طامع آخر - واسمه ضرغام - أن يصل إلى الحكم ، ففرّ شاور لاجئا في سنة ٥٥٨ هـ إلى نور الدين محمود بن زنكى في دمشق . إستقبل نور الدين شاور إستقبالا حسنا ، فطلب هذا مساعدته ، على أن يؤدي إلى نور الدين ثلث واردات مصر . أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه مع شاور سنة ٥٥٩ هـ ، واستطاع شيركوه إعادة شاور إلى مركزه ، لكن شاور ما إن تمكن حتى نكل بعهدة ، وطلب من شيركوه الخروج من مصر ، واستنجد بالفرنجة الصليبيين ضده :

كان موقف شيركوه حرجا عندما حوَصر في بلبس ، واضطر إلى الخروج من مصر بعد أن تعاهد مع الصليبيين على أن تخرج القوتان معا من مصر :

ظل أسد الدين يحلم بالعودة إلى مصر ، ولما كانت سنة ٥٦٢ هـ أقنع نور الدين بضرورة الإستيلاء على مصر لثلا تقع بيد الفرنجة ، وذهب بألنى فارس مصطحبا ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب عبر النيل إلى الجهة الغربية واستولى على واردات المنطقة : استنجد شاور بالصليبيين ، فأنت قواتهم بسرعة وتساندت مع قوات شاور ، ولاحقو أسد الدين إلى الصعيد.

إستطاع شيركوه ببسالية وحياته العسكرية أن ينتصر على الجيوشين الفاطمي والصليبي ، واستولى على كل المنطقة الغربية حتى الإسكندرية . لكن قوات كبيرة من الصليبيين أتت فحاصرت الإسكندرية وكان عليها صلاح الدين ، فاضطر أسد الدين أن يعسكر في بلبس وأن يصمد هو وصلاح الدين لهم ، كل في مكانه . ضغط نور الدين على الصليبيين في الشام ، فاضطر الفرنجة إلى مهادنة أسد الدين وإعطائه ٥٠ ألف دينار عدا ماجباه من مصر : وتعاهد الطرفان على الانسحاب ، فانسحب أسد الدين :

أراد شاور أن يأمن على نفسه ، فطلب من الصليبيين أن يكون لهم شحنة في القاهرة وفرسانا يحمون أبواب القاهرة مقابل ١٠٠,٠٠٠ دينار سنويا ، كثر عدد الصليبيين في مصر ، وطلب الفرسان الصليبيين من ملك الفرنج «مرى» أن يستولى على مصر . فاستولى الصليبيون على بليس وحاصروا القاهرة ، واشتد الحال على المصريين . إستنجد الخليفة العاضد بنور الدين سنة ٥٦٤هـ ، فأرسل إليه للمرة الثالثة أسد الدين ومعه صلاح الدين بقوة حسنة : استطاع شيركوه أن ينتصر على الفرنجة ويطردهم من مصر ، ودخل القاهرة . وكان شاور يدبر أمراً للقضاء على شيركوه ، أحس به صلاح الدين ، فقبض على شاور ، ثم قتله بعد الإستئذان من أسد الدين :

عندئذ ولّى الخليفة أسد الدين الوزارة ، لكنه لم يعيش بعد ذلك أكثر من شهرين وبضعة أيام ، وتولى صلاح الدين الأمر بعده وتلقب بالملك الناصر . واستطاع بلباقته واستقامته أن يقضى على كثير من الفساد ، وظل يوازن بين الوفاء للخليفة العاضد الذى أسلم إليه الأمر كله ، وبين الخضوع للعادل نور الدين الذى بدأ يشك بموالاة صلاح الدين ، عندما تباطأ بخلع العاضد والدعوة إلى الخليفة العباسى :

أخيراً ألح نور الدين بخلع العاضد سنة ٥٦٧ هـ ، فأعلن صلاح الدين إلحاق مصر بالخلافة العباسية ، وكان العاضد إذ ذاك قد مرض مرضاً شديداً ، ثم توفى دون أن يعلم بالأمر :

(١)
سكّ صلاح الدين في سنة ٥٦٧ هـ النقود الزنكية على غرار النقود الفاطمية ، لكنه جعل اسم الخليفة العباسى (المستضى) في وجهه واسم العادل (محمود ابن زنكى) في وجه آخر . وذكر مكان الضرب (القاهرة) ، واستمرت النقود

الزنكية حتى سنة ٥٦٩ هـ . (يقول المقرئ ^(١)) : : فلما زالت الدولة الفاطمية بدول الغز من الشام إلى مصر على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبع وستين وخمسة ، قررت السكة بالقاهرة باسم (المستضيء بأمر الله) وباسم السلطان الملك العادل محمود بن زنكي صاحب بلاد الشام ، فنقش إسم كل منهما في وجهه : : »

ظل صلاح الدين يدارى نور الدين ، ويهدئ من روعه لإزالة الشكوك من نفسه . ولكن مع ذلك كان نور الدين في آخر حياته يريد الذهاب إلى مصر ، ليأخذ الأمر بيده . توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، وظل صلاح الدين مخلصاً في الظاهر لابنه الطفل الصالح إسماعيل : يقول ابن الأثير (ج ١١ ص ١٥٢) ، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنته بالملك ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ^(٢) (اسم الملك الصالح) ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه .

وبالرغم مما أبداه صلاح الدين من الطاعة للأسرة الزنكية ، فإن الأمراء الزنكيين خافوا مجئ صلاح الدين إلى دمشق ، فأخذوا الصالح إلى حاب : أتى صلاح الدين إلى دمشق مع ٧٠٠ فارس ، واستطاع أن يدخل دمشق ويطمئن أهلها ، لكن قلعة دمشق امتنعت عليه ، فتوسط القاضي كمال الدين الشهرزوى يقول له ^(٣) : « أنا مملوك الملك الصالح ، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه ، وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه — وكان يخطب له في بلاده

(١) يوجد دينار مودع في جمعية النيات الأمريكية في نيويورك ANS من ذكره في حينه .

(٢) المقرئ : شذو العقود في ذكر النقود - نشر Mayer سنة ١٩٣٣ ، ص ١٢ .

(٣) لم يمت حتى الآن على دينار في مصر باسم الملك الصالح إسماعيل .

(٤) ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٥٦) .

كلها - فصعد كمال الدين إلى ربحان (متسلم القلعة) ولم يزل معه حتى سلم القلعة ، فصعد صلاح الدين إليها ، وأخذ ما فيها من الأموال ، وأخرجها واتسع بها ، وثبت قدمه ، وقويت نفسه ، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ، ويخاطبه بالملوك (كذا والصحيح بالملك) والخطبة والسكة باسمه .
 استولى صلاح الدين على حمص وحماة ، وأراد الدخول إلى حلب معلنا أنه يعد نفسه مملوكا للصالح . ومع ذلك أغلقت أبواب حلب بوجهه ، حتى أن الأمراء الزنكيين استنجدوا بالصلبيين ضد صلاح الدين ، وحاول الباطنيون قتل صلاح الدين : استطاع صلاح الدين أن ينجو ويزيل خطر الصليبيين ، وعاد محاصراً حلب بعد أن اتضحت خيانة الملتفين حول الصالح : عندئذ قطع الخطبة للملك الصالح وأزال اسمه عن السكة^(١) في بلاده في سنة ٥٧٠ هـ^(٢) :
 النقود الأيوبية :

صارت السلطة بيد صلاح الدين واستطاع أن يوحد مصر وبلاد الشام والجزيرة ، وترك حلب بيد الملك الصالح حتى توفي سنة ٥٧٧ هـ فاستولى عليها : ناجز صلاح الدين الأعداء في الداخل ، وأخذ يضغط على الصليبيين في كل مكان ، وبدأ منه لباقة وحنكة وحسن تدبير ، وقدر أن يعلو على الصليبيين في كل معركة وانتصر انتصاراً مؤزرراً في حطين ، واستعاد القدس الشريف ، واستولى على عكا وكثير من القلاع الهامة :

ضرب صلاح الدين السكة باسمه واسم الخليفة العباسي في مصر وبلاد الشام ، وظهرت (القاهرة) باستمرار على النقود ، ولم نلاحظ شذوذاً إلا في سنتي ٦٢٣^(٣) و ٦٢٤ هـ^(٤) حيث ظهرت كلمة (مصر) على الدنانير مرة أخرى :
 (١) ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٥٩) .

(٢) يوجد في متحف دمشق فلس على نسق فلوس نور الدين محمود كتب في الوجه (الملك الناصريوسف) وفي الظهر (الملك الصالح إسماعيل) ضرب بدمشق . هل يمكن أن نستنتج أنه ضرب قبل إزالة اسمه عن السكة ؟

(٣) يوجد دنانيران في متحف دمشق ، وذكر الثالث زيمارو (المرجع المذكور آنفاً) .

(٤) يوجد منه ستة دنانير ، ثلاثة منها محفوظة في متحف دمشق .

(١) أما الدينار الذى أثبتته الدكتور عبد الرحمن فهمى فى سنة غير محددة (؟) ١٩٢٠ هـ فإنه يجب أن يردّ إلى إحدى هاتين السنتين .

إن استمرار (القاهرة) على النقود يدلّ على أن دار الضرب غدت فى القاهرة - كما نوهنا سابقاً - ، وفتحت القاهرة لسكن الشعب ، بعد أن كانت قاصرة على سكن الخليفة والخواص . وقد نوه المقرئى^(٢) فى عدة مواضع : بانفتاح القاهرة على الشعب ، واتصلت بمصر القديمة ، وبدأ صلاح يحيط المدينة المتصلة كلها بسور لم ينه فى حياته .

النقود المملوكية :

حملت نقود المماليك البحرية (القاهرة المحروسة) و (القاهرة) دون أى شذوذ ، وكذلك ظهرت (القاهرة) على نقود المماليك البرجية .

النقود العثمانية :

عادت كلمة (مصر) من جديد على النقود حتى نهاية حكم الدولة :

* * *

تصنيف النقود المضروبة فى (مصر) و (القاهرة)

النقود الأموية المضروبة فى مصر :

من العجيب حقاً أن (مصر) لم تظهر على النقود العربية فى العهد الأموى إلا على الفلس الذى أشرنا إليه سابقاً ، وحددنا تاريخه سنة ١٣٢ هـ .

الدينار الأموى لم يحمل اسم مدينة الضرب فى المشرق العربى ، ونظن أن الخليفة أراد أن يكون سكّه تحت إشرافه لثلاث بلاعب بعياره ووزنه ، لكنه

(١) ابن بكرة : كشف الأسرار الملحية . . . (تحقيق د . فهمى - القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٦ الرقم ٥٢٤ .

(٢) المقرئى : المجلد ١ ، ص ٣٤٨ و ٣٦٣ و ٣٦٤ ،

مع ذلك يبدو أن الخليفة أباح سكه فيما بعد إلى وإلى أفريقية وإلى الأندلس^(٢) ،
وكرم الحجاز بأن ضرب الخليفة الأموي ديناراً خاصاً سنة ١٠٥ هـ ذكر عليه
معدن أمير المؤمنين في الحجاز^(٣) :

هذا ما نعرفه عن دراسة النقود ، لكن الدكتور عبد الرحمن فهمي^(٤) ذكر
عن الدكتور يوسف غنيم^(٥) نقلاً عن المقرئ أن الخليفة عبد الملك بن مروان
أمر إلى مصر عبد العزيز بن مروان سنة ٧٧ هـ أن يضرب الدنانير المنقوشة :
إذا كان مفاد هذا النص صحيحاً ، فإن هذا يعني أن بعض الدنانير كان يضرب
بدمشق وبعضها بمصر ؛ وكلها لا تحمل مكان الضرب ؛ لكنه ذكر مكان
الضرب على الدراهم والفلوس :

(١) أقدم دينار عربي يحمل (إفريقية) ضرب سنة ١٠٠ هـ وهو من مجموعة المرحوم
حسن حسني عبد الوهاب في تونس Walker, II, p. xlvii سنة ١٠١ هـ وهو غير منشور (من
مجموعة السيد الياس يسترس في بيروت) وقد شُح لي بنشره .

(٢) أقدم نقد عربي لاثني ضرب سنة ٩٨ هـ Walker: II, P. 79 N° C, 17 .
أقدم نقد عربي عرف حتى الآن ضرب في الأندلس سنة ١٠٢ هـ Ibid, P. 101, NO. HSA-10 .

Ibid, P. 103, N° ANS-16 a (٣)

(٤) د . عبد الرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية وعلم النميات - القاهرة
١٩٦٥ ص ٦١

(٥) د . يوسف غنيم : النقود العباسية (سومر ٩ - ١٠ - ١٩٥٣) ص ١٠٤ .

(٦) المقرئ (المخطوط ج ١ ص ٢١٠) . أشار إلى هذا الحادث الدكتور مايلز في بحثه
القيم : « Miles: The Early Islamic Bronze Coinage of Egypt (Centennial) »
« Publication, ANS, 1958, P. 475

وظن أن المقرئ حدد ضرب الدنانير سنة ٧٧ هـ ؛ لكنه استبعد أن يكون الأمر تم في تلك السنة .

وهنا يجدر بنا أن ننبه إلى أن هذا الحادث لم يكن بالضرورة واقعاً في سنة ٧٧ هـ ؛ لأن المقرئ ذكر هذا التاريخ لتحديد زمن هدم مسجد الفسطاط فقال : « :::: وهدم جامع الفسطاط كله ، وزاد فيه من جوانبه كلها في سنة سبع وسبعين ، وأمر بضرب الدنانير المنقوشة » . لا يشترط أن يكون ضرب الدنانير حاصلًا في تلك السنة :

أما الدراهم الأموية فإنها جميعاً تحمل مكان الضرب ، ماعدا درهماً واحداً^(١) فقد خلا من اسم المدينة : لمساذا لم تذكر (مصر) أو مدن مصر بما فيها (الفسطاط) على الدرهم ، ومصر عريقة بضرب النقود قبل الإسلام ؟ ، في الواقع أن هذا الأمر يدعو إلى الحيرة ، وهو يقوى وجهة نظر من يريد أن يستند على نص المقرئ في أن بعض الدنانير كان يضرب في مصر : وأظن أن هذه الحجة ستكون أقوى عندما نستعرض الدنانير المضروبة بين ١٧٠ — ١٩٩ هـ . (سيأتي ذكرها بعد قليل) :

أما الفلوس فإننا لا نعرف إلا الفلوس الذي ضربه عبد الملك بن مروان ، ويحمل اسم مصر ، وهو من مجموعة المتحف البريطاني ، والفلوس المضروب سنة (٨٨ هـ) في عهد عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٤ — ٩٠ هـ) ، والفلوس المضروب في آخر العهد الأموي سنة ١٣٢ هـ الذي أشرنا إليه سابقاً . ويجدر بنا أن نشير إلى الفلوس التي ضربها القاسم بن عبيد الله عامل الخراج في مصر بين ١١٦ — ١٢٤ هـ ، والتي لا تحمل كلمة (مصر) أو (الفسطاط) ،

(١) Lane-Poole: Khed. Lib., P. 11, N° 66 (Walker, II, P. 104)

(٢) يذكر المقرئ (شذور النقود في ذكر النقود MAYER سنة ١٩٣٣) ص ٩ حديثاً عن الرسول (ص) يفهم منه عراق مصر في ضرب الدنانير قبل التعريب طبعاً . وقد ذكره المقرئ في (إغاثة الامة . تحقيق زيادة والشياص ص ٦٢-٦٣) .

(٣) Walker, II, 925 a-d Miles: op. cit., p. 477

(١١)
لكننا نعدّها مضروبة في مصر ، وكذلك السنجات الزجاجية التي تحمل اسمها
وأسماء عدد من الولاة وأصحاب الخراج من العهد الأموي :

ولا بد لنا أيضاً من أن نشير إلى الحادث الذي ذكره المقرئ (الخطط
ج ١ ، ص ١٠٨) وفحواه أن عامل الخراج على مصر أسامة بن زيد (٩٦-
٩٩ هـ) كتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستشير في صهر تمثال الإسكندرية
(شراويل) المصنوع من النحاس من أجل سك المعدن فلوساً ؛ وكان ذلك
بسبب قلة الفلوس في مصر : وافق الخليفة بعد استشارة الخبراء ، ونفذ الأمر ؛
تلك الفلوس المصرية في تلك الفترة هامة لو تعرفنا إليها :

أما اختتام الخراج المؤرخة من السنين : ٩٠ هـ (٢) و ٩٤ هـ (٣) و ٩٥ هـ (٤) ، فهي
ليست بذات موضوع في هذا البحث :

وهذا الفلوس وحيد ، وهو من مجموعة السيد الأستاذ سمير شحنا ، فله منا
الشكر الجزيل للسماح بنشره .

إليك الآن وصف الفلوس الأموية المضروبة في مصر :

والفلوس الأموي الذي ضربه والى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان
(٨٤ - ٩٠ هـ) وهو يحمل (مصر) والتاريخ (٨٨ هـ)

الظهر : الوسط ضمن دائرة مصر

المدار : الأمير (عبد الله بن عبد الملك)

الوجه : والوسط : لا إله إلا الله وحده لا شريك له

(١) Lane-Poole: catalogue of Arabic Glass Weights, 1891, PP. 5-6

Miles : (NNM. III; PP. 83-88) (NNM. 120, PP. 9-12)

A. Launois: Catalogue d'Étalons Monétaires et autre Pièces
Musulmanes en verre de la Collection de Jean Maspert (Paris, 1960)

(٢) د . فهمي : الموسوعة ص ٦٩ = ٧٠

(٣) Walker: II, P. 295, fig. 32

Ibid, fig. 33 (٤)

المدار : (بسم الله) ضرب (هذا الفلاس سنة
: وثمنين



B.M. IX, p. 16, № 69

١ - الفليس الأموى الذى ضرب به القاسم بن عبيد الله صاحب خواج مصر
(١١٦ - ١٢٤ هـ) :

الظاهر : ^(١)الوسط محمد
الوجه : الوسط لا إله إلا
الله وحده
رسول
الله

(۲) المدار: أمر القاسم بن عبید الله

يلاحظ أن الفلاس خال من التاريخ ومن مكان الضرب :

Lane-Poole: B M I. 164 (اعتبره عباسياً)

Lavoix, I, Nos. 1660-61 (اعتبره عباسياً)

Walker, II, Nos. 925 a-d (صحح الغلط)

Miles: Early Islamic Bronze Coinage of Egypt, p. 477, No. 3

٢ - الفلاس الأموى الذى ضربه عبد الملك بن مروان (البلخى) والى مصر سنة ١٣٢ هـ فى عهد مروان الثانى :

(١) يستغرب القارئ أن أبدأ بالظهر قبل الوجه . لكنني أحبت أن أحافظ على الترتيب الذى يتبعه علماء النحاة (وأكثرتهم أجناب) تسهيلهم عند مطالعة بحث كتب باللغة العربية . وأحب أن ألقت النظر إلى أن الوجه هو الذى يتضمن مأثورة التوحيد . وليس من الضروري بعد هذا التنبيه إلى أن أكرر كتابة (الظهر) و (الوجه) إلا إذا خشيت اللبس .

(٢) وجدت هذه الكلمة الواردة فى كلام المؤرخين العرب عند تحلثهم عن النقود وهى أوفق من كلمة (الطوق) التى استعملها المرحوم الأستاذ النقشبندى وغيره وأفضل استعمال كلمة (الطوق) للدلالة على الدائرة المولدة من حبيبات أو فقط .

— ٦٣٠ —

الظهر : الوسط : (ضمن دائرة) الفسطاط الوجه : الوسط : (ضمن
دائرة) مصر

المسار : على يدى الأمير

عبد الملك بن مرون أمر عبد الله مرون أمير المؤمنين

Lavoix, I, 1494-1495

Lane-Poole: Khed. Lib. Nos. 843-844

Walker, II, 909 (B M. I, 56) and 910 (B M. IX, 163 1)

Miles: op. cit. P. 478, No. 4

د : فهمى : الموسوعة (٩٨٨ — ٩٩٣) :

* * *

النقود العباسية المضروبة فى مصر وما تداخل بينها من النقود

الطولونية والأخشيديّة

الذهبية : كنا أشرنا سابقاً إلى أول دينار ظهرت عليه (مصر) مؤرخ
من سنة ١٩٩ هـ ، ولكن ألم تضرب الدنانير العباسية فى مصر قبل هذا التاريخ
دون أن تحمل اسم مصر؟ لو تحرينا الأسماء الواردة فى أسفل كتابة الوسط
من الدنانير العباسية المؤرخة بين سنّى ١٧٠ — ١٩٨ هـ لرأينا أن بعض هذه
الأسماء هى أسماء ولاية مصر وهم :

على (بن سليمان بن على العباسى) : ١٦٩ — ١٧١ هـ :

موسى (بن عيسى العباسى) : ١٧١ — ١٧٢ و ١٧٥ و ١٧٨ هـ :

عمر (بن غيلان) عامل خراج : ١٧٢ — ١٧٣ هـ :

عمر (بن مهران) : ١٧٥ هـ :

داود (بن يزيد بن حاتم المهلبى) : ١٧٤ — ١٧٥ هـ :

إبراهيم (بن صالح بن على العباسى) : ١٧٦ هـ .

جعفر (بن يحيى البرمكى) : ١٧٦ — ١٨٦ هـ .

عباد (بن محمد اللخمي) : ١٩٦ — ١٩٨ هـ .

- ٩٣١ -

المطلب (بن عبد الله الخزاعي) : ١٩٨ هـ عزل وسجن ثم ثار أهل مصر
وأعادوه أميراً سنة ١٩٩ هـ
وضرب الدينار الأول الذي يحمل
(مصر) :

نعطي إحصاءاً تقريبياً للدينار التي ضربها هؤلاء الولاة ، لتكمل
الفائدة من هذا البحث :

٣ - الدينار ١٧٠ هـ _____ (٢) _____
على (اللوح ١)

الأمثلة المعروفة : ^(٣) دار الكتب المصرية (لين بول) ، متحف دمشق
مثالان (ع / ١٤٢٥٨ و ع / ١٤٢٧٤) ، المتحف البريطاني (لين بول) ،
متحف برلين (نوتزل) متحف استانبول (اسماعيل غالب) ، متحف ^(٤)
ANS.UM (مايلز) :

٤ - الدينار ١٧١ هـ _____
على

متحف الفن الإسلامي - متحف ANS (مايلز) :

٥ - الدينار ١٧١ هـ _____
موسى

(١) هذا ما استطعت أن ألتقطه من المراجع المتيسرة التي بين يدي . وأرجو أن أستطيع
في المستقبل أن أستكمل .
(٢) أعني بهذا الترتيب المختصر أن (على) في أسفل كتابة الوسط من الظهر ، وليس
من شيء تحت كتابة وسط الوجه ، ولا أرى داعياً أن أذكر المأثورات فهي نفسها المعروفة على النقود
العباسية .
(٣) سأذكر هذه المصادر مختصرة ، وسأعطي في النهاية ثبوتاً بهذه المختصرات من أجل العودة إليها
إذا التبس الأمر على غير المختص بالنيات .
(٤) هذه مجموعة متحف جامعة بنسلفانيا UM محفوظة في متحف بختية النيات الأمريكية
ANS.

— ٩٣٢ —

متحف الفن الإسلامى (٦ أمثلة — د : فهمى) ؛ متحف برلين
(نوتزل) ؛ باريس (لافوا) ؛ المتحف البريطانى (لين بول) ؛
(١)
ANS - UM (مايلز) ؛ روجرز :

٦ — الدينار ١٧٢ هـ

موسى

متحف الفن الإسلامى (د : فهمى) ؛ دار الكتب المصرية (لين
بول) ؛ ANS - UM (مايلز) ، روجرز :

٧ — الدينار ١٧٢ هـ

عمر

دار الكتب المصرية (لين بول) ؛ روجرز :

٨ — الدينار ١٧٣ هـ

عمر

٩ — الدينار ١٧٤ هـ

عمر

المتحف العراقى (النقشبندى) ؛ ANS-UM (مايلز) ؛ RAS

١٠ — الدينار ١٧٤ هـ

داود

متحف الفن الإسلامى^(٢) ؛ دار الكتب المصرية ؛ باريس ؛ برلين ؛
استانبول ؛ ANS-UM ؛ روجرز :

Rogers (E. T.) : Catalogue of the Collection of Muhammadan (١)
Coins (NC, Vol. III, 1883)

(٢) لن أذكر اسم المؤلف فيما يلى اختصارا وأذكره إذا ورد لأول مرة .

— ٩٣٣ —

١١ — الدينار ١٧٥ هـ

عمر

روجرز ؛

١٢ — الدينار ١٧٥ هـ (اللوحة ١)

موسى

متحف دمشق (ع / ١٤٢٩٥) ؛ برلين ؛ باريس ؛ المتحف

(١) البريطاني ؛ RAS ؛ ANS-UM ؛

١٣ — الدينار ١٧٦ هـ

إبراهيم

دار الكتب المصرية ؛ روجرز ؛

١٤ — الدينار ١٧٧ هـ (اللوحة ١)

عمر

متحف دمشق (ع / ١٣٧٥٠) .

١٥ — الدينار ١٧٨ هـ

موسى

باريس

ملاحظة : يرد أسماء الولاة على الدنانير التالية في أسفل كتابة الوسط من

الوجه ، ويحتل لقب واسم الخليفة أعلى وأسفل كتابة الوسط من الظهر :

الخليفة

١٦ — الدينار ١٩٦ هـ

المأمون عباد

دار الكتب المصرية ؛ ANS - UM ؛ روجرز ؛

Royal Asiatic Society (١)

(٦٠)

— ٩٣٤ —

الخليفة
١٧ — الدينار ١٩٧ هـ
المأمون عباد

متحف دمشق (ع/١٣٠٨٦) برلين ؛ باريس ؛ ANS - UM ؛

استانبول ؛ روجرز ؛

الخليفة
١٨ — الدينار ١٩٨ هـ
المأمون عباد

دار الكتب المصرية ؛ روجرز ؛

الامام
١٩ — الدينار ١٩٨ هـ
المأمون المطلب (اللوحة ١)

المتحف العراقي ؛ متحف دمشق (ع/١٣٦٧٨) باريس ؛

RAS, ANS-UM ؛ روجرز ؛

ملاحظة هامة : لم أذكر الدنانير التي تحمل اسم (جعفر) لأنها
كثيرة جداً ، ولما كانت سلطة جعفر البرمكي واسعة ، فإن ذكر اسمه على
الدنانير لا يعنى بالضرورة أنها ضربت في مصر :

* * *

إلى هنا لم تذكر (مصر) على الدنانير ، وقد بدأت تظهر منذ سنة ١٩٩ هـ
على يد المطلب بن عبد الله الخزاعي : ومع ذلك فإن للمطلب ديناراً ضرب
سنة ١٩٩ هـ ، ولم تذكر عليه (مصر) :

— ٩٣٥ —

ذو الريامينين

٢٠ — الدينار ١٩٩ هـ

المطلب الفضل

متحف الفن الإسلامي ؛ المتحف العراقي ؛ ANS^(١) ، يلاحظ أن
المطلب لم يذكر (الإمام المأمون) ، كما فعل على الدينار المضروب سنة ١٩٨ هـ ،
وهذا يفسر ثورته على المأمون الذي عزله وبجته^(٢) ، وأن ذكر (ذو الريامينين
الفضل) بفسر أيضاً محاولة المطلب التقرب من الفضل بن سهل صاحب الحل
والعقد في ذلك الوقت :

ذو الريامينين

الدينار — مصر — ١٩٩ هـ

المطلب الفضل

متحف الفن الإسلامي ؛ متحف دمشق (ع / ٩٤٣) ؛ دار الكتب
المصرية ؛ المتحف العراقي ؛ باريس ؛ المتحف البريطاني ؛ ANS-UM ؛ روجرز ؛

* * *

ينبغي أن ننتبه إلى أن (مصر) ظهرت على الدنانير منذ سنة ١٩٩ هـ ،
لكن ظهورها لم يكن منتظماً ، فقد وجدت دنانير بعد سنة ١٩٩ هـ تحمل أسماء
ولاة مصر كالسري بن الحكم وعبيد الله بن السري ، لا تحمل كلمة (مصر) :

* * *

وبعد فإنه يجمل بنا أن نعطي فيما يلي إحصاءاً سريعاً للسنوات التي ضربت
فيها الدنانير العباسية المصرية ، حسباً هو معروف حتى الآن :

(١) كتب التاريخ خطأ على دينارى المتحف العراقى و ANS (تسع وأربعين ومئة) .

(٢) أخرجه الجنود من السجن عندما ثاروا على عبد الله (وكيل والده العباس بن موسى بن عيسى)
الذى اشتد في معاملة الجنود .

(٣) كنت أرغب في أن أعطي وصفاً سريعاً لكل دينار ، وأذكر المتاحف التي تحفظ مثلاً
منه ، ومصادر النشر ، إلا أني خشيت الإطالة والخروج عن القصد في هذا البحث . صي أن
نشرأ كتاباً في هذا الموضوع — أن شاء الله — وسأقتصر فقط على ذكر النقود النادرة .

— ٩٣٦ —

٢١ - ٢٦ : السنوات : ١٩٩ - ٢٠٤ هـ

٢٧ - ٢٨ : السنتان : ٢٠٩ - ٢١٠ هـ (اللوحة ١ - الرقم ٢٨)

٢٩ - ٤٤ : السنوات : ٢١٤ - ٢٢٩ هـ

٤٥ - ٦٤ : السنوات : ٢٣١ - ٢٥٠ هـ

٦٥ - ٦٨ : السنوات : ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ (اللوحة ١ - الرقم ٦٨)

٦٩ - ٧٣ : السنوات : ٢٥٧ - ٢٦١ هـ

٧٤ - ٧٥ : السنتان : ٢٦٣ و ٢٦٤ هـ

٧٦ - : السنة : ٢٧٤ هـ : وقد نشره الدكتور عبد الرحمن فهمي

في موسوعته تحت الرقم ٢٣٨٠ دون

أن ينشر صورة الدينار :

لدى فحص هذا الدينار عياناً ، تبين أنه مؤرخ من سنة ٢٩٤ هـ ، وهو

يدخل في زمرة النقود العباسية بعد العهد الطولوني :

* * *

دنانير الدولة الطولونية : ولي أحمد بن طولون حكم مصر منذ سنة ٢٥٤ هـ ،

ولكن الدنانير لم تظهر طولونية إلا في سنة ٢٦٠ هـ على نطاق ضيق ، وهو الدينار

الذي نشره (لافوا رقم ٤) والمرحوم الأستاذ النقشبندی^(١) ؛ ولكن ما لبث

أحمد بن طولون بعد أن وطّد نفوذه ، وأرضى الخليفة والحاشية أن استبد بالامر

وأصدر باسمه أولاً الفلوس^(٢) ، ثم الدنانير ثم الدراهم حسب ما هو معروف

من النقود : وإليك إحصاءاً سريعاً بدنانير الدولة الطولونية :

(١) سمر ٢/٣ - ١٩٤٧ ص ٢٧٥ .

(٢) أول نقد طولوني هو الفلوس المضروب سنة ٢٥٨ هـ ذكره الدكتور فهمي وتوجرز ،

سنشير فيما بعد .

Rogers : The Coins of the Tūlūnī Dynasty, Nos. 1 and 2

٧٧ - : السنة ٢٦٠ هـ

٧٨ - ١٠٤ : السنوات ٢٦٦ - ٢٩٢ هـ (اللوحة ٢ - الرقم ٨٩ والرقم

(١٠٣

لقد أعطى الدكتور أوليف غرابار^(١) إحصاءاً عاماً للنقود الطولونية. أضيف
هنا إلى ذلك الإحصاء الدينار المضروب سنة ٢٦٠ هـ الذي لم يذكره الدكتور
غرابار ودنانير متحف دمشق التي يبلغ عددها ٢٥ ديناراً متنوعاً من سنة
٢٦٦ - ٢٩١ هـ ، ودنانير متحف الفن الإسلامي العديدة التي نشرها الدكتور
فهمي بن الأرقام (٢٩٠٥ - ٢٩١٧ ، ٢٩٢٧ - ٢٩٥٧ ، ٢٩٧٦ - ٢٩٨٢ ،
٢٩٨٤ - ٣٠١٦) :

* * *

الدنانير العباسية للمرة الثانية : استعادت الدولة العباسية سيطرتها على
مصر في سنة ٢٩٢ هـ ، وعادت نفوذها إلى الصدور بانتظام . ولكن مع ذلك
ما زلنا نجد بعض الثغرات . إليكم إحصاءاً سريعاً بما هو معروف حتى الآن :

١٠٥ - ١١٢ : السنوات ٢٩٢ - ٢٩٩ هـ

١١٣ - ١٢٦ : السنوات ٣٠١ - ٣١٤ هـ (اللوحة ٢ - الرقم ١١٦

والرقم ١١٩)

١٢٧ - ١٣٠ : السنوات ٣١٧ - ٣٢٠ هـ

١٣١ - ١٣٢ : السنتان ٣٢٢ ، ٣٢٣ هـ

١٣٣ - ١٣٨ : السنوات ٣٢٥ - ٣٣٠ هـ

(١) Grapar: The Coinage of the Tulunid (ANS-NM. 139), 1957

(٢) لا بد من أنه صدر بعض المنشورات التي لم أطلع عليها ، فإتت بعض الثغرات . أرجو
أن استكمل النواقص من أجل المطول .

ويلاحظ هنا أن الدنانير العباسية ظلت تضرب في مصر إلى سنة ٣٣٠ هـ مع أن بعض الدنانير الإخشيدية ظهرت إلى الوجود منذ سنة ٣٢٦ هـ :

* * *

الدنانير الإخشيدية : تولى محمد الإخشيد الحكم على مصر منذ سنة ٣٢٣ هـ ، ولا نعرف حتى الآن ديناراً إخشيدياً ضرب قبل سنة ٣٢٦ هـ في مصر ، لم يختلف الدينار الإخشيدى عن الدينار العباسى من حيث المأثورات إلا بذكر اسم الحاكم الإخشيدى في أسفل كتابة الوسط من الظهر حيناً ، وفي أسفل كتابة الوسط من الوجه أحياناً كثيرة ،

قام الدكتور بول بالوغ^(١) بإصدار بيان عام بالنقود الإخشيدية المعروفة ، إليكم إحصاء بالدنانير المنشورة المضروبة في مصر ، يضاف إليها محفوظات متحف دمشق غير المنشورة ، وما نشره الدكتور فهمى في موسوعته :

١٣٩ - ١٤٠ : السنتان ٣٢٦ و ٣٢٧ هـ

١٤١ - ١٥٧ : السنوات ٣٣٠ - ٣٤٦ هـ (اللوح ٢ - الرقم ١٤٣)

١٥٨ - ١٦٣ : السنوات ٣٥٠ - ٣٥٥ هـ

الفضية :

أول درهم عباسى ضرب في مصر مؤرخ من سنة ١٨٠ هـ ، أى أن الدرهم المصرى سبق ظهور الدينار الذى بدت عليه كلمة (مصر) ، ومع ذلك تعتبر الدراهم المضروبة في مصر نادرة : إليكم ثبناً بما هو معروف حتى الآن :

١٦٤ - درهم هرون الرشيد المضروب في مصر سنة ١٨٠ هـ

نشرته الأستاذة وداد القزاز : سومر ٢١ - ١٩٦٥ ، ص ٢٠٦ :

— ٩٣٩ —

١٦٥ - درهم الرشيد - مصر - سنة ١٨١ هـ Lavoix, I, No. 845

١٦٦ - درهم الرشيد - مصر - سنة ١٨٢ هـ Lane-Poole: BM. I, No. 227

١٦٧ - درهم المأمون - مصر - سنة ١٩٩ هـ Nützel : Berlin I, No. 1416

١٦٨ - درهم المأمون المضروب في (فسطاط مصر) سنة ٢٠٤ هـ ،

وهو يحمل أسماء المأمون وطاهر بن الحسين والسري بن الحكم :

Ibid, No, 1385

١٦٨ - ١ : درهم المأمون المضروب في (مصر الطاهرية) سنة ٢٠٥ هـ ^(١)

١٦٩ - درهم المأمون المضروب في مصر سنة ٢١٠ هـ وعليه كلمة

(المغرب) .

للخليفة

المأمون

عبيد الله بن السري

المغرب

عبيد الله بن السري : والى مصر بين ٢٠٦ - ٢١١ هـ :

Miles : Rare Islamic Coins (ANS-NNM, No. 118) 1950

الدكتور عبد الرحمن فهمي : الموسوعة (١٩٩٨) :

١٧٠ - درهم المأمون - مصر - ٢١٢ هـ : د : فهمي (١٩٩٩)

١٧١ - درهم المأمون - مصر - ٢١٣ هـ : د : فهمي (٢٠٠٠)

١٧٢ - درهم المعتصم - مصر - ٢٢٣ هـ : Miles : op. cit., 266

١٧٣ - درهم الواثق - مصر - ٢٢٦ هـ : دار الكتب المصرية

Lone-Poole (292)

١٧٤ - درهم المتوكل - مصر - ٢٣٣ هـ : Lavoix I, 963

(١) Lane - Poole : Johnston's cabinet (N. c. , 1892 , p. 160)

— ٩٤٠ —

١٧٥ - درهم المتوكل - مصر - ٢٤٣ هـ : Miles: op. cit., 277-278

١٧٦ - درهم المتوكل - مصر - ٢٤٤ هـ : Ibid, 279

١٧٧ - درهم المتوكل - مصر - ٢٤٧ هـ : Ibid, 280

١٧٨ - درهم المستعين - مصر - ٢٤٩ هـ : Ibid, 281 - 282

١٧٩ - درهم المستعين - مصر - ٢٥٠ هـ : Ibid, 283 - 284

١٨٠ - درهم المعتز - مصر - ٢٥٢ هـ : Ibid, 286

١٨١ - درهم المعتز - مصر - ٢٦٥ هـ : Ibid, 291

يقع هذا الدرهم الأخير في العهد الطولوني ، لكنه عباسي :

الدراهم الطولونية : هي أيضاً نادرة كالدراهم العباسية : إليكم ثباتاً بما هو معروف منها :

١٨٢ - درهم أحمد بن طولون - مصر - ٢٦٧ هـ : Rogers : Tuluni, No. 16

أشار غرابار إلى المرجعين المذكورين : Lavoix III. No. 13

١٨٣ - درهم خمارويه - مصر - ٢٧٤ هـ : متحف دمشق (ع / ١٣٥٦)
(الروح ٣)

١٨٤ - درهم خمارويه - مصر - ٢٨٢ هـ : متحف دمشق (ع / ٥٢٣٨)
أشار غرابار إلى المرجعين :

Rogers : op. cit., No. 79; Lavoix, III, No. 36

١٨٥ - درهم هرون بن خمارويه - مصر - ٢٩١ هـ :

Grabar : The Coinage of the Tulunids, No. 95 (Lane-Poole, John -
ston, P, 57)

الدراهم العباسية للمرة الثانية : ظلت الدراهم العباسية المضروبة في الفترة ما بين الطولونيين والإخشيديين نادرة ومن الغريب أن نجد درهماً في متحف دمشق مؤرخاً من سنة ٢٨٥ هـ مضروباً بمصر ولا يحمل اسم الأمير الطولوني ، ولنبداً به :

١٨٦ - درهم المعتضد - مصر - ٢٨٥ هـ : متحف دمشق (ع/١٠٧٠٢)
- وحيد (اللوح ٣) .

١٨٧ - درهم المكتفي - مصر - ٢٩٣ هـ : متحف دمشق (ع/١٩٩١)
- وحيد (اللوح ٣) :

١٨٨ - درهم الراضي - مصر - ٣٢٢ هـ (متحف دمشق (ع/١٠٨٧٩)
- وحيد (اللوح ٣) :

١٨٩ - درهم الراضي - مصر - ٣٢٣ هـ : متحف دمشق (ع/١٠٨٨٢)
وع (٥٢٧٤) (اللوح ٣) :

* * *

الدراهم الإخشيدية : الدراهم المضروبة في مصر نادرة أيضاً : وقد ذكر الدكتور بالوغ^(١) دراهم غير واضحة التاريخ ٣٢٨ هـ و ٣٢٩ هـ ودرهما مضروباً في سنة ٣٢٩ هـ ، ولكن لا يوجد مكان الضرب ، ذكره Lavoix III, 50 أما الدراهم الواضحة فإليكُم بيانها :

١٩٠ درهم الإخشيد - مصر - ٣٣٢ هـ : متحف دمشق (ع/١٩٥٣) :

Balog : (RNB, 1957) = Ader, II, P. 143

١٩١ - درهم الإخشيد - مصر - ٣٣٣ هـ : متحف دمشق (ع/١٨١٦) :

١٩٢ - درهم الإخشيد - مصر - ٣٣٦ هـ : متحف دمشق (ع/٥٤٤٠) .

صحح بالوغ ما قرأه تورنبرغ حص بـ (مصر) :

Balog : op. cit., P. 117 (Torenberg : Symbolae, P. 58, Nos. 110-111)

(١) أشرنا إليه عند التحدث عن الدلائل الإخشيدية .

- ٩٤٢ -

١٩٢ - ١ : درهم الإخشيد (مصور) ^(١) : في الوجه صورة شخص جالس على العرش يضع يده اليسرى على مسند العرش : في الظهر ، كتب في الوسط ^{بن محمد} ضمن دائرة وهو (محمد ابن طنج) ؛ وفي المدار كتبت المأثورة غير واضحة ؛ يمكن أن نميز منها : « ضرب بمصر » : « :: » :

١٩٣ - درهم أبي القاسم بن الإخشيد - مصر - ٣٣٧ هـ
Balog (Miles : ANS)

١٩٤ - درهم على بن الإخشيد - مصر - ٨ (٤) ٣ هـ : متحف دمشق
(ع / ١٤٤٠٧) :

* * *

النحاسية : الفلوس العباسية المضروبة في مصر أندر من الدراهم أيضاً ، أقدمها ضرب سنة ١٣٣ هـ ، إليكم بيانها :

١٩٥ - فلس عبد الملك بن يزيد (والى مصر ١٣٣ - ١٣٦ هـ) - مصر -
١٣٣ هـ :

لهذا الفلس أمثلة عديدة جداً في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، وفي متحف القدس (اكتشافات أريحا سنة ١٩٥١) التي درسها السيد الدكتور مايلز ^(٢) ، ومثال واحد في متحف دمشق وثلاثة في باريس ، واثنان في المتحف البريطاني : جميع هذه الأمثلة تعود إلى شكلين رئيسيين : الأول مؤرخ ، والثاني مغفل من التاريخ ، وفي كل شكل أنواع تتميز بالإشارات الموضوعة فوق أو تحت الكتابة الوسطى :

(١) أطلق أحد الصداقة على هذا الدرهم الوحيد في العلم ، وقد وعدني بإرسال صورته .
(٢) Miles : Catalogue of Islamic Coins (The Excavations at Herodian Jericho, 1951 = AASOR, XXXIII, 1951-4) No. 54

— ٩٤٣ —

الشكل الأول : (ضمن دائرة) محمد (ضمن دائرة) بسم الله

رسول لا إله إلا

الله

(المدار) ضرب هذا الفيل بمصر سنة مما أمر به عبد الملك بن يزيد

ثلث وثلاثين ومئة —

الشكل الثاني : (ضمن دائرة) عبد الملك (ضمن دائرة) لا إله إلا

بن يزيد

صلحه الله رسول الله

١٩٥ — ١ : فلس « محمد بن سعيد [بن عقبة] » صاحب الخراج في مصر

(١٥٧ — ١٥٩ هـ : ٧٧٣ — ٧٧٦ م) : لم تذكر عليه كلمة

(مصر) ، لكنه من المؤكد ضرب في مصر ، وفي القسطنطينية

بالذات :

Lavoix; I, Nos. 1663 - 4

Miles: E. I. B. C. of Egypt, p. 485, Nos. 15 (a - i)

١٩٥ — ب : فلس « مطر مولى أمير المؤمنين » (المنصور) : حطم مصر

بين ١٥٧ — ١٥٩ هـ : ٧٧٣ — ٧٧٦ م : ^(١)

Miles : op. cit. pp. 486-8, Nos. 16 (a-i)

١٩٦ — فلس إبراهيم بن صالح والى مصر (١٦٥ — ١٦٧ هـ) ضرب

مصر سنة ١٦٧ هـ هذا الفيل وحيد (في حد علمي) وهو

محفوظ في دار الكتب المصرية (لين بول ٨٦٣) :

١٩٦ — ١ : فلس « الأمير محفوظ [بن سليمان] واصلح » (١٨٦ — ١٨٧ هـ

(٨٠٢ — ٨٠٣ م)

Miles : op. cit. pp. 488 - 492, Nos. 17 - 22

(١) زيباور « معجم الأنساب ... » ص ٣٩ حدد حكمه مصر سنة ١٥٩ هـ فقط

- ١٩٦ - ب : فلس « السريّ بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروي »
Ibid; No. 23. (٢٠٠ - ٢٠٣ هـ : ٨١٦ - ٨١٩ م)
- ١٩٦ - ج : فلس « السريّ بن الحكم ومحمد بن السريّ » (٢٠٣ -
Ibid., No. 24 ٢٠٥ هـ : ٨١٩ - ٨٢٠ م)
- ١٩٦ - د : فلس « السريّ بن الحكم ونصر [بن محمد بن السريّ]
Ibid., No. 25. (٢٠٣ - ٢٠٥ هـ : ٨١٩ - ٨٢٠ م)
- ١٩٦ - هـ : فلس « السريّ بن الحكم وصلاح [بن الحكم] » (٢٠٣ -
Ibid., No. 26 ٢٠٥ هـ : ٨١٩ - ٨٢٠ م)
- ١٩٦ - و : فلس « أنى أسحق بن الرشيد وعيسى بن منصور » (٢١٥ -
Ibid., No. 27 ٢١٧ هـ : ٨٣١ - ٨٣٣ م)
- ١٩٦ - ز : فلس « المتوكل على الله » - مصر - سنة ٢٤١ هـ :
BeIrin, I : No. 2226; Miles : op. cit., No. 28
(ذكر الدكتور مايلز سهواً « المعز » عوضاً عن « المتوكل » :

* * *

الفلوس الطولونية : الفلوس المضروبة في مصر أيضاً نادرة بعضها يحمل
أسماء الطولونيين وبعضها لا يحملها صراحة ، بل تميز بالعلامة الطولونية
(١)

! ! ! . المثبتة غالباً في أسفل كتابة الوسط من الظهور .

أقدم فلس موجود حتى الآن يعود إلى سنة ٢٥٨ هـ ، لكن السنجة الطولونية
المؤرخة من سنة ٢٥٤ هـ تدعونا إلى الاعتقاد بوجود الفلس من تلك السنة .
(٢)
إليكُم بياناً بالفلوس الطولونية :

(١) من أجل دراسة هذه العلاقة راجع ماكتبه الدكتور عبد الرحمن فهمي في موسوعته
ص ١٤٣ - ١٤٧ ، وإلى أحد قسمي من رأيه فيما ذهب إليه ، وأنخص القول أنها كتابة زخرفية
هندسية بسيطة يقصد بها (أحد) استعملت في بادئ الأمر على هذا الشكل حتى لا تتخلق مشكلة
مع المركز العباسي ، ثم أصبحت شعاراً للطولونيين استعملها أيضاً من أتى بعده ، فإن فقهاء
معناها فهي للذكرى ، وإن لم يفقهوا أمست شعاراً .

(٢) المرجع السابق نسخة ص ١٤٣ .

— ٩٤٥ —

١٩٧ — فلس أحمد بن طولون (دون ذكر اسمه) مصر — ٢٥٨ هـ :

متحف الفن الإسلامى (٢٩١٨ — ٢٩٢٢)

Grabar : Tulunids, No, 1 (Rogers, Nos. 1 add 2)

Lavoix, III, 14; Miles: op. cit, No-29

١٩٨ — فلس كالسابق — مصر — ٢٥٩ هـ : متحف الفن الإسلامى

(٢٩٢٦) : Miles : op. cit, Nos. (30-31)

ليست الآحاد فى التاريخ على فلس ANS مؤكدة

Miles (RIC) Nos. 392-393

١٩٩ — فلس يحمل اسمى (المعتمد وأحمد بن طولون) ، لكن كتابة

المدارين ممحوة ، فلا يعرف مكان الضرب ولا التاريخ ، إلا أن

الدكتور مايلز^(١) قدر التاريخ بين ٢٦٤ — ٢٧٠ هـ حسب حكم

الخليفة والأمير : يوجد منه خمسة أمثلة ، نرجح أنها مضروبة

فى مصر :

الوسط : أحمد بن

طولون المعتمد على الله

||◇||

المدار : المؤمنين ؟

Miles: Tarsus... P. 301, No. 20

٢٠٠ — فلس يحمل اسم (الأمير محمد بن موسى) الطولونى عامل

طرسوس سنة ٢٧٩ هـ لا يوجد تاريخ ولا مكان الضرب :

Miles, Islamic Coins from the Tarsus Excavations of 1935-37 (١)
(The Aegean and the Near East studies Presented to Hetty Goldman)

— ٩٤٦ —

بما أمر به
الأمير محمد
بن موسى
لا إله إلا
الله محمد
رسول الله
فرد

(لافوا) اعتبره عباسيا : Lavoix, I, No. 1666
Grabar: Tulunids, 29 (Miles, ANS)
Miles : Tarsus... , P. 302, No. 21 (سبعة وعشرون مثالا)

الفلوس العباسية للمرة الثانية : لا يوجد إلا فلس واحد ضرب في مصر من هذه الفترة من سنة ٣٠٦ هـ ، ضرب خطأ أو تزيفاً بسكة الدينار ، نشره الدكتور عبد الرحمن فهمي (٢٨٥٤) : يحسن أن يقارن بالدينارين المحفوظين في متحف الفن الإسلامي (٢٤٧٨ و ٢٤٧٩) المضروبين في (مصر) والمؤرخين من سنة ٣٠٦ هـ ، فإن المآثورات واحدة ، عسى أن يكون الفلاس ضرب بسكة أحد هذين الدينارين ، أو الدينار المحفوظ في دار الكتب المصرية ، أو دينار (كنز خضر إلياس)^(١) أو دينار Rogers : سأذكر فيما بعد شيئاً عن تزيف الدنانير .

* * *

الفلوس الإخشيدية : لا يوجد منها — في حد علمنا — حتى الآن :

* * *

النقود الفاطمية : النقود الفاطمية المضروبة في مصر أكثرها الغالب من الذهب ، الدراهم الفاطمية المصرية نادرة ، والفلوس أندر .

كان شكل ومآثورات النقود الفاطمية المبكرة المضروبة في القيروان والمهديّة ، قريباً من النقود العباسية بعض الشيء ، ثم أخذت بالتباعد عنها في كل شيء ، حتى غدت ذات شكل مميز ، ومآثورات تتفق مع الاعتقادات الشيعية

(١) النقشبندی : سومر ٢/١٠ - ١٩٥٤ ، ص ١٨٧ .

السبعية الباطنية ، أتت في مدارين من المدارات الثلاثة من كل وجه : ذكر المقرئى (اتعاظ الحنفا - ص ١٦٥) و (كتاب النقود - ص ١٣) المأثورات الفاطمية على أول دينار ضرب في (مصر) سنة ٣٥٨ هـ : تختلف هذه المأثورات اختلافاً بسيطاً عما هو مثبت على النقد في الواقع :

تتميز النقود الفاطمية المبكرة المضروبة في مصر أنها تحمل اسم الشهر في تاريخ الضرب . بدأ إصدار النقود في مصر منذ سنة ٣٥٨ هـ ، أى من تاريخ احتلال القطر المصرى ، وبالرغم من أن الفاطميين بنوا مدينتهم (القاهرة) أو (المعزّية القاهرة) أو (المعزّية) ، فلم تذكر هذه الأسماء على النقود إلا نادراً ، وإنما ظهرت (مصر) في الأغلب : ولكن مما يلفت النظر وجود ثلاثة دنانير فاطمية تحمل (مصر) والتواريخ (١١) ٣٤١ ، (٢) ٣٤٣ ، (٣) ٣٥٣ هـ ، ودرهم يحمل (المعزّية) ضرب سنة ٣٥٦ هـ أشرفنا إليه سابقاً ، ونرى أنفسنا مضطرين إلى تسجيلها مع النقود الفاطمية :

* * *

الذهبية : يوجد عدد كبير جداً من الدنانير الفاطمية المضروبة في مصر محفوظة في كثير من المتاحف الهامة : متحف الفن الإسلامى ، دار الكتب المصرية ، متحف دمشق ، المتحف العراقى ، متحف استانبول ، المكتبة الوطنية في باريس ، المتحف البريطانى ، متحف أشموليان في أكسفورد : متحف ANS في نيويورك ، متحف برلين ، متحف كوبنهاغن ، : وغيرها كثير : : : نشرت النقود الفاطمية في أمهات كتب النميات ، إلا أن الدكتور

(١) دار الكتب المصرية Lane - Poole, No 956

(٢) مجموعة الأمير اسماعيل Casanova, No 1273

(٣) Dacunha, II. P. 18, No 1424

(٤) لاحظت أن النقود الفاطمية المودعة في متاحف الدول العربية في شمال إفريقيا مضروبة على الأكثر في مدن تلك الأصقاع .

(١) مايلز أعطانا سنة ١٩٥١ إحصاء لمجموعة ومجموعة جامعة بنسلفانيا UM ، وأشار إلى المراجع الهامة للمقارنة ، ويا ليتة أعطى إحصاء^(٢) لما هو موجود في المتاحف العالمية في كتاب شامل^(٣) :

إليك إحصاءاً سريعاً عن الدنانير الفاطمية المضروبة في (مصر) ولأرباع الدنانير (مصر) ثم (المعزية القاهرة) ثم (المعزية) ثم (القاهرة المحروسة) ولأبداً بالدنانير ، ثم بأرباع الدنانير :

٢٠٠ - ٢٠١ ج السنوات : ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ هـ سكت هـ

الدنانير قبل الفتح الفاطمي إذا كان نقشها صحيحاً وقراءتها صحيحة :

٢٠١ - ٢٣٩ : السنوات : ٣٥٨ - ٣٩٦ هـ (اللوح ٤ - الرقم ٢٠٣)

والرقم ٢٣١ والرقم ٢٣٩)

٢٤٠ - ٢٦٢ : السنوات : ٣٩٨ - ٤٢٠ هـ (اللوح ٤ - الرقم ٢٥٥)

٢٦٣ - ٣٠٣ : السنوات : ٤٢٢ - ٤٦٢ هـ (اللوح ٤ - الرقم ٢٧١)

٣٠٤ - : السنة : ٤٦٤ هـ

٣٠٥ - : السنة : ٤٦٦ هـ

٣٠٦ - ٣٠٧ : السنتان : ٤٦٩ و ٤٨٠ هـ

(١) Miles : Fatimid Coins (ANS. NNM No 121, New York 1951)

(٢) قمت بإحصاء تقريبي للنقود المضروبة في؟ ومسمياتها الأخرى حصلت عليه من المراجع الهامة من أجل كتابة هذا البحث ؛ ولكن يصعب نشره هنا لطوله ، وربما أملت نواقصه لكافة بحثي ووسع وبخاصة بعد الاطلاع على موجودات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة والجديد من محفوظات دار الكتب المصرية .

(٣) على نحو ما فعل الدكتور بالوخ بالنقود المملوكية وما فعلته أنا بالنقود الأغلبيّة وقد قمت بهذا العمل بتوجيه وإرشاد الدكتور مايلز وستنشر الكتاب بجميع النيات الأمريكية ANS - بإذن الله - .

(٤) من المعلوم أن السنة التي يموت فيها الخليفة ويتولى خليفة يوجد منها إصداران على الأغلب باسم كل منهما .

— ٩٤٩ —

٣٠٨ — ٣١١ : السنوات : ٤٧٢ — ٤٧٥ هـ	
٣١٢ — ٣٢٠ : السنوات : ٤٧٨ — ٤٨٦ هـ	
٣٢١ — ٣٦٢ : السنوات : ٤٩١ — ٥٣٢ هـ (اللوحة ٥ — الرقم ٣٢٤ والرقم ٣٣٠ والرقم ٣٥٠)	
٣٦٣ — ٣٧١ : السنوات : ٥٣٤ — ٥٤٢ هـ	
٣٧٢ — ٣٧٤ : السنوات : ٥٤٤ — ٥٤٦ هـ	
٣٧٥ — ٣٧٦ : السنتان : ٥٤٨ و ٥٤٩ هـ	
٣٧٧ — ٣٧٩ : السنوات : ٥٥١ — ٥٥٣ هـ	
٣٨٠ — : السنة ٥٥٦ هـ	Miles:Fatimid, 526
٣٨١ — : السنة ٥٥٨ هـ	Lavoix, III, 449
٣٨٢ — : السنة ٥٦٤ هـ ^(١)	Zambaur (M. I.) (4)

* * *

أرباع الدنانير الفاطمية المضروبة بمصر :

٣٨٣ — السنة ٤١١ هـ متحف دمشق (ع/ ١٥٢٤٨) ١٣ م ، ٩٢٥ ر.غ	
٣٨٤ — السنة ٤١٤ هـ ١٨ م ، ١٧٥٠ غ	Miles, Fatimid, 215
Ibid, 221	
٣٨٥ — السنة ٤٢١ هـ ١٧ م ، ١١٠ غ	Lane-Poole, BM. IV, 117
٣٨٦ — السنة ٤٢٣ هـ دار الكتب المصرية : 1087	Idem, Khed. lib., 1087
٣٨٧ — السنة ٤٢٦ هـ ١٧ م ، ١٠٦ غ	Miles : op. cit., 226
٣٨٨ — السنة ٤٤٤ هـ ١٧ م ، ١٠٥ غ	Ibid, 343

Zambaur: Münzprägungen des Islam, P. 189 (١) دينار وحيد
إلى مدين الدكتور مايلز الذي أرسل لي نسخة ضوئية عما يتعلق بالقاهرة من هذا الكتاب .

— ٩٥٠ —

٣٨٩ — السنة ٥٣٦ هـ متحف دمشق (ع ٩٧٧٥) ١٨ مم ، ١٠١ غ

Miles, op. cit., 507 ١٧ مم ، ٩٥ غ

* * *

الدنانير الفاطمية المضروبة باسم (المعزىة القاهرة) :

٣٩٠ — السنة ٥٠٨ هـ Zambaur (M. I.)

٣٩١ — السنة ٥١٨ هـ : متحف دمشق (ع/١٥١٨ وع/١٥٨٤).

(اللوحة ٥).

Lane-Poole, op. cit. 1258: دار الكتب المصرية

Lavoix, III, 434-435

Miles : op. cit., 475

Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٢ — السنة ٥١٩ هـ Miles : op. cit., 476

٣٩٣ — السنة ٥٢٠ هـ Lane-Paole : op. cit., 1260 دار الكتب المصرية

Miles : op. cit., 477

Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٤ — السنة ٥٢١ هـ : Lane-Poole : op. cit., 1261 دار الكتب المصرية

Miles : op. cit., 478

Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٥ — السنة ٥٢٣ هـ Miles : op. cit., 479

٣٩٦ — السنة ٥٢٥ هـ Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٧ — السنة ٥٥٥ هـ (المعزىة — كذا) دار الكتب المصرية (الرقم 1283)

٣٩٨ — السنة ٥٦٤ هـ Miles : op. cit., P. 51

— ٩٥١ —

٣٩٩ — السنة ٥٦٥ هـ (المعزة — كذا) دارالكتب المصرية (الرقم 1284)

Miles: op. cit., 527

Zambaur (M. I.), P. 189

Miles : op. cit., 528

٤٠٠ — السنة ٥٦٦ هـ

* * *

الدنانير الفاطمية المضروبة باسم المعزّة :

Ibid, P. 51

٤٠١ — السنة ٣٦٢ هـ

٤٠٢ — السنة ٥٣٢ هـ متحف دمشق (ع/٧٦١٨)

Zambaur (M. I.), P. 189

٤٠٣ — السنة ٥٥٣ هـ

Lavoix, III, 450

٤٠٤ — السنة ٦٤ (٥) هـ

* * *

الدينار الفاطمي المضروب في (القاهرة المحروسة) :

Miles op. cit., P. 50

٤٠٥ — السنة ٣٩٤ هـ

Zambaur (M. I.) P. 190, Note 7

* * *

الفضية : الدراهم الفضية المضروبة بمصر نادرة ، ولا يوجد دراهم مضروبة باسم (المعزّة القاهرة) حتى الآن ؛ ويوجد درهم وحيد ضرب في (المعزّة) . أحدث الفاطميون في آخر عهدهم الدراهم السوداء (عيارها ضعيف) — راجع ما كتبه المقرئ بشأنها (الخطط — ج ١ ، ص ٣٦٧) و (كتاب النقود ص ١٥) :

ورد إلى من السيد الدكتور هنري أمين عوض (وهو صاحب مجموعة هامة من النقود في القاهرة ، وهاو سيصل إلى درجة العالم بالعميات) أنه عثر

على درهم فاطمي كتب في الوجه (الإمام محمد المنتظر لأمر الله) وفي الظهر (الله الصمد) : سررت جداً لهذا النبأ ، لأنني عثرت في خطط المقرئزي على النص التالي الذي يؤيده الدرهم المذكور :

ج ١ ، ص ٤٠٦ : بعد أن ذكر شغور العرش بعد موت الأمر بأحكام الله ، وقيام العادل برغش ، وهزار الملوك بتنصيب الحافظ لدين الله ، قال في حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« ... فلم ترض الأجناد به (بالحافظ) ، وثاروا بين القصرين ، وكبرهم رضوان بن الحشى ، وقاموا بأبي علي بن الأفضل في سادس عشرة ، فكان أول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة ، وقيده وهم بجلمه ، فلم يتأت له ذلك ، فكان إماميا ، فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة وصار يدعو للقائم المنتظر ، ونقش على السكة (الله الصمد) ، (الإمام محمد) » سأصف هذا الدرهم تحت الرقم ٤١٠ :
أنصاف الدراهم الفاطمية المضروبة بمصر :

٤٠٦ - السنة ٣٦٤ هـ ١٨ مم ، ١٣٩٢ غ Miles : op. cit., 69

٤٠٧ - السنة ٣٨١ هـ ١٩ مم ، ١٢٦ غ Ibid:116

٤٠٨ - السنة ٤٠٦ هـ ١٩ مم ، ١٣٠٢ غ Ibid, 176

دار الكتب المصرية (الوزن ١,٤٠ غ) Lane - Poole, 1071

* * *

الدراهم الفاطمية المضروبة بمصر (ومن ضمنها الدراهم السوداء) :

٤٠٩ - السنة ٤٧٠ هـ Miles : op. cit., P. 51

٤١٠ - السنة ٥٢٦ هـ ؟ (باسم الإمام محمد المنتظر لأمر الله) = من

مجموعة الدكتور هنري أمين عوض :

— ٩٥٣ —

- (١)
 Balog, No. 1 ٤١١ — السنة ٥٤٠ هـ ٢٢٥ م ، ٢,٧٩ غ
 Idem : BIE, XXXIII, 1951 درهمان أسودان
 Idem : BIE, XXXV, 1952 ١٢ درهم أسود
 Balog, No. 2 ٤١٢ — السنة ٥٤٨ هـ ٢٢٥ م ، ٢,٢٥ غ
 Idem : BIE, XXXV, 1952 درهم أسود :
 Balog, No. 3 ٤١٣ — السنة ٥٥٨ هـ ٢٢٥ م ، ٢,٧٢ غ
 Ibid, No. 4 ٤١٤ — السنة ٥٥٩ هـ ٢٢٥ م ، ٣,٢٥ غ
 Ibid, PP. 178-9 (Soret) ٤١٥ — السنة ٥٦١ هـ — ٢,٦٩ غ
 Ibid, No. 5 ٤١٦ — السنة ٥٦٤ هـ ٢٢٥ م ، ٣,٢٥ غ

* * *

النقد الفضى الفاطمي المضروب باسم المعزية :

- ٤١٦ ا — السنة ٣٥٦ هـ درهم من مجموعة ثور بورن (ضرب قبل الفتح
 إذا كانت دراسته صحيحة) . Miles, (Fatimid), P. 51
 ٤١٧ — السنة ٤٧٠ هـ ٢٠٥ م ، ١,٤٦ غ (نصف درهم) .
 Miles (RIC), 387

* * *

النحاسية : لم أعر على أى فلس عباسي مضروب بمصر ، ولكن من
 حسن الحظ أن متحف دمشق يضم في مجموعاته فلساً مذهباً ، صنع بقصد
 تزيف الدينار ، وقد ضرب بسكة الدينار كما يبدو من مأثورة الضرب ،
 وإليك وصفه : (اللوح ٤ — الرقم ٤١٨) :

P. Balog : Notes on some Fatimid Round - Plan Dirhems (١)
 (N.C. 7th series, Vol. I, 1961)

٤١٨ - فلس مذهب - المستنصر - مصر - ٤٣٣ هـ : متحف دمشق

(ع/٣٨٠٣) - وحيد :

معد	على
الإمام أبو	لا إله إلا الله
تميم المستنصر	وحده لا شريك له
بالله أمير المؤمنين	محمد رسول الله
	ولى الله

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا محمد رسول الله أرسله - المشركون
الدير سنة ثلث وثلثين وأربعمائة

يبدو أن التزييف كان مقصوداً من قبل الخليفة الفاطمى ، عثرت على نص فى (ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢١١ سنة ٣٦٣ هـ) خلاصته أن المعز أغرى حسان بن الجراح بـ ١٠٠,٠٠٠ دينار إذا ترك وجماعته مساندة القرامطة بقيادة الحسن بن أحمد الذى هاجم مصر ، وحاصر العاصمة . ولما وفق حسان بعهدده ، وأراد الخليفة إرسال المال « فأحضروا المال ، فلما رأوه استكثروه (الفاطميون) ، فضربوا أكثرها دنائير من صفر ، وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الأكياس ... »

جرت هذه الحادثة سنة ٣٦٣ هـ ، ولم أعثر على ما يشبه هذا الحادث سنة ٤٣٣ هـ .

النقود الزنكية : أشرنا سابقاً إلى ضعف الخلفاء الفاطميين فى آخر العهد ، وكيف توطد الأمر إلى الغز (التركمان) الذين أرسلهم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بقيادة أسد الدين . تسّم هذا منصب الوزارة سنة ٥٦٤ هـ ، لكنه توفى بعد شهرين ، وخلفه صلاح الدين فى السنة نفسها . وأخيراً ألغيت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وعادت مصر ترتبط بالخلافة العباسية . عندئذ

أصدر صلاح الدين نقوداً جديدة باسم الخليفة العباسي والعاقل نور الدين محمود :

٤٢٠ - دينار العادل محمود بن زنكي - القاهرة - سنة ٥٦٧ هـ (١)

أشار إليه لين بول في كتابه (دار الكتب المصرية - ص ٣٤٥)

Lane-Poole: BM, III, Nos. 596-597

Zambaur: (M.I.), P. 189

٤٢١ - دينار العادل محمود بن زنكي - القاهرة - سنة ٥٦٩ هـ (٢) (٢٠ مم)

٤١١ غ) : (اللوح ٥) :

أرى من المفيد إعطاء مآثوراته فيما يلي : ANS-UM

المدار الخارجى (١) محمد رسول الله ﷺ	(١) بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينير بالقاهرة سنة تسع وستين وخمسمائة
(كذا) بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله	
المدار الأوسط (٢) محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله	(٢) لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو محمد .
المدار الداخلى (٣) وسلم تسليماً الملك العادل	(٣) المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين
عالم	
محمود	الإمام

- (١) أشير بهذه المناسبة إلى الدينير المضروب في (الاسكندرية ٥٥٦٧) المحفوظ في ANS قياسه (٢٠,٥ مم ٤,٥١٠ غ) وقد أرسل إلى طبعته الأستاذ الدكتور مايلز.
- (٢) أرسل إلى الأستاذ الدكتور مايلز مشكوراً طبعة هذا الدينير المحفوظ في ANS وهو من مجموعة جامعة بنسلفانيا سابقاً .

الوسط

الحسن

بن زنكى

غاية

* * *

النقود الأيوبية المضروبة في القاهرة :

ظل يوسف بن أيوب وفياً إلى الملك العادل نور الدين محمود طوال حياته :
ورأى بعد موته ٥٦٩ هـ أن يأخذ الأمور بحزم ، فاستولى على الحكم في مصر^(١)
والشام سنة ٥٧٠ هـ ، ووحد القطرين العربيين الكبيرين ، وواجه الصليبيين
بقوات منظمة ، وبروح عالية .

اتخذ لنفسه لقب الملك الناصر صلاح الدين ، وأصدر النقود باسم الخليفة
العباسي وباسمه ، وقد سكت النقود الأيوبية حسب النمط الفاطمي وظلت
تبتعد قليلاً قليلاً ، حتى غدت في عهد الملك الكامل محمد مختلفة تمام الاختلاف
بشكلها ووزنها وخطها ، إذ صارت تكتب بالخط النسخي :

الدنانير المضروبة في القاهرة وافرة ، والدراهم القاهرية نادرة ، أما
الفلوس فلما لم أجد حتى الآن فلساً أيوبياً واضحاً عليه^(٢) (القاهرة) .

* * *

(١) ترك حلب إلى الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود حتى توفي .

(٢) في متحف دمشق كثر من الفلوس يحوى أكثر من ٧٠٠ قطعة من المهددين الأيوبي والمملوكي ،
لم ينس لي أن أدرسه لأنه بحاجة إلى تنظيف ، عسى أن أحصل منه على معلومات جديدة في هذا
الموضوع وفيه أيضاً كثر كبير جداً من الفلوس يزن حوالى ٥٠ ك . غ من ضمنه فلوس أيوبية . درست
ألف نقد ونقفاً ، فوجدت ضمنها فلساً أيوبياً مضروباً بالقاهرة ، وإنما هي مضروبة بالمدن السورية .
(راجع مقال في مجلة الحوليات الأثرية السورية ، المجلد ٨ - ٩ (١٩٥٨ - ١٩٥٩) ص ٢٥ - ٥٢) .

الذهبية : سكت الدنانير الأيوبية باسم (القاهرة) منذ سنة ٥٧٠ هـ ولكن حصل شذوذ في السنتين ٥٢٣ و ٥٢٤ هـ ، فصدرت باسم (مصر) ، ويوجد أيضاً من إصدار سنة ٥٢٤ هـ ما هو مضروب بالقاهرة ، وإليك إحصاءاً سريعاً للدنانير :

٤٢٢ - ٤٤١ دنانير الملك الناصر صلاح الدين - القاهرة - ٥٧٠ - ٥٨٩ هـ
(اللوح ٦ - الرقم ٤٢٣) .

٤٤٢ - ٤٤٨ دنانير الملك العزيز عثمان - القاهرة - ٥٨٨ - ٥٩٤ هـ^(١)
(اللوح ٦ - الرقم ٤٤٣) .
يلاحظ أن دنانير العزيز عثمان بدأت منذ حياة أبيه في سنة ٥٨٨ هـ .

٤٤٩ - ٤٥٠ دنانير الملك المنصور محمد - القاهرة - ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ
(اللوح ٦ - الرقم ٤٤٩) .

٤٥١ - ٤٧٠ دنانير الملك العادل أبي بكر محمد الأول - القاهرة -
٥٩٦ - ٦١٥ هـ (اللوح ٦ - الرقم ٤٦٨) .

٤٧١ - ٤٧٧ دنانير الملك الكامل محمد - القاهرة - ٦١٦ - ٦٢٢ هـ^(٢)
(اللوح ٦ - الرقم ٤٧١) .

(١) تولى العزيز عثمان ٥٨٩ هـ بعد وفاة أبيه صلاح الدين ، ولكن يوجد دينار مؤرخ من سنة ٥٨٨ هـ نشره الدكتور فهمي (متحف الفن الإسلامي رقم ١١١ - ١١٣) . لم أعتبر على نص في المراجع يفيد أن صلاح الدين تنازل عن حق سك النقود إلى ابنه العزيز عثمان ، مع أنه عهد إليه إدارة مصر عندما كان مشغولاً في بلاد الشام .

(٢) من خلال هذه السنوات يوجد الدينار المؤرخ في سنة ٦٢٠ هـ عند الدكتور عبد الرحمن فهمي (الرقم - ٤٨٣) ذكره في مصنفه الأيوبي مع تحقيق ابن برة . وقد كتبت ما ثوراته مع كثير من الخطأ المتأني من النقش (كما أشار إلى ذلك الدكتور فهمي) لكن الدكتور فهمي قبل أن يكون الدينار مؤرخاً من تلك السنة مع أن ما ثورته الدينار تشير إلى اسم الخليفة المستنصر . ومن المعلوم أن المستنصر بدأ حكمه في سنة ٦٢٣ هـ . إذن لا يجوز أن نسلم بأن التاريخ (٦٢٠ هـ) .

Zambuar, (M. I.) P, 189

زمار ذكر مثالا من سنة ٦٢٠ هـ .

— ٩٥٨ —

٤٧٨ - ٤٧٩ دنانير الملك الكامل محمد - مصر - ٦٢٣ - ٦٢٤ هـ

(اللوح ٦ - الرقم ٤٧٨) :

في متحف دمشق مثالان من سنة ٦٢٣ هـ (ع / ٧٦٧٧
وع / ٧٦١٥) الأول واضح أنه مضروب في مصر ،
الثاني (مكان الضرب غير واضح) (اللوح ٦ - الرقم
٤٧٨) :

زيباور ذكر مثالان من سنة ٦٢٣ هـ P. 189 (M. I.), Zambaur

في متحف دمشق مثال من سنة ٦٢٤ هـ (ع / ٧٦٧٣)

(اللوح ٦ - الرقم ٤٧٩) :

دار الكتب المصرية Lane - Pools, 1392

لا يوجد وصف لمعرفة اسم المدينة P. 189 (M. I.), Zambaur

٤٨٠ - ٤٩١ دنانير الملك الكامل محمد - القاهرة - ٦٢٤ - ٦٣٥ هـ

(اللوح ٦ - الرقم ٤٩١) .

٤٩٢ - ٤٩٤ دنانير الملك العادل الثاني - القاهرة - ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ

(اللوح ٦ - الرقم ٤٩٢) .

٤٩٥ - ٥٠٤ دنانير الملك الصالح أيوب - القاهرة - ٦٣٨ - ٦٤٧ هـ

(اللوح ٦ - الرقم ٤٩٦) .

٥٠٥ - دينار شجر الدر - القاهرة - ٦٤٨ هـ (١) Balog I; BM. IV, 469

٥٠٦ - ؟ ؟ السنة ٦٤٨ هـ : لم يعط زيباور وصفاً للدينار

يجوز أن يكون لشجر الدر ، ويجوز أن يكون للأشرف

موسى ، أو أيك . Zambaur (M. I.) P. 189

(١) P. Bolog: The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria (N. S. no 12) ANS, New York, 1964

يصنف بالوع نفود شجر الدر والأشرف موسى مع المالكة .

— ٩٥٩ —

٥٠٧ — دينار الأشرف موسى الثاني — القاهرة — ٦٤٩ هـ . Balog, 3

٥٠٨ — دينار الأشرف موسى الثاني — القاهرة — ٦٥٠ هـ Ibid. 4

٥٠٩ — ؟؟ — لم يعط زمباوروصفا — ٦٥١ هـ P. 189 (M. I.) Zambaur

* * *

الدراهم الأيوبية المضروبة في القاهرة : هي نادرة كما ذكرت ، وهي موجودة على الأغلب في متحف دمشق :

٥١٠ — درهم صلاح الدين — القاهرة — ٥٨٦ : متحف دمشق (ع/٢٥٤٣) (اللوحة ٩) :

٥١١ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦٠٠ هـ : Lavoix, III, 608

٥١٢ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦٠٣ هـ : متحف دمشق (ع/٢٣٦٤) .

٥١٣ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦١٥ هـ : متحف دمشق (ع/٢٩٧٧) :

٥١٤ — درهم الصالح أيوب — القاهرة — ٦٤٣ (٤) هـ : متحف دمشق (ع/١٢٠١٨) :

٥١٥ — درهم شجر الدر — القاهرة — ٦٤٨ هـ (سبعة أمثلة) Balog, 2 +ANS+ BM

* * *

النقود المملوكية المضروبة بالقاهرة :

إن علماء النميات ، بعضهم مثل لافوا يجعل نقود شجر الدر^(١) ٦٤٨ هـ مع الممالك ، ويضع الأشرف موسى مع الأيوبيين ، وبعضهم مثل بالوغ^(٢) يضع نقود شجر الدر والأشرف موسى مع الممالك ، ذلك لأن شجر الدر أرملة الملك الصالح نجم الدين أيوب تزوجت أبيك ، وأن السلطة الفعلية وسدت إلى أبيك منذ سنة ٦٤٨ هـ ، أما سلطة الأشرف موسى الأيوبي فقد كانت إسمية^(٣) ،^(٤) لأنه صبي عمره عشر سنوات .

إن الممالك ، وهم يمارسون الحكم لأول مرة ، كانوا بحاجة إلى إسباغ الصفة الشرعية على حكمهم لذا فقد كانوا مفتقرين إلى سلطان أيوبي . ولما ولى الأشرف موسى خطب له على المنابر ، وصدرت النقود تحمل اسم الخليفة^(٥) واسمه فقط ، ولم يصدر أبيك نقوداً إلا بعد خلع الأشرف موسى سنة ٦٥٢ هـ . ولما أصدر المعز أبيك نقوده سنة ٦٥٢ هـ جعلها باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب واسمه ، مع أن الملك الصالح متوفى من سنة ٦٤٨ هـ . لكل هذا فإنه يحسن بنا أن نضع نقود شجر الدر والأشرف موسى مع الأيوبيين ، ونصنف نقود أبيك مع الممالك .

-
- (١) ورد اسمها كذلك على النقود ، إلا أن المؤرخين يذكرون اسمها (شجرة الدر) .
 (٢) في المرجع المشار اليه سابقا .
 (٣) النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٣٨) ج ٧ ص ٤ : . . . فبايموه (أى بليغ الممالك البحرية أبيك) وسلطنوه وأجلسوه في ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ .
 (٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥ : « . . . وبعد خمسة أيام (هجاذى الأولى) ثارت الممالك البحرية الصالحية وقالوا لا بد لنا من سلطان يكون من بنى أيوب . . . واتفق كامل الأمراء . . . واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بنى أيوب يكون له اسم السلطنة . . . فوقع الاتفاق على الملك الأشرف مظفر الدين موسى . . . وتقدير عمره عشر سنوات . . . »
 (٥) أما المراسيم والأوامر فكانت تصدر باسمه السلطاني الملكي واسم أبيك الملكي (النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦) .

— ٩٦١ —

إن النقود المملوكية المبكرة (من عهد المنصور نور الدين على وقطرز) كانت تقريباً على نسق النقود الأيوبية بترتيبها وشكلها ومأثوراتها ، ثم أخذت منذ عهد الظاهر بيبرس الأول تتخذ شكلاً جديداً وتحمل شعار الملك (كان شعار بيبرس سبع يتجه إلى اليسار) : أضاف بيبرس اسم الخليفة العباسي في مصر على نقوده لإضفاء الشرعية على حكمه وتقوية نفوذه أمام زملائه المماليك :

يلاحظ أن النقود المملوكية ، وبخاصة الدراهم البرجية منها ، ليست منتظمة الضرب ، ولا تظهر عليها المأثورات كلها إلا نادراً ، ويعود هذا إلى ضرب قطع معدنية صغيرة في سكة كبيرة ، أو إلى قرض أجزاء من النقد ، حتى أن كثيراً من أجزاء الدراهم هي بمثابة (قطع) مقروضة .

وزن الدينار المملوكي غير ثابت ، ولو أنه في أكثر الأحيان يكون بين ٣ و ٣,٥٠ غ ، الشيء الحديد في سك النقود المملوكية هو إصدار ذنانير مضاعفة (مرتين وثلاث وأربع مرات) . يوجد دينار يصل وزنه إلى ١٦,٨٥ BM.IV, 643

الذهبية : سنعطي إحصاءاً سريعاً للذنانير المماليك البحرية والبرجية المضروبة في القاهرة :

٥١٦ - ذكر زمباور (M. I.) ص ١٨٨ ديناراً من سنة ٦٥٢ هـ دون أن يعطي وصفه :

٥١٧ - دينار المعز عز الدين أيبك (ذكر فيه الصالح أيوب واسمه)
٦٥٤ هـ .

Balog 6. (Thorburn Voll. = BM. IX, 470^a); Zambaur (M. I.), P. 189

٥١٨ - دينار المنصور نور الدين على - (٦٥٩ هـ)
Zambaur (M. I.) P. 189

— ٩٦٢ —

٥١٩ — دينار المنصور نور الدين على ٦٥٧ هـ (مثالان) Balog, 18

٥٢٠ — دينار المظفر قطز — ٦٥٨ هـ (١٦ مثالا) Balog, 23, ANS

٥٢١ — ٥٢٩ دينار الظاهر بيبرس الأول — ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ،

٦٦٢ ، ٦٦٦ — ٦٦٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٤ هـ :

٥٣٠ — دينار السعيد بركة فان — ٦٧٦ هـ Balog, 104

٥٣٢ — ذكر زمباور ديناراً من سنة ٦٧٨ هـ بدون وصف ، يجوز أن

يكون إما لسلامش أو لقلاوون .

٥٣٣ — ٥٣٥ دنائير المنصور قلاوون — ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ هـ :

(اللوح ٧ — صورة الدينار المؤرخ (٢) ٦٨ هـ من متحف

دمشق) :

٥٣٦ — ٥٣٩ دنائير الأثيرف خليل — ٦٨٩ — ٦٩٢ هـ (٦٩٠ هـ

مضروب في القاهرة المحروسة ^(١)) (اللوح ٧ — الرقم ٥٣٦)

٥٤٠ — ٥٤٢ دنائير العادل كتبغا — ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ .

٥٤٣ — دينار المنصور لاجين — ٦٩٧ هـ (أربعة أمثلة)

Balog, 162

٥٤٤ — الناصر محمد (حكمه الأول ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ) ، يظن أن

ليس له في هذه الفترة أى دينار ، وأن الدينار المؤرخ

في (٢) ٦٩ هـ ربما كان يعود إلى حكمه الثانى

Balog, 167, (BM. IX, 498k)

٥٤٥ — ٥٤٦ دنائير الناصر محمد (حكمه الثانى ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ) —

Balog 168 ٧٠٢ هـ Zambaur ٧٠٧ هـ

(١) ليس المقصود أن تعطى القاهرة اسماً جديداً بهذا الوصف ، وإنما هو نعت استعمل
لقاهرة ولدمشق على النقود المملوكية وخاصة الدراهم .

- ٩٦٣ -

٥٤٧ - ٥٦٥ دنائير الناصر محمد (حكمه الثالث ^(١) ٧٠٩ - ٧٤١ هـ) -

٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٦ ، ٧٢٤ ، ٧٣٠ ، ٧٤١ هـ

ذكر هذا التسلسل زمباور M. I. من ضمنها ذكر بالوغ

٧٣٣ ، ٧٣٨ ، ١٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ هـ : (اللوح ٧ -

الرقم ٥٦٤) :

٥٦٦ - دينار المنصور أبي بكر - ٧٤٢ هـ وحيد Balog, 266

٥٦٧ - ٥٦٩ دينار الصالح اسماعيل ^(٢) - ٧٤٣ - ٧٤٥ هـ .

٥٧٠ - ٥٧١ دينار الكامل شعبان الأول - ٧٤٦ - ٧٤٧ هـ .

٥٧٢ - دينار المظفر حاجي الأول (القاهرة المحروسة) ٧٤٧ هـ ،

٥٧٣ - الدينار ٧٤٨ هـ الذي لم يذكره بالوغ ، وذكره زمباور

في تسلسله دون وصف ، لاندرى أهو يعود إلى المظفر

حاجي الأول أم إلى الناصر حسن ؟ - وحيد :

٥٧٤ - ٥٧٧ دنائير الناصر حسن (حكمه الأول) ٧٤٩ - ٧٥٢ هـ :

٥٧٨ - ٥٨١ دنائير الصالح صالح - ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ (اللوح ٧ -

الرقم ٥٧٩) .

٥٨٢ - ٥٩٠ دنائير الناصر حسن (حكمه الثاني) ٧٥٦ - ٧٦٢ هـ ،

(اللوح ٧ - الرقم ٥٨٣) :

٥٩١ - ٥٩٣ دنائير المنصور محمد - ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ .

(١) حكم بين عهدى الناصر محمد الثانى والثالث المظفر ركن الدين بيبرس الثانى، وليس

له دنائير معروفة حتى الآن .

(٢) قبل هذا الملك حكم الأشرف علاء الدين كجك (٧٤٢ هـ) والناصر شهاب الدين

أحمد (٧٤٢ - ٧٤٣ هـ) وليس لها دنائير حسبها هو متيسر لدينا من المعلومات .

- ٩٦٤ -

٥٩٤ - ٦٠٨ دنانير الأشرف شعبان الثاني - ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ (زمباور

ذكر في تسلسله الدينار ٧٧٠ هـ الذي ينقص من تسلسل

بالوغي (اللوح ٧ - الرقم ٥٩٦) :

٦٠٩ - ٦١٣ دنانير المنصور على - ٧٧٨ - ٧٨٢ هـ (اللوح ٧ -

الرقم ٦١٣) .

٦١٤ - دينار الصالح صلاح الدين حاجي الثاني (هذا لقبه

في حكمه الأول) ٧٨٣ هـ .

٦١٥ - دينار المنصور ناصر الدين حاجي الثاني (هذا لقبه في حكمه

الثاني) ٧٩١ هـ .

* * *

الممالك البرجية :

إن الممالك البرجية (وهم من الشركس) أخذوا يزاحمون الممالك البحرية (وهم من الأتراك) منذ زمن ، وقد استطاع الملك الظاهر برقوق أن يخلع الصالح حاجي الثاني سنة ٧٨٤ هـ ، ويحكم هو بنفسه بين ٧٨٤ - ٧٩١ هـ ، ولكن تمكن الممالك البحرية أن يستعيدوا شيئاً من قوتهم ، ويخلعوا برقوق في سنة ٧٩١ هـ ، وأعادوا حاجي الثاني بلقب جديد فيه نشوة النصر (المنصور ناصر الدين حاجي) . ما لبث برقوق أن استجمع قوته من البرجيين ، وأزاحوا حاجي الثاني ، وتملكوا نهائياً . وإليك إحصاء بدنانير البرجيين :

٦١٦ - ٦٢١ دنانير الظاهر برقوق (حكمه الأول ٧٨٤ - ٧٩١ هـ) ،

٧٨٤ - ٧٨٩ هـ :

٦٢٢ - دينار الظاهر برقوق (حكمه الثاني ٧٩٢ - ٨٠١) ٧٩٢ هـ

Lavoix, III, 954

(وحيد)

— ٩٦٥ —

٦٢٣ - ٦٣٠ دنائير الظاهر برقوق - ٧٩٤ - ٨٠١ هـ ينقص تسلسل
بالوغ ٧٩٥ و ٧٩٦ هـ سدّ النقص الأول متحف دمشق
(ع / ١٨١٨) ولكن العشرات في التاريخ غير مؤكدة
(٥ (٨ / ٩) هـ) ، وسدّ النقص الثاني زمباور (M. I.)
اللوحة ٨ - الرقم ٦٢٤

٦٣١ - ٦٣٨ دنائير الناصر فرج (حكمه الأول ٨٠١ - ٨٠٨ هـ)
٨٠١ ، ٨٠٣ - ٨٠٨ هـ .

٦٣٩ - ٦٤٣ دنائير الناصر فوج (حكمه الثاني^(١) ٨٠٩ - ٨١٥ هـ)
٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ هـ ، (اللوحة ٨ -
الرقم ٦٤٢) .

ذكر زمباور (M. I.) ٨١٥ هـ دون وصف. هل يجوز أن
يكون لفرج في هذه الفترة ؟

٦٤٤ - دينار الخليفة العباسي في مصر المستعين بالله أبو الفضل
عباس حكم في سنة ٨١٥ هـ في فترة اختلاف المماليك
على الحكم ، وأصدر ديناره المؤرخ في ٨١٥ هـ بالقاهرة
ودمشق : في متحف دمشق أربعة أمثلة منها واحد ضرب
في القاهرة - (ع/٢٠٥٥) وهو نفسه الذي ذكره بالوغ
تحت الرقم القديم ٥٩٠٦ وزنه ٣,٤٢ غ (اللوحة ٨ -
الرقم ٦٤٤) ، وقد ذكر بالوغ مثالين آخرين
Nos. 671 - 671 a

٦٤٥ - ٦٤٨ دنائير المؤيد شيخ - ٨١٥ - ٨١٦ ، ٨٢١ ، ٨٢٣ هـ

(١) بين حكى الناصر فرج حكم المنصور عبد العزيز (٨٠٨ - ٨٠٩ هـ) وليس له دينار
في حد علمنا .

— ٩٦٦ —

٦٤٩ — دينار المظفر أحمد — ٨٢٤ هـ وهو دينار وحيد محفوظ
في متحف دمشق (ع/٣٩٢٣) وهو نفسه الذي ذكره
بالوغ تحت الرقم القديم ١٠٨٥٧ (: (اللوح ٨ — الرقم
٦٤٩) :

٦٤٩ — ١ دينار الظاهر سيف الدين ططر بنقصه التاريخ ومكان
الضرب يجب أن يكون مؤرخاً من سنة ٨٢٤ هـ :

٦٥٠ — ٦٦٢ دنائير الأشرف برسباي — ٨٢٧ ، ٨٢٩ ، ٨٣١ ، ٨٣٣ —
٨٣٨ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ هـ (اللوح ٨ — الرقم ٦٥٠)

٦٦٣ — دينار العزيز جمال الدين يوسف : بدأ حكم العزيز يوسف
في أواخر سنة ٨٤١ هـ ، وانتهى في أوائل ٨٤٢ هـ . وذلك
لمدة ثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان له من العمر ١٤ عاماً ،
وقد جعل جقمق مشرفاً على نظام المملكة ، لكن جقمق
ما لبث أن خلع العزيز وتسلم الحكم بنفسه :
يوجد من دنائيره سبعة أمثلة (أحدها في متحف دمشق)
لم يظهر رقم الاتحاد جلياً في التاريخ ، لذا نكتب تاريخ
هذا الإصدار (١) ٨٤ هـ أو (٢) ٨٤ هـ :

٦٦٤ — ١ دنائير الظاهر جقمق — ٨٤٢ — ٨٤٣ ، ٨٤٤ (٥ / ٤) هـ
(متحف دمشق ع/ ١٥٢٠٥) ٨٤٦ ، ٨٤٧ ،
٨٥٤ هـ (اللوح ٨ — الدينار المؤرخ في ٤ (٥ / ٨١٤) هـ) :

٦٦٥ — دينار المنصور فخر الدين عثمان — ٨٥٧ هـ (حكم ٤٦
يوماً فقط) :

(١) من مجموعة الدكتور هنري أمين عرض . أشكره لاهتمامه بعلم الفيات والعاملين فيه .

في منصف دمشق مثالان ، التاريخ في أحدهما (ع/١٢٧٥)^(١)
غير واضح (اللوح ٨) ، والثاني لا يظهر فيه مكان
الضرب (ع/٩٧٢٦) يوجد مثال ثالث في ANS ورابع
في استانبول Balog, 756

٦٦٦ — دينار الأشرف إينال — ٨٥٧ هـ (لأول مرة يبدو التاريخ
بالأرقام) Balog, 758-9 يوجد منه أحد عشر مثالا ،
خمس منها واضحة ، والباقي ينقصه التاريخ الواضح ومكان
الضرب :

٦٦٧ — ٦٦٨ دينار الأشرف إينال — ٨٦٣ — ٨٦٤ هـ (الدينار ٨٦٤ هـ
ذكره زمباور M. I.) ذكر زمباور بدون وصف
(٨٦٥ هـ) ولا ندرى أينما أم المؤيد شهاب الدين
أحمد أم خشقدم ؟ :

٦٦٩ — دينار المؤيد شهاب الدين أحمد — ٨٦٥ هـ : ذكره لافوا^(٢)
مثالا واضحا تحت الرقم (١٠٦٧) وذكر بالوغل مثالا
آخر (779b) :

٦٧٠ — ٦٧٥ دنابر الظاهر خشقدم — ٨٦٥ — ٨٧٠ هـ : ذكر زمباور
الثلاثة الأخيرة (٨٦٨ — ٨٧٠ هـ) زمباور بدون وصف :
(اللوح ٨ — الرقم ٦٧٢) .

٦٧٦ — ذكر زمباور (M. I.) دينارا من سنة ٨٧٢ هـ دون
وصف فلاندرى أهو يعود إلى خشقدم ، أم إلى الظاهر
بلبای ، أم إلى الظاهر تمرغا ؟ :

(١) هو نفسه الذى ذكره بالوغل تحت الرقم القديم (١٢٥٦) وجاء في كتابه تحت
الرقم 755 .

(٢) حكم أربعة أشهر فقط .

— ٩٦٨ —

٦٧٧ — دينار الظاهر سيف الدين بلباي^(١). لا يظهر عليه مكان

الضرب ولا التاريخ، يجب أن يكون من سنة ٨٧٢ هـ.

٦٧٨ — ٦٨١ دنانير الأشرف قايتباي — ٨٧٩ هـ (ذكره زمبـاور)

٨٨٦، ٨٨٩، ٨٩٧ هـ :


٦٨٢ — ٦٨٢ : دنانير الناصر محمد الثاني — ٩٠٢ و ٩٠٤ هـ .

الدينار المؤرخ من سنة ٩٠٢ هـ وحيد وهو من مجموعة

متحف دمشق ، كتب التاريخ (٩٥٢ كذا) = أى أن

(الصفر) كان يكتب في العهد المملوكى كالخمسة في أيامنا

هذه ، أما (الخمسة) فقد كانت تكتب على النحو التالى

أو  (اللوح ٨ — الرقم ٦٨٢) :

٦٨٣ — ٦٩١ دنانير الأشرف قانصوه الغورى^(٢) — ٩١٢ — ٩٢٠ هـ .

٦٩٢ — دنانير الأشرف طومان باي — ٩٢٢ هـ :

* * *

الفضية :

٦٩٣ — ٦٩٦ دراهم المعز عز الدين أيبك (درهمه باسم الملك الصالح

أيوب واسمه) ٦٥٢ — ٦٥٥ هـ :

٦٩٧ — درهم المنصور نور الدين على ٦٥٤ هـ^(٣) ، متحف دمشق

(ع / ١٢٠٤٤) (اللوح ٩ — الرقم ٦٩٧) .

(١) من مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض فى القاهرة .

(٢) حكم بين سنتى ٩٠٤ — ٩٠٦ هـ ثلاثة ملوك . وكان الحكم فى تلك الفترة غير مستتب .

(٣) لقد كان هذا الدرهم هو الوحيد فى العالم قبل أن نعلم بوجود تسعة دراهم مملوكية ، أحدهما مثل درهمنا هذا . راجع :

Bacharach, Jere L. : Numismatic Literature, No. 81,
December 1968, ANS, NEW YORK, P. 68,
No. 372

— ٩٦٩ —

هذا الدرهم مضروب بالقاهرة ، ومؤرخ بكل
وضوح من هذه السنة ، وهو درهم هام جداً . فإذا كان
الضرب صحيحاً من سنة ٦٥٤ هـ فهو يصحح ما جاء في جميع
الكتب التاريخية وكتب النيات ، فهي جميعاً تجعل بدء
حكم المنصور على يبدأ من سنة ٦٥٥ هـ ، ولكن مع ذلك
لا أستبعد أن يكون أهلك أراد قبل موته أن يضرب هذا
الدرهم باسم ابنه تقوية لنفوذه عندما يصل إلى الحكم ،
لأننا نعلم أن نقود أهلك نفسها كانت تحمل اسم الملك
الصالح أيوب المتوفى ، فهو إجراء لاختبار رد الفعل
عند الممالك والشعب .

٦٩٨ - ٧٠٠ دراهم المنصور نور الدين على : ٦٥٥ - ٦٥٧ هـ (اللوح
٩ - الأرقام ٦٩٨ - ٧٠٠) .

٧٠١ - ٧٠٢ دراهم المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ :
٧٢١ - ٧٠٣ دراهم الظاهر بيبرس الأول ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ (اللوح ٩ -
الأرقام ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧١٣ ، ٧١٤) و (اللوح ١٠ -
الرقمان ٧١٧ ، ٧٢١) .

٧٢٢ - ٧٢٤ دراهم السعيد بركة قان ٦٧٦ - ٦٧٨ هـ :
٧٢٥ - درهم العادل بدر الدين سلامش (٨) ٦٧ هـ : متحف
دمشق (ع / ٧٥٠١) Balog 113-4 (اللوح ١٠ -
الرقم ٧٢٥) .

٧٢٦ - ٧٣١ دراهم المنصور قلاوون : ٦٧٨ ، ٦٧٩ (متحف دمشق) ،
٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ هـ .

— ٩٧٠ —

٧٣٢ — درهم الأشراف خليل (٦٨٩ / ٦٩٣ هـ) ذكر بالوغل ١٧

مثالاً ويوجد في متحف دمشق (ع / ٧٥٢١) ومثال

آخر ليس بتاريخه وضوح :

٧٣٣ — ٧٣٤ دراهم العادل كتبها ٦٩٤ — ٦٩٥ هـ :

٧٣٥ — دراهم المنصور لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨) ذكر بالوغل

مثالين ويوجد ثالث في متحف دمشق (ع / ٧٥٣١)

ليس فيها وضوح التاريخ :

الناصر محمد (حكمه الأول ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ) لا يوجد من

هذه الفترة دراهم منشورة :

الناصر محمد (حكمه الثاني ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ) . يوجد

عدد كبير من دراهمه في متحف دمشق لكن لا يتضح

مكان الضرب :

٧٣٦ — ٧٣٧ دراهم المنصور محمد (حكمه الثالث ٧٠٩ — ٧٤١ هـ)

يوجد أيضاً في متحف دمشق عدد كبير من الدراهم ،

بعضها التاريخ عليه واضح ، لكن مكان الضرب غير واضح

نذكر منها ٧٢٣ ، ٧٣٠ هـ (ع / ١٠٧١١ وع / ١٣٩٨٧)

ذكر لين بول درهماً ضرب بالقاهرة لا يعرف من تاريخه

إلا الآحاد (؟؟) هـ . BM. IV

٧٣٨ — درهم المنصور أبو بكر (٧٤١ — ٧٤٢ هـ) : في متحف

دمشق (ع / ١٣٩٨٩)

درهم ، التاريخ غير واضح عليه يجب أن يكون (١) ٧٤ هـ ،

أو (٢) ٧٤ هـ .

— ٩٧١ —

٧٣٩ — ٧٤٠ درهم الناصر أحمد (٧٤٢-٧٤٣ هـ) : ذكر بالوغ درهماً ،

التاريخ عليه غير واضح :

في متحف دمشق درهم مؤرخ من سنة ٧٤٣ هـ مكان

الضرب عليه غير واضح (ع/ ١٠٧٣٠) (اللوحة ١٠-

الرقم ٧٤٠) :

٧٤١ — ٧٤٢ دراهم الصالح اسمعيل (٧٤٣-٧٤٦ هـ) : ذكر بالوغ

درهماً ، التاريخ عليه غير واضح : في متحف دمشق أربعة

دراهم مؤرخة من سنة ٧٤٤ هـ ، ولكن مكان الضرب

عليها غير واضح (ع/ ١٣٩٩٢) : (اللوحة ١٠ - الرقم

٧٤٢) :

٧٤٣ — درهم الكامل شعبان الأول (٧٤٦-٧٤٧ هـ) في متحف

دمشق درهم مؤرخ ٤٦ (٧) هـ ، لكن مكان الضرب غير

واضح (ع/ ١٣٤٩٣) :

المظفر حاجي الأول (٧٤٧-٧٤٨ هـ) : ليس له دراهم

يتضح عليها التاريخ ، ولا مكان الضرب :

٧٤٤ — ٧٤٥ درهم الناصر حسن (حكمه الأول ٧٤٨-٧٥٢ هـ) ٧٤٨ هـ

BM. IV, 551 يوجد درهم آخر التاريخ عليه غير واضح :

الصالح صالح (٧٥٢-٧٥٥ هـ) : لا يوجد :

٧٤٦ — درهم الناصر حسن (حكمه الثاني ٧٥٥-٧٦٢ هـ) :

درهم ، التاريخ عليه غير واضح : Balog, 363

المنصور محمد (٧٦٢-٧٦٤ هـ) : لا يوجد دراهم من

عهده حتى الآن :

— ٩٧٢ —

٧٤٨ - ٧٤٧ دراهم الأشرف شعبان الثاني (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) يوجد
دراهم من شكلين التاريخ عليها غير واضح .

Balog, 428-9

٧٤٩ - درهم المنصور علاء الدين على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) درهم

في متحف دمشق (ع/ ١٥٢١) التاريخ عليه غير واضح .

٧٥٠ - درهم حاجي الثاني (حكمه الأول مع اللقب الصالح

٧٨٣ - ٧٨٤ هـ) .

دراهم في متحف دمشق (ع/ ١٠٧٥٤) التاريخ عليه

غير واضح .

٧٥١ - درهم حاجي الثاني (حكمه الثاني مع اللقب المنصور

٧٩١ - ٧٩٢ هـ) درهم في متحف دمشق (ع/ ١٤٠٠٤)

التاريخ عليه غير واضح :

* * *

دراهم الممالك البرجية :

٧٥٢ - درهم الظاهر برقوق (من حكمه الأول) ٧٨٩ هـ .

الناصر فرج (حكمه الأول ٨٠١ - ٨٠٨ هـ) لا يوجد .

٧٥٣ - الناصر فرج (حكمه الثاني^(١) ٨٠٩ - ٨١٥ هـ) يوجد

ثلاثة أشكال من الدراهم التاريخ عليها غير واضح

ولا يعرف على الضبط من أية فترة من حكمه .

٧٥٤ - يوجد درهم مؤرخ ١٢ (٨) هـ . مكان الضرب غير

موجود :

متحف دمشق (ع ٧٢٢٧) (اللوح ١٠ - الرقم ٧٥٤)

(١) حكم بين الفترتين المنصور عبد العزيز (٨٠٨-٨٠٩ هـ) وليس له نقود باسمه حتى الآن.

٧٥٥ - درهم الخليفة المستعين بالله (٨١٥ هـ) : ٨١٥ هـ يجب أن

يكون مكان الضرب القاهرة Balag, 673-4

٧٥٦ - ٧٦١ دراهم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) : ٨١٥ ، ٨١٧

- ٨٢١ هـ

Balog, 686-9 and A-K

٧٦٢ - ٧٦٣ دراهم الأشرف برسبائى^(١) (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) ٢٥ (٨) هـ

متحف دمشق (ع / ١١٤٧٧) (اللوح ١٠ - الرقم ٧٦٢)

٨٣٦ هـ متحف دمشق (ع / ٢٥٢١) .

٧٦٤ - ٧٦٥ دراهم جقق^(٢) (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) ٨٤٥ ، ٨٤٦ هـ

٧٦٦ - ٧٦٩ دراهم الأشرف إينال (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ) : ٨٦١ ، ٨٦٤ هـ

٧٧٠ - ٧٧١ دراهم الظاهر خشمقدم^(٣) (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ) : ٨٦٦ ، ٨٦٨ هـ

٧٧٢ - ٧٧٤ دراهم الأشرف قايتباى^(٤) (٨٧٣ - ٩٠١ هـ) : ٨٨٥ هـ

(مكان الضرب غير موجود - متحف دمشق) . ٨٨٦ هـ

٨٨٧ هـ ، وقد ذكر بالوغل عدداً من الدراهم نوارى عليها غير

واضحة .

٧٧٥ - درهم الناصر محمد الثانى^(٥) (٩٠١ - ٩٠٤ هـ) : ٩٠٢ هـ

Balog, 849 لا يوجد دراهم للملوك التالين .

* * *

(١) حكم قبله المظفر أحمد والظاهر ططر والصالح محمد وليس لهم دراهم حتى الآن .

(٢) حكم قبله العزيز يوسف ، وليس له درهم حتى الآن .

(٣) حكم قبله المؤيد أحمد ، وليس له دراهم حتى الآن .

(٤) حكم قبله الظاهر بلباى والظاهر تمرىفا وليس لهما دراهم حتى الآن .

(٥) كتب التاريخ بالأرقام ٩٥٢ ، أى أنه كتب الصفر كالحكمة التى تستعملها الآن .

— ٩٧٤ —

النحاسية : الفلوس المملوكية حالتها سيئة إجمالاً والمعلومات عليها ناقصة ،
لكن فيها تنوعاً عظيماً من حيث المآثورات والزخارف والشعارات وتوزيعها
ضمن قطاعات ومناطق :

فلوس الممالك البحرية المضروبة في القاهرة :

- ٧٧٦ — فلسن المظفر قطز ٦٥٨ هـ :
٧٧٧ — فلسن الظاهر يبرس الأول : التاريخ ومكان الضرب غير
واضحين (متحف دمشق) :
٧٧٨ — ٧٨٠ فلوس المنصور قلاوون (٩/٨) ٦٧ هـ : في متحف دمشق
فلس مؤرخ من سنة ٦٨٣ هـ (اللوح ١٠ — الرقم ٧٧٩) ،
وآخر من سنة ٦٨٥ هـ ولكن مكان الضرب غير واضح
عليها :
٧٨١ — ٧٨٣ فلوس الناصر محمد : ٧١٠ ، ٧٢٠ — ٧٢١ هـ ويوجد
عدد من الفلوس والتاريخ عليها غير واضح ،
٧٨٣ — ١ فلس مؤرخ من سنة ٣٧ (٧) هـ ، مكان الضرب عليه غير
واضح (متحف دمشق) (اللوح ١٠) .
٧٨٤ — ٧٨٥ فلوس الصالح اسمعيل : ٧٤٥ هـ (بالوغ ذكر ١٩٣ مثلاً) ،
٧٤٦ هـ :
٧٨٦ — ٧٨٩ فلوس الناصر حسن : ٧٥٩ — ٧٦٢ هـ .
٧٩٠ — ٧٩٢ فلوس المنصور محمد : ٧٦٢ — ٧٦٤ هـ .
٧٩٣ — ٨٠٤ فلوس الأشرف شعبان الثاني : ٧٦٤ — ٧٧٠ ، ٧٧٣ ،
٧٧٥ — ٧٧٨ هـ (اللوح ١٠ — الرقم ٧٩٤) ،

- ٩٧٥ -

٨٠٥ - ٨٠٧ فلوس المنصور علاء الدين على : ٧٧٩ - ٧٨١ - ٨٧٨٢

٨٠٨ - ٨٠٩ فلس الصالح حاجي الثاني : ٧٨٣ هـ . ذكر بالوغب

أوقيات تحمل هذا التاريخ أيضا ٧٨٤ هـ : Balog, 518

٨١٠ - ٨١٩ فلوس الظاهر برقوق ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٩١ ، ٧٩٦ ،

٧٩٨ - ٧٩٩ هـ :

٨٢٠ - فلس الأشرف برسبای : (؟) ٨٣ هـ : Balog, 730

٨٢١ - ٨٢٣ فلوس الأشرف إبنال : (؟) ٨٥ ، ٨٦٣ - ٨٦٤ هـ :

٨٢٤ - فلس الظاهر خشقدم : فلس ، التاريخ غير واضح عليه :

Balog, 797

٨٢٥ - فلس الناصر محمد الثاني : ٩٠٢ هـ : Balog, 859

٨٢٦ - فلوس الأشرف قانصوه الغوري : ٩٠٥ هـ (كتبته

٩٠ = Balog, 893) لكن قانصوه الغوري بدأ حكمه



سنة ٩٠٦ هـ .

٨٢٧ - ٨٢٨ ٩١٧ - ٩١٨ هـ : Balog, 894-895

* * *

النقود العثمانية المضروبة بمصر : عادت (مصر) وحلت محل (القاهرة)

على النقود العثمانية ، وليس هناك من مميزات هامة للنقود المضروبة في مصر .
فهى تتبع تقريباً النمط العام . ولما طال البحث ، فلما أترك لإنعام هذه الناحية
في المطول - إن شاء الله - .

* * *

أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء فكرة عن هذا الموضوع لغير
المختصين ، كما أرجو أن يرضى المختصون عن طريقة معالجة الموضوع بهذا
الشكل المختصر :

أتمنى من كل قلبى أن يكتب لهذه المدينة الازدهار والخلود على مر العصور ،
وأن تظل القلب النابض للعروبة والإسلام :

المختف الوطني بدمشق
عباسي - ذهب

٨٧



١٧٥ هـ

١٢



١٧٦ هـ

١٣



١٩٨ هـ

١٩



١٧٧ هـ

١٤



٢٠١ هـ

٢٨



١٩٩ هـ

٢١



٢٠٠ هـ

٦٨



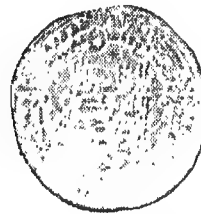
اللوحة ١ -

المحف الوطني بدمشق
طولوني - عبيدي - أخشيدي

د هب A



طولوني ٥٩١ هـ
١٠٣



طولوني ٤٧٧ هـ
٨٩



عبيدي ٤٧٢ هـ
١١١



عبيدي ٣٠٧ هـ
١١٦



أخشيدي ٣٢٢ هـ
١٤٣



النوع - ٢

المتحف الوطني بدمشق
طولوني - عباسي - اخشيدي

فضة - R



طولوني ٥٢٧ هـ
١٨٢



عباسي ٥٢٩ هـ
١٨٧

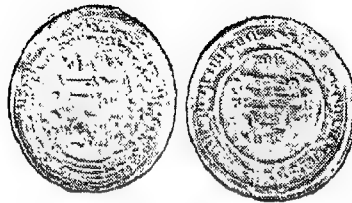


عباسي ٥٢٨ هـ
١٨٦



عباسي ٥٣٢ هـ

١٨٨



اخشيدي ٥٣٢ هـ
١٨٩



٥٣٢ هـ

١٨٩

اللوخ - ٣

١٨١

(٦٣)

المتحف الوطني بدمشق
فلسطين - ذهب

٨٧



٣١٨ هـ

٢٢١



بمادنا لاخر (كدا)

٣٦٠ هـ

٢٢



٣٩٦ هـ

٢٢١



٤١٣ هـ

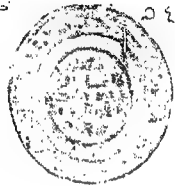
٢٥٥



نحاسي مدني

٤١٨

٤٣٣ هـ



٤٢٠ هـ



اللوحي - ٤

٩٨٣

المخف الوطني بدمشق
فاطمي - زنكي - ذهب

AN



د ٥٠٠
٣٢٤



د ٥٠٠
٣٢٠



لمعز بن الفاضل
د ٥١٨
٣٩١



د ٥٠٠
٣٥٠



ANS



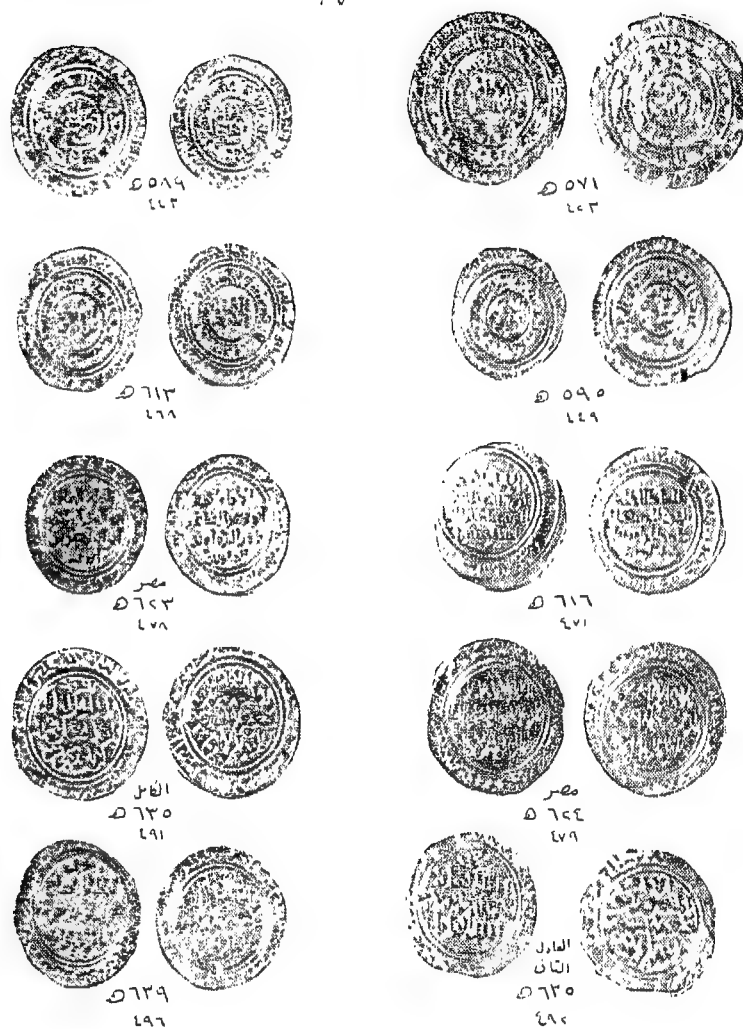
محمود بن زنكي
د ٥٦٩
٤٠١

اللو ح - ٥

٩٨٥

المتحف الوطني بدمشق
أيوبي - ذهب

AV



اللوحة - ٦

المتحف الوطني برشق

مملوكي - بحري

ذهب - N



٥٦٨(?)
٥٦٥ - ٥٦٢



٥٦٦
٥٦٣



٥٦٩(?)
٥٦٦ - ٥٦٣



٥٦٩
٥٦٦



٥٧٢
٥٦٩



٥٧٤
٥٦٤



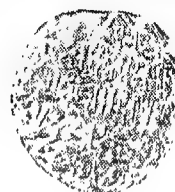
٥٧٦
٥٦٦



٥٧٧
٥٦٢

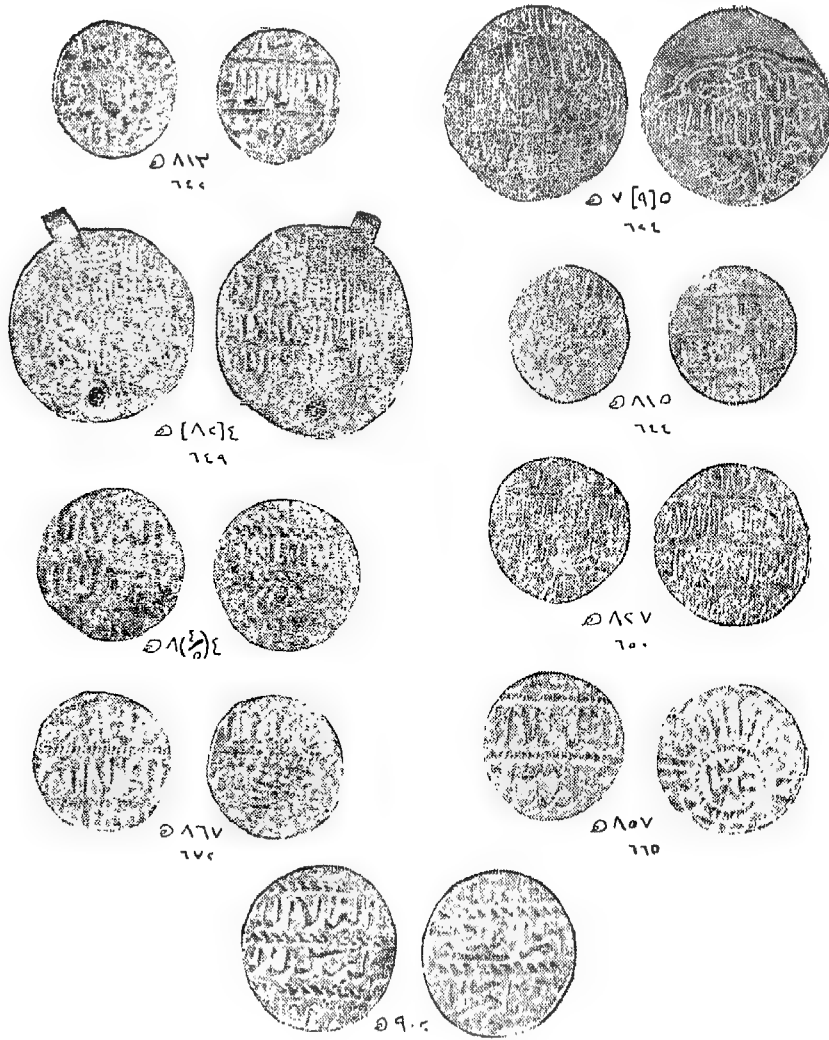


٥٧٨
٦١٢



اللو ح - ٧

المتحف الوطني بدمشق
ملوكي - برج
ذهب A/



الوع - 8

المتحف الوطني بدمشق
أيوبي - مملوكي
فضة R

صلاح الدين



٥٥٨٦
٥١٠



أيوبي

فضة R
مملوكي
بحري



٥٦٥٥
٦٩١



٥٦٥٤
٦٩٧



٥٦٥٧
٧٠٠



٥٦٥٦
٦٩٩



٥٦٥٩
٧٠٤



٥٦٥٨
٧٠٢



٥٦٦١
٧١٤



٥٦٦٨
٧١٣



الوع ٩ -

المتحف الوطني بدمشق
مملوك

فضة AR

بحري



٧٦٦
٧٤١



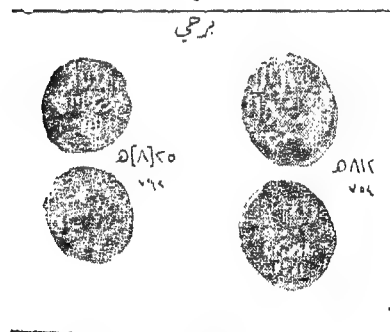
٧٦٧
٧٤٢



٧٦٨
٧٤٣



٧٦٩
٧٤٤



بحري

٧٦٩
٧٤٤

٧٦٩
٧٤٤

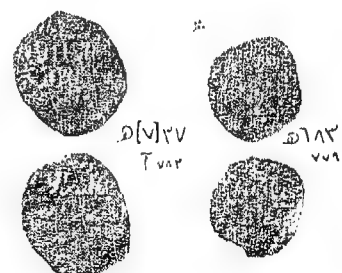


٧٦٩
٧٤٤

بحري : خاس



٧٦٩
٧٤٤



٧٦٩
٧٤٤

٧٦٩
٧٤٤

اللوحة - ١٠

مُجْتَوَيَاتُ الْكِتَابِ

صفحة

الدكتورة سعاد ماهر

أستاذة الآثار الإسلامية بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة

في العصر الفاطمي ٥١٩

الأستاذ سعد الخادم

الأستاذ بالمعهد العالي للتربية الفنية - وزارة التعليم العالي .

بعض إيصالات من التجار وأرباب الحرف في القرنين

السابع عشر والثامن عشر (ملخص) ٥٥٣

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك ٥٦٣

الأستاذ سليمان مصطفى زيبس

دار الآثار - بتونس

المسألة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقتها مع

الخارج في عهد الفاطميين ٥٧٧

صفحة

الدكتور صموئيل ستيرن

كلية أول سولز - جامعة أوكسفورد - إنجلترا

القاهرة كمركز للحركة الإسماعيلية (ملخص) ٦٩٩

الدكتور عبد الحميد يونس

وكيل وزارة الثقافة لشئون الثقافة الجماهيرية

القاهرة في الأدب الشعبي ٦٠٥

الدكتور عبد الرحمن زكي

أمين عام الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

إمتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك

(٩٦٩ - ١٥١٧ م) ٦١٧

الأستاذ عبد الرؤوف يوسف

أمين أول متحف الفن الإسلامي - القاهرة

دراسة في الزجاج المصري ٦٤٥

الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ كرسى التاريخ الحديث - جامعة الأزهر

دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان

الحكم العثمانى ٦٦٥

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ الأدب العربى بجامعة بودابست - سابقا - المجر

القاهرة مدينة النهضة الأدبية العربية ٧٢٧

صنفية

الدكتور عبد الكريم رافق

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب - جامعة دمشق

ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن

السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر ومغزاها ٧٤٥

الأستاذ عثمان الكعاك

محافظ المكتبة القومية - تونس

مسلك القاهرة ٧٧٧

الدكتور عثمان أمين

رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب (سابقا) جامعة القاهرة

وأستاذ زائر بكلية الآداب - جامعة الخرطوم

جمال الدين الأفغانى فى القاهرة ٨٣٣

الدكتورة عفاف لطفي السيد

الأستاذة الزائرة بمركز دراسات الشرق الأوسط جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس

الأسس الإجتماعية والإقتصادية التي قامت عليها

جماعة العلماء في القرن الثامن عشر (ملخص) ٨٤٩

الدكتور فرانسیسکو جابر ییللی

رئيس قسم الدراسات العربية

جامعة روما - إيطاليا

قاهرة الناصر خسرو (ملخص) ٨٥٣

— ١٠٠٠ —

صفحة

الأستاذ ك. ا. س. كريزويل

الجامعة الأمريكية - بالقاهرة

تشييد مدينة القاهرة (ملخص) : : : : : ٨٦١

الدكتورة كريستل كيسلر

الأستاذة بمركز الدراسات العربية . الجامعة الأمريكية القاهرة

عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة (ملخص) ٨٦٥

الدكتور كلود كاهن

الأستاذ بجامعة السربون بباريس - فرنسا

تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين

(ملخص) : : : : : : : : : : : ٨٦٩

الدكتورة كليليا سارنلي نشركو

الأستاذة بمعهد الدراسات الشرقية نابولي - إيطاليا

زيارة الرحالة العربي الأندلسي "الشهاب أحمد المجري"

لمدينة القاهرة في القرن السابع عشر (ملخص) : : : : : ٨٧٣

الدكتورة ماريا نالينو

معهد الدراسات الشرقية - روما - إيطاليا

مصر في يوميات مارين سانودو (ملخص) : : : : : ٨٧٧

صفحة

الدكتور مايكل روجرز

الأستاذ المساعد بمركز الدراسات العربية - الجامعة الأمريكية - القاهرة

دلائل على وجود علاقات بين المغول والمماليك

(ملخص) ۸۸۳

محجوب بن میلاد

أستاذ بكلية الآداب - جامعة تونس

إسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية ٨٨٧

الأستاذ محمد أبو الفرج العش

المحافظ الرئيسي للمتحف الوطني بدمشق

مصر - القاهرة، على النقود العربية الإسلامية : : : ٩٠٥

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٢٠ لسنة ١٩٧١

(مطبعة دار الكتب ١١ / ١٩٧١ / ٢٠٠٠)
